The Man Booker Prize 2018

50

الرواية الحائزة
على مان بوكر 2018
وجائزة دبلن الدولية



آنا بيرنز

مِلكمَن

رواية

INTERNATIONAL DUBLIN LITERARY AWARD 2020

@ketab_n

ترجمة : ريوف خالد

مراجعة : أحمد حسن المعيني



مِلْكَمَن

رواية

آنا بيرنز

ترجمة: ريوف خالد

تحرير: أحمد حسن المعيني





مِلْكَمَن

مِلْكْمَن / رواية

تأليف: آنا بيرنز

ترجمة: ريوف خالد

تحرير: أحمد حسن المعيني

الردمك: 978-603-91686-3-8

رقم الايداع: 1443/1028



دار أثر للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الدمام

تلفون: 00966549966668

الموقع الإلكتروني: www.darathar.net

البريد الإلكتروني: info@darathar.net

إلى كيتي نِكِلْسِن، وكلير دِمند، وجيمس سمِث

مقدّمة المترجمة

وُلدت آنا بيرنز في «بلفاست» بأيرلندا الشمالية عام 1962، ونشأت في حيّ «آرْدوين» الكاثوليكي في الفترة التي عُرفت بسنوات «الاضطرابات – The Troubles». في عام 1987م انتقلت إلى لندن لدراسة اللغة الروسية، لكنها لم تنهِ دراستها. نشرت ثلاث روايات ونوفيلا، وقد فازت روايتها الأولى «لا عظام» بجائزة «وينيفرِد هولتبي» عام 2001م، وتتناول فيها نشأة فتاة في بلفاست أثناء فترة الاضطرابات. أما روايتها «مِلْكْمَن» فقد حصدت عدة جوائز أهمها جائزة «المان بوكر» عام 2018م، وجائزة «دبلن الأدبية» عام 2020م، بالإضافة إلى جوائز أخرى. وبذلك تكون آنا بيرنز أول فائز بجائزة المان بوكر من أيرلندا الشمالية.

وُصفت رواية «مِلْكْمَن» بأنها رواية صعبة، ليس فقط بسبب فقراتها الطويلة التي تمتدّ إلى صفحات، ولا الجمل الطويلة الاستطرادية التي تنزع فيها إلى تراكيب لغوية غير معهودة تغزل بداياتها مع نهاياتها بسلسلة من الجمل الاعتراضية التي تتخللها جمل اعتراضية أخرى، بل كذلك لأنّ آنا بيرنز تستخدم مفردات قديمة بتهجئة قد تصل إلى القرن السادس عشر، وقد يُعزى ذلك إلى اهتمام الشخصية الرئيسة في الرواية بالأدب القديم، كما تستخدم دلالات لم تعد متداولة، أو على الأقل لم تعد متداولة على نطاق واسع، إذ يقتصر استخدامها على مناطق محدودة في بلفاست بين فئات عمرية محددة.

تدور أحداث الرواية في سبعينيات القرن العشرين، خلال فترة «الاضطرابات» في أيرلندا الشمالية (التابعة لبريطانيا)، حين اندلعت الحرب الأهلية بين القوات الكاثوليكية (مناوئي الدولة في هذه الرواية) والجيش الجمهوري الأيرلندي (جيش بلد ما وراء الحدود) من جهة، والقوات البروتستانتية (مناصري الدولة) وشرطة أيرلندا الشمالية (شرطة الدويلة) الموالية لبريطانيا (بلد ما وراء البحر) من الجهة الأخرى. وقد شهدت هذه الحرب الدموية مواجهات واختطافات وتفجير مجمّعات تجارية ومرافق حيوية وسيارات مفخخة، امتدت منذ اندلاعها في 1968 وحتى «اتفاقية بلفاست» عام 1998. وقد ذهب ضحية هذه الأحداث أكثر من (3.55) قتيل و(45.000) جريح.

الفصل الأول

في ذلك اليوم الذي وضع فيه فلان الفلاني مسدسًا على نهدي ودعاني بالقطّة ثم هدّدني بالقتل، مات الحلّاب. كانت فرقة اغتيالات تابعة للدولة قد أردته قتيلًا ولم أكترث لمقتل هذا الرجل. لكنّ الآخرين اكترثوا، ومن بينهم أشخاص «يعرفونني كشخص يرونه فحسب ولا يتحدثون إليه»، وكنت قد أصبحت أحدوثة جرّاء شائعة أطلقوها، أو على الأرجح أطلقها الصهر الأول، تقول إنني أبادل هذا الحلّاب الغرام، وإنني في الثامنة عشرة وهو في الحادية والأربعين. كنت أعرف عمره، لا لأنه قُتل وذكرت وسائل الإعلام ذلك بعد مقتله، لكنّ حديثًا دار فيما مضى بين أرباب الشائعة قبل أشهر من مقتله مفاده أنّ سن الحادية والأربعين مع سن الثامنة عشرة أمر مثير للاشمئزاز، أنّ فارق عمر قدره ثلاث وعشرون سنة مثير للاشمئزاز، إضافةً إلى أنه متزوج ولا يبدو أنه انساق لخديعتي، بناءً على إفادة العديد من الناس الخفيّين ممّن أخذوا يراقبونني من بعيد. وقد بدا أنّ تلك العلاقة الغراميّة مع الحلّاب ذنبي أنا. لكنني لم أكن على علاقة بالحلّاب. لم أكن معجبة بالحلّاب حتى، بل فزعة ومشوّشة من ملاحقته إياي وسعيه إلى علاقة غرامية تجمعنا. لم أكن أستلطف الصهر الأول أيضًا، الصهر الذي من سلوكيّاته القهرية اختلاقُ القصص عن حيوات الآخرين الجنسية. عن حياتي أنا الجنسية. عندما كنت أصغر، وأنا في الثانية عشرة من عمري، يوم ظهر مع انهيار أختي الكبرى عقب هجر حبيبها على مر سنوات إثر خيانته لها، وقد كانت مشوّشة آنذاك فاصطادها، ثم حبّلها هذا الرجل الجديد وتزوجا فورًا.

منذ اللحظة الأولى التي التقاني فيها وجّه إليّ تلميحات بذيئة - عن فرجتي، ذيلي، صندوقي، مرطباني، مقطعي، متقابلاتي، قبلتي - يستخدم كلمات، كلمات جنسيّة لم أكن أفهمها. كلمات يعرف أنني لم أفهمها، لكنّي أعي بما يكفي لأدرك أنها ذات مدلولات جنسية، فكان يتلذذ بذلك. آنذاك كان في الخامسة والثلاثين. الثانية عشرة والخامسة والثلاثون، هذا أيضًا فارق مقداره ثلاث وعشرون سنة.

وهكذا أخذ يلمّح، وشعر أنّ من حقه أن يلمّح بينما لم أقل أنا شيئًا؛ إذ لم أعرف كيف أردّ على هذا الشخص. لم تكن تعليقاته هذه تظهر أثناء وجود أختي في الحجرة أبدًا. ويبدو كلّما غادرتْ أختي الحجرة كأنّ مفتاحًا يُدار في داخله. لكنّ الإيجابي في الأمر هو أنني لم أشعر بأيّ تهديد جسدي من طرفه. ففي ذلك الزمان وذلك المكان كان العنف هو المعيار الأساسي عند الجميع للحكم على من حولهم، وقد أدركتُ من فوري انتفاء ذلك العنف، كما أدركت أنه لا يتصرف من هذا المنطلق. ورغم ذلك ففي كل مرة كان يدفعني طبعه الاقتناصي هذا إلى أن أتجمّد في مكاني. كان خسيسًا، أما هي فقد كانت تعاني من حملها واستمرار حبّها لرجلها، الذي أحبّته على مدى طويل، وإنكارها ما فعل بها؛ فلم تكن تصدّق أنه لم يعد يشتاق إليها، والحال أنه كذلك. فقد أصبح يواعد امرأة أخرى. لم تكن ترى هذا الرجل الموجود هنا، هذا الرجل الذي يكبرها وقد تزوجته بالرغم من أنها لا يمكن أن تتقبله لفرط شبابها وتعاستها وهيامها بغيره. كففتُ عن زيارتها رغم حزنها لأنني لم أعد أطيق كلماته وتعابير وجهه. ظلّ يحاول ستّ سنوات أن يقترب مني ومن أختيّ الأكبر مني، في حين أنّ ثلاثتنا - تصريحًا وتلميحًا، بتهذيبٍ وبذاءة - قد صددناه. والحلّاب أيضًا مثله، غير مرحّب به، غير أنه أكثر خطورة وإرهابًا، إذ ظهر هكذا فجأة من العدم.

لم أعرف حلّاب من يكون، إذ لم يكن حلّابنا، ولا أعتقد أنّه كان حلّاب أحد. فلم يكن يستقبل طلبات الحليب، وليست له صلة بالحليب. لم يجلب حليبًا قط، إضافة إلى أنه لم يكن يقود شاحنة حليب، بل سيارات، سيارات متنوعة، في الغالب سيارات برّاقة، رغم أنه لم يكن هو نفسه برّاقًا. ومع ذلك كله، لم أفطن له هو وسياراته إلا عندما بدأ يظهر فيها أمامي. ثم أتى بسيارته الفان - الصغيرة، البيضاء، العادية. فقد رآه الناس يقود تلك السيارة عدة مرات من وقت لآخر.

ظهر في أحد الأيام يقود واحدة من سياراته باتجاهي فيما كنت أمشي وأقرأ «آيفانهو». عادةً ما كنت أقرأ كتبًا وأنا أمشي. لم أكن أرى مشكلة في هذا الأمر لكنه أصبح شيئًا آخر يضاف إلى قائمة الأدلة التي تدينني. «القراءة أثناء المشي» كانت قطعًا في تلك القائمة.

«أنتِ ابنة آل فلان، أليس كذلك؟ والدكِ فلان، صحيح؟ إخوتكِ فُل وفُل وفُل وفُل كانوا يلعبون في فريق الهيرلي[1]. اركبي. سأوصلك».

قالها بنبرة عابرة، وباب الراكب ينفتح. جفلتُ من قراءتي. لم أسمع صوت السيارة وهي قادمة. كما لم أر من قبل هذا الرجل الجالس خلف مقودها. كان مائلًا، ينظر إليّ، مبتسمًا ودودًا خدومًا. لكني آنذاك، وقد كنت أبلغ الثامنة عشرة، كُنت أُستنفر مباشرة من صفات «المبتسم والودود والخدوم». ليس للأمر علاقة بالتوصيل ذاته؛ إذ جرت العادة هنا أنّ يتوقّف من يمتلك سيارة ويعرض التوصيل على المشاة القادمين أو الخارجين من المنطقة، فلم تكن السيارات دارجة آنذاك، أما المواصلات العامة فكانت تنسحب وتعود

(*) جميع الحواشي من وضع المترجمة ما لم يذكر غير ذلك.

(1) الهيرلي لعبة أيرلندية تشبه الهوكي، تُلعب بمضرب أقصر ذي لوح بيضاوي عريض.

من حينٍ لآخر جرّاء الذعر من حوادث التفجيرات والاختطافات. وأما الطواف لاصطياد الفتيات عند الأرصفة فربما كان مصطلحًا معروفًا، لكنه لم يكن ممارسة تُلاحظ، وبالتأكيد لم أصادف شيئًا كهذا. على كل حال، لم أكن أرغب في التوصيلة. إذ كنت على وجه عام أحب المشي، المشي والقراءة، المشي والتفكير، ومن ناحية أخرى لم أكن أرغب في ركوب السيارة مع هذا الرجل على نحو خاص. رغم أنني لم أعرف كيف أقول هذا؛ فالرجل لم يكن فظًا، كما أنه يعرف عائلتي باسمها، وأسماء ذكورها، ومن ثمّ فمعاملته بفظاظة ليست واردة بما أنه لم يكن فظًا. لذا تردّدت، أو تجمّدت، وهذا في حدّ ذاته فظاظة. قلت: «أنا أمشي، أنا أقرأ»، ورفعت الكتاب، كأنّ «آيفانهو» سيفسّر مسألة المشي، أو سيفسّر ضرورة المشي. قال: «بإمكانك القراءة في السيارة»، ولا أذكر بم أجبت على هذا. أخيرًا ضحك وقال: «لا بأس. لا تقلقي. استمتعي بكتابك». ثم أغلق باب السيارة ومضى.

ورغم أنّ هذا هو كل ما حدث في المرة الأولى، إلا أنّ شائعةً سرَت في المنطقة. جاءت الأخت الكبرى للقائي لأنّ زوجها، الصهر الذي يبلغ الآن الحادية والأربعين، قد أرسلها. جاءت لتُعلمني بأمر الشائعة وتحذّرني. قالت لقد شوهدتْ وأنا أتحدّث مع هذا الرجل.

فقلت: «اغربي عن وجهي. ما معنى كلامكِ هذا، **قد شوهدت**؟ من الذي رآني؟ زوجكِ؟».

قالت: «من الأفضل لكِ أن تسمعي كلامي». لكنني لم أستمع، بسببه وبسبب معاييره المزدوجة، وبسبب تقبّلها لهذه المعايير. لم أدرك أنني كنت ألومها، بل وطالما لمتها على تلميحاته المستمرة. لم أدرك أنني كنت ألومها على الزواج منه رغم أنها لم تكن تحبّه ولم تستطع أن تحترمه بأي شكل من الأشكال، إذ لا بد أنها كانت تعرف عن خياناته، فكيف لها ألاّ تعرف؟

حاولتْ أن تواصل نصحها لي بأن أتأدّب، وتحذيري من إساءتي لنفسي، ومن نوعية الرجال الذين أمضي وقتي معهم. لكني لم أعد أحتمل. اشتطتُ غضبًا وبدأت أشتم أكثر، ولما كانت لا تطيق الشتائم فقد كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لإخراجها من الغرفة. ثم صرختُ من نافذتي خلفها قائلةً إن كان ثمة ما يود هذا الجبان قوله لي فليأت ويقوله بنفسه. كان هذا خطأً: أن أنفعل، أن أُرى وأُسمع فيها أنا منفعلة وأصرخ من النافذة، تجاه الشارع، وقد تركت نفسي تغرق في اندفاعها. عادةً ما أتمكن من ردع نفسي عن الوقوع في هذا. لكني كنت غاضبة. كنت محمّلةً بغضبٍ شديدٍ تجاهها لأنها الزوجة الصاغرة، لأنها تنفّذ طيلة الوقت ما يقوله بحذافيره، ومحمّلة بغضب شديد تجاهه جرّاء محاولته إلقاء سفالاته علي. كنتُ أستشعر عنادي وهو يتشكّل، وبدأتْ تتصاعد لديّ نبرةُ «ليس من شأنك». لسوء الحظ كلّما حدث هذا يتملّكني تمرّد أهوج، وأرفض أن أتعلم من التجربة، فأصبح كمن يجدع أنفه نكايةً في وجهه. أما الشائعة التي تدور حولي أنا والحلّاب فقد تجاهلتُها، ففي هذه المنطقة دائمًا ما يكون الفضول الجمّ حاضرًا تجاه شؤون الجميع. تندفع الأقاويل، تتراجع، تأتي، تذهب، ثم تنتقل إلى الهدف التالي. لهذا لم أكترث بأمر العلاقة الغرامية مع الحلّاب. بعدها ظهر مجددًا. هذه المرة راجلًا حين كنتُ أجري في الحديقة ذات السدَّين المائيين العلوي والسفلي.

كنت بمفردي ولم أكن أقرأ هذه المرة، فأنا لا أقرأ أثناء الجري البتّة. هكذا خرج من العَدم وأصبح بمحاذاتي، أي من العدم حقًا لأنه لم يظهر إلا في تلك اللحظة. فورًا صرنا نجري معًا وبدا كأننا كنّا دائمًا ما نجري معًا ففزتُ ثانية، إذ إنني أفزّ مع كل مواجهة، ما عدا المواجهة الأخيرة التي سوف تجمعني بهذا الرجل. في البدء لم يرتم بكلمة، ولم أستطع أن أرتم بكلمة. ثم تحدّث كمن يستأنف محادثة، دائمًا ما بدا حديثه كأننا كنا قبله في منتصف الحديث.

كانت كلماته مقتضبة ومتقطعة قليلًا بسبب سعة خطواتي في الجري، وهي عن مكان عملي. فهو يعرف عملي - يعرف مقرّه، وطبيعته، وعدد ساعاته، وأيامه، وحافلة الثامنة وعشرين دقيقة التي أستقلها إلى وسط البلدة للعمل كل صباح حين لا تكون مُختطفة. ذكر أيضًا أنني لا أستقل هذه الحافلة حين أعود إلى بيتي. هذا صحيح. ففي كل يوم من أيام العمل، سواءً أكان الجو صحوًا أم ماطرًا، سواءً أكان ثمة إطلاق للنيران أم قنابل، هدنة أم شغب، أفضّل أن أعود إلى البيت ماشية وأنا أقرأ أحدث كتبي. وهو دائمًا كتاب من القرن التاسع عشر إذ لم أكن أحب كتب القرن العشرين لأنني لم أحب القرن العشرين. أظن الآن، بالنظر إلى الماضي، أنّ هذا الحلّاب كان يعرف كل هذا أيضًا.

تحدّث بينما كنّا نجري بمحاذاة السدّ العلوي. وثمة سدّ أصغر قرب ملعب الأطفال في الجهة السفلية. كان هذا الرجل ينظر إلى الأمام فيما يتحدّث إليّ، ولم يستدر نحوي مرةً واحدة. خلال هذا اللقاء الثاني لم يسألني سؤالًا واحدًا، ولم يبد عليه أنه يريد أي استجابة. وهذا لا يعني أنني كنت قادرة على إبداء استجابة واحدة. فقد كنت ما أزال عالقة في سؤال «من أين ظهر؟». ولِمَ كان يتصرّف معي كأنه يعرفني، كأننا نعرف بعضنا البعض، فيما لم يكن أحدنا يعرف الآخر؟ لماذا يتظاهر بأنني أرحّب به بجانبي في حين أني كنت لا أرحّب به؟ ولماذا لَم أستطع أن أتوقف عن الجري وأخبر هذا الرجل أن يدعني وشأني؟ وباستثناء «من أين أتى؟» لم تدر هذه الأفكار الأخرى في بالي إلا لاحقًا، ولا أعني لاحقًا أي بعد ساعة، بل أعني بعد عشرين سنة. في ذلك الوقت، في الثامنة عشرة من عمري، وقد نشأتُ في مجتمع نَزِق تنصّ قواعده الأساسية على أنه إن لم يكن ثمة لمسة جسدية عنيفة حطّت عليكِ، ولا إساءة لفظيّة صريحة قد وُجّهت إليكِ، ولا نظرات تهكمية على مقربة

منكِ، فلم يحدث شيء، وكيف لشيء غير موجود أن يجعلكِ تحت التهديد؟ في الثامنة عشرة لم يكن لدي الفهم الكافي لمعرفة ما يمكن أن يُعدّ انتهاكًا. كنت أحمل شعورًا أو حدسًا أو شيئًا من الاشمئزاز تجاه بعض الأوضاع والأشخاص، لكنني لم أدرك أنّ الاحتكام إلى الحدس والاشمئزاز ممكن، لم أدرك أن لي الحق في ألّا أحب هذا وألّا أُضطر إلى تقبّل أي أحد وكل أحد يقترب مني. أقصى ما كان يمكنني فعله في تلك الأيام هو الرجاء بأن يسرع الشخص المعني ويقول ما يعتقد - أو تعتقد - أنه ودود وخدوم بقوله، ثم يذهب، أو أذهب أنا بتهذيب وعجلة، حالما أستطيع.

عرفتُ بعد هذا اللقاء الثاني أنّ الحلّاب منجذب إليّ، ولهذا يقدم على بعض الخطوات نحوي. أدركت على الفور أنني لم أحب انجذابه إليّ ولم أبادله ذلك الشعور. لكنه لم يقل أية كلمات صريحة لتطوير هذا الانجذاب. كما أنه حتى ذلك الوقت لم يطلب مني أي شيء. ولم يلمسني لمسة جسديّة. لم يكن حتى هذا اللقاء الثاني قد نظر إلي. إضافةً إلى أنه يكبرني، يكبرني بكثير، فتساءلتُ في نفسي ما إذا كنتُ أسأت فهمه وأنّ الوضع ليس كما أتخيّل. وإن تحدثنا عن الجري، فقد كنا في مكان عام. كان ذلك المكان نهارًا عبارة عن حديقتين فسيحتين متداخلتين، أما ليلًا فيغدو مكانًا خطيرًا، رغم امكانيّة أن يصبح خطيرًا خلال النهار أيضًا. لم يكن يروق للناس أن يعترفوا بخطورته أثناء النهار إذ يريدون مكانًا واحدًا على الأقل يمكنهم الذهاب إليه. وبما أنّ تلك الأرض لم تكن ملكًا لي فقد كان من حقه الجري فيها بقدر ما كان من حقي أن أجري فيها، بقدر ما كان يشعر الأطفال في السبعينيّات أن لهم حق شرب كحولهم فيها، وبقدر ما سوف يشعر الأطفال الأكبر منهم قليلًا في الثمانينيّات بأنّ من حقهم استنشاق الغراء فيها، وتمامًا مثلما سيحقن الأكبر منهم سنًا في التسعينيات أنفسهم بالهروين فيها، ومثلما كانت تختبئ قوات

الدولة فيها آنذاك لتصوير مناوئي الدولة. كانوا يصوّرون أيضًا شركاء المناوئين المعروفين وغير المعروفين، وهو ما حدث للتوّ فعلًا. فقد صدرتْ «تكتكة» مسموعة فيما كنا نجري أنا والحلّاب بجانب شجيرة، شجيرة كنت قد ركضتُ بجانبها عدّة مرات دون أن تصدر منها «تكتكات». أدركتُ حينها أنها صدرت بسبب الحلّاب وارتباطاته، وأعني بقولي - «ارتباطاته» أي صِلته، وأعني بقول - «صِلته» أي بالنشاط الثوري، وأعني بقولي «النشاط الثوري» كونه مناوئًا عدوًا للدولة، نتيجة للمشكلات السياسية في هذه المنطقة. هكذا إذن جرى تصنيفي آنذاك في مكانٍ ما، في صورةٍ ما، بصفتي شريكةً مجهولةً سابقًا، لكنني أصبحت الآن معروفة بالتأكيد. لم يعلّق هذا الحلّاب على «التكتكة» رغم استحالة ألّا يكون قد سمعها. تعاملت معها بحثّ الخطى لإنهاء جولة الجري هذه، وبالتظاهر بأنني أنا كذلك لم أسمع «التكتكة».

أبطأ من سرعته، أبطأ تمامًا، حتى صرنا نمشي. ليس لقلةٍ في لياقته البدنية، بل لأنه لم يكن عدّاءً. لم يكن مهتمًا بالجري. وكلّ ذلك الجري بجانب السدَّين حيث لم أره يجري من قبل قط لم يكن من أجل الجري ذاته. أدركت أنّ كل هذا الجري كان من أجلي. تظاهرَ بأنّ الإبطاء كان لأجل التريّض مشيًا، لكنني كنتُ أعرف التريّض جيدًا وأدرك أنّ المشي أثناء الجري ليس تريّضًا. لم أستطع قول هذا، على أية حال، إذ لا يمكن أن أكون أكثر لياقة من هذا الرجل، ولا يمكن أن أكون أكثر معرفة بنظامي من هذا الرجل، لأن تنشئة الذكور والإناث هنا لم تكن تسمح بهذا. فنحن في أرض «أنا ذكر وأنتِ أنثى». على هذه الأرض ثمة ما يُسمح قوله لفتى إذا كنتِ فتاة، أو لرجل إذا كنتِ امرأة، أو لرجل إذا كنتِ فتاة، وثمة ما لا يباح لكِ قوله، رسميًا على الأقل، أو ليس في الفضاء العام على الأقل، أو ليس عادةً على الأقل. هنا

حيث لا تهاون مع الفتيات إذا ما أُذِنَّ بعدم الإذعان للذكور، بعدم الإقرار بتفوق الذكور، أو إذ تمادين إلى ما هو أبعد وعارضن الذكور. الخلاصة أنه لا تهاون مع الأنثى المشاكسة، المعتدّة بجنسها، شديدة الثقة بنفسها. بالطبع لم يكن كل الفتية والرجال هكذا. بعضهم كان يضحك ويجد أنّ الرجال المهانين مضحكون. هؤلاء من يعجبونني، وشِبه الحبيب واحد منهم. ذات مرة كنتُ أحدّثه فضحك وقال: «بالتأكيد تمزحين. لا يمكن أن يكون الأمر بهذا السوء. أم أنه كذلك حقًا؟». حدّثته بأمر الفتية الذين أعرف كم يحتقرون بعضهم، لكنهم اتحدوا في غضبهم من جرأة باربرا سترايزند[1]، والفتية الحانقين على سيغورني وِيفر لقتلها ذلك المخلوق الغريب في الفيلم الجديد حين لم يكن أي من الرجال في الفيلم قادرًا على قتله[2]، والفتية الذين ثاروا على كيت بُش لأنها تتشبه بالقطط، وثاروا على القطط لأنها كالإناث، رغم أني لم أخبره بأمر القطط التي يُعثر عليها ميتة ومشوّهة على المداخل حتى قلّ عدد القطط في مقاطعتنا. وانتهيت إلى القول بأن فريدي ميركوري ما يزال يحتفظ بشعبيّته ما دام ينكر أنه فاكهيّ[3]، الأمر الذي جعل شبه الحبيب يضع إبريق قهوته - هو وصديقه الطاهي، فقط، من بين كل من عرفتهم يمتلكون أباريق قهوة - ثم جلس وواصل الضحك.

---

(1) ممثلة أميركية، والإشارة على الأرجح إلى فيلم «The Owl and the Pussycat» والملصق الإعلاني للفيلم الذي رفضت العديد من المؤسسات الإعلامية حينها عرضه.

(2) فيلم «Alien»، إنتاج عام 1979م.

(3) فريدي ميركوري فنان بريطاني، والدلالة المقصودة من كلمة فاكهيّ «fruity» أو «طريّ» نسبة إلى الفاكهة في الأصل هي أنه مثليّ الجنس أو ناعم متأنث. وهي لفظة عامية يمكن أن تكون محايدة أو مهينة، حسب السياق.

كان هذا «شبه حبيبي الموشك على سنة تقريبًا» الذي كنت ألتقيه في ليالي الثلاثاء، وأحيانًا في ليلة الخميس، وأقضي معه أغلب ليالي الجمعة إلى السبت، وكل ليالي السبت إلى الأحد. أحيانًا تبدو هذه المواعدة بيننا كما لو كانت مواعدة مستقرة. وفي أحيان أخرى لا تبدو مواعدة على الإطلاق. كان هناك قليلون من طرفه يرون أننا حبيبان متناسقان، لكنّ الأغلبية كانت ترى أننا من فئة الحبيبَين غير المتناسقين، أي الحبيبين الذَين قد يلتقيان بانتظام ولكنهما غير مناسبَين لعلاقة دائمة. كنت أود أن نكون حبيبين حقيقيَّين وأن نتواعد رسميًا وقد صرّحت بهذا في وقتٍ ما لشبه الحبيب، لكنه قال لا، كما قال إنّ هذا ليس صائبًا، وإني نسيتُ فلزم عليه أن يذكّرني. قال إننا ذات مرة حاولنا، فكان فتاي الدائم وكنتُ فتاته الدائمة، وكنا نتواعد ونرتّب أمورنا ونمضي في علاقتنا قدمًا نحو غاية مستقبلية، مثلما يفعل الحبيبان الحقيقيّان، لكنني أصبحتُ غريبة الأطوار. وقال إنه هو أيضًا أصبح غريب الأطوار، لكنه لم يسبق أن رأى فيّ قبلها ذلك القدر الكبير من الخوف. وفيما كان يتحدث، تذكرت بضبابيّة شيئًا مما كان يرويه. لكنّ جزءًا مني تساءل ما إذا كان يختلق كل هذا. قال إنه اقترح من أجل ما كان بيننا أن لا نعود فتاة دائمة وفتى دائمًا، فقد كان الأمر في رأيه مقتصرًا على محاولتي «الحديث عن المشاعر». ولمّا كان الحديث عن المشاعر يثير هلعي، فقد كنتُ أتحدث عنها أقلّ مما يفعل، لا بد أنني لم أصدق أيًا من هذا الذي قاله، غير أنه ألحّ بأن نعود إلى مساحة الاشتباه، حيث لا نعرف ما إذا كنّا نتواعد أم لا. ففعلنا وقال إنني هدأتُ حينها وإنه هو أيضًا قد هدأ.

ولأنها كانت بلاد «الذكور والإناث» الرسميّة، وما يمكن أن تقوله الإناث وما لا يمكن أن تقوله أبدًا، فلم أقل شيئًا عندما قيّد الحلّاب حرّيتي في الجري، ثم أبطأه، ثم أوقفه. ومرة أخرى، لم يبد فظًا، على الأقل ليس عن

قصد، فلم أستطع أن أكون فظة وأواصل الجري. عوضًا عن هذا، سمحت له بإبطائي، سمحت لهذا الرجل الذي لم أرغب في وجوده بقربي. وفي هذه اللحظة قال شيئًا عن مشيي حين لا أجري، وكانت تلك كلمات وددتُ أنه لم يتلفظ بها أو أنني لم أسمعها إطلاقًا. قال إنه قلق، وإنه غير مطمئن إلى ما أفعل، ومع ذلك لم ينظر إليّ حتى تلك اللحظة. قال: «لست مطمئنًا إلى هذا الذي لا يُعدّ جريًا، من كل هذا الذي لا يُعد مشيًا. تقومين بالكثير مما لا يُعدّ جريًا أو مشيًا». مع هذا، ودون كلمة أخرى، انعطف عند إحدى الزوايا في طرف الحديقة واختفى. كالمرة الأخيرة مع تلك السيارة الاستعراضية، وهذه المرة أيضًا إثر ظهوره المفاجئ واقترابه وغطرسته إضافة إلى «تكتكة» آلة التصوير وازدرائه مشيي وجريي ثم رحيله المباغت مجددًا، داهمني شيء من الحيرة وكثير من الفزع. بَدَت صدمةً، نعم، لكنها صدمة من شيء لا بد أنه بالغ الصغر، تافه، بل أبسط بكثير من أن يكون صادمًا. ولكن بسبب هذا استطعت أن أستوعب بعد ساعات في المنزل أنه يعرف عملي. ولا أتذكر أيضًا كيف عدت إلى المنزل بعد ذهابه، ففي البدء حاولت أن أواصل الجري مجددًا، أن أستأنف جدولي، أن أتظاهر بأنّ ظهوره لم يحدث، أو لم يعنِ شيئًا على الأقل. هكذا زلّ انتباهي، لأنني كنت مشوشة، لأنني لم أكن صادقة، فانزلقتُ على ورقة مصقولة لّماعة كانت قد وقعت من مجلة ملقاة. صفحتان ممتدتان لامرأة بشعر أسود جامح، ترتدي جوربين طويلين، وحمّالات جوارب، وشيئًا آخر أيضًا، أسود اللون من الدانتيل. كانت تبتسم لي، منحنية ومنفتحة فيما كنت أفقد توازني وأنزلق، فرأيتُ مقطعها كاملًا وأنا أسقط على الطريق.

الفصل الثاني

في صباح اليوم التالي من جولة الجري تلك، عدلتُ عن طريقي المعهودة دون أن أفسّر الأمر لنفسي، وخرجتُ أبكر من المعتاد، فسلكتُ طريقًا أخرى إلى الجهة الثانية من الحيّ كي أستقلّ حافلة مختلفة إلى وسط المدينة. ثم عدت بالحافلة نفسها إلى البيت. كانت هذه أول مرة أتخلى فيها عن القراءة أثناء المشي. بل أول مرة أتخلى عن المشي نفسه. وكذلك لم أفسّر هذا الأمر لنفسي. حدث شيء آخر أيضًا، فقد تخلّفتُ عن جولتي التالية في الجري. كنت مضطرة، مخافة أن يظهر ذاك مرة أخرى في منطقة الحدائق والسدود. في تلك السنوات، إن كان المرء عدّاءً ماهرًا، أي عدّاء مسافات طويلة، ومن مذهبٍ معيّن ومنطقةٍ معيّنة في المدينة، فعليه أن يضع تلك المساحة كلّها تقريبًا في جدوله، وإلا سيجد نفسه في مسارٍ أبتر بسبب التقسيم الجغرافي الديني، ما يعني أنه سيظلّ يدور مرارًا وتكرارًا في حدود منطقةٍ صغيرة كي يحصل على تأثيرٍ موازٍ لتلك المساحة. ورغم أني كنتُ أحبّ الجري، إلا أنّ ضجري من فكرة الاكتفاء بمنطقة صغيرة، الأمر الأشبه بالدوران داخل عجلة، أثبت لي أنني لم أكن أحبه بما يكفي، لذلك توقفتُ عن الجري سبعة أيام. كما بدا أنني لن أعاود الجري حتى تملّكني الدافع القوي لأن أجري. وفي مساء اليوم السابع من انقطاعي عن الجري قررتُ العودة إلى الحدائق والسدود، على أن أصطحب الصهر الثالث.

الصهر الثالث لا يشبه الصهر الأول. كان يكبرني بعام، وقد عرفته منذ طفولتي: عهدته متطرفًا في ممارسة الرياضة، متطرفًا في العراك، متطرفًا في

جميع قدراته عمومًا. كنتُ أحبّه، ويحبّه الآخرون. يحبّونه فور أن يعتادوه. كما أنه لم يكن يثرثر عن الآخرين أبدًا، ولا يتلفّظ بتلميحات بذيئة أو سخريات جنسية أو غير جنسية البتّة. لم يكن يسأل أسئلة فضولية أو متحايلة. بل إنه نادرًا ما كان يسأل. أما عن عِراكه، فقد كان يعارك هذا الرجل الرجال. لم يعارك النساء قط. وأما اضطرابه الذهني، وفقًا لتشخيص الجماعة بالطبع، فيكمن في رأيه بأنّ النساء كائنات خارقة، ومقدامة، وملهمة، بل أسطورية حتّى. كان ينتظر منا أن نتجادل معه أحيانًا، ونعارضه تقريبًا، ورغم غرابة ذلك إلا أنه جزء من قواعده الراسخة فيما يتعلق بالنساء. فإن لم تكن المرأة أسطورية في سلوكها وما إلى ذلك، سيحاول أن يدفعها إلى هذا المنحى بنفسه، فيصبح مستبدًا قليلًا في سلوكه معها. ورغم انزعاجه من اضطراره إلى هذا الاستبداد، إلا أنه مؤمن بأنّ المرأة ما إن تستيقظ بفعل طغيانه المصطنع حتى تتذكر من تكون وتنتفض لكيانها الذي يتعدى الوجود الجسدي. كان بعض الرجال في المنطقة، وربما جميعهم، يقولون إنه «ليس متزنًا». أما النساء فاتفقن جميعًا على أنه «إن كان لا بد من اضطراب فيه، فمن الأفضل أن يستمر بهذه الكيفيّة». هكذا إذن، جرّاء قناعاته الغريبة حول كل ما يتعلق بالمرأة، حقّق شعبيّة عند النساء دون أن يدرك شعبيّته لديهن، فاكتسب شعبية أكبر. كما تأتّت فائدة كبيرة - أعني لصالحي في مشكلتي الحاليّة مع الحلّاب - عن رؤية كل نساء المنطقة الصهرَ الثالث بهذه النظرة. فلم يكن رأي امرأة واحدة أو اثنتين أو ثلاث أو حتى أربع كافيًا. لا تستطيع النساء في منطقتنا توجيه الرأي العام أو التأثير فيه بما يحقق مصلحتهن إلا إذا كنّ زوجات أصحاب السلطة أو أمهاتهم أو من تبّيعاتهم أو من معارفهم، وأعني بأصحاب السلطة رجال القوات شبه العسكريّة في منطقتنا. لكنّهن يكتسبن سلطةً حين يعملن بصوتٍ واحد. النساء المحليات ككل، على أيّة حال، يفعلن ما يؤمنّ به، إلا أنهن قد أبدين قوة جسيمة مفاجئة في حالات نادرة نهضن فيها متحدات ضد

بعض الظروف المدنية أو الاجتماعية أو المحلية، فأبدين قوةً هائلة مدهشة، لم تملك القوى الأخرى، الأقوى منها عادةً، إلا أن تأخذها بعين الاعتبار. وهكذا شعرت هؤلاء النساء بامتنان نحو بطلهنّ، أي أنهنّ سيدافعن عن هذا البطل. هذا حاله مع النساء، أما فيما يتعلق بحاله مع رجال المنطقة فقد كان معظمهم يحبّون الصهر الثالث أيضًا ويحترمونه، وهذا ربما ما أثار دهشتهم. فقد كان يمتلك المؤهلات الكافية بالنظر إلى قدرته الجسمانية وإدراكه الفطري لقواعد القتال الذكوري في المنطقة، غير أنّ ولاءه للنساء، في أعين الرّجال، قد بلغ مرحلة الجنون. كان مقبولًا عند جميع من في المنطقة على كافة الأصعدة، وكان مقبولًا عندي أيضًا، وقد اعتدتُ فيما مضى أن أجري معه إلى أن كففت ذات يوم. فطريقته المتطرفة في التمرين فاقت طريقتي التي كانت متطرفة أيضًا. كان يتّبع نظامًا صارمًا للغاية ودقيقًا وغير واقعي. مع ذلك قررتُ أن أستأنف الجري معه، ولكن ليس لأنّ الحلّاب سيرتعب من تفوقه الجسدي ويختبئ خوفًا من عراك الصهر الثالث معه. لم تكن للحلّاب فتوّة الصهر الثالث أو لياقته بالتأكيد، غير أن اللياقة والفتوة لا يُعتدّ بهما في كل أمر، وغالبًا ما لا يُعتدّ بهما في أي أمر حتّى. فالمرء ليس في حاجةٍ إلى الفتوة أو القدرة على الجري كي يطلق الرصاص مثلًا، وقد كنت واثقة من قدرة الحلّاب على إطلاق الرصاص بسهولة. غير أنّي كنتُ أعوّل على شعبية الصهر الثالث - ذلك التقدير العابر للحدود الجندرية الذي حظي به - كي يكون رادعًا للحلّاب. فإذا ما اعترض على وجود الصهر الثالث معي، لن يقف الأمر عند نبذه من الجماعة كلّها فحسب، بل سوف تتلطخ سمعته وهو واحد من كبار قادة المعارضة إلى درجة أنه سيُنبذ من كل المنازل الآمنة، ويغدو هدفًا سهلًا في درب مركبات الجنود العابرين، كأنه لم يكن قطّ من أبطالنا ذوي النفوذ، بل سيصبح مثل أي شرطيٍ من شرطة الدولة العدو، أو جنديٍ عدوّ من بلاد ما وراء البحر، أو حتى فردٍ من القوات شبه العسكريّة

المعادية المناصرة للدولة من الجانب الآخر. ولأنه معارضٌ يعتمد على الجماعة اعتمادًا كبيرًا، قلتُ في نفسي إنه لن يغرِّب نفسه من أجلي. هذا ما عزمتُ عليه آنذاك، وكانت خطة جيّدة اطمأننتُ إليها، وتحسّرت على أنها لم تخطر لي قبل سبعة أيام وستّ ليال. لكنها خطرت لي الآن، والخطوة التالية هي أن أشرع في تنفيذها. هكذا ارتديتُ بزّة الجري وانطلقتُ إلى منزل الصهر الثالث.

يقع منزل الصهر الثالث على الطريق المفضية إلى الحدائق والسدود، وحالما اقتربتُ ألفيتُ كل شيء مثلما توقعت: كان الصهر الثالث في حديقته، يرتدي بزّته الرياضيّة ويُجري تمارين الإحماء. كان يهتمل بشتائم لا أظنه يدرك أنه يقولها. كانت الشتيمة تنساب منه وهو يمرّن عضلة حماة ساقه اليمنى ثم اليسرى، ويظلّ يرددها وهو يمدّ العضلات النعلية اليمنى واليسرى. ولأنّ المدّ يحتاج إلى تركيز، فقد قال دون التفات ودون أية إشارة إلى وجودي، إذ عدتُ إلى الجري معه بعد انقطاعٍ طويل، «سنقطع اليوم ثمانية أميال». قلت: «حسنًا. فلتكن ثمانية أميال». فوجئ بردّي. يجدر بي العبوس ورفض الثمانية أميال رفضًا قاطعًا، كنت أعلم هذا، ثم بسلوك ألوهي متسلط، أحدد الأميال التي سنقطعها. لكنّ بالي كان مشغولًا بالحلّاب، لذلك لم أهتم بعدد الأميال التي سنقطعها. استقام ونظر إليّ: «هل سمعتِني يا صهرتي؟ قلت تسعة أميال. عشرة. سنقطع اثني عشر ميلًا». كانت هذه إشارة أخرى لي كي أختلف معه وأجد لحمًا أنهشه. عادةً ما أتجاوب معه، لكنني في تلك اللحظة لم يكن يهمّني حتى لو جرينا بطول البلاد وعرضها حتى تتهاوى سيقاننا مع أهون سَعلةٍ، حتى وإن كان سعال شخص آخر. مع هذا حاولت أن أجاريه. قلت: «أف! لا يا صهر. هذا كثير». قال: «بلى، بل أربعة عشر ميلًا»، فأدركتُ أنني لم أبذل جهدًا في المحاولة. الأسوأ هو أنّ موقفي غير الحازم، بالنسبة إلى طبيعة جنسي التي يتوقعها، أزعجه بالتأكيد. حدقني بتركيز، وربما تساءل ما إن كنت مريضة مثلًا. لم أعرف ما يدور في رأسه، لكنني كنت واثقة

من أنّ الأمر ليس له علاقة بنفوره أو عجزه عن الجري أربعة عشر ميلًا. كان عدد الأميال أتفه شيء في العالم بالنسبة إليه بالمقارنة مع حاجته إلى المماحكة، كما هي بالنسبة إليّ أيضًا في ظلّ انشغالي بأمر الحلّاب. لم أستأسد عليه، فطفق يقول: «لا أحاول أن أكون مستبدًا...»، وهذا يعني أننا بصدد هجمة ممتدة من جدال يقوم به طرف واحد، لكنّ زوجته، الأخت الثالثة، خطت خطوة الآن في درب الحديقة.

قالت الأخت ناخرةً: «الجري!». كانت تقف بسروالها الضيّق ونعليها المكشوفين، وقد صبغت كل ظفر من أظافر قدميها بلون مختلف. كان هذا قبل السنوات التي بدأ فيها الناس من غير المصريين القدماء يصبغون أظافر أقدامهم بألوان مختلفة. في إحدى يديها قنّينة «بوشميلز» وفي الأخرى قنّينة «بكاردي»، إذْ ما زالت تحاول أن تقرّر أي خمرٍ تبدأ به يومها. قالت: «ملعونان، مهووسان، متحكّمان، استحواذيّان، غريبا الأطوار، محتفظان شرجيًا[1]... أيُّ نغلٍ هذا الذي يخرج للجري؟». ثم ذهبتْ لأن خمسًا من صديقاتها ظهرن عند الباب. اثنتان منهن دفعتا بوابة المنزل الصغير الصغيرة بأقدامهن، فقد كانت أذرعهن محمّلة بقناني الخمر. عبرتْ الباقيات الوشيعة، وبعثرنها مجددًا. كانت وشيعة مصغّرة، بارتفاع قدم، «مزيّة» كما تقول أختي عنها، لكنها لم تتميّز لأن النّاس ينسون وجودها ويندفعون من خلالها أو يقعون عليها، وهذا ما كانت تفعله ثلاث من صديقاتها الآن. وعليه فقد

(1) Anally retentive: مستقاة من المصطلحات الفرويديّة التي وجدت طريقها إلى الاستخدام العام باختلاف في المعنى. إذ استخدمها فرويد ليصف سلوك الطفل إذ يمسك عضلته الشرجيّة في المرحلة الشرجيّة ليحتفظ بفضلاته أطول فترة ممكنة جراء أسباب عدّة، منها خوف الطفل من ردة فعل القائم برعايته. شاع المصطلح في الاستخدام العام ليشير إلى الشخص مفرط الدقة والقلق حول التفاصيل.

تكدّرت الخضرة ثانية، وفسد شكلها مرة أخرى فيما تلك النساء يجتزنها نحو العشب. سخرنَ منّا كالعادة قبل أن ينحشرن داخل المنزل الصغير. سخرن وهن يعبرن، فيما يلكزننا ونحن نمدد عضلاتنا، وهي عادتهن كلما مررن بنا ونحن في وضعيّة الإحماء. أخيرًا، شممت رائحة السجائر وسمعت الضحك واللغة البذيئة من صالة المنزل قبل أن يغلقن الباب الأمامي ونقفز نحن فوق الوشيعة لننطلق في جرينا. ومن بعيد سمعت أيضًا قرقرةَ شيء ينسكب من مسافة مرتفعة في كأس طويلة.

جريتُ بمحاذاة السدّ العلوي مع الصهر الثالث المستمر في شتائمه بهدوء مع نفسه. حدث هذا بعد سبعة أيام منذ آخر مرة جريت فيها بمحاذاة السدّ ذاته مع الحلّاب. كنت أترقب بحذرٍ مجيء الحلّاب رغم أني لم أرغب حضور ذلك الشخص في عقلي. أردتُ أن يحضر شبه الحبيب في ذهني، إذ طالما كان حاضرًا مسترخيًا فيه، حتى دفعه الانزعاج من الحلّاب إلى الخارج. كان يوم الثلاثاء وكنت سألقاه لاحقًا في ذلك المساء بعد أن أنتهي من جولة الجري هذه، وينتهي هو من سمكرة أحدث سيّاراته المتهالكة. أسمّي سيارته الحالية الرصاصيّة، أما هو فيسمّيها صفر - إكس - وشيءٌ ما الفضيّة. كان قد نحّى سيارته البيضاء التي سبق أن أصلحها ليستقل هذه الرصاصيّة المتهالكة ويشرع فورًا في إنعاشها، لكنني حين دخلتُ صالته يوم الثلاثاء الماضي كانت لديه سيارة مختلفة تمامًا على الأرضيّة. قلت «أتضع سيّارةً على السجّادة؟»، فقال «أجل، أليست رائعة؟» ثم قال إنهم جميعًا - يعني زملاء العمل - غمرتهم النشوة لأنها مركبة مميزة للغاية، أنتجها صانع سيارات طموح، وقد تُركت لدينا هكذا، في وسط المرآب، وسط حجورهم وأضاف بصوتٍ عال: «دون مقابل! لقاء لا شيء! لم يقايضوها بشيء! هل تصدقين؟ لم يطلبوا شيئًا، ولا حتى فاصوليا أو سجق!»، يعني أن أصحاب السيارة لم يطلبوا أي نقود،

ولم يريدوا مقابلها شيئًا. بدا مصدومًا فلم أتبيّن ما إذا كان الحصول على سيّارة الأحلام هذه أمرًا جيدًا أم سيئًا. كدتُ أستفهم لكنه لم ينته من كلامه بعد. قال: «قال الشخصان اللذان جلباها: يمكنكم أخذ موقدنا التالف، وثلاجتنا وعصّارة الملابس، وبعض السجّاد المهلهل الذي لا بأس به لكنه نتن قليلًا، اغسلوه ثم ضعوه في حمامكم. كما يمكنكم الحصول على كل الزجاج المحطم وطوبنا المفرّغ وأكياس الأنقاض لتشييد الأساسِ لدفيئة». ثم أضاف شبه الحبيب: «حينها اعتقدنا أن هذين العجوزين المسكينين يظنان أننا ساحة خردوات لا ميكانيكيّي سيّارات. ربّما ليس من الصواب أن نستحوذ على البلاور بنتلي منهما لأنهما مشوشان ذهنيًا ولا يدركان ما يفعلانه، وربّما لا يدركان أيضًا قيمة السيارة حتى في حالتها هذه. لكنّ بعضنا لكزوا البقيّة وهمسوا: لا تقولوا شيئًا. يريدان التخلّص منها، سنأخذها، لكنّ بعضنا الآخر تكلموا، وقد أعادوا صياغة ما يتعلق بالحالة الذهنيّة بلطف تجنبًا لإيذاء مشاعرهما بالطبع». قال إن الزوجين استدارا حينها وقالا: «أتقصدون أننا غبيّان؟ هل تقصدون أننا مساكين وما شابه؟ ماذا تقصدون؟»، ثم شرعا بالإهانة. «إن كنتم تظنون أننا مجنونان أيها الملاعين فسنغادر بأثاثنا الأبيض، وخردتنا، وألواحنا الخشبيّة، والبلاور بنتلي، وسجّادنا. سنغادر بكل خاماتنا الممتازة التي جلبناها لكم بنيّة حسنة. خذوها كلها أو دعوها، وانظروا إن كنّا نهتم». قال شبه الحبيب: «بالطبع أخذناها». حينها فرّقتُ شفتيّ لأسأل ما هي البلاور بنتلي، غير أنه استحوذ على الحديث مجددًا: «سيّارة سباق»، قال مفترضًا أنه سهّل الأمر علي. وهو ما لا يُسهّل عليّ الفهم عادةً، ليس عن قصَدٍ على أية حال، لكنه يسترسل كثيرًا رغم أنه يخطئ تقدير معرفة مستمعيه كلما تحدث عن السيّارات، وكنت أنا مستمعيه. كان يستمر في الحديث، يقدّم وصفًا تقنيًا مفصلًا بالشَرطة وعلامة الترقيم، وصفًا فائضًا عن الحاجة، مفيدًا بالتأكيد، لكنني أدركت أنه يستغل وجودي لفرط حماسه بالسيارة

وكنت الوحيدة في الحجرة. بالتأكيد ليست غايته أن أتذكر ما يقوله، تمامًا كما لم تكن غايتي قط أن يتذكر «**الإخوة كارامازوف**»، أو «**تريسترام شاندي**»[1]، أو «**سوق الأضاليل**»[2] أو «**مدام بوفاري**» لأنني في حماستي الشديدة أخبرته عنها ذات مرة. ورغم أن ما بيننا شبه علاقة لا أكثر، وليست علاقة التزام رسمية فعليّة تؤدي إلى مكانٍ ما، إلا أنّ كلينا مسموح له في لحظات النشوة أن يقدّم تقريرًا مفصّلًا عمّا فعله، فيما يبذل الآخر جهده ليفهم شيئًا منه على الأقل. هذا ولم أكن جاهلة تمامًا؛ فقد استطعت أن أدرك سعادته بما حصل في المرآب. كما أني أعرف أن البنتلي سيّارة.

ها هو ذا يهيم بها شغفًا، ينقر القطعة الموجودة على سجادة الصالة. يقف بجانبها، يرمقها، ترتسم على وجهه ابتسامة واسعة، يشعّ وهجًا. وهذا الذي يفعله - يثيرني، هكذا يثيرني، عندما يكون منهمكًا، على طبيعته، غير واعٍ بنفسه، فيما يعمل على الخرد القديمة، حينما يكتظ وجهه بالحُب والتركيز، محدثًا نفسه بأنّ السيارة المسكينة قد لا تتعافى مما تعرّضت له من مآسٍ ما لم يسمكرها بإخلاص. أمّا عندما يهزّ بعض الناس أكتافهم ويقولون في الحياة وعنها: «أوه، لا جدوى من المحاولة، غالبًا لن ننجح، فلماذا نحاول.. لا شيء لنا سوى الحسرة والخيبة»، يقول شبه الحبيب: «**حسنًا، قد تنجح المحاولة،**

---

(1) رواية «The Life and Opinions of Tristram Shandy, Gentleman» يشار لها اختصارًا «Tristram Shandy» للروائي الإنجليزي لورنس ستيرن. صدرت بالعربية عن دار العولمة. ترجمة حسن حجازي بعنوان «حياة السيّد النبيل ترايسترام شاندي وآراؤه» 2020م.

(2) رواية «Vanity Fair» للروائي الإنجليزي وليام ثاكري، صدرت مترجمة إلى العربيّة عام 2002 بعنوان «سوق الأضاليل» عن المكتبة الحديثة للطباعة والنشر، تلتها ترجمة سمير عزت نصّار في عام 2016 بعنوان «سوق الغرور» عن مركز الكتاب الأكاديمي.

أظن أنها ستنجح، دعونا نجرب». وحتى حين لا تنجح المحاولة فهو على الأقل لم يسلّم نفسه للمأساة دون أن يخطو أي خطوة. يعاود ثانية بعد أن يخرج من خيبته إذا لم ينجح، ينتقل مباشرة إلى الشيء التالي بحماسة متجدّدة، بمزاج «القدرة» حتى حين لا يقدر. كان ملتزمًا ومندفعًا ومليئًا بالفضول، وقد كان هكذا جرّاء الشغف والخطط والأمل، كان هكذا من أجلي. معي أيضًا، لم يكن محاذرًا بل شفّافًا، خالصًا من الخداع، يظهر على حقيقته دائمًا، دون أي من ذلك البرود والتحفظ والتصنّع. دون أي من التلاعب المؤذي، ذلك التلاعب الذكي أحيانًا، الوضيع دائمًا. لا تآمر ولا استغفال. لا يقترف هذه الأشياء، ولا يعبأ بها، وليس لديه أدنى اهتمام بها. يقول: «هذه تصرفات جنونيّة»، متجاهلًا أي مناورات جانبيّة لحماية قلبه. رغم هذا فهو قوي، وعفيف أيضًا. ليس فاسدًا في الأمور الصغيرة التي توقع في المفاسد الكبيرة. كان فريدًا. لذا انجذبتُ إليه. وقفتُ هناك، أتأمله وهو يتأمل سيارته، يجهر بانبهاره وتفكّره، فتبلّلت و—

«هل سمعتِ ما كنت أقوله؟». أجبت: «نعم، سمعت كل شيء. كنت تتحدث عن داخليّة السيارة».

كنت أعني القطعة التي على السجادة، لكنه قال إنه سيعيد حديثه، إذ من الواضح أنني لم أستوعب الأساسيات. عندها عرفتُ أنّ هذه القطعة الداخلية كانت في الواقع قطعة خارجية، وأنّ مكانها في مقدمة المركبة. قال أيضًا إنّ السيارة التي أُخذت منها هذه القطعة كانت خردة تمامًا عندما وصلت المرآب. «تخيّلي، كانت خَرِبة، مأساة، بسبب أحمقٍ فجّر المحرك لعدم تعبئته بزيت كافٍ. أجزاء أساسية مفقودة منها، التروس التفاضلية مفقودة، المكابس طارت مع الغطاء، تقريبًا كلها يا شبه الحبيبة، مأساة». لا يبدو لي في هذه القطعة ما يميّزها عن غيرها من القطع، لكنّ الذي فهمته هو أنّ هذه

السيارة مرغوبة بعض الشيء، سيارة تعود إلى بداية القرن العشرين، مُبهجة، جامحة، سريعة، ضاجّة، لا يسهل إيقافها. قال شبه الحبيب: «عصيّة على الاستعادة»، يعني أنه لا يمكن إصلاحها، مع ذلك كان يبتسم لها. قال إنه والآخرين، بعد جدال طويل ثم نزاع ثم تصويت في الأخير، قرروا تفكيك ما تبقى منها. لهذا اقتسمها الرجال مع شبه الحبيب بالقرعة التي جعلته يربح هذه القطعة الموجودة فوق السجادة، القطعة التي نقلته حاليًا إلى حالة جذل صرف.

قال: «إنه شاحن فائق»، فقلت «آها»، ثم قال «لا، لم تفهميني يا شبه الحبيبة. قلّة من السيارات لها شاحن فائق الآن، فهي تقنية متقدمة. لقد تحطمت فرص المنافسة، كله بسبب هذه» وأشار إلى القطعة الموضوعة على السجادة. كررتُ القول: «آها»، ثم تساءلتُ: «من أخذ مقاعد السيارة؟»، فضحك وقال: «سؤال في غير محله يا عزيزتي. قرّبي» ورفع أصابعه إلى قفا عنقي – يا إلهي! – كان هذا خطِرًا، دائمًا خطرًا. كلما كانت أصابعه هناك، بين عنقي وجمجمتي، أنسى كل شيء. لا الأشياء التي سبقتْ وضع أصابعه بلحظات قليلة فحسب، بل كل شيء: من أكون، وماذا أفعل، وكل ذكرياتي، كل شيء عن أي شيء، عدا أنني هناك، في تلك اللحظة، معه. ثم عندما يستمر في تمسيدها إلى النقرة، إلى تلك الانحناءة، ذلك القَذَال اللين تحت العظم الناتئ، فهذا أخطر. حينها تحديدًا، يتهاوى ذهني تدريجيًا جراء هذه اللذة والارتباك. أهجس في وقتٍ لاحق: أوه، ماذا لو بدأ في تمرير أصابعه هناك! سأتحوّل إلى هلام، أي أنه سيضطر إلى تطويقي بذراعيه كي يقيني من الوقوع، وهذا يعني أنني سأسمح له بتطويقي، رغم أننا حينها، في غضون لحظات، سنتهاوى معًا على الأرض.

غمغم قائلًا: «انسي المقاعد، المقاعد مهمة لكنها ليست الأهم. هذا هو

المهم». لم أتبيّن هل ما يزال يتحدث عن السيارة أم أنه قد وجّه اهتمامه إليّ. شككتُ في أنه يتحدث عن السيارة، ولكنْ في بعض اللحظات لا يمكن للمرء أن يتوقف لكي يجادل، لذا قبّلنا بعضنا وقال إنه مثار وسألني إن كنت مثارة، فقلت ألا ترى كيف أبدو، فغمغم قائلًا ما هذا فغمغمتُ قائلة ماذا، فحرّك شيئًا في يدي كنت قد نسيت وجوده فتبيّن أنه «معطف» غوغول، قال إنه سيضعه هناك، أي على الطاولة، وهو ما حدث، وقد أوشكنا على الانتقال إلى السجادة أو الأريكة، أو إلى أي مكان حتى تناهت إلى سمعنا الأصوات. كانت تقترب من مدخله، ثم تبعها خبطٌ على بابه.

ثمة رجال على عتبة الباب، من جيرانه. جاؤوا إلى المنزل إثر خبر البلاور بنتلي الذي قد شاع، إذ لم يصدّقوا الخبر وأرادوا رؤيتها بأنفسهم. ونظرًا إلى عددهم وإصرارهم، لا يملك المرء أن يقول: «أنا مشغول قليلًا، أيمكن ألا تعودوا أبدًا؟». بدا أنّ توقهم إلى رؤيتها أشد وأعلى وأعصى على التأجيل من توقنا إلى بعضنا. وفيما كانوا يعلّلون حضورهم، استمروا في الدخول وهم على العتبة، واقفين على رؤوس أصابعهم، يحاولون أن يطاولوا أكتاف شبه الحبيب لكي يسترقوا نظرة إلى المركبة الثمينة. اضطر شبه الحبيب للتوضيح - إذ يعرف الجميع أنه يبقي السيارات ضمن نطاق ممتلكاته ويدخلها داخل ممتلكاته - أنه في هذه الحالة لا يملك السيارة كاملة بل شاحنها الفائق وحسب، غير أنّ حتى هذا في حدّ ذاته يُعدّ أمرًا رائعًا مذهلًا. قطعًا أرادوا الدخول حينها، لبرهة وحسب، بقدر ما يكفي لإلقاء نظرة على هذا الأمر العجيب غير المسبوق. أدخلهم فتراخى حماسهم إلى الصمت فيما ملأوا الصالة، محدّقين في القطعة الموضوعة على الأرض بإكبار.

قال أحدهم: «خارقة! [Extraordinary]»، ولا بد أنها كانت كذلك إذ إن هذه المفردة ليست في معجم جماعتنا. وكالأخريات من شبيهاتها

مثل «مدهشة! [Marvellous]، جبّارة! [Tremendous]، أخّاذة! [Stupendous]، خلّابة! [Stunning]، باهرة! [Sensational]، ممتازة! [Topper]، فائقة! [Super]، ساحرة! [Crikey]، مدمّرة! [Smashing]، ماسيّة! [Diamondiferous]، عجيبة! [Bizarre]، سابقة! [Exceedingly]. بل حتّى «على أية حال [However]» و«بالتأكيد [Indeed]» بالرغم من أنني والأخوات الصغيرات نقول «However» و«Indeed»، إذ كانت هاتان مفردتين انفعاليتين، فيهما الكثير من الصبغة والتعالي والاستعراض الزائد؛ فهما أساسًا من لغة بلد «ما وراء البحر» المثاليّة، متضمنة «مثاليّة [Quintessential]» لتصبح واحدة من مفردات تلك اللغة. تقريبًا لم تُستخدم هذه المفردات قط هنا دون تعكير صفو سكّان المنطقة أو إحراجهم أو إفزاعهم، لهذا قال أحدهم: «اللعنة، من كان يتوقع أن نقول هذه الكلمات!» فتلطّفت الأجواء، وصارت أكثر انسجامًا مع حدود التسامح المجتمعي هنا. أعقب هذا تسامحٌ مجتمعي أكبر، تبعتْه خبطات أخرى على النوافذ وطرقات على الباب. سرعان ما اكتظ المنزل وحُشِرتُ إلى الزاوية بينما يتحدّث مهووسو السيارات عن سيارات كلاسيكية، وسيارات تاريخية، وسيارات غامضة، وسيارات استعراضية، وسيارات عالية القدرة، وسيارات ذات تصاميم رقيقة انسيابية، وسيارات بالكثير من البهرجة أو سيارات خشنة لا يجب أن تُهذّب بل تبقى دائمًا كما يفترض أن تبدو. رافقه حديث عن القدرة الحصانية أيضًا، والخطوط التمييزية، والدويّ الصاخب، والتسارع الأساسي والتسارع الزائد، وحديثٌ عن فقد المكابح (وهو أمر جيد) والهزّات الفانتازيّة (وهي أمر جيد آخر) التي تجعلك ملتصقًا بمقعدك. حينها استمر الحديث دون إشارة إلى أنه سيتوقف، فنظرتُ إلى الساعة وتساءلتُ أين غوغولي؟ لكنني لم أحتمل الأمر حين انتقلوا إلى الأصوات الخشنة، إلى الأسماء العددية تلك، الأسماء

الألفا - رقمية مثل «إن واي إكس»، «كي جي بي»، «زي بي اتش زيرو ناين في فايف أي جي»، وكان شبه الحبيب نفسه مولعًا بهذا النوع من الأسماء. فحملتُ نفسي و«المعطف» إلى خارج الحجرة. فيما كنت أهمّ بمواصلة طريقي، توقفتُ بسبب أحدهم. شابٌ من جيران شبه الحبيب أوقفنا جميعًا بتعليقٍ ملقى بانتقائيّة أثناء لحظة صمت في هذا الصراع من أجل فسحة هواء. قال هذا الجار: «لا بأس يا جار أن تمتلك هذه القطعة التي تُسمى كلاسيكية وما إلى ذلك، وليست هذه محاولة مني كي أستظرف ولكن». هنا كانت كل الأنفاس محبوسة، وترقّب الجميع اقتراب الهجمة، فجاءت: «من منكم في المرآب حينها حصل بالقرعة على القطعة التي تحمل ذاك العَلَم؟».

في ذلك الزمان وذلك المكان، عندما يتعلق الأمر بالقضايا السياسية التي تتضمن القنابل والأسلحة والموت وبتر الأعضاء، يقول الناس العاديّون: «جانبهم هو الذي فعل هذا» أو «جانبنا هو الذي فعل هذا» أو «دينهم فعل هذا» أو «ديننا فعل هذا» أو «هم فعلوا هذا» أو «نحن فعلنا هذا»، فيما كان المعنى الفعلي هو: «مناصرو الدولة فعلوه» أو «مناوئو الدولة فعلوه» أو «الدولة فعلته». قد نحاول من وقت إلى آخر ونقول: «المناصرون» أو «المناوئون» إذا ما حاولنا أن نبسّط الأمر للغرباء، إذ إننا لا نهتمّ حينما يكون الأمر بيننا. أصبح التقسيم بين «نحن» و «هم» طبيعةً فينا، وهي كافية، وشائعة، ومألوفة. فهي كلمات مرتجلة لا تحتاج إلى جهد للتذكر والجدال، دون عباراتٍ ملطَّفة أو دبلوماسية لائقة. يفهم الجميع باتفاق غير معلن - لا يلاحظه الغرباء ما لم يوافق خبراتهم الخاصة - أنّ أحدنا هنا إذا ما استخدم الضمائر العشائريّة «نحن» أو «هم»، «دينهم» أو «ديننا»، فالمقصود ليس جميعنا ولا جميعهم دون الحاجة إلى قول هذا التفصيل، فالأمر أشبه بالمسلّمة. هذه هي الخلاصة. سذاجة؟ تقاليد؟ واقعية؟ ألأن الحرب مستمرة والناس

على عجلة؟ اختر ما تشاء رغم أنّ الأخيرة هي الإجابة. في تلك الأيام الأولى، الأيام الأحلك من الأيام حالكة الظلمة، لم يكن ثمة وقت لمراقبي المفردات، ولا للصوابيّة السياسيّة، ولا لحركات الحرص على الصورة الذاتية وأسئلة «هل أكون شخصًا سيئًا لو...» أو «هل أُعتبر متعصبًا إذا...» أو «هل أكون داعمًا للعنف إذا...» أو «هل سيرونني داعمًا للعنف إذا...» والجميع، الجميع، كان يدرك هذا. كما يدرك كل الناس العاديين أيضًا أساسيات ما هو مسموح وما هو محظور، ما هو محايد ويمكن أن يكون خالصًا من المرجعيات، والعرف، والشعارات والمظاهر. ومن أفضل الطرق لوصف هذه القواعد والأنظمة غير المعلنة أن نلتفت قليلًا إلى موضوع الأسماء.

فالزوجان القيّمان على الأسماء المحظورة في منطقتنا لم يقررا بمفردهما حظر هذه الأسماء. بل روح الجماعة العائدة إلى زمن سحيق هي التي قررت أي الأسماء متاحة وأيها محظورة. كان القيّمان على القائمة الممنوعة كاتبًا وكاتبة، يصنّفان تلك الأسماء ويعمّمانها ويحدّثانها دوريًا على أكمل وجه، لكنّ الجماعة ترى أنّ هذا الأمر أصابهما باضطراب ذهني. كان جهدهما غير ضروري؛ لأننا نحن السكان نلتزم القائمة بالفطرة، ننصاع لها دون التعمق فيها. وهو غير ضروري أيضًا لأنّ هذه القائمة، قبل سنوات من ظهور الزوجين القائمين بالمهمة، كانت تستمر وتتجدد ذاتيًا. كان للزوجين اللذين حرساها اسم رجل عادي واسم امرأة عاديّة، غير أنّ الجماعة أطلقت عليهما اسمَي نايجل وجيسن، وهي مزحة لم ينزعج منها هذان الزوجان لكرم أخلاقهما. الأسماء المحظورة كانت محظورة لأنها تميل كثيرًا إلى لسان بلد «ما وراء البحر»، وإن كانت بعضها لم تنشأ في ذلك البلد أصلًا، لكنّ شعب تلك الأرض قد تبنّاها وشاع استخدامها عندهم. كانت الأسماء المحظورة قد أصبحت مطعّمة بقوّة التاريخ وسطوته، بالصراع العتيق،

وبالأمور والفروض التي ألقيت منذ زمن طويل على بلدنا من ذلك البلد، بينما لم تعد الجنسية الأصلية للاسم مطروحة أبدًا. كانت الأسماء المحظورة: نايجل، جيسن، جاسبر، لينس، بيرسيفل، ويلبر، ولفرد، بيرغرن، نورمن، آلف، ريجنلد، سدرك، إرنست، جورج، هارفي، آرنلد، ويلبراين، ترسترام، كلايف، يوستيس، أوبرون، فيلكس، بيفيريل، ونستن، غودفري، هيكتور، كما أنّ هيوبرت، وهو قريب لهيكتور، غير مسموح به أيضًا. ولا لامبرت ولا لورنس أو هاورد أو لورنس بتهجئة مختلفة أو لايونيل أو راندولف، فكلها محظورة لأن راندولف مثله مثل سايرل مثل لومانت مثل ميريديث، وهارولد، وألجيرنون وبيفرلي. مايلز أيضًا لم يكن مسموحًا. ولا إيفلن أيضًا، أو آيفور، أو مورتيمر، أو كِيث أو رودني أو روجر أو إيرل روبرت أو ويلارد أو سايمن أو سير ماري أو زيبدي أو كوينتن، رغم أن كوينتن قد لا يكون محظورًا الآن بفضل المخرج الأميركي الشهير آنذاك[1]. أو ألبرت، أو تروي. أو باركلاي. أو إيريك. أو ماركس. أو سفتن. أو مارمادوك. أو غريفيل. أو إدغار لأن كل هذه الأسماء غير مسموح بها. كليفورد كان أيضًا اسمًا ممنوعًا. وليزلي أيضًا. بيفريل محظورٌ مرّتان.

أما أسماء البنات فكانت تلك التي من بلد «ما وراء البحر» مقبولة دائمًا، لأن أسماء البنات - ما لم تكن «موكب وأُبّهة»[2] - لم تكن تثير جدلاً من الناحية السياسية. لذا ففيها فسحة، دون مراسيم أو قرارات تسري عليها. أسماء الفتيات لا تعبّر ضمنيًا عن كراهية تاريخية عصيّة على النسيان، وذاكرة تعبيرية ممتدّة، كما هي الحال مع أسماء الأولاد غير المقبولة. ولكن إن كان المرء

(1) كوينتِن تارانتينو (Quentine Tarantino). (المحرر).

(2) «موكب وأُبّهة» عنوان سلسلة معزوفات عسكريّة إنجليزيّة من تأليف السِير إدوارد إيلغر، أخذت عنوانها من إحدى أبيات شكسبير في مسرحية «عطيل».

من أهل المذهب الآخر ومن سكّان «ما وراء الطريق» فسوف يسمح لنفسه بأسمائنا المحظورة كلها. لن يجافيه النوم جرّاء استخدام واحدة منها. بالطبع، لن يسمح لنفسه باستخدام اسمٍ دارج في جماعتنا يخلّف في جماعته ردة فعل نافضة للركبة موازية لردة فعلنا تجاه أسمائهم. هذا بالإضافة إلى روديرد، إدوين، بيرترام، ليتن، كثبرت، رودريك ودوق كذا وكذا التي كانت آخر الأسماء المحظورة في طرفنا وفي قائمتنا، وكان يحرسها نايجل وجيسن. غير أنه لم تكن ثمة قائمة للأسماء المسموح بها. فعلى الأهل معرفة ما هو مسموح بناءً على ما هو ممنوع. حين يسّمي المرء طفله، إذا ما كان جريئًا مغامرًا، طليعيًا، بوهيميًا، إذا كان لا يستشرف المستقبل ويريد أن يجرب اسمًا جديدًا لم يُعرف من قبل، حتى وإن لم يكن على القائمة المحظورة، فلن يعرف ما إذا كان قد اقترف هو وطفله خطأً إلا بعد فوات الأوان.

فيما يخص هذا المحيط النفسي السياسي، بنظام ولاءاته، وبمفهومه العشائري، بما كان مسموحًا وما كان ممنوعًا، فالمسائل لا تقف عند «أسمائهم» و«أسمائنا»، عند «نحن» و«هم»، عند «جماعتنا» و«جماعتهم»، عند «ما وراء الطريق» و«ما وراء البحر» و«ما وراء الحدود»[1]. والقضايا الأخرى كانت شبيهة بذلك أيضًا؛ فهناك برامج تلفزيونية محايدة قد تأتي من سكان «ما وراء البحر» أو سكان «ما وراء الحدود» لكنّ الجميع يشاهدها سواء في «هذا الطرف من الطريق» أو في «ذاك الطرف من الطريق» دون أن تثير التخوين في أيّ من الجماعتين. وثمة برامج قد يشاهدها طرف دون خيانة، بينما يكرهها ويمقتها سكان «ما وراء الطريق» على الطرف الآخر. ثمة مفتشون لتراخيص التلفاز، وإحصائيون، ومدنيون يعملون في أجواء غير مدنية، ومقدمو

(1) **ما وراء الطريق**: الجماعة البروتستانتية الموالية للدولة في أيرلندا الشمالية. **ما وراء الحدود**: جمهورية أيرلندا. **ما وراء البحر**: إنجلترا.

خدمات عامة قد يُرحب بهم في إحدى الجماعتين، بينما يُردَون قتلى إذا ما وطئت أقدامهم أرض الجماعة الأخرى. في المأكل والمشرب أيضًا. ثمة الزبدة الملائمة. الزبدة المكروهة. شاي الولاء. شاي الخيانة. توجد أيضًا «متاجرنا» و«متاجرهم». وأسماء الأمكنة. والمدرسة التي نلتحق بها. والصلوات التي نتلوها. والترانيم التي ننشدها. وكيفية نطق حرف «H»: هل «هيتش» أم «إيتش»[1]. وأين يعمل المرء. وبالطبع هناك مواقف الحافلات. ثمة واقع يقوم فيه المرء بتصريح سياسي أينما حل، أيما فعل، حتى لو لم يكن راغبًا في ذلك. هناك أيضًا ما يقوله مظهر الشخص، إذ كان يُعتقد أنّ بمقدور المرء أن يميّز من خلال المظهر فقط «صنف ما وراء الطريق» من «صنف هذا الطرف من الطريق». وهناك اختيار الجداريّات، والعادات، والصحف، والأناشيد، وأيام المناسبات، وجواز السفر، والعملة، والشرطة، والقوات المدنية، والجند، والقوات شبه العسكريّة. في حقبةٍ لا عفو فيها عمّا سلف تظهر أمثلة وتفاصيل دقيقة على الانتماء لا حصر لها. أما المحايد والمستثنى ففي المنتصف. وما حدث في منزل شبه الحبيب هو أنّ جاره قد صوّب سهمه على هذه القواعد والرمزية الحسّاسة، بحضور بقية الجيران.

***

إذن فقد أتى على ذكر العَلم، ومسألةُ الأعلام والشعارات فطرية وعاطفية؛ لأنّ الأعلام وُجدت لتكون فطرية وعاطفية - غالبًا ما تكون عاطفةً مَرَضية ونرجسية - وكان هذا الجار بسؤاله عن القطعة ذات العلم يقصد بالطبع علم

(1) كان الكاثوليكيّون في أيرلندا الشماليّة ينطقون الحرف الثامن من الأبجديّة الإنجليزيّة «H» على نحو مقارب لقول: «هيتش» بينما ينطقه البروتستانتيّون كما هو شائع على نحو مقارب لقول: «إيتش».

دولة «ما وراء البحر». العلم الذي كان في الوقت ذاته علم جماعة «ما وراء الطريق». فهو علم لا يلقى لدى جماعتنا ترحابًا وفيرًا. بل لم يكن علمًا مرحبًا به على الإطلاق بيننا. لم يكن ثمة أدنى ترحيب بذاك العلم في هذا الطرف من الطريق، ولا النز اليسير من الترحيب حتى. ما كنت أفهمه حينها، حيث لم أكن مهتمة بالسيارات لكني مهتمة بالأعلام والشعارات، أن تلك البلاور بنتلي الكلاسيكية العتيقة المصنوعة في دولة «ما وراء البحر» تأتي بطبعة علم تلك الدولة. وبقراءة ما بين السطور في تعليق جار شبه الحبيب، يتضح أنه كان يستنكر فعل شبه الحبيب، لا يستنكر مشاركته في قرعة قد يربح فيها القطعة ذات العلم وحسب، بل ما كان يفعله من الأساس، باشتراكه في قرعة ليربح أي قطعة - بعَلم أو دون علم - من منتجٍ يُعدّ رمزًا وطنيًا مرتبطًا بأمة «ما وراء البحر». تحدّث عن الظلم التاريخي، وعن التشريعات القمعية، والحدود المفروضة، ودعم الفساد. عن الاعتقال دون تهمة، وإعلان حظر التجوال، والسجن دون محاكمة، عن حظر الاجتماعات، ومنع التحقيقات. عن الانتهاكات الممأسسة للسيادة والأرض، والتعاملات الصادمة. قال الكثير باسم القانون والنظام. وبالرغم من كل ما قاله حينها فلم يكن هذا ما يقصده. ما يقصده من وراء تأويله لمسألة العَلم أن ثمة تمهيدًا للمسألة الأخرى التي تدور حول كون علم «ما وراء البحر» هو نفسه علم «ما وراء الطريق». كنّا نرى أهل «ما وراء الطريق» أكثر انتماءً إلى بلد «ما وراء البحر» من أهل بلد «ما وراء البحر» أنفسهم، فالعَلم محل تقدير عندهم، خفّاقًا هناك على سَوارٍ متجاورة محتشدًا أكثر مما يمكن له أن يحتشد في الأرض التي جاء منها أصلًا. أن يجيء العلم من هذه الجهة من الطريق - جهتنا - وأن يدخلها، فهو أمر مثير للشقاق، ويدلّ على خضوع غادر وخيانة مستهجنة، تجعل حتى المخبرين والمتزوجين من خارج الجماعة محترَمين مقارنة بمن يفعل ذلك. كان كل هذا جزءًا من المشكلات السياسية التي لم أرغب الدخول فيها. ولكن كم

كان مذهلًا أن تجد ذلك الكمّ الهائل من التلميحات التحريضية في تعليقات موجزة. كل هذا والجار لم ينته من كلامه بعد.

قال «لا أعني أكثر مما قلته، فلا تسيؤوا فهمي، ومن الواضح أنني أقول هذا بتواضع، ولا يعني هذا أنّ لي خبرة في رغبة المنافسة على أي شيء يخلّ بولائي لجماعتي، منافسة قد تتضمن ربح شيء عليه هذا العلم، ثم إحضاره إلى البيت، ثم الفخر بوجوده في منطقتي بدلًا من أن أخجل لامتلاكه في منطقتي. لست في موضع من يقدح في أي شيء أو أي شخص، ولا من يبذر بذور الضغينة. لست مؤلبًا متجاوزًا للأنظمة ولا محلّلًا لمآلات الأمور ولست خبيرًا حتى، لست مؤججًا ولا متزمتًا، في الحقيقة، رغم جهلي وحذري حينما أتردد في الجهر برأيي لكن...»، ثم أعاد كل ما قاله عن أنه لا أهمية لشهرة الشيء ذي العلم ولا مقدار تمنّي الناس أن يمتلكوه، إذ لن ينحطّ لدرجة أن يشرع عن امتلاك شارة اضطهادٍ كهذه، شارة مأساة وطغيان، دون التطرق إلى المرارة التي تخلفها إراقة ماء الوجه، ليس أمام دولة «ما وراء البحر» بقدر ما هو إراقةٌ لماء الوجه أمام جماعة «ما وراء الطريق». إنما الأهم من ذلك، كما قال، هو أنّ جَلْب أحدهم هذا العلم إلى منطقةٍ معارضة يمكن أن يعرّضه إلى الاتهام بالخيانة والوشاية. نعم، الأعلام عاطفية وراسخة إلى هذا الحد. هنا على الأقل.

هذا ما كان يلمّح له إذن: أنّ شبه الحبيب خائن، وعندها طفق أصدقاء شبه الحبيب يدافعون عنه. قالوا: «لا يملك القطعة ذات العلم. قطعة الشاحن الفائق هذه لا تحمل علمًا». كانوا غاضبين أكثر من كونهم رافضين ما قاله، بصرف النظر عن قلة احتمالية ظهور العلم في «هذا الطرف من الطريق» في «هذه الجهة من البحر». المشكلة هي أنّ تلك الأوقات كانت تنضح بجنون الارتياب. كانت أوقاتًا حَدِّيّة، أوقاتًا بدائية، يتوجس فيها

الجميع من الجميع. قد تحادث أحدًا محادثة مقتضبة لطيفة هنا، ثم تمضي وأنت تفكّر في أنها كانت محادثة لطيفة، تقول أجريت محادثة مقتضبة غير متحفظة هنا، إلى أن تستعيدها في رأسك لاحقًا. عندها تبدأ في القلق من قولك «هذا» أو «ذاك»، ليس لأنّ «هذا» و«ذاك» مثيران للجدل، بل لأنّ الناس متعجلون في رفع أصابع الاتهام، بإصدار أحكامهم، بتضخيم الأمور حتى في أوقات السلم، فيكون من الصعب في هذه الأوقات العصيبة منع أصابع الاتهام أو تلفيق الكلمات أو إطلاق الأحكام، فلا يتأتّى عنها جرح مشاعرك إثر اكتشاف حديث الآخرين عنك وحسب، بل يتأتّى عنها تأهّب أفراد مسلّحين يرتدون أقنعة البالاكلافا[1] أو أقنعة الهالوين للظهور في منتصف الليل على بابك. في تلك الأثناء أشار أصدقاء شبه الحبيب إلى الشاحن الفائق وكان من الواضح خلوّه من العلم. قالوا: «على كل حال، لا تحمل هذه السيارات أعلامًا دائمًا». وقال أحد الجيران مجازفًا – وقد كان شجاعًا مقارنةً بالآخرين، إذ شاع بينهم صمت مطبق على عكس حماسهم الأولي –: «وفوق ذلك، ألا يمكن أن يصبح من المقبول امتلاكها إن أخذنا في الاعتبار طبيعتها وندرتها عندما تربحها حتى مع وجود العلم عليها؟ ألا يمكن أن يكون من المقبول جلبها إلى البيت وتغطية العلم بملصق طائرة مثلًا، كملصق جولتن جوزيه أو ملصق **الفتاة التي لا ترتدي الكثير** لقاذفة قنابل سوبرفورترس بي 29، أو ملصق **قليلا من الدانتيل** لطائرة بي 17، أو ملصق ميني ماوس أو زيتونة أو كوكب بلوتو أو حتى صورة صغيرة لأمك أو صورة أكبر لمارلين مونرو؟». كان يحاول جاهدًا، هذا الدبلوماسي، مشددًا على الإشارة إلى تلك الاستثناءات، وتلك الإعفاءات، مشيرًا إلى الأفراد والحالات التي تسمح بالإعفاء من التعصب الأعمى والنرجسية والإقصاء. هؤلاء الأفراد هم

(1) أقنعة صوفية غالبًا، تغطي كامل الرأس والرقبة ولا تكشف إلا العينين والفم.

نجوم الروك، ونجوم السينما، ونجوم الثقافة، وأهل الرياضة، وذوو الشهرة الاستثنائية أو الإنجازات العليا. ألا يمكن أن يشتمل التصنيف العابر هذا أيضًا شاحن البلاور بنتلي الفائق؟ ألا يمكن أن تكون الرغبة والندرة كافية ليتاح جلب الشاحن الفائق، أم إنّ العلم رمز أكبر من أن يغضّ أحد القِسمَين - نحن في هذه الحالة - الطرف عنه؟

لم يكن يعرف الإجابة، وشعرتُ بعدم وجود من يعرف سوى شخص واحد. نظرتُ إليه. كان الجميع ينظرون إليه. قال: «مختصر قولي هو أنني لست متأكدًا من أنني سأستسلم وأرغب في قطعة من سيارة، بغضّ النظر عن تفرّدها، ما دامت تُعدّ مفخرتهم الوطنية، وما دامت تعني تذويب انتمائي لسيادتي ووطنيتي وهويتي الدينية، حتى لو كانت هذه السيارة بعينها لا تروّج تلك المقاصد في كل أنواعها وأشكالها. أنا مذهول من أن أحدًا من «طرفنا من الطريق» قد سمح لنزعة امتلاك أجزاء السيارات أن تتغلب على النفور الفطري من رمزية الجهة الأخرى وشاراتها. وإنْ سمع الفتيان المحليون بهذا - يعني المناوئين، أي أنهم سيسمعون حتمًا لأنه سيتولى مهمة إخبارهم جميعهم - فقد يلفي الشخص الذي جلب العلم نفسَه في مواجهة محاكمة شعبية هائجة. وماذا عن القتلى، كل أولئك الذين قتلوا حتى الآن في هذه المشكلات السياسية؟ أيكون موتهم عبثًا؟».

حين استمعتُ إليه شعرتُ بأن المرء إن كان مصمّمًا فبإمكانه أن يختلق جدلًا من أي شيء، وها هو ذا قد اختلق مشكلة أنّ من غير الطبيعي جَلْب ذلك العلم. كان محقًا، لم يكن طبيعيًا. إنما أعيد القول إنّ شبه الحبيب لم يكن قد جلبه أصلًا. أثناء كل ما قيل، لم ينبس شبه الحبيب ببنت شفة. حطّت على وجهه غيمةٌ، ظلالٌ، ومن النادر أن تجيء الظلال إلى شبه الحبيب. كان في نشاط وحركة ومرح دائم، ويُعدّ هذا بمثابة عامل جذب آخر لديه، تمامًا كما كنا منذ عشرين دقيقة، حين لم يكن في الحجرة سوانا. حينها كان مسرورًا بالشاحن

الفائق، وقد أبدى سروره، حتى لاحقًا مع هؤلاء الآخرين ما زال يبدي السرور، حتى وإن لم يكن بمثل تعبيره وفخره وانتشائه الذي شعر بالأمان كي يبديه أمامي في وقت أبكر. كان حذرًا معهم، ليس بغرض التهذيب والرزانة وحسب، ولكن اتقاء الضغينة التي تجعل الناس يتقصّدونك فجأة ويطلبون الانتقام منك لمجرد أنهم يريدون ذلك. كان زمن النصر، نعم، لكنه زمن التواضع مع النصر كذلك، وهو السبب وراء انخفاض المرح لدى شبه الحبيب مع جيرانه. استطعتُ أن أرى، بالرغم من هذا، عناده، العناد الذي يعاوده من وقت إلى آخر عندما يكون في صحبة أحدٍ لا يحترمه، وبالتالي لا يقدّم له تفسيرات. خطر لي أنه أحمق في هذا الموقف، بالنظر إلى جدّية قضية الأعلام والشعارات، ولهذا سررتُ عندما تحدّث أصدقاؤه. لم يكن بطبيعته نزّاعًا إلى الجدال، ولا ميّالًا إلى التعاطي مع الذهنية المشحونة. الحالات الوحيدة التي يغضب خلالها في الواقع ويدخل نفسه في مشاجرة حولها هي حينما يحطّ الآخرون من شأن الطاهي، أقدم أصدقائه من المرحلة الابتدائية. لكنه الآن ينظر إلى جاره الذي يسيء الأدب ويهزّ كتفيه، هذا القادم إلى منزل شبه الحبيب، داعيًا نفسه إلى المنزل مع الآخرين، ثم يتحدث هكذا، منتهكًا آداب الضيافة، مثيرًا زوبعة بسبب غيرته. لا غرابة إذن أنه تسبب لنفسه بلكمةٍ على أنفه مع بدء أسطوانة ثانية من قوله: «لست في موضع من يقدح». لَكَمه أحد أصدقاء شبه الحبيب، الصديق النزق الموصوف بحدة الطباع لمعرفة الجميع أنه يفتعل شجارات حتى على الأشياء التي يسعد بها. لكنّ الرجل الملكوم لم يقتص لنفسه، بل جرى خارجًا في واحدةٍ من فورات الأدرينالين، مخلفًا قوله بأن شبه الحبيب جلب العار لنفسه وللجماعة بذاك العلم. صرخ قائلًا بأنه لا يستبعد أن يكون لهذا التصرف تبعات. ثم اختفى. ارتطم عند العتبة بالطاهي الذي بدا متأهبًا وقد عجّل إلى الداخل، إذ وصل للتوّ إلى منزل شبه الحبيب بعد انتهاء عمله.

خيّم على الحجرة شعور مشؤوم رماديّ كريه لم يعترف به أحد. بات من المستحيل استعادة حالة الحجرة السابقة، فلم تعد كما كانت عليه، إذ تبدّلت الطاقة، وقد قضت الطاقة الجديدة الآن على حديث السيارات. ورغم محاولة القلّة، لم يستطع أحد أن يلتقط المحادثة من الأرض مجددًا. نظّف أقدم أصدقاء شبه الحبيب الحجرة في ثوان كعادته، وهو الطاهي، كان رجلًا شديد الحساسية حقًا. وهنا أعني حساسية محضة، حساسية متناهية، حساسية درامية، حساسية تشتدّ إلى ما لا حد له، فلا تتوقف حتى عند مئة درجة مئوية. كان منجرًّا، متجهمًا، وقب العينين، ومرهقًا على نحوٍ لا متناهٍ وهو على هذه الحال حتى قبل قراره أن يصبح طاهيًا. كما أنه لم يصبح طاهيًا بعد، رغم أنه يتحدّث عادةً عندما يشرب عن الالتحاق بمدرسة للطهو. في حياته العملية كان بنّاء آجر، وقد بدؤوا يطلقون عليه لقب الطاهي في مقارّ البناء من باب المزاح لولعه بالطهو، بينما لا يجدر بالرجل أن يولع بالطهو، والتصق به الاسم بعد ذلك. وهكذا جاءت بقية الشتائم: السخرية من ذوقه الرفيع، وتوجهه إلى السرير بكتب الطهو، وهَوَسه بطبيعة لب الجزر، وكونه مثل امرأة دقيقة مفرطة التهذيب. بالرغم من هذا، لم يكن بمقدور زملاء العمل هؤلاء معرفة ما إذا كانوا قد نجحوا في إزعاجه، لأنّ الطاهي يبدو منزعجًا بطبيعته، مهما كان الحال، منذ اللحظة التي يصل فيها صباحًا وحتى عودته إلى البيت مساءً. حتى قبل الالتحاق بالعمل، وبالعودة إلى أيام الدراسة، كان هناك صبية يرغبون في الشجار معه لأنه لا يبدو رجوليًا. بدا أنّ الشجار معه طقسٌ من الطقوس. وكان ذلك حدثًا متكررًا معتادًا، إلى أن ضمّه شبه الحبيب تحت جناحه ذات يوم في فناء المدرسة. لم يدرك الطاهي أنه أُخذ تحت جناح أحدهم ولم يفهم حينها، حتى بعد لكمات عديدة تلقاها، أنه بحاجة إلى ذلك. بعد أن تدخّل شبه الحبيب وأصدقاوه، نكص أولئك المتعطشون للعراك مع الطاهي. من وقتٍ إلى آخر، حتى الآن، يُلقي أحدهم فجأة ذلك السؤال ذا

الإيحاء الجنسي: «كيف هي خرشوفتك؟»، ثم يقع عراك عنيف. عندما أصل أحيانًا إلى منزل شبه الحبيب أجد الطاهي في المطبخ، بمفرده أحيانًا، ولكن غالبًا ما أجد شبه الحبيب بصحبته، يريه أحدث آثار جروحه الناجمة عن التنمّر على المثليين. ثمة رفضٌ للرجال الطهاة في منطقة شبه الحبيب نفسها، وأيضًا في منطقتي، خاصة طهاة المعجنات الصغيرة و«البيتي فور» والأشياء المبهرجة الناعمة التي يمكن وصفها بأنها «حلويات»، والتي كان الطاهي يصنعها، فهؤلاء الطهاة ليسوا مطلوبين ولا مقبولين اجتماعيًا. وعلى عكس الطهاة في مناطق أخرى من العالم، يمكن أن يعمل الرجل هنا طبّاخًا، غير أنه يستحسن أن يعمل طباخًا في القوارب، أو في معسكرات الاعتقال أو في بيئات أخرى مليئة بالرجال. وإلا فهو طاهٍ، أي لا بد أنه مِثليّ ينوي إغواء الذكور إلى حظيرة المثليين. لو أنهم موجودون حقًا، هؤلاء الطهاة، فإنهم نوع مختبئ، قلّة في عددهم، والطاهي - رغم أنه لم يكن مثلهم - هو الوحيد الذي أعرفه على امتداد مليون ميل. أضف إلى ذلك حدّته وحالته الانفعالية المركّبة التي يبديها دون خجل أو محاولة للاستفزاز أيضًا، من أجل أشياء سخيفة كأكواب القياس وملاعق القياس. عندما لا يكون على شفير انفعاله من أجل الطعام وأشياء المطبخ عامةً، فيمكن أن تراه - عادةً في وقت متأخر من الليل وكثيرًا في عطلة نهاية الأسبوع - منعزلًا في إحدى الزوايا يحمل شرابًا وهو يهمهم برقّة: «دبس الرمان، ماء زهرة البرتقال، كريمة الكراميل، كريب سوزيت، بُومب ألاسكا». فهو يتحدث عن الطعام، ويقرأ عن الطعام، ويعير شبه الحبيب كتبًا عن الطعام (وهذا ما يفقدني صوابي)، فيقرأها شبه الحبيب (كما يفقدني هذا صوابي أيضًا). كما يخوض تجارب مطبخية، ويظنّ أنه شاب عادي، مع أنه لا يوجد شاب عاديّ يقرّه على ذلك، ولا حتى زملاءه الذين يفعلون ما يفعل. والآن ها هو، قادم إلى الصمت المزعج في صالة شبه الحبيب، يُثقل الجو المضطرب بمجرد حضوره.

من ناحية أخرى، لعل الأمر لم يكن كذلك. فهذه المرة ولأول مرة قيلت العبارة المعتادة: «أوه لا، جاء الطاهي!»، وأوشك الرجال على إطلاق سيقانهم للريح، لكنهم أدركوا حينها أنّ حضوره مريح في تلك اللحظة، وفضّلوا وجوده على الجدل حول قضية العلم الشائكة. قبل أن يأتي إلى منزل شبه الحبيب كان حديث الجيران قد تحوّل من مناقشة السيارات والمحركات إلى الحوار السياسي العقيم «نحن وهم». وبالتدريج كانوا أيضًا يبعدون أنفسهم عن شبه الحبيب، فلا يمكن غضّ الطرف عن وجود المحاكم الكنغريّة[1] والمؤامرة والخيانة والوشاية. ساعد الطاهي فور حضوره في دفع كل شخص إلى مكانه. كالعادة لم يلحظ المحيط حوله، ولم يرمق الشاحن الفائق ولا قطرات دم أنف جار شبه الحبيب، التي باتت الآن قرب الشاحن الفائق. لكنه نظر حوله، فزعًا ممّا رآه. ارتفع حاجباه أكثر من المعتاد. «لم يخبرني أحد بأنكم كُثر. كم عددكم؟ مئة؟». ثم هز رأسه وقال: «لا أستطيع أن أضيّف كل هؤلاء». لكنه مخطئ. لو أنّ ذلك الجار لم يختلق مشكلة، لطال الحديث حول السيارات، وتلته جلسة شرب، ثم جلسة موسيقى، تليها جلسة ثمالة على وجبة جاهزة من كشك البطاطس المقلية أو الكاري. لا حاجة لفنون الطاهي ولا كعكاته الصغيرة. كان ذهن الطاهي آنذاك مستغرقًا في المقبّلات المالحة وتفاصيل الوجبة الرئيسة والحلويات التي لن يجهّزها، ثم نهض الجيران وقالوا: «لا عليك أيها الطاهي». قالوا بقدر ما استطاعوا من سماحة مدّعاة: «لا تقلق، ما من مشكلة. سنغادر». عندها رشقوا الشاحن الفائق

(1) محاكمات صوريّة يتجاهل القائمون عليها مبادئ القانون والعدالة، والحكم فيها معدّ مسبقًا بلا أدلة تدين المتهم، وبلا تمثيل قانوني أو دفاع. اختُلف في أصل التسمية، قيل بسبب قفزات المحاكمة على القانون لتحقيق ما يدّعي أصحابها أنه عدالة، وقيل إن التسمية تعود للمحاكم في المستعمرات الأسترالية، ورأي ثالث يردّها إلى محاكمات الأميركان للعمّال الأستراليين ذات الطبيعة عينها التي توهم بتحقيق العدالة.

بنظرة أخيرة، مترددة هذه المرة. لعله مثاليّ أكثر من اللازم، ربما؟ فليس عجبًا أنهم لم يقدّموا المزيد من عروض الشراء. بل ودّعوا شبه الحبيب، ثم ودّعوا زملاءه الذين بقوا لوقت أطول بعض الشيء. ثم تذكّر البعض، في انتباهةٍ متأخرة، ولوّحوا مودّعين باتجاه الزاوية، حيث كنت أقف.

***

«**حقير. غبيّ. مَبْولة. مختلّ. وضيع. خِصية. لا أقصد إهانةً لكن... كل ما أعنيه هو... لا أتعمد أذاك ولكن...**». كانت هذه بعض الكلمات من حديث أصدقاء شبه الحبيب عن ذلك الجار صاحب المشكلات بعد مغادرته هو والبقية. بقي في الحجرة الطاهي وشبه الحبيب وثلاثة آخرون من أصدقائه وأنا. قال الطاهي: «أين ذهبوا؟ لم ذهبوا؟ من هم؟ هل كانوا ينتظرونني—». فقال شبه الحبيب: «انس الأمر يا طاهي»، لكنه تحدث بتشتت لأنه منزعج من الآخرين لتقديمهم الأعذار ومحاولتهم استرضاء هذا الجار نيابة عنه. أعرف أنه منزعج لأنهم حاولوا التخلّص من تعليقات العَلم. فبفعلهم هذا، كما يعتقد، يكونون قد سقطوا في فخ ذلك الجار وفق ما أراد. قال الآخرون للطاهي عندها: «انس الأمر»، ثم حذّر ذلك الصديق النزق شبه الحبيب كي ينتبه إلى نفسه. «سيتدخل فيما لا يعنيه، ذلك النغل، سيختلق قصةً ما». أومأ الآخرون موافقين وقد أومأ شبه الحبيب في البدء أيضًا، ثم قال: «رغم ذلك، ما كان يجدر بك أن تضربه، ولم يجدر بثلاثتكم أن تسمحوا له باستفزازكم ولا أن تطلعوه على شؤوني، فشؤوني لا تخصه. لستُ في حاجة إلى أن أسترضيه أو أتملّقه. ولست في حاجة إلى أن تقنعوه أنتم أيضًا بما أفعله». لم يعجب الآخرين هذا الحديث وعلى الأرجح جُرِحوا، إذ شرعوا في الجدال مجددًا، وكانت الخلاصة أنّ شبه الحبيب يجب أن يتمالك نفسه. قالوا إنّ عليه

بالطبع أن يوضّح موقفه، ليس من أجل جاره الحسود، بل يتوجّب عليه أن يتحدث من أجل الآخرين، كي لا يطول عمر الشائعة. فقال شبه الحبيب فيما يتعلق بالشائعة ما كان ينبغي أن نتجادل حول الكلمات، ولم يجدر بها أن تُنطق حتّى. قال: «المسألة أنكم سلبتموني قوّتي»، وهكذا استمر الجدال حتى قال أحدهم: «لن ينتهي الأمر عند هذا الحد». أي لا يجب أن نفاجأ إن هوّلوا أمر الشاحن الفائق ليصير اتهامًا لشبه الحبيب بجلب ما لا يُحصى من أعلام «ذاك المكان» إلى هنا. ضحكوا حينها، وهذا لا يعني أنهم ينكرون إمكانية حدوث ذلك. قالوا لم يجدر به أن يكون عنيدًا، وأنا، دون أن أشارك في الحديث، ودون أن أقول شيئًا، وافقتهم. كان الطاهي في تلك الأثناء، وقد حلّق فوق الغيوم، يجْرد أشياء خيالية، فعاد بقوله: «من؟ ما الأمر؟» فطفق الآخرون يدفعونه. قالوا: «هذا الخَرِف، فاته القارب كالعادة»، لكنّ الطاهي لم يكن مصغيًا حينها، إذ صعد الدرج ليغسل يديه قبل أن يعدّ للبقية طعامًا يأكلونه. وبعد بضع نكات تحقيرية ختامية على أقوال الجار: «**كل شيء جيد لكن... لا أقدح في أحد لكن... لست خبيرًا لكن...**»، والعديد من الإشارات الطائفية الضمنية، على الأقل على مسمعي، أشغل الآخرون أنفسهم بنقل أجزاء السيارة إلى الطابق العلوي.

هذا دأب شبه الحبيب المعتاد، إذ يخزّن السيارات في كل مكان: في مرآب العمل، هنا في بيته، في الداخل، في الخارج، في الساحة الأمامية، في الخلف، داخل الخزائن وفوقها، على الأثاث، على كل عتبة من عتبات الدرج، على الدرج وعلى كافة بسطاته، يضعها أسافين للأبواب أيضًا، كما في كل الحجرات - باستثناء المطبخ وحجرة نومه، على الأقل في الليالي التي أمكث فيها هنا. لذا صار منزله بيئة عمل محببة أكثر من كونه بيتًا، والآن ها هو يعيد مع أصدقائه الترتيب، ومعنى هذا: «يخلقون مساحة لمزيد من قطع السيارات». سألت: «هل ستأتي قطعة جديدة؟». قال شبه الحبيب: «بل قطع

سيارات، بالجمع يا شبه الحبيبة. مفحّمات، وأسطوانات، مصدّات، مبرّدات، أذرع مكابس، ألواح جانبية، رفارف، ومثل هذه الأشياء». قلت: «آها». قال: «سأعود بعد دقيقة»، ومضى مشيرًا إلى حُزَم من سيارة تُنقل، «لننقل هذه الآن إلى إحدى حجرات نوم الإخوة». كان لشبه الحبيب ثلاثة إخوة، لم يكن أيٌ منهم متوفى، كما لا يعيش أيٌ منهم معه في هذا المنزل. عاشوا في المنزل سويًا فيما مضى، لكنّ الحياة ساقتهم على مرّ الأعوام إلى العيش في أماكن أخرى. انشغل شبه الحبيب والآخرون بالنقل، فيما الطاهي في الطابق الأسفل، من الصوت الذي سمعته بدا أنه كان منشغلًا أيضًا في المطبخ، يتحدث إلى نفسه وهذا الأمر لم يكن نادرًا. عادةً ما يفعل ذلك، كنت أسمعه، حيث يقضي الطاهي لياليه في منزل شبه الحبيب ربما أكثر مني. يمكنني سماعه كالمعتاد وهو يصف لشخصٍ متخيَّل، يبدو أنه يقضي فترة تدريب لديه، كل ما يتعلق بإعداد الوجبة. يقول أحيانًا شيئًا مثل: «بهذه الطريقة. ثمة طريقة أسهل سأخبرك بها. وتذكّر، يمكننا استحداث أسلوب وتقنية متفرّدة دون تكلّف ومبالغة»، وكلما فعل هذا بدا صوته بالغ اللطف وأكثر تفهمًا مما يكون عليه حين يتواصل مع الأشخاص الحقيقيين في الحياة الواقعية. كان يحب هذا المعاون الذي كان متعلمًا مجدًّا، بناءً على تشجيع الطاهي وتقديره. «سنضيف هذا وحسب. لا، هذا أيضًا. ثم سنفعل هكذا. نريد نعومة، تذكّر، خليط نظيف وكميات موزونة، واترك هذه الورقة. لم هذه الورقة؟ لا تضيف شيئًا إلى قوام المكوّنات أو نكهتها. هاك، تذوّق. هل تريد أن تجرّب؟». في إحدى المرات عندما تلصّصت عليه بينما يدعو متدرّبه الخفيّ ليتذوّق، رأيته بمفرده يرفع الملعقة إلى شفتيه. في تلك المرة، وقد كانت المرة الأولى التي أشهد فيها الطاهي يفعل ذلك، ذكّرني بالمرات التي وضعتُ فيها علامات في ذهني بجانب المعالم التي أمر بها وأنا أقرأ أثناء مشيي. أتوقف مؤقتًا بعد صفحة ونحوها، لأتفكّر مليًا في الأشياء المحيطة بي من وقت إلى آخر كي أكون

دقيقة، أتوقف لمساعدة شخص في رأسي استفهمَ منّي لتوّه عن الاتجاهات. أتخيّل نفسي أشير وأقول: «الاتجاه من هناك»، أعني أنّ الشخص ينبغي أن ينعطف عند الركن الفلاني. أقول له: «اذهب هناك، بالقرب من الزاوية. أترى هذه الزاوية؟ اذهب إليها وعندما تصل إلى التقاطع عند صندوق البريد في بداية منطقة العشر دقائق تستمر إلى المكان المعتاد». المكان المعتاد أي المقبرة. وهذا التوصيف هو طريقتي في مساعدة شخص تائه. وها هنا الطاهي في مطبخه يقوم بالأمر نفسه. لا نوبات هستيرية ولا نوبات غضب، ثمة تأمل فحسب، واستيعاب، واسترخاء. كان مرحًا في صحبة صاحبه الشكور. لذا تركته دون أن أقاطعه، لم أود أن أحرج الطاهي بسبب خياله، لفرط ما كان الآخرون يعيبون على من يلعب، ويعيبون على من يسمح لنفسه بالتخفف من الحذر. لهذا يقرأ الجميع أفكار الآخرين، مضطرين، وإلا تعقّدت الأمور. ومثلما اختار أغلب الناس هنا أن لا يبوحوا بما يقصدون حقًا لحماية أنفسهم، فقد تعلموا أيضًا أن يضعوا في رؤوسهم في لحظات معيّنة أنسب ما لديهم من أفكار تقبلها الجماعة على السطح كي يقرأها الآخرون، بينما يحدّثون أنفسهم فرادى في أدغال وعيهم بأفكارهم الحقيقية. هكذا إذن، وبينما شبه الحبيب والآخرون في الطابق العلوي، والطاهي ومتدربه في المطبخ، تمدّدتُ على الأريكة أفكر في الخطوات التالية. أعني خياراتي المعيشية. إذ سألني شبه الحبيب مؤخرًا ما إن كنت أرغب في الانتقال للعيش معه. في ذلك الوقت كانت هناك ثلاثة عوائق أمام انتقالي هذا. أحدها أنّ ماما في تصوّري لن تستطيع تحمل تنشئة الأخوات الصغيرات بمفردها، رغم أني لم يكن لي دور حقيقي فعّال في تنشئتهن. ولكن بدا لي أنّ هذا من واجبي، أن أكون تحت الطلب، كنوع من الدعم لأساعد في الحد من نضجهن المبكر، وفضولهن الجامح، وتأهبهن لأي شيء يخرج عن السيطرة. حجتي الثانية كانت الدمار المحتمل الذي قد يجلبه عيشنا معًا، أنا وشبه الحبيب، لشبه علاقتنا المرهفة

الهشّة من الأساس. والحجة الثالثة كانت كيف أنتقل بينما هذه هي حالة المكان؟

بعد سنوات من انفصالي عن شبه الحبيب رأيت برنامجًا على التلفاز عن أولئك الذين يكنزون الأشياء لكنّهم لا يدركون أنهم يكنزونها، ورغم أنه لا أحد يكنز السيارات، لكنني لم أستطع مقاومة تشبيه ما يفعله هؤلاء الأفراد خلال تلك السنوات التي تدعى الآن حقبة التنوير النفسي، بما كان يفعله شبه الحبيب قبلها. عائلة مكونة من كَانِز (زوج) وزوجة (غير كانزة). اقتسما المساحة مناصفةً وقد كان قسمه طاغيًا، كما كوّن جبلًا في قسمه، من السجادة إلى السقف، مغطيًا نصف المساحة في كل حجرة. بمرور الوقت، بدأت بعض أشيائه بالانزلاق من الجبل وتبعثرت على أغراضها، وكان هذا الأمر حتميًّا لأنه لم يستطع منع نفسه من إضافة المزيد من الأشياء، أي أنه استنفد مساحته وقد نزع بالضرورة إلى مساحتها. أما التكديس في منزل شبه الحبيب فلم يكن مضغوطًا ومقيِّدًا مثلما كان في تلك البرامج التلفزيونية الترفيهية. ولكن لا شك في أنه يزيد على تكديسه أكداسًا. أمّا رد فعلي، فقد أستطيع احتمال حالة البعثرة وقوله لي: «تفضّلي أهلًا بكِ، لكن عليكِ أن تنحشري قليلًا» في الأيام التي أبقى فيها عنده، لأنّ المطبخ وحجرة النوم طبيعيان والحمام شبه طبيعي. أستطيع تحمّل هذه الحال أساسًا لأننا في مرحلة «الشبه» في علاقتنا، أعني أنني لم أكن أعيش معه رسميًا ولست ملتزمة تجاهه رسميًا. لو أننا في علاقة رسميّة وكنت أعيش معه وملتزمة تجاهه فعلًا، فإن أول ما سأقوم به حينها هو أن أرحل.

إذن هذا حال منزل شبه الحبيب وقد كان منزلًا كاملًا. لم يكن من المألوف آنذاك أن يملك رجل أو امرأة في العشرين من العمر منزلًا كاملًا، لا سيما إن كان أعزب أو كانت عزباء. ليس في منطقته وحسب، بل غير

مألوف في منطقتي أيضًا. لقد آل المنزل إليه نتيجة ما حدث ذات يوم وهو في الثانية عشرة من عمره فيما إخوته في الخامسة عشر، والسابعة عشر والتاسعة عشر، حيث غادر والداه البيت ليكرّسا نفسيهما بالكامل لمهنة الرقص الثنائي. لم ينتبه أبناؤهما إلى رحيلهما في البدء، لأنّ الوالدين دائمًا ما كانا يغادران دون إعلامهم، ليدخلا في مسابقات رقص ثنائي قاسية قاتلة. ولكن في أحد الأيام، عندما جاء الأخوان الكبيران بعد العمل إلى البيت وقد حضّرا عشاءً من كشك المقليّات كالعادة لأربعتهم، استدار أحدهما إلى الأكبر منه، وهو جالس على الأريكة وطبقه في حجره، قائلًا: «هناك شيء غريب. ثمّة شيء مفقود. أليس كذلك، أخي؟» فوافقه الأكبر: «بلى، ثمة شيء مفقود». ثم قال للأخوين الصغيرين: «أنتما الاثنان! هل ثمّة شيء مفقود؟»، فقال الأخ قبل الأخير: «والدانا. لقد غادرا». واصل الصغير عشاءه ومشاهدة التلفاز، كما فعل الأصغر، الذي أصبح بعد سبع سنوات «شبه حبيبي الموشك على عام معي». قال الأخ الأكبر حينها: «لكن متى ذهبا؟ هل إلى إحدى مسابقات الرقص التي يلتحقان بها دائمًا؟». لكنها لم تكن مسابقة رقص واحدة. أخيرًا عرف الإخوة من الجيران أنّ الوالدين قد رحلا قبل بضعة أسابيع دون عودة. قال الجيران إنهما لا بد كتبا رسالة ثم نسيا أن يتركاها. الواقع أنهما نسيا كتابتها من الأساس، ثم كتباها وأرسلاها لاحقًا من وجهتهما السرية عندما وصلا إليها. لم يتعمّدا أن تكون سرية لكنها صارت كذلك لأنهما لم يمتلكا ما يكفي من الوقت أو التذكر أو الفهم ليكتبا عنوان المرسل في أعلاها. وفقًا للطابع البريدي فهي ليست دولةً وراء بحر وحسب، إنما وراء بحار عديدة. كما قد نسيا عنوانهما السابق، عنوان المنزل الذي عاشا فيه أربعة وعشرين عامًا منذ أن تزوجا وحتى قبل رحيلهما بأربع وعشرين ساعة. أخيرًا غامرا بتخمين العنوان على أمل أنّ الشارع نفسه قد يرتّب ما تبقى من العنوان لهم، وقد حدث هذا بفضل ما يمتلكه أهل ذلك الشارع من ذكاء. وجّها الرسالة إلى

أبنائهما، وتقول هذه الرسالة التي وصلت إلى أيدي الإخوة بعد أن انتهت من جولتها بين الجيران: «**آسفان أيها الأطفال. نرى الآن أنه لم يجدر بنا أن ننجب أطفالًا. لقد رحلنا كي نرقص إلى الأبد. آسفان مجددًا، لكنكم الآن قد نضجتم على الأقل**». بعد هذا، خطرت لهما فكرة أخرى: «**حسنًا، من لم ينضج منكم بعد يمكن أن يكبّره من نضج ويرعاه. خذوا كل شيء أرجوكم، بما في ذلك المنزل**». أصرّ الوالدان أن يأخذ أبناؤهما المنزل الذي لم يرغبا به؛ فقد أخذا كل ما يرغبان: بعضهما البعض، والكوريمانيا [جنون الرقص]، وحقائبهما الضخمة المليئة بملابس الرقص الأخاذة. وانتهت الرسالة بالقول: «**وداعًا أيّها الابن الأكبر، وداعًا أيّها الابن الكبير، وداعًا أيّها الابن الصغير، وداعًا أيّها الأصغر. وداعًا كل الأبناء الغالين الجميلين**» لكن من دون توقيع يقول «**والداكم**» ولا «**والدتكم ووالدكم المحبان، اللامباليان**». كان التوقيع يقول: «**الراقصان**»، وبجانبها أربع قبلات، ومنذ ذلك الوقت لم يصل أي خبر منهما على الإطلاق. ما عدا رؤيتهما على التلفاز. تزايد ظهور الزوجين على التلفاز، فقد حققا نجاحًا بالرغم من كونهما مُنْتَصِفا العمر، ليصبحا بطلَين للرقص الثنائي وصاحبَي شبابٍ استثنائي. حازا اهتمامًا عالميًا مذهلًا، ويدينان بهذا على الأرجح لاتّقادهما، وللكاريزما التي يتمتعان بها، وصيت النجومية الذي ألصقاه ببلدهما، ولكن أيّ بلد، أتراه بلد «ما وراء الحدود» أم «ما وراء البحر»؟ كان هناك حرص على عدم الإشارة إلى البلد. ولم يمض وقت طويل حتى نجحا في التملص من هذا التقسيم السياسي. هذا يعني أنهما أصبحا من تلك الاستثناءات، كالموسيقيين والفنانين هنا، هؤلاء الأشخاص الذين يظهرون على الشاشة ويصعدون إلى المسرح، مثل الرياضيين أيضًا، كل هؤلاء قد نجحوا في التسامي على القبول الكامل من جماعةٍ واحدة وتوريط أنفسهم باستهجان الجماعة الأخرى بل وتهديداتها بالقتل أيضًا. هذان الزوجان، بصفتهما جزءًا من الصفوة، حصلا على قبول الجميع. فقد نالا

الاعتراف والقبول بالإجماع. لم يُقبَلا على مستوى الجبهات السياسية والدينية والمحاربة للتزمت وحسب، إنما على مستوى معايير جودة الرقص أيضًا، إذ كانا يجلبان المتعة والسحر لقلوب كل محبي الرقص. كان لهما تقدير بالغ من أولئك الخبراء في كافة شؤون الرقص. أما أبناؤهما، فلم يكن من بينهم واحد خبير، أو حتى من رغب في أن يكون خبيرًا، في أي شيء متعلق بالرقص الثنائي. وبالرغم مما فعلاه، أشار شبه الحبيب مرة إليهما عندما كانا على إحدى القنوات في التلفاز. فعل هذا في الواقع عندما كان يبدّل بين القنوات في إحدى المساءات فظهرا على الشاشة: الزوجان العالميان. كانا حينها يؤديان رقصة مزدوجة محمومة في منافسة ببطولة ريو دي جانيرو العالمية، والمقدّم يصرخ قبل الجولة العالمية للراقصين الثنائيين قائلًا، «ربّاه! لحظة تاريخية! هذه لحظة تاريخية!» معلنًا للجميع أن يقبضوا على قبعاتهم استعدادًا لانطلاق رقصة غير مسبوقة. أردتُ أن أشاهد هذه الانطلاقة لأنه بعد أن صحتُ: «**غير ممكن! هذه...! هذه... هذه هي...! هذه...! إنها... هذه أمك! هذه أمك!**»، وقلت أيضًا: «**هذا أبوك!**». من الواضح أنه لا يوجد ما يمنعني من مشاهدتها، بهاتين العينين وبهذا الوجه، وهذا الجسد، والمرونة، والثقة، والشاعرية، وبالطبع بتلك الأزياء، أعني والدته في الواقع. بالطبع لم أتوقّع هذا لكنّ شبه الحبيب قال إنه لا يرغب في المشاهدة. حينها بينما كنت أجلس متسمّرة، بفم مفتوح، وعينين متسعتين، أنتش أظافري وأتعجّب: «يشبهها. أحقًا يشبهها؟ هل له ظهر مثل ظهرها؟ هل والده يشبهها - أعنيه هو حقًا - لا، هل يشبه والده؟». خرج شبه الحبيب حينها ليسمكر سيارة.

أمّا المنزل، فقد أصبح واحدًا من المقرّات التي يلائمها بجدارة وصف «يعيش رجال هنا»؛ إذ يلقون بالأشياء عشوائيًا فيه، يعيشون بالطريقة التي يعيش بها الصبية المتروكون على هواهم. يأتي أصدقاؤهم عادةً، وعلى نحو

تدريجي بدأتْ تزورهم الفتيات أيضًا في الليل، أو تجيء الحبيبات طيلة الأسبوع أو يجئن لبعض الوقت، يأتين ويذهبن، يبعثرن في المنزل. مضت الأعوام وانتقل الإخوة الثلاثة الذين يكبرونه للعيش خارج المنزل فرادى. انساقوا مع الحياة التي تنتظرهم، فمضى المنزل ليصبح منزل شبه الحبيب، ثم بسبب السيارات وقطعها أصبح ثلاثة أرباعه مرآب عمل. ثم طلب مني العيش معه وحين أشرتُ إلى حجحجي الثلاث قال تعليقًا على إحداها: «لا أعني هنا بالتحديد. أعني أنّ بمقدورنا استئجار مكان في شارع المصابيح الحمراء[1]».

كان شارع المصابيح الحمراء شمال منطقتي وجنوب منطقته، وقد سُمي شارع المصابيح الحمراء لا لوجود أشياء مضاءة بمصابيح حمراء فيه بل لأنّ الشباب الذين لا يرغبون في الزواج أو الاستقرار التقليدي ينتقلون للعيش هناك مع حبيباتهم. فهي لمن لا يرغب في الزواج في السادسة عشر، وإنجاب الأطفال في السابعة عشر، والجلوس على الأريكة مقابل التلفاز حيث يموت مثل أغلب الآباء في العشرين. لمن أرادوا أن يجرّبوا شيئًا آخر ليسوا متأكدين منه. العشّاق غير المتزوجين يعيشون هناك. كما أشيع أنّ رجلين عاشا هناك، أعني معًا. ثم انتقل رجلان آخران للعيش في منزل هناك، أيضًا معًا. لا وجود لنساء يعشن معًا، وقد شاع أنّ امرأة عاشت هناك مع رجلين في المبنى رقم ثلاثة وعشرين. الغالبية ذكور غير متزوجين وإناث غير متزوجات ورغم

---

(1) أُطلق على الشارع «شارع المصابيح الحمراء» إشارة إلى البغاء حيث ظهر المصطلح لأول مرة بحسب معجم أكسفورد في مقالة عام 1894م. قيل عن أصل المصطلح إنّ عمّال القطارات كانوا يحملون فوانيس حمراء يضعونها عند أبواب بيوت الدعارة أو في نوافذ الحجرات التي يمكثون فيها ليسهل على الطاقم معرفة مكانهم في الحالات الطارئة، ومنه شاع المصطلح وارتبط بمناطق تشتهر بالبغاء.

أنه شارع واحد، إلا أنّ نشرات الأخبار حذّرت مؤخرًا من أنه قد يمتد إلى الشارع التالي الذي كان معروفًا هو الآخر لأنه مسكن الأزواج المختلطين دينيًا. في تلك الأثناء، أخذ الناس الطبيعيون، أعني المتزوجين، يغادرون تلك المنطقة، وليس فقط شارع المصابيح الحمراء. لم يكن بعضهم معارضًا لمبدأ شارع المصابيح الحمراء، هذا ما قالوه. لكنهم رحلوا لأنهم لم يرغبوا في جرح مشاعر الكبار من أقربائهم ومعارفهم، مثل أصدقاء والديهم، وأجدادهم، وأجداد أجدادهم الراحلين، وأسلافهم، من يسهل تلطيخ أسمائهم خاصةً مع مضمون وسائل الإعلام وما تدعوه «رذيلة، وانحطاطًا، وانحلالًا أخلاقيًا، وانتهاكًا للذوق العام، وعلاقات غير مشروعة». وقالوا في الأخبار إنّ السؤال المهم هو ما إذا كان العشّاق الزناة غير المتزوجين يعتنقون أديانًا مختلفة أيضًا أم لا؟ ظهر الأزواج الطبيعيون المتنقلون خارجها، القلقون حيال حساسيات الجيل القديم، على التلفاز أيضًا. فقالت زوجة في مقتبل العمر: «قررتُ الرحيل من أجل ماما، إذ لا أعتقد أنّ عيشي دون استقامة سيسرّها، وهو ما يعنينه بقائي في شارع لا ينذر الناس فيه نذور الزواج». وقالت أخرى: «لا أقصد ازدراء الآخرين، لكنّ العيش هكذا دون عقد قِران أمرٌ يستحق الازدراء، الازدراء بعنف، ويستحق الإدانة، أهذا ما نحن مقبلون عليه؟ البغاء؟ الانسياق خلف الغرائز الحيوانية؟ التخلي عن العفّة؟ هل هذا ما نريد أن نربّيه في مجتمعنا؟». ومرة أخرى تكرّر الحديثُ عن الرذيلة، والانحطاط، والانحلال الأخلاقي المشؤوم، وانتهاك الذوق العام والعلاقات غير المشروعة. قال زوجان يحمّلان أمتعتهما في السيارة استعدادًا للرحيل: «قريبًا سيمتدّ شارع المصابيح الحمراء ليصبح شارعًا ونصف الشارع، ثم سيواصل تمدّده ليصبح شارعين، ثم سيكون كل الحي مصابيح حمراء ثم ستبزغ مساكن الأزواج الثلاثيّين «ménages-à-trois» في كل مكان». وقالت زوجة أخرى: «قررتُ الرحيل من أجل ماما»، رغم أن

القلّة قلن: «وما المشكلة؟ تحتاجون إلى الماضي من أجل الطائفية والتزمّت، لكن مع هذه القضايا الجنسية ثمة تحوّل أسرع يَلزمك من أجله أن تواكب العصر الحديث». واستمرّ الحديث عن هذا الموضوع، بشكل أساسي على هذا النحو: «لا يمكننا السماح بهذا»، و«لا نسمح للناس بممارسة الجنس هكذا» و«الزواج أساس الدولة، بعد الحدودِ الإقليمية». كان الأمر بشكل أدق على هذا النحو: «لو لم أنتقل من هنا ستموت ماما». هذا ما يعرض على التلفاز. العديد من وفيّات الأمهات المتوقعة في المستقبل كانت ترد بكثافة في التقارير كما ترد أيضًا في مقابلات برامج صوت الناس التي تبث على الإذاعة وتُنشر في الصحافة المطبوعة.

فصار الشارع في تلك المنطقة التي لم تكن كبيرة، المنطقة المسمّاة بشيء ما في لغتي التي لا أتحدثها بينما تدعى في اللغة الظاهرة التي أتحدثها «نقرة الرقبة» أو «عطفة الرقبة» أو «ليونة الرقبة» على بعد طريق من هنا. لم أزرها قط، وبالرغم من هذا يدعوني شبه الحبيب الآن إلى الانتقال للعيش فيها معه. رفضت، فبالإضافة إلى ما يتعلق بماما والأخوات الصغيرات، ثمّة أيضًا مسألة تكديسه الذي من المتوقع أن يستمر ويمتد إلى المسكن الجديد في شارع المصابيح الحمراء كما حدث في مسكنه الحالي. وهناك أيضًا التحفظ الآخر الذي ذكرته، أي عيشنا علاقة حميمية وهشّة تفوق قدرتنا على التحمل. وهذا ما حدث. وما يحدث دائمًا. أقترحُ القرب كي تتطور علاقتنا فينقلب الأمر علينا، فأنسى أنني اقترحت القرب فيلزمه تذكيري عندما أقترح مرة أخرى مسألة القرب هذه. ثم نتبادل الأدوار حين يعاني هو فيقترح القرب. هكذا نمضي في انزلاقات الذاكرة، تزورنا نوبات ما يدعى بالجامي فو]نسيان المألوف[. لا نتذكر أننا تذكرنا، ونذكّر بعضنا بنسياننا وفشل تجربة القرب آخذين بالحسبان رهافة شبه علاقتنا. آنذاك حان دوره في النسيان وتنبيهي إلى التفكير في عيشنا معًا، لأننا نوشك الآن على بلوغ سنة منذ بدء علاقة

«الشبه» بيننا، وأنّ من الوارد أن نستطيع التقدم إلى مرحلة الحبيبين المعتادة إذا سكنّا معا. قال لا يبدو أنّ أحدنا قد ناقش من قبل مسألة القرب أو العيش معًا. حين انتهى من حديثه، توجب عليّ تذكيره بأننا ناقشناها سابقًا. في تلك الأثناء، خلال فترة طلبه مني أن أعيش معه، اقترح أن نذهب في جولة بالسيارة يوم الثلاثاء التالي لنشاهد غروب الشمس. فهجست حينها كيف له أن يفكر بمشاهدة غروب الشمس بينما لا أحد ممن أعرف قد خطرت له رؤية غروب الشمس قط، لا سيما الفتيان، والفتيات أيضًا، كذلك النساء، والرجال حتّى، وبالتأكيد أنا أيضًا! كان هذا شيئًا جديدًا، ومجددًا، لدى شبه الحبيب أشياء جديدة، أشياء لم أرها في الآخرين قاطبة، وليس في الفتية فقط. كان مثل الطاهي، يحب الطهو وهو أمر غير معتاد بين الفتية ولا أعتقد أنني كنتُ مرتاحة لحبه للطهو. وكالطاهي أيضًا لم يكن يحب كرة القدم، أو ربما كان يحبها لكنه لا يتحدث باستمرار عن حبه لها كما يُفترض من الفتية، ولهذا السبب عُرف في منطقته كذكر ليس طريًّا لكنه لا يحب كرة القدم. كان لديّ قلق داخليّ من أنّ شبه الحبيب قد لا يكون رجلًا طبيعيًا. تزورني هذه الفكرة في اللحظات الكئيبة، في لحظاتي المعقدة دون استحضار منّي، حثيثة تأتي، وحثيثة تذهب، دون أن أعترف بمجيئها، خاصةً لنفسي. أشعر أنني لو فعلت، فسوف تصحو غيرها من التناقضات لأنني أشعر بتجمّعها سلفًا، لتواجهني وتبعثر يقينيّاتي. تعاملتُ مع هذه الصراعات في داخلي، مثلما يفعل الجميع، بغضّ الطرف عنها كلّما بزغت في الأفق. وقد لاحظتُ أنّ شبه الحبيب دائمًا ما يجلبها إلى الأفق، خاصةً كلما طال مكوثي في حالة «شبه» المواعدة، حالة «لست متأكدة، ربما» هذه معه. أحببتُ طعامه الذي يطبخه رغم اعتقادي بأنه لا يجدر بي محبته ولا تشجيعه على الطهو بمحبتي هذه. وأحببتُ أن أكون معه في السرير، لأنّ مضاجعته تمدّني بألفة كما لو أنني ضاجعته منذ الأزل. كما أحببت الذهاب معه إلى أي مكان، لهذا وافقت

على الذهاب معه يوم الثلاثاء مساءً، الذي يوافق ذات الثلاثاء القادم الذي سأجري فيه مع الصهر الثالث في منطقة الحدائق والسدود، لنرى الشمس تغرب. لم أذكر هذا لأحد، بالطبع، لأنني لم أكن واثقة من أنّ غروب الشمس موضوع يمكن التطرق إليه مع أي أحد. ثم إنه من النادر أن أتطرق إلى أي شيء مع أي أحد. فعدم التطرق إلى الأشياء كان وسيلتي كي أبقى في أمان.

على أيّة حال، وصل الخبر إلى ماما. لا أقصد الغروب أو شبه الحبيب، فلا هو من حيّي ولا أنا أدخلته إلى الحي قط، أي أننا نقضي معظم وقتنا في حيّه هو، أو في حانات وسط البلدة، في حانات الجماعات المتداخلة وملاهيها الليلية. ما أثار قلقها شائعة أخرى انتشرت مع الهواء. آنذاك في الليلة التي تسبق جولة الجري مع الصهر الثالث، ذات الليلة التي تسبق موعد غروب الشمس مع شبه الحبيب، صعدتْ إلى الأعلى لتراني. شعرتُ بقدومها، فقلت في نفسي: ربّاه، ترى ما الأمر الآن؟

***

ظلّت ماما تعذّبني وتعذّب نفسها منذ يوم ميلادي السادس عشر قبل سنتين لأنني لم أتزوج. كانت أختاي الأكبر مني متزوجتين. وثلاثة من إخوتي، بمن فيهم أخي الذي مات والآخر الهارب، قد تزوجوا. بالنسبة لها أيضًا فأخي الأكبر الهائم على وجهه، الأخ الذي اختفى عن وجه الأرض، كان متزوجًا رغم أنها لم تكن تملك دليلًا واحدًا على هذا. أختي الكبيرة أيضًا - ثاني أخواتي التي لا تُذكر - كانت متزوّجة. فلِماذا لستُ متزوّجة؟ عزوبيّتي هذه تصرفٌ أنانيّ، يشوّش النظام الإلهي ويشوّش الأخوات الصغيرات، هكذا قالت. «انظري إليهن!»، وها هنّ هنا، يقفن خلف ماما، بأعين مشرقة، مرحات، مبتسمات. من مظهرهنّ لم تبد لي أي واحدة منهن مشوّشة. «أنتِ

قدوة سيئة لهنّ. إذا لم تتزوّجي، سيعتقدن بعدم وجود مشكلة في العزوف عن الزواج». لكن ولا واحدة من هؤلاء الأخوات - أعمارهن في السابعة، والثامنة والتاسعة - كانت على مقربة من أن تكون مراهقة مستعدة للزواج بعد. استرسلتْ ماما كما تسترسل دائمًا عندما نعقد هذا الحوار من طرف واحد: «ماذا سيحدث أيضًا حين يغادر الجمالُ ملامحكِ ثم لا يرغب بكِ أحد؟». شبعتُ من الرد، شبعت من قول: «لن أجيبكِ ماما، لن أجيبكِ أبدًا، ماما. دعيني وشأني يا ماما». إذ يقلّ تعمّقها في الأمر كلما قلّ ما أعطيه لها. ما يحدث مرهقٌ لها بقدر ما هو مرهق لي تمامًا، لكنّ ماما لم تكن بمفردها في مساعيها. فثمة توجه كامل لأمهات المنطقة ببذل غاية جهدهن في تزويج بناتهن. كان هلعهن حقيقيًا، هلعٌ نابع من أحشائهن. بالنسبة إليهنّ لم يكن هذا مجرد «كليشيه»، أو ملهاة، ولا أمرًا يمكن تجاهله، كما لم يكن مستغربًا. بل المستغرب لو أن أمًا من بينهن خطت خطوة خارج هذا المشهد. وهكذا أصبحتْ معركة إرادتين بيني أنا وماما تنتصر فيها من تستنزف الأخرى أولًا. في كل مرة تشمّ فيها رائحة مواعدة محتملة (لم يكن ذلك منّي قطّ)، لا أستطيع أن أخرج من الباب دون أن تسألني: «هل يعتنق الدين الصحيح؟»، متبوعًا بسؤال: «أليس متزوجًا أساسًا؟». فألّا يكون متزوجًا سلفًا شرط أساسي بعد اعتناقه الدين الصحيح. ولأنني دائمًا لا أعطيها جوابًا شافيًا، يصبح هذا دليلًا على أنه لا يعتنق الدين الصحيح، بل ومتزوج، ومن المرجح أنه ليس من القوات شبه العسكريّة وحسب، بل هو عدو من القوات المناصرة للدولة أيضًا. تختلق قصص رعب لنفسها، وتملأ بها الفراغات حين أرفض تزويدها بالمعلومات. هذا يعني أنها تكتب النص كله بمفردها. بدأتْ بتأدية الشعائر الدينية وزيارة رجال الدين. أخبرتني الأخوات الصغيرات أنّ هدف الزيارة أنْ أهجر هؤلاء الإرهابيين الكفّار الجامعين بين امرأتين الذين أغرم بهم واحدًا تلو الآخر، وأن أغرم بدلًا منهم بواحد ملائم هذه المرة. تركتُها تفعل

هذا، خاصةً منذ ارتبطتُ بشبه الحبيب. لم يكن ممكنًا أن أسلّمه لها. ستخطط لعمليةٍ تتيح لها أن تمرره عبر نظامها، ستلقي سؤالًا تقييميًا تلو آخر، ستعجّل الأمور، ستحاول أن تتمّم الأمور، ستنهي أمورًا (أي المواعدة) وتُبدئ أمورًا (أي الزواج)، ستوثّق أمورًا (أي بالأطفال) لتجعلني، من أجل الرب، أمضي كالبقية.

استمرّت في الشعائر الدينية وزيارة الرجال المقدّسين، ومن بعدهم النساء المقدّسات، إلى جانب صلواتها عند تمام الساعة الثالثة، والسادسة، والتاسعة، والثانية عشرة. ثمة أيضًا المزيد من التوسل كل مساء عند الخامسة والنصف من أجل تلك الأرواح في المَطْهَر التي لم تعد قادرة على الصلاة لأنفسها. ولا واحدة من الصلوات الموافقة لتمام الساعات تتداخل مع صلواتها المنتظمة صباحًا ومساءً، خاصةً مع توسلها من أجلي كي أهجر تلك الغراميات التي اعتقدتْ أنني أعيشها مع مناصرين مهرطقين في أماكن «نقط نقط نقط» في أرجاء البلدة. كانت ماما تسمّي الأماكن التي تعتبرها مرذولة «نقط نقط نقط»، وهي أماكن نتساءل أنا والأخوات الكبيرات من وقتٍ لآخر عما يمكن أن تكون قد اقترفت داخلها في شبابها. أما صلاتها وفروضها فقد باتت أكثر بروزًا، وابتهالاتها أكثر تعاقبًا إلى أن جاء يومٌ انقلبت بعده الأمور رأسًا على عقب لفرط نزقها. بالنظر إلى الفرضيات الخيالية التي استندت عليها فقد تَحتّمَ عليها فعل هذا، كيما تخلّصني من رجالٍ لم يكونوا موجودين أصلًا إلا في رأسها. يبدو الأمر لي الآن وكأنها استحضرت بأفكارها هذه أكثر ما لا نرغب نحن الاثنتان به، وجلبَتْه من ذهنها إلى الواقع.

عقب لقائي الثاني بالحلّاب في منطقة الحدائق والسدود، أخبر الصهر الأول الحشري، الذي اشتمّ هذا بالطبع زوجته، الأخت الكبرى، وطلب أن تخبر والدتنا حتى توبّخني. كان لزامًا أن يحدث هذا بعد أن لم يُجدِ حديث

الأخت الكبرى معي نفعًا. لهذا جاءت كي ترى ماما، وهي الأخت نفسها التي لم تكن تحب زوجها لأنها ما زالت حزينة على حبيبها السابق. لم تعد حزينة لأنه خانها وعاشر امرأة جديدة، بل لأنه مات. قُتل بسيارة مفخخة أثناء عمله، إذ كان من معتنقي الدين الخطأ في المكان الخطأ، وهذا الشيء كان يحدث عادة. مات إذن، أما أختي فلم تستطع أن تغضي عنه حيًا، ولا أدري كيف ستستطيع الآن وهو—.

غير أنّ حزنها لم يمنعها من أن تفعل ما تؤمر به. هكذا أخبرتْ والدتنا بأمر الحلّاب، وقد تأكدتْ ماما من نساء الحيّ التقيّات، اللاتي كن قد سمعن بالأمر. كانت هؤلاء النسوة، مثل ماما، من صاحبات التمائم والتوسّلات الصادقة، والابتهالات التي تستند على أحكام الشرع بل وتتقيّد بها حرفيًا. كنّ بارعات في تضرّعهن للتدبير الإلهي، منغمسات في الحياة اليوميّة بتعاملاتهن ومظاهرهن، فعادةً ما تسمع أفراد هذه الأخويّة النسائية يهتملن بتسبيحٍ صادقٍ على سبحاتهنّ من شِدقٍ واحد، فيما يواصلن أحاديثهن اليومية من الشدق الآخر. أولئك النسوة، بالإضافة إلى ماما، والأخت الكبرى والصهر الأول ومجتمع النميمة بأكمله قد حشروا أنفسهم في شأني مع الحلّاب. ثم في أحد الأيام، وفقًا للأخوات الصغيرات، جاء حشدٌ من هؤلاء الجارات لرؤية ماما في منزلنا. وقلن لها يبدو أنّ عشيقي حلّاب، لكنهن قلن أيضًا إنه ميكانيكيّ سيارات. وقلن إنه في أول أربعينيّاته، لكنهنّ قلن أيضًا إنه في حدود العشرينيات. وهو متزوج، لكنه غير متزوّج أيضًا. قطعًا كان «على صلة بالمناوئين»، رغم أنه «ليس على صلة بهم» في الوقت نفسه. ضابط مخابرات. قالت الجارات: «تعرفين ذلك النوع يا جارة، الذي لا يظهر في الواجهة، يترصّد الشخص المستهدف ويلاحقه، ويطارده مثل ظلّه، يتعقّبه ويلازمه، يجمع المعلومات عنه ثم يسلّمها للقتلة الذين—»، فصاحت ماما: «يا إلهي! ابنتي لها علاقة بهذا الرجل!». شدّت ماما على ذراعَي مقعدها،

كما تقول الأخوات الصغيرات، بينما جالت في ذهنها فكرة أخرى. «لا تقلن إنه الحلّاب ذاك الذي نعرفه، صاحب سيارة الفان، الفان الأبيض الصغير، الذي يتغيّر شكله—؟». قالت الجارات: «المعذرة يا جارة، كان من الواجب أن نخبرك». ثم قلن إنّ عشيقي على الأقل مناوئ للدولة لا مناصرًا لها، وهذا شيء محمود. كان قولهن هذا بالطبع تعريضًا بالأخت الثانية التي جلبتِ العار للعائلة مثلما جلبت العار للجماعة بزواجها من أحد أفراد قوات الدولة، ثم رحيلها وعيشها في بلد يقع وراء البحر، وربّما في ذلك البلد ووراء ذلك البحر تحديدًا، وقد حذّرها مناوئو حيّنا أن لا تعود أبدًا. وما تزال أختي ممنوعة من العودة حتى بعد موت فرد قوات الدولة، الصهر الثاني هذا الذي لم يلتقه أحد منا غير الأخت الثانية، الذي مات ليس لأن المناوئين قتلوه أنما بسبب مرض عادي غير سياسي - ما تزال أختي ممنوعة من العودة، وهو الأمر الذي لا أظنها قد أرادته على كل حال. قالت الجارات: «على الأقل لن تُتهم هذه الابنة بالخيانة. ومع ذلك يا جارة، كثيرون يقولون إنّ الحلّاب ليس شخصًا هامشيًا، بل شخصية وحشية ورّطتْ ابنتُك نفسها معه». فقالت ماما، ولكن بصوت هادئ هذه المرة: «الرحمة يا إلهي». قالت الأخوات الصغيرات إنّ صوتها كان جامدًا، وكأنها بلا حياة، ولا حتى حياة مفجوعة بداخلها بعض الطاقة على الأقل. قلن أيضًا إنّ تعاستها تشبه ما كانت عليه حين نُفيت الأخت الثانية. ثم قالت الجارات: «وبالطبع ربما لا يكون كل هذا صحيحًا، وقد لا تكون لابنتك علاقة بهذا المناوئ، أو أي مناوئ آخر، وإنما مرتبطة بفتى في العشرينيات لديه عمل منتظم يعمل فيه من التاسعة إلى الخامسة، لخمسة أيام ونصف اليوم في الأسبوع، ويعتنق الدين الصحيح، ويتاجر في السيارات». ظلّت ماما غير مقتنعة، فقد بدت لها حكاية تاجر السيارات هذه كذبًا واختلاقًا، فبركةً رديئة من صديقتها المقرّبة جيسن وبقية الجارات اللطيفات ليخفّفن عنها وطأة تلك الفاجعة. لذلك اختارت ماما

أن تصدّق خبر الشخص المتعقّب المستهدِف لا الميكانيكي، ذلك الذي يتحيّن الفرصة كي يهجم، ويظل يتشبث بمهمّته إلى أن ينجزها. إضافة إلى أنّ وصف الجارات للحلّاب كان ينطبق - إلّا فيما يتعلق بالدين الخطأ - على أوصاف الشخص الذي كانت تدعو في صلواتها أن أتخلص منه. لذا تحت تأثير انحياز ماما حينها إلى قناعة أنني سأغرم بعشيق خطر قاتل، لم يخطر لها قط، ولا مرة، أنّ من تحدثن عنه ليس رجلًا واحدًا بل اثنان.

بحثتْ عني وبدأتْ محاولة استرضائي. كان الأمر في الحقيقة عبارة عن مداهنة سارت على هذا النحو: «لم لا تهجرين هذا الرجل الذي يكبركِ كثيرًا؟ قد يبهركِ هذا الرجل اليوم لكنك سترين ذات يوم أنه مجرّد رجل أناني آخر من أولئك الذين يريدون كل شيء. لم لا ترتبطين بأحد الفتية الطيبين الصغار من أهل المنطقة بدلًا منه، فتى مناسبًا متوافقًا مع دينك، وعمركِ وحالتكِ الاجتماعية؟». تصوّر ماما للفتية الطيبين مرتبط باعتناقهم الدين الصحيح، بكونهم متديّنين وعزّاب، ويفضل ألّا يكونوا من الجماعات المسلّحة، فهم في العموم أكثر استقرارًا وأبقى من أولئك «الثوّار العابرين، خاطفي الأنفاس، من ينعشون الحبيبات بروعتهم، لكن دون فائدة، يا بنيّتي، ما داموا يبكّرون في موتهم. لا يوقفهم إلا الموت. ستندمين، يا بنيّتي، حينما تجدين نفسكِ في فخ ليالي المسلّحين الجامحة المقلقة. الحياة معهم ليست كما تظنين. بل حربًا هروبًا دائمًا. يهيمن القتل في حياتهم، قتلهم للناس وتعرضهم هم أنفسهم للقتل، فيها المحاكمات والضرب والتعذيب والإضراب عن الطعام. فيها تمسخين نفسك إلى شخص آخر تمامًا. خذي العبرة من إخوتكِ، سينتهي الأمر نهاية سيئة. سترتطمين بالأرض، هذا إن لم يأخذكِ معه إلى الموت. وماذا عن قدركِ الأنثوي؟ ماذا عن دائرتكِ اليومية؟ ومهمتكِ الأساسية؟ ماذا عن إنجاب الأطفال، فيما يظل للأطفال أب لا مجرد ضريح تأخذينهم لزيارته مرة كل أسبوع في المقبرة؟ انظري إلى تلك المرأة التي تسكن عند الزاوية. لا شك

في أنها أحبت كل أزواجها التعساء، لكن أين هم الآن؟ أين معظم أزواج النساء المخلصين المتزمتين بالِغي العناد؟ أؤكد لكِ، أنهم في حفرة تحت ستة أقدام من رقعة المناضلين في المكان المعتاد». ثم عرّجت على واجبات الزواج، وحماقة الخلط بين التوق إلى الرومنسية وأهداف الأنثى وغاياتها الطبيعية في الحياة الواقعية. لم يُخلق الزواج ليكون مفروشًا بالورد. الزواج فرض إلهي، مهمة جماعية، مسؤولية، الزواج يعني أن تتصرفي بما يوجبه سنكِ، أن تنجبي أطفالًا يعتنقون الدين الصحيح وتعيشي بالتزامات وحدود وقيود وعراقيل. لا أن تفشلي في الحصول على خطيب حتى ينتهي الأمر بكِ مصفرّةً جافّة، تموتين عانسًا على رفٍ منسي غابر نَسَجت عليه العناكب. لم تتزحزح ماما قطّ عن رأيها هذا، رغم أني كلما كبرت تساءلت أكثر ما إذا كانت هذه الأفكار هي ما تؤمن به ماما حقًا - في خبايا وعيها - عن النساء وقدرهن؟ ثم عادت بالحديث إلى الحلّ، إلى الفتية الطيبين اليافعين، أولئك الذين يلائمونني ويتّسقون معي تمامًا. طفقت تعدد لي على أصابعها أسماء فتية من المنطقة لتعطيني فكرة عن النوع الذي تقبله. من هذه القائمة أصبحتُ موقنة أنّه لا يوجد من بينهم من يلائمني أو يتّسق معي على النحو الذي وصفتْه، لكنها لم تكن لتقبل رأيي. بعضهم لم يكن طيبًا أصلًا، كما أنّ العديد منهم لم يكونوا متدينين، والمتزوجون منهم لم يكونوا قلّة أيضًا. وبضعة منهم كانوا يعيشون عزّابًا مع حبيباتهم في «شارع المصابيح الحمراء» كما تدعوه الجماعة أو «نقط نقط نقط» كما تسمّيه ماما. أما البقية فكانوا مناوئين للدولة، أو يُشاع عنهم على الأقل، وكانوا إما ملتزمين التزامًا وثيقًا بترويج أجندة شخصية من خلال الأجندة السياسية التي يعلنون عنها، أو أنهم قد كرّسوا أنفسهم بصدق لخدمة القضية السياسية. لهذا فقد كانت ماما دون أن تدري تقصيهم أصلًا من قائمتها المثالية، لكنني فضلت ألّا أبصّرها بحقيقتهم، لأني ما زلت في وضعي الدفاعي الذي يحميني، وضعي القائم على «عدم البوح بشيء».

كنتُ أتعمّد أن أخفي عنها؛ إذ لم يكن من عادتي قط أن أكاشفها، ذلك أنه لم يكن من عادتها قط أن تفهم ما أقوله وتصدّقه. كفّت ماما عن اقتراح «ذاك الفتى الصغير الطيب، ما اسمه؟ الفتى الذي ابتدع الإشارة إلى نفسه بضمير الجمع. آه، تعرفينه ذاك الفتى، فلان الفلاني» بصفته مرشحًا للزواج، وطفقتْ تقول: «أختكِ تقول إنّ زوجها سمع الآخرين يقولون إنكِ—»، وهنا بدأتُ أشعر بالغضب يتصاعد في دمي، فقلت: «إنه نغلٌ من الطراز الأول هذا الساقط الوضيع ابن الحرام، ماما لا تستمعي إليه».

نفرت ماما. «أرجو ألّا تستخدمي تلك اللغة، تلك الفرنسية الزرقاء [البذيئة الوقحة]. أتعجّب كيف تتلفظن أنتن الاثنتان بهذه الألفاظ بينما لا واحدة من أخواتكن تقولها». كانت تعنيني أنا والأخت الثالثة وكان هذا صحيحًا، فنحن من نتلفّظ بها، رغم أن الأخت الثالثة أكثر تمرسًا فيها مني. «رحماك يا رب!»، قلتها دون تفكير، بتجرّد من حقيقة - فقد كانت حقيقة - أنني غاضبة وغير مكترثة ومنهكة من والدتي، ومُحبطة من عيشها على كوكب آخر وإصرارها بجهلها على أن أعيش معها فيه. كما أنني كنت أراها شخصية نمطية، كاريكاتورية، شيئًا يستحيل بالطبع أن أتحوّل إليه. لذا قلت «رحماك يا رب!»، وكان قولي وقاحة، وقاحة تأتّت عن ذهن شارد. ولو أنني فكرت في الأمر لخطر لي على الأرجح أنها لن تعير عبارتي اهتمامًا، ولن تفهم نبرة التهكّم فيها، وأنّ رفضي لها سيعبر من فوق رأسها دون أن تنتبه إليه. لكنّ ماما التقطتها، وفهمتْها، وعلى نحو مفاجئ تخلت عن دورها الهزليّ، دور «الأم التواقة إلى أجراس الزفاف». هكذا نزعت ماما ذلك القالب، فبزغ جوهرها الحقيقي. انحنت ماما نحوي، بلحمها وعظمها وعضلاتها وشِدّتها، وبإدراكٍ طارئ مشفوعٍ بالغضب، الغضب المستعرّ، فقبضت على عضدي.

«لا تتبجحي عليّ بغرورك واستعلائك، بتعاليكِ واستحقاركِ وسخريتك. أتظنين أنني لم أعش ما يكفي يا بنت؟ أتظنين أنني معدومة الذكاء، ولم أتعلم أي شيء طيلة هذه السنوات التي بقيت فيها هنا؟ لقد تعلمت أشياءً وأدركت أخرى، وسأخبرك شيئًا منها. أن تكوني بذيئة في كلامك شيء، وأن تكوني مغرورة وتسخري من الآخرين شيء آخر، وهو الأسوأ بين الأمرين. أفضّل أن تجهري بلغتكِ القذرة غير اللائقة بقية حياتك على أن تكوني فتاة جبانة لا تستطيع أن تعبر عن آرائها ومع هذا لا تغلق فمها تمامًا بل تغمغم من وراء يديها وتخوض معركتها خُفْية في همس. هذا النوع من الناس ليسوا أذكياء ولا محترمين بقدر ما يصوّر لهم ظنّهم وافتتانهم بأنفسهم يا بنيّتي. انتبهي لكلامكِ ونبرتكِ، خيّبتِ أملي. لطالما اعتقدتُ أنني ربيتكِ تربية أفضل من هذه». أفلتتْ ذراعي حينها، وهمّت بالذهاب وهو أمر رائع لم يحدث بيننا من قبل. عادةً ما كنت أنا التي يفيض غضبي وأمتعض وأُنهي الحوار مغتاظةً، ثم أستدير وأبتعد عنها. رغم هذا خطوت خطوة وراءها ومددت يدي لأستبقيها: «ماما»، دون أدنى فكرة عما سأقوله بعد ذلك.

لم أكن أعرف الخِزي. وأقصد الخزي بصفته مفردة لغوية، وحدة معجميّة، ذلك أنها لم تكن قد دخلت مفردات الجماعة بعد. كنتُ أعرف شعور الخزي طبعًا، وأعلم أنّ كل من حولي عرفوه كذلك. قطعًا لم يكن شعورًا هيّنًا، بل كان يبدو أبلغ من الغضب والكراهية، وأقوى حتى من الخوف نفسه، أكثر المشاعر تخفّيًا. في تلك الأيام لم يكن من الممكن مواجهة الخزي أو تجاوزه، علاوة على أنه كان على الدوام شعورًا عامًا، يحتاج العديد من الأشخاص كي يزداد تأثيره، بصرف النظر عما إذا كان المرء هو المتسبب في الخزي، أو من شَهِده أو من مُورس عليه. وبما أنه كان شعورًا متشابكًا شديد التعقيد فقد كان العديد من الناس هنا يستبدلون به شتى المشاعر الأخرى بكل الترتيبات

الممكنة؛ فيقتلون الآخرين أو يحطّمونهم لفظيًا أو ذهنيًا، بل لا يتورّعون عن اقتراف ذلك كله على أنفسهم حتّى. ولم يكن ذلك أمرًا نادرًا.

ذلك التغيير في ماما أيقظني. أخرجني من اعتقادي بأنها كانت مجرد قصاصة كرتونية على هيئة شخص. نبّهني إلى الالتباس الذي وقعتُ فيه باعتبار صلواتها القهريّة نابعة من رأس ممتلئ بالترهات بدلًا من اعتبارها نابعة من رأس ممتلئ بالقلق، وصرفني عن تجاهلها بسبب سنواتها الخمسين وأطفالها العشرة، ما يجعل حياتها على وشك النهاية بالتأكيد، دون اعتبار للكيفية التي تعيشها بها. في تلك اللحظة ندمتُ على قول «رحماك يا رب»، أي أنني شعرت بالخزي لأنني قزّمت والدتي. شعرتُ بهذا حتى مع انتقادها إياي وتعذيبها لي ذهنيًا. شعرت بحاجة إلى البكاء رغم أني كنت لا أبكي مطلقًا. ثم شعرت برغبة في الشتم على سبيل التنفيس وكبح البكاء. تبعه إدراكي أنّ بمقدوري إصلاح ما أفسدتُه. ربما هذه هي اللحظة المناسبة لقول «آسفة»، طبعًا من دون التلفظ بها، إذ إن «آسفة» مثل «الخزي»، مفردة لم يكن أحد هنا يعرف كيف يقولها. ربّما نشعر بالأسف، لكن كما هو الحال مع الخزي، لا نعرف كيف نجاري الشعور بالتعبير عنه. عوضًا عن هذا قررت أن أمنح ماما ما كانت تسعى إليه، وأخبرها بكل ما يتعلق بي أنا والحلّاب. وهكذا فعلت. أخبرتها أنني لم أكن على علاقة غرامية به، ولم أطمح يومًا لهذا، بل على النقيض تمامًا، لقد كان هو، هو فقط، من يحاول ويسعى إلى هذه العلاقة. أخبرتها أنه كلّمني مرتين، مرتين لا أكثر، وشرحتُ لها حيثيّات كل لقاء. أخبرتها أيضًا أنه يعرف عنّي أمورًا، يعرف عملي، وعائلتي، وماذا أفعل في المساء بعد العمل، وماذا أفعل نهاية الأسبوع، إلا أنه لم يلمسني بإصبعه ولو مرة، ولا حتى نظر إليّ مباشرةً عدا في اللقاء الأول، مضيفة أيضًا أنني لم أركب معه في سياراته قط، رغم قول الناس أنني أركبها طوال

الوقت. وأنهيت كلامي باعترافي أنني لم أرغب في قول أي من هذا، لا لها ولا لأي أحد. والسبب هو أنّ الناس في هذا المكان يحرّفون الكلام ويفبركونه ويضخّمونه. سأضرّ نفسي إذا ما حاولت أن أشرح شيئًا أو أنتصر لنفسي أمام كل هذه الأقاويل. لذا فضلتُ الاستمرار في الصمت. لم أسأل عن الأمر أي أسئلة، ولم أجب عن أي أسئلة، لم أؤكد شيئًا، ولم أنكر شيئًا. هكذا، كنت أريد أن أضع حدًا فاصلًا يعزل ذهني عن كل هذا. كنت أرجو أن أمنح نفسي السكينة والحماية بهذه الطريقة.

كانت ماما تنظر إليّ دون مقاطعة، لكنني حالما انتهيت، ودون تردد اتهمتني بالكذب وقالت إنّ هذا التضليل مجرد إيغال في السخرية منها. تحدثتْ عن لقاءات أخرى، بيني أنا والحلّاب، إضافة إلى اللقاءين اللذين اعترفتُ بهما. قالت إنّ الجماعة كانت تخبرها بكل شيء، فعرفتْ منهم أنني ألتقيه بانتظام في مواعدات ولقاءات لا أخلاقية، كما عرفتْ أيضًا ما نقترفه في أماكن أفسق من أن تُسمى «نقط نقط نقط». قالت: «أنتِ امرأة منحلّة. تجاوزتِ الأعراف. فقدتِ التمييز بين الصواب والخطأ. أنتِ تصعّبين عليّ محبتكِ، يا بنيّتي، ولو أن والدكِ المسكين حي، لكان له تصرف آخر». أشك في هذا، فبابا كان بالكاد يتحدث إلينا، وكلماته الأخيرة لي وقت احتضاره - ولعلّها كانت آخر ما قاله في حياته - كانت مروّعة ومركّزة عليه هو. «اغتُصبت عدة مرات حين كنت ولدًا صغيرًا. هل أخبرتكِ بهذا من قبل؟». حينها لم أكن أملك من الردّ إلا كلمة «لا»، فقال: «مرات عديدة. عديدة. مرات عديدة فعل بي، بي أنا، الصبي الصغير، وهو، بلباسه وقبعته، يفتح أزراره ثم يسحبني إليه، في تلك السقيفة الخلفية، تلك السقيفة المظلمة السوداء، يفعلها مرة بعد مرة، ثم يعطيني بضع بنسات في كل مرة». أغلق بابا عينيه وارتعد، واقتربتْ الأخوات الصغيرات اللاتي كنّ معي في المستشفى

وشددن على ذراعي. همس لي: «ما معنى اغتُصبت؟ وما معنى كْرَمبي؟[1]»، لأنّ بابا كان يهتمل وهو مغمض العينين: «كرومبي، مرات عديدة للغاية» ثم فتح عينيه مرة أخرى. بدا أنه يسمع الأخوات الصغيرات، رغم أني لا أعتقد أنه كان يراهنّ. مع هذا كان يراني، حتى لو لم يميّز أي ابنة أكون. ليس لهذا أي علاقة بالاحتضار، لأنّ بابا عندما كان حيًا كان يعيش دائمًا في تشتت ذهني، يقضي ساعات طويلة في قراءة الصحف، ومشاهدة النشرات الإخبارية، وأذناه لصيقتان بالمذياع، ثم يخرج إلى الشارع يسمع ويتحدث عن آخر أخبار الخلافات السياسية مع جيران يشاركونه تلك الميول. كان من ذلك النوع، النوع الذي لا يستمع إلى شيء إلا إذا كان ذا صلة بالمشكلات السياسية. فإن لم يكن عن المشكلات السياسية، فعن أي حرب في أي مكان، عن أي مفترس وأي فريسة. كان يقضي الكثير من الوقت أيضًا مع هؤلاء الجيران الذي كانوا يشاركونه الهوس والانغلاق ذاته. أما أطفاله فلا يستطيع أن يتذكر أسماءهم أبدًا، دون أن يمر على قائمة مرتبة زمنيًا في رأسه. وهو حين يفعل ذلك يذكر أسماء أبنائه حتى وإن كان يبحث عن اسم ابنة من بناته، والعكس صحيح. في الأخير، بمروره على القائمة، فإنه سيصيب الاسم الصحيح لا محالة. لكنه استثقل الأمر بمرور الوقت، فتخلى عن الفهرس الذهني، وقرر أن يستخدم «بنيّ» أو «بنيّتي» بدلًا من الأسماء. كان هذا أسهل، ومعه حق. كان الأمر سهلًا إلى حدّ أننا صرنا نستخدم كلمة «أخي» أو «أختي» بدلًا من الأسماء.

---

(1) كرومبي Crombie: معطف صوفي طويل صُمم ليبلغ ثلاثة أرباع طول مرتديه تقريبًا، أخذ اسمه من العلامة التجارية «جي آند جي كرومبي» التي أطلقت هذا النمط من المعاطف، بات يستخدم لاحقًا للمعاطف ذات التصميم المشابه من العلامات التجاريّة الأخرى.

«مؤخرتي». هذا ما قاله بعد ذلك، فضحكتْ أخواتي. «ساقاي، وفخذاي، لكنّ مؤخرتي بالذات. مريعٌ دائمًا ذلك الإحساس، لم يخلّصني منه شيء. تلك الرجفة، تلك الرعدة، تلك التموّجات الصغيرة المستمرة، ظلّت هكذا تراودني، وتزداد فظاعة، طوال حياتي». ثم قال: «ولكن ثمّة تهوّر، يا زوجتي. هَجر، نبذٌ لنفسي من نفسي بدأ قبل سنوات - **كنت سأموت على كل حال، لن أعيش طويلًا على كل حال، سأموت في أي لحظة الآن، سأُقتَل** بوحشية -. فليظفر بي إذن، فقد كان يعلم طوال الوقت أنه سيظفر بي، ولم أستطع أن أمنعه. فلينتهِ كل شيء. لن أعود إلى مكان الرعب ذاك، ولهذا السبب يا زوجتي لم تستقم الأمور بيني وبينك». ضحكتْ أخواتي الصغيرات ثانيةً، على «زوجتي» هذه المرة، رغم أنّ ضحكاتهن خالطها شيء من التوتر. ثم قال بابا بغضب هذه المرة: «هذا الكرومبي، تلك البدلات، ذاك الكرومبي. لم يكن أحد يرتدي معطف كرومبي، يا أخي»، فتشبّثت الأخوات الصغيرات بي. عندها سألني بابا وهو ينظر إليّ مباشرة، وبدا لوهلة أنه يدرك من أنا: «هل... اغتصبك، يا أخي... أنت أيضًا؟». همستْ الأخوات الصغيرات: «أختي الوسطى؟ لماذا يقول بابا —» ولكن لم ينهين السؤال، بل اقتربن أكثر فأكثر من ورائي. مات بابا من مرضه تلك الليلة بعد أن غادرتُ أنا والأخوات الصغيرات، فيما جاءت ماما والآخرون إلى المستشفى ليبقوا معه. بقي لي منه وشاحه وقبعته المسطحة، وبغضٌ دام طيلة حياتي تجاه كلمة «كرومبي [Crombie]» التي ظننتُ أنها «كْرَمبي [Crumbie]» حتى عثرتُ عليها في المعجم تلك الليلة حالما عدت إلى البيت.

والآن ماما غاضبة، تهدّدني ببابا الميت لأني كذبت، بينما لم أكذب، ولأني كما تقول حططت منها ومن نفسي بكذبي وقسوة قلبي، بينما الحقيقة هي أننا لم نكن نثق ببعضنا البعض. قالت ماما: «أنتِ لا تحترمين أوامري»، وقلت

لها: «أنتِ لا تحترمينني». وردًّا على كلامها رفضتُ التحدث مرة أخرى، فأكّدتُ لها ظنّها، ورضيتُ برغبة المراهقة في رفض أية محاولة رُبما وُجدت بيننا لفرض السلطة. وقلتُ في نفسي هذه هي حياتي وأنا أحبكِ، أو ربّما لا أحبكِ، يا أمي، ولكن هذه أنا، هذه قناعتي وتلك حدودي. لم أقل هذا لها، لأنني لن أستطيع قوله دون أن يقودنا إلى الشجار، وكنا دائمًا نتشاجر، دائمًا ما تهاجم إحدانا الأخرى. لذلك أغلقتُ فمي وأخذتُ أردّد في رأسي: رحماك يا رب، رحماك يا رب، رحماك يا رب، رحماك يا رب، وقد توقفتُ منذ تلك اللحظة عن الاهتمام بما إذا كانت مستاءة مني أم لا. من الآن فصاعدًا لن تحصل على شيء مني. لكن ألم يكن هذا الحال دائمًا؟ ألستُ دائمًا في نظرها متحجرة القلب؟ ألم تكن دائمًا في نظري مجرد نصل جارح؟

وها أنذا في اليوم التالي، مع الصهر الثالث، نجري في منطقة الحدائق والسدود. كان يغمغم غمغماته المعتادة وأنا أحاول أن أشغل بالي، ليس بالحلّاب طبعًا كما تعتقد ماما - بل وكما يعتقد الجميع - بل بشبه الحبيب الذي كنت سألتقيه عند الغروب تلك الليلة. أما الحلّاب، فلم تبد أي علامة على وجوده، وهذا لا يعني بالضرورة أن أقول: «مرحى! تخلّصت منه! رائع!». إذ من الوارد بالطبع أنه يحوم حولنا. فقوات الأمن المتخفية والاستخبارات العسكرية المتخفية، وأصحاب الملابس المدنية الذين يتظاهرون بأنهم ليسوا عسكريين بملابس مدنية، بالإضافة إلى أهل المنطقة ذوي النشاط المشبوه ممن «يُلمَحون ثانية، ثم يختفون في التالية ويعاودون الظهور فيما بعدها»، كل هذا جعل منطقة الحدائق والسدود مكانًا مناسبًا للمراقبة. ولكن لم تظهر أية إشارة، وقد كان غياب الإشارات هذا مبشرًا، أي أنّ بإمكاني أن أهدأ، بإمكاني أن أستمر في تماريني القهرية بسلام وسكينة، برعاية وتوجيه الصهر الثالث الذي يتمرن بجانبي. عادة لا نتحدث أو ندردش أو نشجّع على تبادل

الكلمات أثناء جرينا عدا أسئلة مثل «هل نزيد السرعة هنا صهرتي؟» أو «هل نضيف ميلًا آخرًا في النهاية، أيّها الصهر؟» أو أي عبارات أخرى لها علاقة بالتمارين. لكنّ الصهر هذه المرة لم يكن أنيسًا ومُطَمئِنًا كعادته.

سألني: «هل لي أن أتطفل عليكِ قليلًا بالحديث في موضوع خاص؟». صَعَقني ذعرًا، إذ لم تكن من عادته أن يتطفّل هكذا. قلتُ لنفسي فورًا لا بدّ أنّه موضوع الحلّاب. سيتحدث الآن عن الحلّاب، فلا بد أنه سمع الأقاويل، رغم أنه من الصعب تصديق أن يسلّم الصهر الثالث - المعقل الأخير الذي يمكن أن يقاوم هذا السلوك - أمره للأقاويل لتحرّكه وتوجّهه. ولكن تبيّن أنّ الأمر ليس كما ظننت. فقد شرع في محاضرة مرتّبة بدا أنه كان يفكّر فيها منذ مدة. كان الموضوع يخصّ قراءتي أثناء المشي. الكتب والمشي. أنا، مع المشي، مع القراءة. هذا الموضوع مرة أخرى. فقلت له: «هل تكلّمني أنا؟ ماذا تقصد؟ لم تتحدث معي في حياتك». فأجاب: «لا يجدر بكِ أن تفعلي هذا، فهو تصرف غير آمن، ليس طبيعيًا. تضرّين نفسك. بفعلكِ هذا تطفئين انتباهك لما حولك، تعزلين نفسك، وكأنكِ تمشين وسط الأسود والنمور وأنتِ لا تدرين، فتضعين نفسك تحت رحمة قوى ظلامية قاسية. وكأنكِ تسيرين ويداكِ في جيبيكِ—»، «ولكن عندها لن أستطيع أن أمسك كتابًا—»، «نكتة سخيفة. الأمر وما فيه أنّ أي أحد يمكنه التسلل قربك، والركض إليك. يمكن لأي أحد أن يلاحقكِ بسيارته يا صهرتي. يمكنهم استهدافك بينما أنت غير متيقظة، وقد أرخيتِ دفاعاتك دون أن تتفحصي ما حولك، وإن كنتِ تقرئين قراءة جهرية—»، «أرجوك، لا تتحدث عن القراءة الجهرية!». كان الأمر يزداد سخافة. «لكنكِ مصرّة على مسألة القراءة الخطرة أثناء المشي هذه، وحجب وعيكِ عما حولك، وعدم الانتباه وتجاهل...». ما يقوله هذا لا قيمة لا، خاصة وأنّه يأتي من شخصٍ لا يعلم شيئًا عن الخلافات السياسية

في السنوات الإحدى عشرة الماضية والتي ما تزال مستمرة. كان جهله بها رادعًا آخر أستخدمه ضدّ الحلّاب. فمن انحرافات الصهر الثالث الذهنيّة، إلى جانب نظرته للنساء، وفق إحدى الشائعات، أنه منشغل في الرياضة والعراك لدرجة أنه لم يلحظ المشكلات السياسية طوال عقدٍ كامل. كان لهذا أهميّته بسبب غرابته، وكنت واثقة من أنه سيبعد الحلّاب.

لم أكن أنا مهتمة كثيرًا بهذه المشكلات السياسية، لكنني كنتُ أعيرها على الأقل الحدّ الأدنى من الاهتمام، فلم يكن بإمكاني أن أتفادى ما يتسرّب إليّ قسرًا. في حين أنّ الصهر الثالث لم يكن يهتمّ حتى بما يتسرّب إليه، ولا بالاضطرابات السياسية أو الاجتماعية الواضحة في المكان والزمان اللذَين يعيش فيهما. فمضى هكذا بغمامةٍ على عينيه، لا يعي شيئًا، وهو أمر غريب، غريب للغاية. كنتُ أنا أيضًا أعتبر الأمر غريبًا، ما يعني أنّ الحلّاب - وهو المبشّر بالحلم الأيديولوجي، جالب الرؤية، الذي يكرّس حياته من أجل غايةٍ لا يدرك وجودها هذا الشخص الطائش المنغمس تمامًا في تمارينه ومعاركه الشخصية وهو على مقربة منه - سيعتبر هذا الجهل أمرًا مربكًا، إن لم نقل دليلًا على جنون الصهر الثالث. يقودنا هذا إلى الحديث عن مسألة الاضطراب الذهني، إذ يوجد في منطقتنا نوعان من الاضطرابات الذهنية. الأولى هي البسيطة المقبولة لدى الجماعة، والثانية هي غير البسيطة التي تتجاوز الأعراف. أما المصابون بالنوع الأول فهم مقبولون في المجتمع، بل كان الجميع هكذا تقريبًا، بمن فيهم السكّيرون وهواة العراك وأعمال الشغب المنتشرون في هذا المكان. الشرب والعراك والشغب أمرٌ معتاد، بل ضروري، ومن الصعب إدراك أنه اضطراب ذهني. كما يندر اعتبار القيل والقال والسريّة والبوليسية الجمعية، إضافة إلى قواعد المسموح والممنوع البارزة، اضطرابات ذهنية ها هنا. فيما يتعلق بالاضطراب البسيط، فالتقليد المتّبع هو أن نتماشى معه، أن نغضّ الطرف عنه، ذلك أن الحياة تمضي إن تغاضينا. ومن

المستحيل في ذلك الوقت أن تمنح أولئك الناس كلّ جهدك كي تصحّح تلك الاضطرابات. ولا يمكنك أن تخصّص لهم نصف جهدك، ولا خمس عشرة بالمئة منه. ربما تستطيع تخصيص خمسة بالمئة من جهدك لهم، أو ربما اثنان بالمئة فقط. أما ما يصنّف على أنه اضطراب متجاوز للأعراف، فيستحيل أن تمنحه أي نسبة على الإطلاق. للمتجاوزين سلوكيات بسيطة مضحكة أقرّت المنطقة بأنها مضحكة للغاية. لم تعد مقبولة، لم تعد متّسقة مع غموض العقل البشري بما يكفي لقبولها. كان هذا قبل أيام المجموعات الهادفة إلى رفع الوعي، وورش التطوير الذاتي، والبرمجة التحفيزية، قبل كل هذه الأزمنة الحديثة التي تتيح لك أن تقف وتتلقى التصفيق لاعترافك بأن ثمة مشكلة في رأسك. أما في تلك الأيام فعلى العكس من هذا، كان خيرًا لك أن تتجنب تمامًا لفت الأنظار إليك بدلًا من الاعتراف بعاداتك الشخصية المميزة التي لا تتناسب مع معيار الاعتياد الاجتماعي. فإن لم تفعل، ستجد نفسك وقد صُنِّفت شخصًا ناشزًا سيكولوجيًا، وتُحشر مع الناشزين الآخرين على هامش المجتمع. في ذلك الوقت لم يكن هناك كثيرون على الهامش في منطقتنا. كان لدينا الرجل الذي لا يحب أحدًا، وذوات القضيّة، والفتى النووي وفتاة الأقراص وأختها. وأخيرًا أنا، ونعم لقد استغرقت بعض الوقت لأدرك أنني أيضًا كنت ضمن تلك القائمة. لم يكن الصهر الثالث ضمن القائمة لكنّ هذا لا يعني أنه لم يكن يستحق ذلك. فإن أخذنا في الاعتبار ولاءه المعلن للنساء، وعبادته إياهنّ وتأليههن وتبجيلهن، واعتقاده أن في النساء تكمن حياة الأشياء على الأرض، وتنوّعها وطبيعتها واستمراريتها وجانبها الأسمى، واعتقاده أن أفضل ما في الموجودات وأشدها نموذجيّة وغموضًا إنما يكمن في النساء، وإن أخذنا في الاعتبار أيضًا أننا نتحدث عن سبعينيات القرن العشرين، فلا يمكن في الظروف الطبيعية أن لا يوضع في قائمة متجاوزي أعراف المنطقة. لكنّه كان محبوبًا، وهذا ما أبقاه خارج القائمة. لكنّ انتقاده لي

الآن جعلني أنتهز مسألة جهله بوضعنا السياسي.

قلت له: «المعذرة، يا صهر، لكن بالنسبة للمشكلات السياسية، هل سمعتَ بها؟»، فقال: «أي مشكلات سياسية؟ هل تقصدين الأحداث المأساوية؟ والفقد؟ والاضطرابات؟ والحزن؟»، فقلت: «أي أحداث مأساوية وحزن؟ أي اضطرابات؟ أي فقد؟ عذرًا، هذا غباء». وحينها أدركت شيئين. الأول هو أنّ تلك الشائعة التي دارت طويلًا حول انعزال الصهر الثالث في عالم اللالا[1] بعيدًا عن المشكلات السياسية كانت خاطئة، إذ تبيّن لي أنه على اطلاع بالمجريات السياسية. أما الأمر الثاني فهو أنّ الجماعة، وربما كلتا الجماعتين، وربما حتى بلد «ما وراء البحر» وبلد «ما وراء الحدود» أيضًا، قد أوصلوا الأمور إلى حدّ أن أصبح يُشار إلى المشكلات السياسية بالأحداث المأساوية والفقد والكلام الذي قاله قبل قليل. قال: «يبدو أنني أعرف عن الحالة السياسية أكثر منكِ. وهذا أيضًا ليس مستغربًا، فكما قلتُ لكِ يا أختي أنتِ غير متيقظة، كما هو واضح من قراءتك أثناء المشي. لقد رأيتكِ بأم عيني مساء الأربعاء الماضي وأنتِ تقترفين جنونًا اجتماعيًا بدخولكِ المنطقة وأنتِ عمياء تمامًا عن أدنى القوى أو التأثيرات المحيطة بك. مُطرقة رأسكِ ومصباح قراءة صغير جدًا يضيء على صفحاتك. لا أحد يفعل مثلكِ. هذا بمثابة —». سألته: «**أنت تعلم بأمر المشكلات السياسية؟**». فأجاب: «بالطبع أعلم. أتظنين أنني الفتى النووي؟ غارق في قضية القنبلة الذرية بين الأميركان والروس إلى حد أنني لا أدري بأن أخي أُردِي قتيلًا وسقط دون رأس بجانبي؟». كانت هذه إشارة إلى أحد متجاوزي الأعراف في منطقتنا. الفتى النووي هو الشقيق الأصغر لفلان الفلاني، وهذا الفلان

---

(1) La-La land: «لا-لا» إشارة إلى صوت غناء هانئ، يقال أن المرء في أرض اللالا دلالة على انغماسه الذاتي في شؤونه الحالمة وانفصاله عن الواقع.

الفلاني واحد من الذين رشّحَتْهم لي ماما للزواج، وهو الفتى الذي سوف يدخلني تحت تهديد مسدسه إلى حمام أشهر نادي شرب في منطقتنا بعد الكمين الذي قُتل فيه الحلّاب. على أية حال، أخوه الفتى النووي. كان في الخامسة عشرة من عمره ويعاني من مشكلة التسلّح النووي. كان سباق التسلح بين أميركا وروسيا همًا أرسخ عنده من أن يسكته أحد عنه. كان قلقًا منفعلًا على الدوام، ولو أنه كان قلقًا ومنفعلًا من تكدّس السلاح في بلادنا على إثر المشكلات السياسيّة لكان الأمر معقولًا ولا بأس به. لكنه كان مهتمًا بالأسلحة النووية المتكدسة في مكان بعيد جدًا، في مكان آخر. أي في أميركا وروسيا. كان يثير قلق الجميع بثرثرته وإسرافه في الحديث عن أمر كارثي وشيك. كان يقول إنّ هذه الكارثة ستحدث بسبب بلدين أنانيين طائشين يعرّضان بقية الدول الأخرى للخطر، كان دائم الحديث عن أميركا وروسيا، ولا يدرك شيئًا مما يحدث هنا تحت أرنبة أنفه. لم يقلق أبدًا حيال ما يحدث هنا، لم يقلق حتى عندما فُجِّر رأس أخيه المقرّب إليه في منتصف الأسبوع، في منتصف الظهيرة، في منتصف الشارع، هناك أمام عينيه تمامًا. آنذاك كان هذا الشقيق، ثاني الإخوة الكبار، البالغ من العمر ستة عشر عامًا، الفرد الأهدأ والأحب في تلك العائلة، يشق طريقه عبر الشارع باتجاه أخيه الهلِع المتوتر، ليتحدث معه كي يهوّن عليه جنونه النووي. ثم في لحظة صار هذا المراهق على الأرض وقد فقد رأسه كله. لم يعثر أحد قط على الرأس حتى بعد أن هدأ الصخب. وقد بحث الناس عنه. بحث الرجل الذي لا يحب أحدًا – كان واحدًا من متجاوزي الأعراف – وبعض الرجال الآخرين، بل العديد من الرجال، حتى بابا، جميعهم بحثوا عنه أيامًا وليالي. بعد الانفجار، استغرق الأمر من الفتى النووي بعض الوقت كي يلتقط نفسه من المكان الذي طرحه فيه الانفجار، ثم استجمع قواه، فتذكر أخيرًا أين توقف في كلامه عن أميركا وروسيا، ثم واصل من حيث انقطع على الفور. في وسط الصرخات عاد إلى

القلق، عاد مباشرةً إلى القلق. قال إنّه ليس وحده من ينبغي أن يقلق. بل يجب أن نقلق كلنا، ليس هو وحسب. لا يمكن لأحد أن يتجاهل الخطر الذي تحيكانه روسيا وأميركا المجنونتان، بينما نعتقد جميعنا أنّ بمستطاعنا تجاهله. هكذا إذن كان الفتى النووي أحد هؤلاء المنبوذين، متجاوزي الأعراف، وقد استحق هذا بسبب هوسه الغريب بالحرب الباردة. وهذا يعني أنك حين تراه قادمًا، فلا بد أن تطرق رأسك مسرعًا خاطفًا كوميض للاتجاه الآخر. وها هنا الصهر الثالث يقول إنه ليس الفتى النووي، وإنه واعٍ سياسيًا واجتماعيًا، وإنه بفضل عادته في استقصاء البيئة واستكشافها يكون نقيض الفتى النووي تمامًا. ثم قال إنّ معرفتكِ بشيءٍ ما لا تعني ضرورة أن تنشريه عبر كروم الأقاويل. وأضاف قائلًا: «وفيما يتعلق بالأقاويل، عليّ القول يا صهرتي إنني لم أتوقع منكِ أنتِ بالذات أن تسهمي في إدامة الشائعات، ناهيكِ عن نشرها عبر وسيلة منتشرة ومشوِّهة كهذه». عندها جرينا في صمت لبعض الوقت، وهو يفكر فيما يفكر فيه بينما أفكر أنا كيف حدث وأصبحت أنا الشخص الذي يلتفت للأقاويل الآن؟ كما أنه يعرف حقًا بأمر المشكلات السياسية، وينتقدني **أنا** بينما هو نفسه متجاوز صريح، لكنّ قبوله بين أهل المنطقة هو الذي منحه استثناء. عاد الصهر إلى تطفله مجددًا، التطفل الذي لا يتسق مع شخصيته حين تطرق إلى مسألة الكتب. قال: «نعم، تلك الكتب، وذاك المشي»، وتحدث في الأمر من زاوية أخرى هذه المرة، فقال إنني إن لم أتوخّ الحذر سأُنفى إلى أقصى الظلام، سأنبذ دون رحمة لأنني بهذا أصبح من متجاوزي الأعراف. كان قد أخطرني مسبقًا بأن الحديث يدور عني بصفتي القارئة أثناء مشيها. قلتُ لنفسي إنه هراء. لكنه يواصل حديثه الآن منفعلًا في تصويره ومبالغته. قلت له: «حسنًا، إذا توقفتُ عن المشي أثناء القراءة، وأبقيت يديّ ومصابيحي الصغيرة في جيوبي، والتفتّ يمنة ويسرة ويمنة مجددًا تحسّبًا للقوات الخطرة عديمة الضمير، هل يعني هذا أنني سأصبح

سعيدة؟». فقال: «ليس للأمر أي علاقة بالسعادة». هذا القول الذي كان، وما يزال، أتعس تعليق سمعته على الإطلاق.

لكنه لم يأتِ على ذكر الحلّاب. ولا بحرف. ها هو الصهر، ليبارك الرب روحه، لم يسلّم أذنيه للشائعات، وهذا يتسق مع احترامي له بصفته شخصًا لا يميل إلى الشائعات. وبالطبع لم أذكر الحلّاب أنا أيضًا لأنني - تمامًا مثلما يحدث معي أنا وشبه الحبيب في خشيتي من التوهم، أو من محاولة التوضيح التي ينتج عنها إساءة فهمي أو خوفي من ألّا أحمل على محمل الجدّ وحسب - لم أعرف في تلك الأيام كيف يمكن أن أتحدث عن هذا المأزق الذي وجدتُ نفسي فيه الآن. لم أكن أتحدث لأي أحد عن أي شيء. يعود السبب جزئيًا إلى أنني لم أعتد أن أخبر أحدًا بأي شيء من الأساس، وجزئيًا لأنني لم أعرف كيف وماذا أقول، وأيضًا ما يزال من غير الواضح إن كان ثمة شيء من الدقة في الأمر الذي قد أقوله. فما الذي فَعَله أصلًا؟ بالتأكيد شعرتُ أنّ الحلّاب هذا قد فعل شيئًا، وأنه على وشك أن يفعل شيئًا، وأنه يعمل بتدرّج ليصل إلى فعل شيء. أعتقد أيضًا أنّ الآخرين في المنطقة فكّروا مثلي تمامًا بلا شك، وإلا فلماذا كلّ تلك الأقاويل؟ الأمر وما فيه أنه لم يلمسني لمسة جسديّة. بل إنه في المرة الأخيرة لم ينظر إليّ حتى. فأين مسوّغي إذن لأتحدث عن اندفاعه غير المرحب به؟ هذا ما كانت عليه الأمور في هذا المكان. لا بد أن يكون كل شيء ملموسًا، لا بد من أن يكون منطقيًا وفق ثقافتنا كي يصبح مفهومًا. لم أستطع أن أخبر الصهر عن الحلّاب، ليس لأنه سيندفع دفاعًا عنّي، وسيضرب الحلّاب، ثم يعرّض نفسه للقتل فتنقلب حينها الجماعة على الحلّاب، فيقود هذا بدوره الجماعات شبه العسكريّة المناوئة إلى التضييق على الجماعة. ثم ستضيّق الجماعةُ الخناق على المناوئين وترفض إخفاءهم، أو إيواءهم، أو إطعامهم، أو نقل الأسلحة لهم. إضافة إلى أنها لن تحذرهم من الخطر ولن تداوي إصاباتهم. ستؤدي الحادثة إلى الفرقة، سينتهي هذا التآزر

المطلوب لهزيمة الدولة المعادية. لا. لم يكن امتناعي بسبب كل هذا. بل لأنّ الصهر لن يصدّق وجود شيء غير جسديّ بين شخصين. أنا أيضًا شاركته هذا الاعتقاد، كالبقية، فحين لا يقوم الشخص بفعل جسدي كيف يمكن أن يكون قد فعل شيئًا؟ أي كيف لي أن أفتح فمي وأهدد بنشر التفكك في الوضع الراهن؟ مع استحالة هذا في سياق المشكلات السياسية الحالية، فثمة أشياء ضخمة، وأشياء جسدية مزعجة، بكل تأكيد، تحدث يوميًا، على مدار الساعة، على مدار النشرة الإخبارية التلفزيونية. أما بالنسبة إلى شائعتي أنا والحلّاب، لماذا يجب أن يقع نفيها على عاتقي؟ لم عليّ أن أنفي أقاويل أشخاص يغذّون الأقاويل ومن الواضح أنهم لن يرحبوا أيضًا بدحض أقاويلهم؟ وأيضًا بالنسبة لليقظة ونقيضها، والوعي من عدمه، من رأيي أنني بقراءتي أثناء مشيي كنت أفعل الأمرين في الوقت نفسه. ولم لا؟ كنت أدرك أنني بقراءتي أثناء المشي كنت أفقد الصلة جوهريًا بآخر المستجدات في الجماعة وأنّ هذا بالتأكيد مخاطرة. من المهم أن تكون مطّلعًا ومواكبًا خاصةً وأنّ التطورات تحدث بتسارع شديد. من الجهة الأخرى، حين تكون مواكبًا، واعيًا ومتنبّهًا على كل شيء - على الشائعات والواقع - فهذا لا يحول دون حدوث الحوادث، ولا يتيح لك التدخل أو إلغاء الأشياء التي حدثت بالفعل. المعرفة لا تضمن لك القوة، كما لا تضمن لك السلامة أو الارتياح وفي الغالب تعني للبعض نقيض القوة، نقيض السلامة والارتياح، كما أنها لا توفّر مخرجًا لتشتيت كل الحماس المتّقد الذي يتراكم وأنت تتابع كل شيء. كان هذا بالضبط الغرض من قراءتي أثناء المشي: أن لا أعرف. كان عدم التيقّظ في حدّ ذاته تيقظًا، وعودتي للتمارين مع الصهر أيضًا، كانت ضربًا من هذا التيقظ. هكذا إذن فما دمتُ أستطيع أن أتجاهل هجومه غير المسبوق على قراءتي أثناء المشي، وحديثه المستفيض عن التمارين، وهو في رأيي دثارٌ يستخدمه لحمايته، سأجري مع الصهر فلا أضطر إلى البقاء وحدي

في منطقة الحدائق والسدود. بهذا سأكون مع شخص، ذَكَر أيضًا، وهذا عون لي إذ أدركت أنّ الحلّاب يعمل على نحو أفضل في حالات العزلة. بالجري مع الصهر يمكنني أن أواصل حياتي وكأن لا أهمية للحلّاب هذا ولقاءينا السابقين، بل كأنهما لم يحدثا أصلًا.

تبيّن أنّ مشكلة الصهر متعلقة بالكتب، الكتب وحسب، تكمن المسألة عنده في «المشي والكتب»، وقد قررتُ أن أسامح الصهر على انتقاده الذي لا يناسب شخصيته، ونفّذت القرار فورًا، ثم حينما صرنا نجري بقرب السدّ العلوي التقطتْ إحدى الأشجار صورة لنا. أصدرت هذه الكاميرا المخفيّة صوتًا، تكتكة واحدة، تكتكة قوات الدولة، كما حدث بالضبط قبل أسبوع من تلك الشجيرة قرب السدّ نفسه. هجست بقول ربّاه، لم أحسب حسابًا لهذا، لم أفكر في أنّ الدولة ستحسب على الحلّاب أي فرد محسوب عليّ لأنهم يحسبونني الآن على الحلّاب. خلال أسبوع منذ التكتكة الأولى، سمعتُ أربع تكتكات. واحدة في وسط البلدة، وواحدة حين كنت أمشي في البلدة، ومرتان وأنا خارجة من البلدة. صوّروني من سيارة، ومن مبنى يبدو مهجورًا، كما سمعتها من أشياء أخرى مخضرّة. وربما كانت هناك تكتكات أخرى لم أنتبه لها. في كل مرة أومضت الكاميرا وأنا أعبر. يبدو أنني وقعت ضمن تصنيفٍ ما، ربما التصنيف الأوسط، كجزء من المرض، من العدوى الثورية. وبات الآخرون الذين يرافقوني الآن، مثل الصهر البريء، محسوبين على المحسوب. على أية حال تجاهل الصهر التكتكة تمامًا، كما فعل الحلّاب. سألته: «لمَ تجاهلت تلك التكتكة؟»، فقال: «دائمًا أتجاهل التكتكات. ماذا تتوقعين منّي أن أفعل؟ أثور؟ أكتب رسائل ضدها؟ أدوّنها في يوميّاتي؟ أشتكي؟ أكلّف سكرتيري بالتواصل مع مسؤولي المظاهرات السلمية لحقوق الإنسان في منظمة العفو والمظالم الدولية بالأمم المتحدة؟ أخبريني، أختي، بمن أتصل وماذا أقول، وما دمنا في هذا الموضوع، ماذا ستفعلين أنتِ

بخصوص التكتكة؟». الحقيقة أنني كنت سأصاب بفقدان للذاكرة طبعًا. بل إنني فقدتها بالفعل. قلت له: «لا أعرف ماذا تقصد. لقد نسيت». لقد سببتْ لي صراحته المباشرة حالةً من الجامي فو. هذه إجابتي، فالأمر الذي لا بد أن يكون مألوفًا لن يصبح كذلك عندي، إلا أنّ ثمة ما هو مريح في مسألة الكاميرا هذه أيضًا.

لم يُبد الصهر أي إحساس بالمفاجأة عند التكتكة، ولم يبد جهلًا بها. بل أقرّ بمعرفته، ليس معرفته بهذه التكتكة وحسب، بل بتكتكات أخرى سابقة له وحده لا صلة لها بي أو بالحلّاب. قال: «يفعلون هذا دائمًا. يصوّرون الناس لحفظ السجلات»، أي أنّ بمقدوري الآن الكفّ عن القلق والشعور بالذنب فيما يتعلق بإيقاع شك الدولة على رأس الصهر، فتوقفتُ عن القلق. نفضتُ الأمر عن رأسي وواصلنا الجري، فيما استعاد الصهر إيقاعه، ليس في الجري، بل في الحديث عن ضرورة الكفّ عن القراءة أثناء المشي. لم أنصت. فلا مناص من القراءة أثناء المشي عندي. رغم هذا ظللتُ هادئة. فما حاجتي إلى الضجيج والحال أني قد اتخذت قراري سلفًا وسأمضي فيه؟

لذا واصلنا الجري، وقد تخلى أخيرًا عن نقاشه بخصوص القراءة أثناء المشي وانزلق عائدًا إلى تفاصيل إدمانه على التمارين المعتادة. هذه المرة كان يناقش إذا ما كان على المرء أن يُجري تمارين الجسم للعضلات المفرّقة أم لكامل الجسم، وإذا اختار المفرّقة فهل تكون على قسمين أم ثلاث؟ لا بأس عندي في كل هذا ما دمتُ قادرة على تجاوز المزيد من إصراره المتدفق. لا يعني هذا أنني أتجاهل الصهر، لأنني ككل نساء المنطقة أحبه كثيرًا جدًا جدًا. كما أنني ممتنة له، ليس لأني أستطيع أن أستعيد جولات جريي معه بعد أن أثبتّ نجاح خطتي في طرد الحلّاب، بل لأني أشعر في صحبته بالأمان، أشعر بالأمان في معرفته وألفته، أشعر بالاسترخاء المصاحب له، لكوني أستطيع أن

أكون في صحبة شخص لا يتدخل أو يلقي لي محاضرة عن قناعاتي في معظم الأوقات على الأقل. ليس لديه أي أجندة خفيّة، وبالطبع أنا الشخص ذو الأجندة هنا. نسيتُ أن أذكر أيضًا مقدار استمتاعي بالجري معه، إذ لدينا مفهوم متقارب للجري ونظامه. تلاشى في الأخير حديث التمارين الجسدية وعدنا إلى عادتنا بالجري في صمت. مرة واحدة فقط قال: «هل نجري أسرع، صهرتي؟ لا نريد أن نصل إلى حدّ المشي، أليس كذلك؟». أما الحلّاب وسعيي لطرده عبر جدولة جريي مع الصهر الثالث، فقد حققت حينها ما خططت له تمامًا.

الفصل الثالث

أما اللقاء الثالث بالحلّاب فقد وافق ظهوره الوجيز بُعيد درس اللغة الفرنسية المسائي للكبار. تُعقد هذه الدروس في وسط البلدة، وتحدث خلالها أشياء غريبة، لا تكون لها علاقة بالفرنسية عادةً. بل في كثير من الأحيان كانت هذه الأشياء أكثر من الأشياء المتعلقة باللغة الفرنسية. في درسنا الأخير هذا مساء الأربعاء، كانت المعلمة تقرأ من أحد الكتب. كان كتابًا فرنسيًا، كتابًا فرنسيًا حقيقيًا، من النوع الذي يقرأه أهل اللغة أنفسهم دون الشعور بأنه أدنى من قدراتهم. قالت المعلمة إنها تقرأ منه لتعوّدنا على صوت الفرنسية الأصلية عندما تُغزل مفرداتها ببعضها في فقرات طويلة متصلة، كما في النصّ الأدبي الذي اختارته. لكنّ المشكلة هي أنّ السماء في ذلك النص الذي تقرأ منه المعلمة لم تكن زرقاء. في نهاية المطاف قاطعها أحد الملتحقين بالدرس - وكان المتحدث باسمنا جميعًا - لأنه لم يستطع تحمّل ما سمعه. ثمة خطب شعر على إثره بالواجب في أن يشير إليه.

قال: «لستُ أفهم. هل هذه الفقرة عن السماء؟ إن كانت كذلك فلم لا يقول الكاتب هذا ببساطة؟ لم يعقّد الأمور ويزخرف الكلام في حين أنّ كل ما يحتاج إلى قوله هو أنّ السماء زرقاء؟».

«نعم! نعم!» صحنا مؤيدين، ورغم أنّ بعضنا، مثلي أنا، لم يصرخ بها إلا أننا أيدناه في دواخلنا. وصاح كثير من الآخرين: «السماء زرقاء!، السماء زرقاء[Le ciel est bleu! Le ciel est bleu!]». «هكذا تتضح

الأمور. لِمَ لَمَ يقل هذا وحسب؟».

أربَكَنا هذا الأمر، وليس قليلًا، إلا أنّ المعلمة ضحكت، وهذا شيء كانت تفعله كثيرًا. تضحك لأنّ لديها قدرًا من حس الفكاهة يُفقِد المرء أعصابه، وهو أمر آخر يكدّرنا منها. نحار كلما ضحكت، أنضحك معها ويملؤنا الفضول فنسألها عن سبب ضحكها، أم نغضب ونشعر بالإهانة ونحتدم غيظًا. هذه المرة، كالعادة، اخترنا أن نحتدم غيظًا.

تذمّرتْ امرأة قائلة: «يا لها من مضيعة للوقت وخلط للمواضيع. لا يجدر أن يُدرَج هذا الكاتب في درس اللغة الفرنسية حتى وإن كان فرنسيًا ما لم يكن له علاقة بتدريسها. هذا صف «تعلم لغة أجنبية»، وليس صف تحميلنا أعباء اجتزاء نصوصٍ من اللغة ذاتها لنكتشف ما إذا كانت قصيدة أو شيئًا آخر. لو أننا أردنا الصور البلاغية والمحسنات البديعية، حيث يعبّر الشيء عن شيء آخر في حين أنّ الشيء المعبّر عنه يمكن أن يعبّر عنه مباشرة بسهولة، لالتحقنا بصف الأدب الإنجليزي مع أولئك الغريبين في آخر الممر». فصحنا: «نعم!»، وأكّدنا على ضرورة تسمية الأشياء بمسمّياتها، قلنا «المجرفة هي المجرفة!» وألحقناها بهتافنا السابق: «Le ciel est bleu! Le ciel est bleu!»، وقلنا أيضًا: «ما الفائدة من ذلك؟ لا فائدة». أومأ الجميع برؤوسهم وخبطوا على الطاولات، يدمدون تارةً ويهتفون تارة. وأخيرًا ارتأينا أن وقت التصفيق لأنفسنا والمتحدثين باسمنا قد حان.

فقالت المعلمة بعد أن انتهى التصفيق: «حسنًا، هل تعتقدون أنّ السماء لا يمكن أن تكون إلا زرقاء؟».

فقلنا: «السماء زرقاء فعلًا. وماذا يمكن أن تكون غير زرقاء؟».

كنا ندرك بالطبع أنّ السماء يمكن أن تتلوّن بغير الأزرق، بلونين آخرين

في الواقع، ولكن لماذا قد يعترف أي منّا بذلك؟ أنا نفسي لم أعترف بهذا قط. ولا حتى في الأسبوع السابق حين شاهدتُ غروب الشمس لأول مرة مع شبه الحبيب، حتى وأنا أراها تصطبغ يومها بألوان غير ألوان السماء الثلاثة المقبولة: الأزرق (لون السماء نهارًا)، والأسود (لون السماء ليلًا)، والأبيض (لون السحاب). مع ذلك كله لم أنبس ببنت شفة. كما أنّ الآخرين في هذا الصف - وجميعهم يكبرونني، بعضهم في سنّ الثلاثين - لم يعترفوا بهذه الألوان العديدة أيضًا. فالعُرف هنا ألّا نقر بها، ألّا نقبل وجود التفاصيل؛ لأنّ هذا النوع من التفاصيل يعني وجود إمكانية للاختيار، والاختيار يعني المسؤولية، فماذا لو فشلنا في مسؤوليتنا؟ وفشلنا أيضًا في المُساءلة المتعلقة برؤية ما لا نستطيع التأقلم معه؟ والأنكى من ذلك، ماذا لو كان الاختيار جميلًا، فأفرَحَنا، فأحببناه وألفناه ووثقنا به، ثم غادَرَنا، أو صودر منا، دون أن يعود أبدًا؟ لذلك ساد بيننا الحس القائل بأفضلية ألّا نحصل على حق الاختيار أصلًا، لهذا كان الأزرق وحده لون سمائنا. مع ذلك، لم تسمح المعلمة للأمور أن تقف عند هذا الحد.

قالت: «هكذا إذن؟»، وكانت تتظاهر بالاندهاش الذي يؤكد شكوكنا حولها. باختصار، شكوك تقول إنها ليست سوى شخص متجاوز للأعراف. إذ رغم أنني في وسط البلدة، أي أنني خارج منطقتي، أي أنني خارج نطاق ديني، أي أنني في صف يتضمّن أشخاصًا يحملون اسم نايجل وجيسن، إلا أنّ هذا لا يعني ألا تنطبق هنا أيضًا معايير تحديد ما يعد إخلالًا بالنظام أو الانسجام، أو تجاوزًا للأعراف. فمثلًا ينبغي عليك أن تعرف، بصرف النظر عن الدين، من هو الشخص الذي ما يزال ضمن التباين الطبيعي من الشخص المنشق عن السفينة برمتها. لا بد أن تكون المعلمة من الصنف الأخير. كان واضحًا جدًا أنّ اللغة الفرنسية لا تصمد طويلًا حينما تكون

هي من يدرّسها. في هذا المساء كالعادة هيمنت اللغة الإنجليزية، أي كالعادة أيضًا، خرجتْ الفرنسية من النافذة. بعد ذلك جعلتنا ننظر في النافذة التي خرجتْ منها الفرنسية. توجّهتْ إليها، بظهر منتصب مثل امرأةٍ على حصان ملكي مزركش، وطفقت تشير عليها بقلمها.

ثم قالت: «حسنًا، اسمعوني جميعًا. عليكم أن تنظروا إلى السماء. عليكم الآن أن تنظروا إلى غروب الشمس. مذهل!». عندها توقّفتْ عن الإشارة والنقر على الزجاج كي تستنشق هذه السماء. بعد استنشاقها، وقد كان المنظر محرجًا، زَفَرتها مع تنهيدة عملاقة محرجة أكثر من سابقتها: «آآآآآآآآآآه». ثم عادت تشير وتنقر. «أخبروني أيّها الطلبة، ما الألوان التي ترونها الآن؟ وانتبهوا لكلمة الألوان، بصيغة الجمع».

نظرنا لأنها طلبت منا ذلك. فرغم أنّ الغروب لم يكن جزءًا من مقررنا، إلا أننا نظرنا وقد بدت لنا السماء كعادتها تتحوّل من الأزرق السماوي إلى الأزرق الداكن، أي أنها زرقاء. لكنني كنت أدرك منذ الغروب المقلق والغريب الذي عايشته مع شبه الحبيب، أنّ السماء في تلك الليلة في صف اللغة الفرنسية لم تكن في تلكما الدرجتين من اللون الأزرق. قد يجد أي شخص لديه أدنى قدر من المعارضة أو التعصّب نفسه مدفوعًا للعثور على أي أزرقٍ في الأفق من خلال النافذة. وقد كنا مدفوعين لإثبات رأينا. ومتزمّتين أيضًا.

«أزرق!».

«أزرق!».

«ربما القليل من... لا، بل أزرق فقط». هكذا جاءت ردودنا كلها.

فصاحت المعلمة: «يا لصفّي البائس المحروم!». كانت تخدعنا مرة أخرى، تتظاهر بالأسى لافتقارنا إلى رؤية الألوان، لمحدودية آفاقنا وأذهاننا،

رغم أنه من الواضح أنها غارقة في حدود نفسها إلى الحد الذي يمنع أي شيء من إقلاق راحتها. كيف تكون هكذا؟ كيف تُقدِم على استعداء كهذا؟ بتقديم ثقافة مضادة هكذا لثقافتنا في حين أنها هي ذاتها تنتمي لثقافتنا، حيث القواعد ذاتها المتعلقة بالتفضيلات والألوان - بصرف النظر أيضًا عن انتمائك الكَنَسي - التي تنطبق علينا يفترض أن تنطبق عليها بالمثل؟ لكنها تضحك مجددًا. «لا يوجد لون أزرق على مدّ النافذة. أعيدوا النظر، من فضلكم. حاولوا مجددًا، أرجوكم». توقفتْ هنا برهة ثم اكتست ملامحها شيئًا من الجدّية: «ورغم وفرة الألوان حقًا، إلا أنه **لا يوجد شيء هناك في الواقع**. مع ذلك أرجوكم تأملوا، فللسماء التي تبدو لأبصارنا موجودة هناك قدرةٌ على التلوّن بأي لون».

صاحت سيدات وسادة بيننا: «هراء!»، وسرَت بيننا «رعدة[Frisson]»، وهي الكلمة الفرنسية الوحيدة ذاك المساء غير «السماء زرقاء! [Le ciel est bleu]» وتلك السخافة الأدبية التي أبرزها الفتى في الكتاب. لقد بدا لعقولنا استحالة هذا الكلام، فلا يمكن البتة أن نصدّق ما تقوله. لو أنّ ما تقوله حقيقة، وأنّ تلك السماء الموجودة وليست موجودة حقًا بمقدورها أن تصطبغ بأي لون، فهذا يعني أنّ أي شيء يمكنه أن يصطبغ بأي شيء، بمعنى أنّ أي شيء يمكنه أن يصبح أي شيء، وأنّ أي أمر يمكن أن يحدث، في أي وقت، في أي مكان، في العالم أجمع، ولأي شخص. بل ربّما حدث هذا، لكننا لم نلاحظ. لكنّ قرونًا وألفيّات قد مضت، ونحن ورثنا جيلًا بعد جيل وأبًا عن جدّ وأمًا عن جدّة حقيقة أنّ السماء ذات لون واحد رسميًا، وذات ثلاثة ألوان على نحو غير رسمي. لهذا كله، لا يمكن السماح بوجود سماء ملونة كهذه.

قالت بإلحاح: «تعالوا. لماذا أدرتم ظهوركم؟». أمّا لمَ أدرنا ظهورنا،

فلأنه التصرف الغريزي والآمن الذي نعرفه. لكنها جعلتنا نستدير لنواجه السماء ثانيةً. هذه المرة طفقتْ تشير لنا عبر ألواح النافذة المتفرّقة إلى أجزاء من السماء لم تكن زرقاء، بل ليلكيّة، وبنفسجية، مع رقعٍ زهريّة، بدرجات مختلفة من اللون الزهري، ورقعة واحدة من اللون الأخضر يمتدّ إزاءها لون أصفر مذهّب. أخضر؟ كيف صعد الأخضر إلى هناك؟ بعدها، حين لم يعد بالإمكان رؤية الغروب من هذه النافذة، اقتادتنا من صفنا وعبرنا الممر إلى صف الأدب [littérature]. في ذلك المساء كان صفهم فارغًا، فقد ذهبوا إلى المسرح حاملين الأقلام والكشّافات والدفاتر ليشاهدوا ويقيّموا مسرحية «**فتى الغرب المدلل**»[1]. هناك أمرتنا المعلّمة بالنظر من منظور جديد كليًا، إذ تبدو الشمس ضخمة في بقعة برتقالية محمرّة أضخم، تغرب في السماء الخالية من الزرقة خلف المباني في لوح النافذة.

أما هذه السماء فكانت توليفة من اللونين الزهري والليموني، مع مسحة من الخبّازي خلفها. كانت السماء قد بدّلت ألوانها إبان انتقالنا عبر الممر، وما تزال تغيّر ألوانها أمام أعيننا الآن. فانبثق لون ذهبي فوق الخبّازي متحوّلًا إلى لمعةٍ فضيّة، وثمة لون خبّازي آخر في الطرف يقترب. ثم تشرّب أكثر بالزهرة، ومزيد من اللون الليلكي، تلاه اصطباغ فيروزي يدفع السحب - التي لم تكن بيضاء حينها - عن طريقه. كانت الطبقات تتمازج وتتمارج،

---

(1) مسرحيّة فتى الغرب المدلل (Playboy of the Western World) للشاعر والمسرحي الأيرلندي جون مِلِنغتن سِنغ، أثارت شغبًا واشتباكًا بين الجمهور وطاقم المسرحية في عرضها الأول عام 1907م، اعتراضًا على مساسها بالقيم، إذ تدور أحداث المسرحية حول جماعة تؤوي فتى هاربًا من العدالة ظنوا أنه قتل والده، وتجعل منه بطلها، قبل أن تنكشف الحقيقة ويظهر والده فيحاول الفتى قتله حفاظًا على مكانته فتتبدّل الأمور. ترجمها حمدي أحمد رجب إلى العربية ونشرتْها الدار المصريّة للتأليف والترجمة عام 1965م.

تتكوّن وتتحوّل، فكان المنظر شبيهًا بما حدث في الغروب قبل أسبوع. حين قال لي شبه الحبيب: «ما رأيك أن نذهب لرؤية الغروب؟»، لم أصدّق أذنيّ المشدوهتين وسألته: «لماذا؟»، فقال: «لأنها الشمس»، فقلت: «حسنًا»، كما لو أنّ هذا الفعل لم يكن فريدًا، كما لو أنّ الناس في محيطنا يدعون بعضهم البعض بحكم العادة إلى مشاهدة الغروب. فلمّا انتهيت من جولة الجري مع الصهر الثالث عدت إلى البيت، فاغتسلت وتأنقت وتزيّنت وارتديت حذاء كعبٍ عال، ثم أقلّني شبه الحبيب من المكان الذي يلقاني فيه عادة، في نهاية الحي عند جهتنا من الطريق الفاصل. كان هذا الطريق اليتيم الحزين يجري بين الأديان، وألتقيه هناك لا لأنه من الديانة الأخرى، فلم يكن كذلك، بل لأنّ لقاءنا هناك أسهل من أن ألقاه عند باب البيت. ولم يمض على هذا الغروب الأول وقت طويل حتى طفق شبه الحبيب يتذمر من ترتيبات لقاءاتنا وتعقيدها، فاتهمني بأنني لا أريد لقاءه عند بيتي أو في منطقتي لأنني أشعر بالخزي من ظهورنا معًا، فلم أكد أصدّق أذنيّ. قلتُ له إنه لا توجد أماكن نذهب إليها في منطقتي، لكنّ ذلك لم يكن صحيحًا، وهو يعلم أنّ هذا ليس صحيحًا؛ إذ يعلم الجميع أنّ في منطقتنا أحد عشر ناديًا للشراب تُعدّ من أفضل نوادي الشرب التابعة لديانتنا، بما فيها أشهر النوادي في البلدة. قال إنني أراوغ في الكلام، وكان محقًّا، لكنني لم أكن أراوغ لأني أشعر بالخزي معه، بل بسبب ماما. فلو أنه أقلّني من بيتي ستنهال عليّ أسئلةٌ تليها مواعظ الزواج، ثم مواعظ الإنجاب، وإن لم يحدث هذا فبالتأكيد ستظنّ أنه الحلّاب. ناهيك عن الصلوات التي سوف تتدفق في أية لحظة. هناك كثير مَن المنغصّات التي كنتُ في غنى عنها. لم أكن أعقّد الأمور إذن باللقاء في أماكن خطرة معرّضة للعنف الطائفي. بسبب شعوري بالخزي أو رغبتي في التخلص منه، بل لأجنّب نفسي عناء الحاجة إلى تبرير أفعالها.

في ذلك الغروب مع شبه الحبيب، أي قبل المرة التي تذمّر فيها من ترتيبات لقاءاتنا، أقلّني كالعادة من عند الطريق الفاصل بسيارته التي جمّعها مؤخرًا. ذهبنا في جولة خارج البلدة في مكان ساحلي، وأحضر لنا بعض المشروبات ثم ترجّلنا من السيارة ووقفنا مع أشخاص آخرين لا نعرفهم نترقّب هذا الحدث، نترقّب غروب الشمس، هذا الحدث الذي لم أفهمه. لم يكن الغروب وحده الذي لم أفهمه، فلم أكن أفهم النجوم ولا الأقمار ولا النسائم ولا الندى والزهور والجوّ، ولا الحماس الذي يتعاطى به بعض الأشخاص - كبار السن - مع هذه الموضوعات وأشياء أخرى مثل الوقت الذي يخلدون فيه إلى النوم، أو وقت استيقاظهم في اليوم التالي، ودرجة الحرارة في الخارج سواء أكانت مئوية أم بالفهرنهايت، ودرجة الحرارة في الداخل، وحالة أمعائهم وأجهزتهم الهضمية، وأقدامهم، وأسنانهم، وأن يقول أحدهم بصوتٍ عالٍ في حافلة مكتظّة: «**أتعلم؟ سأتناول خبزًا محمصًا حين أصل إلى البيت قبل العشاء**»، فيردّ رفيقه بصوت لا يقلّ علوًّا: «**أنا أيضًا سأتناول خبزًا محمصًا في منزلي قبل العشاء**». إن لم يكن هذا فسيقول أحدهم: «**هل تناولت خبزًا محمصًا في منزلك بالأمس؟**» فيردّ الآخر: «**نعم، هل أكلتَ أنت؟**»، «**أوه، لا. أكلت بيضًا مخفوقًا. صحيح، لديّ صديق اسمه بام، وإن كنت قد أخبرتك بهذه القصة قل لي كي أتوقف، اعتدنا الخروج وشراء الغلايات والألواح معًا...**». ومن المنطقيّ تمامًا ألا أفهم هذه الأشياء. والشيء نفسه ينطبق على مشاهدة غروب الشمس، لأنه ليس من سلوك الشباب المتجاوز للأعراف، وشبه الحبيب الشاب - يكبرني بعامين فقط - لا يجدر به أن يفهم أو حتى يهتم بشيءٍ لا يوجد من بني جيلنا شخص غريب الأطوار بما يكفي كي يلاحظه أصلًا. فلمّا رأيتُ سلوكه هذا، ومنظر السماء، وما يتوقع مني أن ألاحظه وأشهده، أي ما يجب أن أحضره كي يتشكّل عندي ردّ فعل ملائم عليه، وقفتُ إلى جانبه ونظرتُ وهززتُ رأسي، رغم أني لم أدرك ما أنا ناظرة

إليه وأهزّ رأسي له. عندها سألت نفسي ما إذا كان يجدر بشبه الحبيب أن يشاهد غروب الشمس، أو يمتلك أباريق قهوة، أو يحب كرة القدم رغم أنه لا يُظهر ذلك. ولا يهمّ أني أنا نفسي لا أحب كرة القدم، لكنّ القضية ليست عدم حبّي لكرة القدم باستثناء موسيقى برنامج «مباراة اليوم»[1]. كان يحبّ سمكرة السيارات، وهذا مألوف بين الفتيان، أي أن يسمكروا السيارات ويرغبوا في قيادتها، أن يحلموا بقيادتها إن لم يكونوا قادرين على شرائها، هذا إن لم يكونوا مهووسين بما يكفي لسرقتها من أجل قيادتها لا أكثر. لكنني كنتُ قلقة من أنّ شبه الحبيب غير قادر على الانسجام مع بعض معايير الذكورة. كنتُ حائرة مبلبلة، فهل كنتُ أعني حينها أنني أشعر بالخزي منه، وأنّ الفتية السائرين مع التيار السائد، أولئك المنسجمين، الذين يريدون أن يُوسعوا جولي كوفنغتن ضربًا لأنها غنّت «النساء وحدهن من ينزفن»[2] وظنّوها أغنية عن الدورة الشهرية، في حين أنها لم تكن عن الدورة الشهرية إلا أنّ الجميع بمن فيهم أنا اعتقدنا أنها عن الدورة الشهرية؛ بالمناسبة فالأولاد حين يُعجبون بكِ يلومونكِ لإعجابهم بكِ، هل كنتُ أعني حقًا أنني أفضّل مواعدة هذا النوع من الفتيان؟ كلما تفكّرت في الأمر، وهو التفكّر الذي لا أطيقه لأنه يفضح لي تناقضاتي اللاعقلانية الجامحة، شعرتُ بالاستياء. كنتُ أدرك أنني أفضّل شبه الحبيب على جميع أشباه أحبابي السابقين، وأدرك أنّ أحب الأيام عندي تلك التي أقضيها معه، وأنّ الفتى الوحيد الذي رغبتُ

---

(1) برنامج «Match of The Day» الرياضي الذي يبث على قناة هيئة الإذاعة البريطانية الأولى أيام السبت خلال الموسم الرياضي ليعرض ملخصات وتحليلات رياضية. بدأ بثّه منذ ستينيّات القرن العشرين وحتى الآن.

(2) «Only Women Bleed» أغنية من كلمات أليس كوبر ودك فاغنر صدرت عام 1975م. عن امرأة تعاني في زواج مؤذي أسيئ فهمها باعتبارها أغنية عن الدورة الشهرية مما أدى إلى الحدّ من بثها عبر الإذاعات والمنصات العامة.

في مضاجعته ثم ضاجعته حتى الآن هو شبه الحبيب. وبما أنني منذ أن عرض عليّ فكرة العيش معًا ورفضت ألفيتُ نفسي في أحلام يقظةٍ بالعيش معه، أحلام بأن أكون معه في المنزل نفسه، نتشارك السرير نفسه، وأستيقظ كل يوم إلى جواره، فهل الحياة معًا ستكون بذلك السوء؟

هززتُ رأسي للغروب إذن، لهذا الأفق، ولا معنى لذلك فعلًا؛ إذ كنتُ منشغلة بهذه التناقضات الداخلية، بينما شبه الحبيب بجانبي، وكل هؤلاء الغرباء من حولي، يرمقون الغروب، وفي تلك اللحظة بالتحديد، فيما كنت أقول في نفسي **ما الذي يفعلونه بحق الجحيم**، إذا بي أشعر بحدوث تغيير هناك، أو ربما بداخلي. لقد تبيّن الأمر، إذ لم يكن هناك أزرق، وأزرق وأزرق - الأزرق الأساسي الذي يعرفه الجميع ويعتقدون أنه موجود هناك - فصدمتْ هذه الحقيقة حواسّي. كان يتجلّى لي وأنا أحدّق أنه لا يوجد أزرق هناك أبدًا. حينها رأيت الألوان لأول مرة، مثلما حدث بعد أسبوع في صفّ اللغة الفرنسية. كانت الألوان في كلتا المرتين تتمازج وتتمارج، تنسحب وتتمدد، فتظهر ألوان جديدة، تتضافر الألوان معًا، تدور كلها في الأفق، ما عدا لونًا واحدًا مفقودًا، ألا وهو الأزرق. كان شبه الحبيب قد أدرك هذا من قبل طبعًا، مثل الآخرين الواقفين من حولنا. لزمتُ الصمت، تمامًا كما لزمته في الأسبوع التالي في صفّ اللغة الفرنسية. ها أنا أرى غروبين اثنين في أسبوع واحد وكنت لم أر أي غروب قبل ذلك. لا بّد أن لهذا مغزى ما. والسؤال هو هل هذا الشيء آمن أم خَطِر؟ تُرى ما الذي كنتُ أتفاعل معه حقيقةً؟

قالت المعلمة: «لا تقلقوا. فإن استياءكم، بل وحتى حيرتكم المؤقتة يا أعزائي إزاء هذا الغروب أمر مبشّر. فهذا لا يعني إلا أنّ هناك تقدّمًا، واستنارة. أرجوكم لا تشعروا أنكم خنتم أنفسكم أو دمّرتموها». وعندها سحبتْ نفسًا عميقًا، على أمل أن تستحثّ فينا روحًا أكثر شجاعةً ومغامرة.

غير أنه لم يكن لدينا ونحن في صف الأدب [littérature]، حسّ مغامرة، لا عندي ولا عند الآخرين. كنتُ قد شعرتُ قبل أسبوع بصدمة السماء وما يحدثه الغروب من زعزعة، أما هم فمن الواضح من مناظرهم، وبصرف النظر عن أعمارهم، أنهم يواجهون هذا للمرة الأولى في حياتهم. لا شكّ أني أُصبتُ بالهلع أيضًا. كنتُ أشعر به يدور في الهواء، وأشعر به يأتي في مُويجات طفيفة، ثم في موجةٍ إثر موجة من الآخرين. ورغم أني عايشتُ هذا الهلع عينه أثناء مشاهدتي الغروب سابقًا، إلا أنني اكتشفتُ أني إذا ما وقفتُ ساكنةً ولم أسمح له بالسيطرة عليّ، فسوف ينحسر تدريجيًا، غير أني تركته هذه المرة، وبعد شيء من التجاوب والتنافر مع هذا الهلع، وبعد أن استرحتُ قليلًا من وعيٍ جامح غير مألوف، أطرقت إلى الشارع. وعندها رأيت سيارة فان بيضاء مركونة في المدخل الضيّق المقابل. تجمّدتُ في مكاني، وانتفضتُ من شعور الطمأنينة والسلام، ذلك الذي مررتُ به قبل هنيهة.

كان غطاء محرّك الفان يطلّ من المدخل، ذلك المدخل الذي يصل سلسلة من الحانات بخلفية بعض المتاجر من الناحية الأخرى. تخلّصتُ من تجمّدي بما يكفي لكي أبتعد عن النافذة خشية أن يكون واقفًا هناك ينظر إلى الأعلى، ربما بناظور؟ أو مرصد؟ أو كاميرا؟ هجست بإنني حمقاء حين ظننُت أنني نجحت، حمقاء لابتهاجي وتهنئتي لنفسي إذ ظننتُ أني حطّمت أساس المشكلة، حمقاء لاعتقادي بأني حين عدت إلى الركض مع الصهر الثالث فقد نجحتُ في صرف الحلّاب هذا عنّي. نظرية زائفة، وزهوٌ زائف. لم يمض أكثِر من أسبوع واحد فقط، وتبخّرتْ مراوغتي. كيف لم يخطر لي أنه سوف يغيّر خطته، من المطاردة في منطقة الحدائق والسدود إلى مواصلة ولعه بي في مكانٍ آخر؟

عادت المعلّمة إلى الحديث، ولكنْ هذه المرة عن مظهر أشجار الشارع

الأسود الدّارِس[1] (أيًا ما كان معنى هذه الكلمة)، بسبب السماء النّدِيئة[2] (أيًا ما كان معنى هذه أيضًا) الممتدة خلفها. أما الآخرون فكانوا حينها ما يزالون عالقين في معاناتهم، يدمدمون بأنّه ليس في بلدتنا دَرْس أو نَدْأَة أو أشجار شوارع، لا سُود ولا بأي لون آخر. ثم دفعتْنا المعلمة إلى النظر ثانية، والاعتراف بأنّه ربما لدينا أشجار في الشوارع، ولكن لا بدّ أنها غُرست قبل نصف ساعة لا أكثر، فلا أحد منا قد لاحظها قبل ذلك. في أثناء ذلك كنت أقول لنفسي أن تتعقّل، أن تنضبط، فأنا في وسط البلدة، وذلك الفان الأبيض قد يكون سيارة أي شخص. من غير المرجح أن يكون قد ركن سيارته هنا بالصدفة مقابل الكلّية التي يتصادف أني أدرس فيها! هذا غير محتمل، ومصادفة غير معقولة. لا يمكن أن يكون فانه، وكي أثبت هذا لنفسي انحنيت مرة أخرى لألقي نظرة سريعة، فإذا بالسيارة قد اختفت. تنفستُ الصعداء، ونسيت أمر الفان، فعدتُ إلى طلاب الصفّ والسماء والأشجار وأيٍ ما كان الذي يناقشونه الآن. في الوقت نفسه صرفتُ عن نفسي استجابةً جسدية غريبة سَرَت في النصف السفلي الخلفي من جسدي، فقد بدا أنّ قاعدة عمودي الفقري قد تحرّكت. تحرّكت فعلًا. لم تكن حركة طبيعية كما في الانحناء أمامًا أو خلفًا أو جانبًا، أو في الالتواءات. كانت حركة غير طبيعية، تنذر بشيءٍ ما، وقد نشأتْ في عجب الذَنَب، تلاها ارتعاشٌ سرى في أمواج صغيرة، بغيضة، متكررة، مخيفة، وصلت إلى ردفيّ فأوتار المأبض، ثم انتقلت في لحظةٍ واحدة إلى دواخل ركبتيّ واختفت. استغرق هذا الأمر ثانية واحدة، وأول ما خطر ببالي - فكرة غير مرغوبة وغير محسوبة - هو أنّ هذا قد يكون الوجه الباطن من نشوة جنسية، كما قد يتخيل المرء طيفًا مُريبًا مختلجًا بعض

(1) الزائل.

(2) الغسقيّة.

الشيء للنشوة. ما يمكن أن نسميه **النشوة المضادة**. لكنني صرفتُ تلك الرعشة، أو تلك التيّارات السارية، أيًا ما كانت هل من الخوف أو النشوة، وعدتُ إلى النافذة حيث علت أصوات رجعية مثل **«أبًا عن جدّ!»** و **«أمًا عن جدّة!»** و**«ما المشكلة، اللون الأزرق عمليّ!»**. لكنّ معظم الطلاب في الصف ظلّوا هادئين، وقلقين في الوقت نفسه، فقد كنا نعلم أنّ السماء في ذلك المساء لم تكن سوى استهلال. غَمَرنا الهدوء إلى أن تحوّل إلى صمتٍ مطبق. حينها تنهّدتْ المعلمة، فتنهّدنا بدورنا. ثم اقتادتنا عائدين إلى صفّنا وهي تقول: «خذوا وقتكم أعزائي، وقسطًا من الهدوء والراحة، واسترجاع ما كنتم تنظرون إليه عبر النافذة منذ قليل. سنعود الآن إلى نصّنا الأدبي ومجازات اللغة الأخرى». وهذا ما فعلناه في ما تبقى من ذلك المساء.

***

عند الباب ودّعتُ شيفون، وويلارد، ورسل، ونايجل، وجيسن، وباتريك، وكييرا، وروبرت إيرل، والبقيّة، إذ كانوا في طريقهم إلى الحانة كالمعتاد كي ينتقدوا ذلك الوضع الفظيع الناشز في أن تكون لنا معلّمة غير صالحة للتعليم هكذا، وكيف انخفض ما نعرفه من الفرنسية عما كنا نعرفه في شهر أيلول حين التحقنا بصفّها. لكنني لم أرغب في الذهاب معهم هذه المرة، إذْ لم يكن الوقت ملائمًا للجلوس، بل للتفكير، وعادةً ما يكون تفكيري في ذروة اتّقاده حين أمشي. هكذا انطلقتُ ولم أفكّر مرة في إخراج كتاب **«قلعة راكرينت»**[1] لقراءته. كان عقلي يضجّ بأفكارٍ كثيرة تجعل القراءة عصيّة،

---

(1) رواية قلعة راكرينت «Castel Rackrent» للكاتبة الأيرلندية ماريا إيجورث، نشرتها عام 1800م. وتعد أول رواية تاريخيّة. تتناول الرواية حياة أربعة أجيال من ورثة القلعة.

فكنتُ أفكّر في المعلمة وقولها أن ثمة غروب لكل يوم، وأننا لم نُخلق كي نُكفَّن ونُدفن أحياء، وأن الظلام لم يكن يومًا هائلًا إلى حد أن يعيينا قهره، وأنّ ثمة فصولًا جديدة دائمًا، وأنّ علينا ترك الماضي لكي يمضي، وأن نفتح أذهاننا للرمزيّة والتأويلات المختلفة مهما بلغت غرابتها، كما يجدر بنا أن نكشف عما نخفيه، عما نعتقد أننا فقدناه. قالت: «فلتدخلوا اختيارًا واحدًا حيّز التنفيذ، أعزائي، غادروا تلك الأماكن، فلعلّ هذه اللحظة تكون لحظة ارتكاز، لحظةً محورية، انعطافة صحيحة، لعلها اللحظة التي سينكشف فيها معنى كل شيء». كلامها غريب، لكنّها فلسفتها، ولكنْ ألا يستدعي وجود الفلسفة أن يكون الربّ في مكانٍ ما هنا؟ لم أكن قد حددتُ موقفي من وجود الرب هناك في ذلك الحين، رغم أنها لم تأتِ على ذكر الرب، فماذا قد يحدث لو فعلتْ، أخذًا في الاعتبار ما عهدناه في صفنا من توازن هشّ وآدابِ لباقةٍ حيال كل ما يتعلق بالحساسيات الدينية والمشكلات السياسية؟ أما فيما يتعلق بمسألة الغروب الجديدة هذه، فقد شهدتُ غروبين في ثمانية أيام، أي تبقّى لي غروب واحد كي أنجز واجبي، إذ طلبتْ منا المعلمة أن نَصف ثلاثة مشاهد لغروب الشمس - «بالفرنسية إن شئتم» - وهذا يعني أنّ أولويتها ليس ذلك اللسان، وقد كنا نعرف ذلك مسبقًا. كان هناك اعتراض على كلامها، لكنه اعتراض ناعم، بالأخذ في الحسبان أنّ كوكبة أحداث ذلك المساء ما تزال تدوّخ رؤوسنا حينها، فخارت قوانا على الاعتراض والتذمر المعتاد.

حزمنا أغراضنا إذن وخرجنا، فقصدوا هم الحانة وقصدت أنا البيت متجهة إلى منطقتي المحظورة. بعد نزر يسير من المشي والتفكير - في الألوان، في التحوّل، في تبدّلات المساحات الداخلية - خرجتُ من أفكاري إلى الانتباه لما حولي، وعندها تنبّهت على وصولي إلى منطقة العشر دقائق في ضواحي وسط البلدة. لم يكن هذا هو الاسم الرسمي للمنطقة، لكنها سُميت هكذا

لأنّ عبورها يستغرق عشر دقائق مشيًا، أي مشيًا سريعًا، لا تسكّعًا بطيئًا، رغم أنه لا يوجد عاقل يفكر في التسكّع هنا أساسًا. ليس لأنه مكان خَطِر سياسيًا، رغم احتمالية انهيار إحدى الكنائس المتداعية عليك فجأة، ولا لأن شيئًا مريعًا قد يحدث لك في هذه البقعة بسبب المشكلات السياسية. لا. فالمشكلات السياسية تبدو على مر هذه الدقائق بالمقارنة مع هذه المنطقة بسيطةً، تافهة، لا تبعات لها. المسألة وما فيها أنّ منطقة العشر دقائق موحشة ومخيفة، ولطالما كانت هذا، مكانًا صغيرًا بصبغة ماري سِلِست.(1)

صُممت هذه المنطقة على شكل دائرة، تهيمن عليها ثلاث كنائس ضخمة قريبة من مركز الدائرة ومتباعدة عنه بالتساوي. توقفت هذه الكنائس عن العمل منذ وقت طويل، فغدت مهجورة، مهزومة، أشبه بقشور مبانٍ، رغم أنّ قممها السُود ما تزال شاخصة في السماء. في طفولتي تخيّلتُ أنّ هذه الأبراج تحاول أن تنحني كي تتلامس من أطرافها، كي تشتبك، كي تشكّل ما يشبه قبّعة الساحرة بحيث تُجبر الجميع على المشي من خلالها. كان هذا أول ما لاحظته فيما يخص هذا المكان. وإلى جانب قبعة الساحرة كانت هناك بضعة مبان أخرى وما بدا أنها مكاتب ومساكن مهجورة، ولا أثر لأشخاص يسكنون أو يعملون هناك، أما من يتصادف أن تراهم في هذه المنطقة فهم مثلك يمشون مطرقين رؤوسهم يهرعون. ثمة أيضًا أربعة متاجر في الدائرة، لكنها لا ترقى إلى مستوى المتاجر الحقيقية، رغم لوحات «مفتوح» المعلقة

---

(1) ماري سِلست «Mary Celeste»: سفينة تجارية أميركية، عثر عليها في عام 1872م، حينما انجرفت خالية من طاقمها قبالة جزر الأزور وقد كانت بحالة صالحة للإبحار، بكامل حمولتها وممتلكات طاقمها ومؤونة كافية، وآخر ما كتب في سجلها كان قبل عشرة أيام من تاريخ العثور عليها. لا يُعرف أين اختفى طاقمها ولم يُسمع منهم بعدها ولا يعرف أحد ما حدث ولا أسبابه. باتت ماري سِلِست رديفة لما يطاله هجر غامض.

والأبواب غير الموصدة، والواجهات النظيفة، والانطباع الذي تضفيه بأنّ ثمة حياةً - غير مرئية حاليًا - تجري هناك خلفها. لم يُشاهد أحدٌ يدخل هذه المتاجر أو يخرج منها، ولم يكن واضحًا حتى أي نوع من المتاجر هي. ثمة محطة حافلات أيضًا إلى جانب واحد من المتاجر، وهي المحطة الوحيدة في منطقة العشر دقائق. هي الأخرى خالية، فلا شخص هناك ينتظر حافلة ولا شخص يترجّل من حافلة. ثمة صندوق بريد أيضًا، ولكن لا أحد يفكّر في إرسال رسائله عن طريقه، ولا أحد يستخدمه عدا الأخوات الصغيرات حين أرسلن بعض الرسائل لأنفسهنّ ذات مرة على سبيل التجربة العملية ليتأكدن ما إذا كانت الرسائل ستصل، ولم تصل طبعًا. عزّز هذا كله الطابع الشَبَحي لمنطقة العشر دقائق، والتي كان الناس مجبرين على المرور بها. بعد اجتيازها تصل إلى المَعْلَم التالي، وأنا لديّ سبعة معالم أشطبها في عقلي كلّما مررت بها وأنا أمشي وأقرأ. فالمعلم الأول هو منطقة العشر دقائق بعد حدود وسط البلدة، ثم تجيء المقبرة التي كان يسميها الجميع «المكان المعتاد» بما في ذلك وسائل الإعلام والقوات شبه العسكريّة وقوات الدولة، بل حتى بعض البطاقات البريدية. بعد ذلك تأتي ثكنة الشرطة، يليها المنزل الذي تفوح منه رائحة الخَبْز دائمًا. بعد منزل الخبز يأتي منزل النساء المقدسات الذي تنبعث من داخله الترانيم التي ليس من بينها «السلام عليكِ يا مريم»[1] ولو مرة واحدة. بعد المنزل المقدّس تظهر منطقة الحدائق والسدود التي لا أحيد وأختصر المسافة على نفسي بعبورها البتة حتى وإن كان ثمة ضوء في هذا الوقت من الليل. بل أقطع الطريق الطويل حولها فأصل إلى الشارع ومنزل الأخت الثالثة والصهر الثالث. كان هذا آخر معالمي، إذ تأتي بعده

---

(1) ترنيمة «السلام عليكِ يا مريم» أو «السلام الملائكي» ترنيمة كاثوليكية لا تُتلى في الكنائس البروتستانتية لتحفظات عقائدية عليها.

بضعة طرق سكنية قصيرة تفضي إلى شارعي ومدخل بيتي. الآن أنا على شفا دخول منطقة العشر دقائق التي زاد اضطرابها مؤخرًا بسبب قنبلة انفجرت في مركزها، وعلى إثر هذا الانفجار لم تعد إحدى الكنائس الثلاث قائمة.

في بادئ الأمر أثار هذا التفجير حيرة الجميع. فما الفائدة منه؟ لم تكن منه فائدة. فكل الأطراف كانت تقول لماذا قد يضع المرء قنبلة في مكان ميت غريب رماديّ لا يأبه أحد لو سوِّي بالأرض؟ ورجّحت وسائل الإعلام أنها حادثة غير مقصودة، قنبلة انفجرت قبل موعدها، ولعلها كانت قنبلة لمناوئي الدولة في مرحلة النقل لثكنة الشرطة القريبة؛ أو ربّما تعود القنبلة لمناصري الدولة، أرادوا بها استهداف إحدى حانات الدين المضاد غير البعيدة عن الثكنة، لكنها على الطريق المعاكس.

أيًا ما كان أمر القنبلة فلم تقتل أحدًا، عدا الكنيسة الفارغة المتهالكة منذ عقود، فقد هدّمتها ارتدادات الانفجار تمامًا. خرّت متحطمة فيما الكنيستان الأخريان - المتهالكتان أيضًا - قد بقيتا. كما لم تتضرر المتاجر الشبحية، وما تزال أبوابها مشرّعة ونوافذها سليمة من الكسور، لم يتغير شيء فيها. محطة الحافلات أيضًا، ما تزال هناك، خاوية كما كانت، ولم تبد أكثر مواتًا مما كانت قبل الانفجار. وبعد التحقيق الرسمي والفحص الجنائي وتقارير الخبراء، وبعد تراشق الاتهامات من جهةٍ لأخرى، رجّحوا أنّ هذه القنبلة لم تكن للمناوئين ولا للمناصرين، بل كانت قنبلة قديمة، عريقة، قنبلة تعود لعصور الرومان والإغريق، أو ربّما قنبلة نازية ضخمة. فقال الجميع إذن لا بأس في ذلك. ليست من طرفهم، ولا من طرفنا، فتوقّف التراشق بالاتهامات والاتهامات المضادّة.

سألتُ ماما ذات مرة: «ما سرّ منطقة العشر دقائق؟»، فقالت: «تسألين أسئلة غريبة، بنيّتي». قلت لها: «ليست غريبة بقدر أسئلة الأخوات الصغيرات،

وتجيبينهن كما لو أنها أسئلة طبيعية»، وكنتُ أقصد آخر أسئلتهن على وجبة الإفطار. قلن: «ماما، لو أنكِ أنثى مفرطة في الرياضة فهل يتوقف ذلك الشيء بداخلك الذي يُدعى حيضًا لأنكِ تفرطين في الرياضة؟». لقد اكتشفتْ الأخوات الصغيرات الحيض مؤخرًا في أحد الكتب، لا من خلال التجربة الشخصية بعد. «وحين تتوقفين عن الإفراط في الرياضة يعود حيضكِ؟ هل يعني هذا أنه سيصبح لديك وقت زائد من الحيض ليسدّ فجوة انقطاعه الذي تسببتِ به لأن رياضتكِ حجبت إنتاج الهرمونات المحفزة، كما حجبت هرمون اللوتين من توجيه إستروجينك ليحفز بطانة الرحم في ترقب بويضة لتتلقح، مع عدم فاعليّة الهرمونات والإستروجين المانعة لإنتاج المزيد من البويضات من أجل التلقيح - إذا أُنتجت البويضة ولم تتلقح - وصولًا إلى ضمور الجسم الأصفر وتساقط بطانة الرحم؟ أم ينقطع طمثكِ في الوقت المبرمج له بيولوجيًا دون اعتبار لأشهر وسنوات الرياضة المكثفة التي قطعتْ طمثكِ؟». أقرّت ماما أنها تفعل ذلك حقًا، أنها تعامل أسئلة الأخوات الصغيرات كما لو أنها أسئلة طبيعية، لأنّ الأخوات الصغيرات صغيرات - حتى أنّ معلمتهن قالت هذا - أي أنهن مشاكسات وغريبات في تقصّيهن وتطلّبهن للمعرفة. أما أنا بذهنيتي المختلفة عنهن، فيُفترض أني كبرت على هذا كله. ثم أردفتْ قائلة إنها لا تدري، لكنّ منطقة العشر دقائق دائمًا ما كانت مكانًا غريبًا رماديًا مفزعًا، حتى على أيام والدتها، بل وأيام جدّتها، في أيام ما قبل الحرب - إن كان يوجد شيء كهذا - كانت على الدوام مكانًا يحاول تخطي بعض الظلام، لكنّ الشر يقع دون أن ينجح في تخطيه، إذ تخرّ قواه أمامه، فيخضع له، ينتهي به الأمر إلى الرغبة به، والتمرّغ فيه، بل في الواقع حتى تتدهور شخصيته إلى حد الحاجة الماسة للشر، بل حتى قد يجرّ معه الأماكن المجاورة له، ولا أحد يعلم متى. هزّت كتفيها. ربّما لم يحدث شرّ ها هنا قط من الأساس. ثم قالت: «بعض الأماكن مُزرية

من تلقاء نفسها، ومُضلِّلة، كبعض الناس. مثل والدكِ». هنا ندمت على أنني فتحتُ فمي. فأي شيء يكون له صلة بالظلام، بالعتمة، أي شيء له علاقة بما تدعوه «النفسيّات» يجرّها دائمًا إلى الحديث عن زوجها، بل الانتقاص من هذا الزوج، بابا. تقول وهي تشير إلى الأيام الخوالي، أيامها، أيامهما معًا: «في ذلك الوقت، حتى في ذلك الوقت لم أفهم والدك قط. فعلتُ وقلت كل ما يلزم، فما الذي يجعله مضطربًا نفسيًّا؟».

تقصد نوبات الاكتئاب، إذ كانت تصيب والدي. كانت نوبات اكتئاب شديدة، هائلة، مكتسحة، ممتدة، نوبات اكتئاب تغمره على شكل سحابة بسواد غراب، بسواد زاغ، بسواد غداف، نوبات معدية، تجيء في كفن فوق كفن، كسراديب الموتى، مثل جمجمة على هيكل عظام تزحف إلى القبر. لم تصب ماما بالاكتئاب، ولم تتسامح معه أيضًا، ومثل الكثيرين هنا ممن لا يصابون به ولا يتسامحون معه، كانت تريد أن تنفض هؤلاء الذين يصابون به إلى أن يعقلوا. بالطبع لم يكن يُسمى اكتئابًا آنذاك. كان يُسمى «سوء مزاج». للناس «أمزجة سيئة». كانوا سيئي المزاج. قالت إنّ بعضًا ممن يصاب بهذه الأمزجة السيئة لا يبرح الفراش، يظل جَهْم المحيا، يبثّ جوًا من الرتابة المطّردة، من المأساة، من المعاناة. يؤثّرون في كل من حولهم بمجرد النظر إليهم، برتابتهم ووجوههم العابسة وتشابههم الدائم سيان أفتحوا أفواههم أم لا. في الواقع، يكفي أن يدخل المرء عند الباب حتى يشعر أنّ الجو مشبّع بسوء مزاجه القادم من غرفته، من غرفتهما، في الطابق الأعلى. وإن كان المزاجيّ من النوع القادر على النهوض من فراشه، فلن تستطيع أن تمنعه من أن يبسط دثاره الكئيب على الجوّ. ومرةً أخرى بوجوههم المتجهمة والنغمة المملة المعهودة التي يتعاطون بها، يمشون محدودبين في الشارع، يجرّون أنفسهم على اتساع البلدة وحولها وعلى مبعدة منها بموضة عبوسهم الجائحة، كي يصيبوا الجميع بالعدوى.

وبما أنهم ينهضون من فراشهم، فتأثيرهم يصل إلى مدى أبعد. بعد ذلك قالت ماما - لم تقل هذا المرّة فقط بل تكرره في كل مرة تأتي على ذكر بابا -: «هؤلاء الأشخاص سيئو الأمزجة ذوو الهموم الثقيلة ينبغي عليهم أن يدركوا أنّ الحياة صعبة على الجميع. ليست صعبة عليهم وحدهم، فلماذا ينبغي أن يحصلوا هم بالذات على معاملة خاصة؟ على الإنسان أن يقبل العسر واليسر، أن يتأقلم مع طبيعة الحياة، أن يستجمع قواه، أن يكون محترمًا. ثمة أشخاص يا بنيّتي لديهم أسباب أكبر كي يصابوا بالنفسيّة، فأسباب المعاناة لديهم تفوق ما عند هؤلاء الذين يسلّمون أنفسهم للمعاناة، لكنهم لا يركنون إلى الظلام أو التبرّم. بل يواصلون دربهم بشجاعة، رافضين الخضوع».

هكذا تعود ماما إلى حديثها المتواصل عن هرميّة المعاناة لديها: فهناك أشخاص يُسمح لهم بالشعور بالأسى، وهناك من يُسمح لهم لولا أنهم بالغوا في حصّتهم منها، وهناك المدّعون مثل والدي، ممن لا يجوز لهم أن يشعروا بالمعاناة، فهم ينهبون حق المعاناة من شخصٍ آخر. «أبوكِ. أتعلمين أن أخته قالت إنه يلزم الفراش حتى أثناء صافرات الإنذار، بينما الأماكن من حوله مشتعلة دون أن يحتمي في الملاجئ مع الناس؟ كان يافعًا - في السادسة عشرة، أو ربما السابعة عشرة - وأنا في الثانية عشرة في ذلك الحين، وكان لديّ وعي أكثر منه. مجنون. يريد أن تسقط تلك القنابل عليه. مجنون». أنا أيضًا حين سمعت ذلك للمرة الأولى - فلم تكن هذه هي المرة الأولى - قبل أن تبدأ نوبات اكتئابي كنت أراه جنونًا أيضًا. بدأتْ الآن تتحدث عن الحرب الكبرى، العالمية، الحرب الثانية، تلك التي - واسألوا أي مراهق - لا علاقة لها بالإنسانية الحديثة ولا المجتمع الحديث؛ تلك التي لا أحد من عمري قد أعارها أي اهتمام، ولم يكن ذلك مفاجئًا، أخذًا في الاعتبار أنّ معظمنا بالكاد يلقون بالًا لحربنا المحلية، هذه التي نحن في خضمّها. قالت ماما:

«حتى بعد الحرب، حتى بعد زواجنا، ولسنوات عديدة حتى وفاته، خاصة عندما بدأت المآسي، كل ما يفعله هو أن يدفن رأسه في أشيائه المعتمة». كانت تقصد صحفه، ومجلداته، وسجلاته، وتجميعه وتدقيقه لكل ما له علاقة بالمشكلات السياسية؛ وتقصد أيضًا لقاءاته بالأصدقاء الذين يماثلونه في الآراء، يشاركونه تجهّمه وهوسه، يتدلّون مثله من جرف، في منحدر، تحفّهم الغربان والغدفان والهياكل، مثله. يتشاركون قصاصاتهم وملفّاتهم، يتبادلون تصنيفاتهم وتحديثاتهم لكل تراجيديا المشكلات السياسية، إلى درجة أن يبدو والحال هذه كما لو أنها وظيفتهم، ولم تكن كذلك. وبطبيعة الحال لم يستطع بابا أن يستمر. حتى نحن، أطفاله، كان بمقدورنا التنبؤ بأنّ هذا الانهماك المفرط، وكل ذلك الإتقان، والولع، سينهار في لحظة ما. وهذا ما حدث، وانهار هو معها، حين قفز رأسيًا من سجله ودفتر قصاصاته من الصحف التي تشابهه في توجهها، كي يغرق مجددًا في عمق اليأس، بينما كل ما يتّسع له حينها سريره، والمستشفى، وقصصه المصورة، وصفحات الرياضة من الصحف، أو برامج الهولوكوست التي كانت تُعرض على التلفاز. وبرامج الكوارث الطبيعية أيضًا، مثل برنامج ديفِد أتنبيرو الذي يتحدث عن حشراتٍ تبتلع حشرات أخرى، والحيوانات البرّية المفترسة التي تنقضّ على نظيرتها الرقيقة. لم يتفرّج قط على برامج تتحدث عن الشجيرات الخفيضة أو طرق العناية بالفراشات. لم تكن هذه البرامج تستهويه قط، لم تثر اهتمامه قط، أو كما تقول ماما «لم يَسمح لها أن تبهجه». وبطبيعة الحال كنا جميعًا نعرف أنّ الهولوكوست والحروب العالمية والحيوانات التي تأكل غيرها، كل هذه المسكّنات التي تشتمل أيضًا على مشكلاتنا السياسية عندما يستطيع العودة إليها لا تبهجه أيضًا. لكنّ الواضح أنها كانت تؤدي غرضًا ما، مثل أن يقول المرء: **«أرأيت! ما الفائدة؟ لا فائدة»**. هكذا يتأكد له، بل حتى يعزّيه في قنوطه، أنه طالما ظلّت الأشياء في مكانها، فلا يمكن أن تكون ثمة انتصارات ولا تجاوزات لأن التجاوز رفاهية

والنصر أحلام يقظة، والجهد والجهد المتجدد هدرٌ عقيم للوقت. تقول ماما: «كنتُ أعرف أنّ والدكِ بخير حين يغنّي، وأعرف أنه في حال سيئة حين يستلقي في فراشه سحابة النهار، ويسهر سحابة الليل، لا يفتح الستائر، بل ويسدّ الفتحات، حاجبًا بهذا إنارة الليل الصناعيّة وكل ضوء النهار الطبيعي. إنّ سوداويّته يا ابنتي ليست طبيعية. لو أنها طبيعية، ألن يتعايش معها؟ ألن يبدو بخير معها؟ لكن ما السبب، ما السبب، أخبريني، ما الأمر الذي من أجله يُبقي نفسه دائمًا في الظلمة والكآبة؟».

هكذا إذن، فبالنسبة إلى بابا وأشباهه، على عكس ماما وأشباهها، لم تكن القضية يومًا على هذا النحو: «**يجب أن أكون مبتهجًا لأنني لم أشهد مثل الهولوكوست**»، أو «**لدي دُمّل على أنفي لكن ذاك الرجل في آخر الشارع قد فقد أنفه كليًا لذا يجب أن أبتهج فغيري فقد أنفه ولم أفقد أنا أنفي، أما هو فلا بد أن يبتهج لأنه لم يشهد شيئًا كالهولوكوست**». بالنسبة إلى بابا لم يسر الأمر قط على نهج: «**يجب أن أركع شكرًا لأنّ البقية في العالم يعانون أكثر مني**». ولا أدري كيف يمكن ألا يكون على حق؛ فالجميع يدرك أنّ الحياة لا تسير هكذا. لو أنها سارت هكذا فحينها سيكون الجميع سعداء عدا الشخص المتفق على كونه صاحب أسوأ حظ في العالم، رغم أنّ معظم من أعرفهم ليسوا سعداء. ولا نحن في عالمنا المبتذل هذا، في عالمنا البشري الصغير، نقضي وقتنا نحصي النعم ونعرض عن الأشياء النسبية في مقابل الأشياء الأزلية. في ذلك المستوى النسبي الدنيوي - حيث تتفاوت الحساسيات، حيث لا يتشارك اثنان في التاريخ الشخصي ذاته رغم أنهما يتشاركان في التاريخ الجمعي، حيث ثمة ما هو مقلق لشخص يمر على شخص آخر دون أن يلاحظه - بالتأكيد يعيش الناس الحياة الخام ويستجيبون لها استجاباتهم الذهنية الخاصة. مع هذا فحتى ماما وأشباهها لم يكونوا مرتاحين، رغم نقمتهم على المكتئبين وركوعهم في وجه المآسي لتقديم الشكر لأنّ نعمة الرب شملتهم وأنجتهم

من معاناة شرذمة من المساكين الذين اختارهم الرب ليعانوا من أقدار مروّعة بدلًا منهم. أما القلة، أولئك القلة القليلة ممن يبدو أنهم مرتاحون، أو على الأقل مستمرون في تقديم حسن النية والثقة في الناس والحياة في وجه المتاعب، فماما وأشباهها وبابا وأشباهه، وجميع من أعرف تقريبًا، بمن فيهم أنا، نواجه صعوبة في تقبلهم أيضًا.

كان فيلم **النافذة الخلفية**[1] أول ما لفت انتباهي إلى قضية الناس المشرقين، أولئك القلة المُربكين الذين يشعّون ضياءً. شاهدت الفيلم عندما كنت في الثانية عشرة، فأربنكي بسبب فكرته كما تصوّرتُها آنذاك. يُقتل كلب صغير، يُشنق وتُدقّ عنقه. لم تكن هذه رسالة الفيلم، لكنها كانت كذلك بالنسبة إليّ، فصاحبة الكلب المفجوعة خرجت تنتحب من نافذتها وتصرخ في شقق البناية كلّها: «**من منكم قتله؟... لم أكن لأتخيّل... هل بلغت بكم الوضاعة أن تقتلوا صغيرًا لطيفًا أعزل... الوحيد في هذا الحي الذي كان يحب أحدًا. هل قتلتموه لأنه يحبكم، فقط لأنه أحبكم؟**». كانت عبارة «**قتلتموه لأنه أحبّكم**» هي التي أجرت رعدةً في عمودي الفقري. أدركتُ فورًا: **ربّاه! هذا صحيح! لهذا قتلوه! قتلوه لأنه أحبّهم!** تبيّن لاحقًا أنّ الكلب لم يُقتل بسبب ذلك، ولكن قبل أن أكتشف السبب الحقيقي، بدا لي منطقيًا للغاية أن تحدث الأشياء على هذا النحو في العالم الذي أعيش فيه. قتلوه لأنه أحبّهم، تخلصوا منه لأنهم لم يتأقلموا مع كونهم محبوبين، لم يتكيفوا مع ما يحمله من براءة وصدق، ووضوح، لم يتكيّفوا مع نقائه وعطفه وقلّة حيلته على تلك الدرجة مِن الودّ والصفاء، فقرروا التخلص من هذا الكلب وما يمثّله من خصال. لم يطيقوا ذلك، واضطروا إلى قتله. وعلى الأرجح اعتبروا قتلهم إياه دفاعًا عن النفس. هذا جوهر المشكلة مع الناس المشرقين. خذ مجموعة كاملة من

---

(1) فيلم «Rear Window» للمخرج ألفريد هيتشكوك، أنتج عام 1954م.

الناس الذين ليسوا مشرقين، أو ربما جماعة كاملة، أو أمة كاملة، أو ولاية صغيرة منغمسة على مستوى بدنيّ وروحي في الطاقات النفسية المعتمة، منذورة لتحمّل الأسى والخوف والغضب من سنوات المعاناة الشخصية والجماعية. لا يستطيع هؤلاء الناس أن يرحّبوا هكذا دون تفكير بأية ذرّة إشراق نابعة من شخص يدخل إلى بيئتهم ويسطع عليهم هكذا. فالتخلّي عن موقفهم ليس بسهولة التخلي عن قبعة بإلقائها وحسب. أما البيئة نفسها، فهي بدورها ترفضهم وتدعم تشاؤم أهلها، وهو ما يحدث في المكان الذي أعيش فيه حيث المكان كله يبدو في عتمة دائمة. كأنّ المصابيح الكهربائية مطفأة دائمًا، حتى مع حلول الغسق الذي يحتّم إشعالها. لا أحد يشعلها، ولا أحد يلاحظ أنها مطفأة من الأساس. بدا كل هذا طبيعيًا، أي أنّ رؤية المعاناة المستمرة غير المعترف بها جزءٌ من الوضع الطبيعي. كنتُ أدرك حتى عندما كنت طفلة - وربما لأنني كنت طفلة - أنّ هذا ليس شيئًا ملموسًا. أدركتُ أنّ انطباع الغمّة، ووجود شيء من الرداءة في الإضاءة على إثر المشكلات السياسية إنما يتأتى من الألم، والاضطراب الذي نشأ هنا، من فقد الأمل وغياب الثقة والعجز الذهني الذي لا يبدو أنّ أحدًا قد رغب في قهره أو قدر عليه. بل إنّ البيئة نفسها لم تستقطب الضوء، في تواطئ مع الظلام البشري، أو نتيجة له. وعوضًا عن ذلك كان المكان منغمسًا في قصة سوداوية انغماسًا يجعل من الشخص المشرق الذي يأتي إلى ظلامه عرضة للانهزام، عرضةً لأن يلتهم المكانُ شروقه، وفي بعض الأحيان قد يصل الشخص - إذا اعتُبر فائقَ اللمعان والشروق إلى حدٍ عصيّ على المغفرة - إلى مرحلة يتحتّم فيها أن يفقد حياته الطبيعيّة. أما أولئك الذين يعيشون في العتمة، أولئك المتكيّفون طويلًا مع الأمان الذي توفّره العتمة، فلم يكن تقبّل المشرقين بالنسبة لهم بالغ السهولة. فهم يفكّرون في الأمر على هذا النحو: **ماذا لو قبلنا بحزم الضوء تلك، وشفافيّتها، وإشراقها، ماذا لو سمحنا لأنفسنا أن نهنأ بها، ماذا لو كففنا**

عن الخوف منها واعتدناها؛ ماذا لو انتهى الأمر بنا إلى الإيمان بإشراقهم، إلى ترقّبه، إلى الانبهار به؛ ماذا لو أخذنا الأمل ونزحنا به عن تراثنا العريق فامتلأنا نحن أيضًا بذلك الإشراق، ثم انجرفنا معه، ماذا لو بتنا نشيعه بدورنا؛ ماذا لو تطبّعنا عليه، ثم انطفأ هذا الضوء بغتة أو اختُطف منّا؟ لهذا السبب لم يكن هناك العديد من الناس المشرقين في بيئات تغص بالخوف والأسى مثل بيئتنا. نعم لدينا قلّة، مثل معلمة الفرنسية من وسط البلدة. شبه الحبيب أيضًا يمكن أن يعتبر مشرقًا، لولا ما يعانيه من تكديس. إلا أن الوحيدة التي يُجمع الحيُّ على تصنيفها من المشرقين هي أخت فتاة الأقراص - أخصائية السّم في حيّنا -. كانت هذه الأخت سَنينتي، أي أنها أصغر من فتاة الأقراص، ولم يكن أحد ينفر منها. بل إنّ عدم نفورنا منها كان جزءًا من المشكلة. فمن الصعب التعامل مع التهديد الذي تشكّله بانشغالها التام في شؤونها. كانت شفّافة، لم تمسّها عتمتنا، بل إنها كانت تتمشى بضوئها في عتمتنا. الغريب أنها كانت معتادة هذا. وبدلًا من أن نجد الأمل في كينونتها وما تمثّله - لا سيما أنها من منطقتنا إلا أنها نجحت في أن تتجاوز فطرتنا الغالبة وسلالة أفكار المنطقة -، بدلًا من أن نقول: ربّاه! **إذا ما استطاعت هذه الفتاة فعل هذا، إذا ما استطاعت أن تمشي خارجًا مبدية كل هذا الضوء بداخلها ومصطحبة هالته حولها، فعلى الأرجح نحن أيضًا...؟** لكن لا. من الأسهل أن نظل دون مساءلة حتى على مستوى التثاقف الطفيف؛ كما أنّ من الأسهل أن نساوي بين أخت فتاة الأقراص وأختها، بصفتها شخصًا مُبعَدًا، من متجاوزي أعرافنا.

هكذا إذن كان الإشراق في ذلك الوقت أمرًا سيئًا، و«شدّة الحزن» أمرًا سيئًا، و«المرح الزائد» أمرًا سيئًا، بمعنى أنه كان ينبغي لك أن تحيا دون أن تكون شيئًا، ودون أن تفكّر، فإن فكّرت ينبغي أن لا يبدو تفكيرك على المستوى السطحي الظاهر، ولذلك كان الجميع يغلقون على أفكارهم

ويحفظونها في تجاويف أعماقهم. أما بابا وماما، فبابا كان في أغلب الأحيان في حالة «التجهّم»، في حين تكون ماما دائمًا في حالة «التقدم والنجاح»، غير أنّ بابا كان ينهار من وقتٍ لآخر ويُضطر إلى دخول المستشفى، فتنسى ماما مسألة «التقدم والنجاح» وتغضب منه لأنه تخلّى عنها مرة أخرى وتركها معنا في هذا المكان. ظللتُ سنوات لم أكن أعرف، ولا الصغار في أسرتنا، أنّ بابا يذهب إلى المستشفى، وأنّ المستشفى الذي يذهب إليه مصحّة للأمراض النفسية. كنا نعتقد، إذ قيل لنا هكذا، أنّ بابا حين يختفي فإنه يكون منشغلًا في ساعات عمل طويلة، أو أيام عمل طويلة، أو أسابيع عمل ممتدة، في بلدة أو بلاد بعيدة. فإن لم يكن كذلك، فهو في زيارة لطبيب مختص في مكان بعيد بسبب آلام ظهره. لكنّ الحقيقة هي أنه كان يغيب في مصحّات نفسية بسبب انهيارات عصبية، أي ثمة تعتيم على الأمر، أي أن ثمة خزي في الأمر، كما أن الخزي مضاعف في حالته لأنه رجل. فالمصحّات النفسية تليق بالنساء أكثر. فإن اضطر الرجل إليها يكون هذا بمثابة فشلٍ جندري في مواصلة مهامه، فشلٍ يفوق قدرة الجميع على الاحتفاظ بماء الوجه معه. أؤكد أنني لم أفهم في البدء، ولم أعرف أيضًا أنّ ماما تحت ضغطٍ عاطفي، وتحت ضغط صديقاتها، وضغط الخزي، كانت تفصح عن رأيها في مرض بابا للجيران، الذين كانوا بدورهم يدلون بدلوهم فيه. كانوا يقولون: «يعمل في مكانٍ بعيد، هاه؟ على مؤخّرتي!»، وكانت ماما تعرف ما يقولونه، ولذلك كانت تلوم بابا، حتى بعد أن مات، بل بعد وفاته لامته أكثر. كثيرًا ما بدا لي أنها لم تحبه، بل كانت تكرهه. تقول عنه بغضب: «يقول قصة حزينة! أي حزنٍ عرف؟ لم يعرف ألمًا حقيقيًا. بل كل ما حدث، إن كان ثمة ما حدث، كان في رأسه. لم يحدث خارج رأسه أي شيء». وكانت تتظاهر، ولا تنجح في ذلك، بأنها لا تبالي ببابا. أكره حين تفعل ماما هذا، حين تذمّ بابا، وتحديدًا أمامنا نحن الذين لا ينبغي أن يُذمّ والدهم أمامهم. لكنها تستمر في ذلك لأنها ما إن تبدأ حتى

تظلّ تتحدث عن هَوَسه، إلى أن تصل إلى مرحلة تُستفزُّ فيها وتصبح شديدة الغضب إلى حد أنها لا تستطيع التوقف. لطالما حيّرتني درجة غضبها هذه، رغم كل ما تبديه من لوم وتهجّم وتذمّر. لاحقًا أدركت أنّ هذا كله مردّه أنها لم تغفر له أشياء كثيرة - بل ربما كل الأشياء - وليس تجهّمه فحسب.

هذا ما فعلته ماما دائمًا، ما تنفكّ تُذكّر بأنها لم تغفر له حتى في أوهى الأحاديث صلة به، كحديثنا عن منطقة العشر دقائق هذا. فوفقًا لماما، كانت منطقة العشر دقائق مثل بابا، لا تنطوي على أي أملٍ للإشراق. كانت تقول: «عالق في مأزقه، حالته مزمنة، متجهم للغاية. ولا منطق يسوّغ حالته يا بنيتي. معاناة متخيّلة. هذا جذر مشكلته، أنْ لا جذر لها حقًا». فقلتُ لها: «فهمت»، لكنني بالطبع لم أفهم ما يتعلق بغموض منطقة العشر دقائق. والآن ها أنا هنا، أعبرها، مستغرقة في السماء ومعلمتنا وكلماتها عن الضوء والعتمة واستجابتنا الآلية التي تختار فورًا: «العتمة! ائتنا بالعتمة من فضلك!». أما عن القنبلة النازية، فمعظم الحطام كان قد أزيل بحلول ذلك الوقت. ما تزال الأرض غير مستوية، فيما لم تبد لي أية بوادر لتحويل الموقع الذي كانت فيه الكنيسة إلى مواقف سيارات كما عهدنا في بقية الأماكن التي تُفَجّر، إذ ينتهي بها الأمر إلى أن تصبح مواقف سيارات. فالعزل القديم وغير المسوّغ لمنطقة العشر دقائق سيحول دون رغبة أي أحد في المجيء إلى هنا كي يركّن سيارته.

ما يزال بعض حطام البناء الحجري هناك، لذا ينبغي التنحي عنه ومجانبته، وهكذا فعلت فيما شققت طريقي عبر منطقة العشر دقائق باتجاه المعلم التالي. لمحتُ معلمي التالي، أي المقبرة، وقد لاحظت للمرة الأولى أشجارًا تتخللها، وهو ما ذكّرني بالسماء حينما اخضرّت. فتساءلتُ في نفسي إن كان بمقدور الأخضر أن يكون هناك، أو أن يكون أحيانًا هناك، أفلا يعني هذا أنّ الأرض يمكن أن تكون زرقاء في بعض الأحيان أيضًا؟ لذا صوّبت

نظري إلى الأرض، فرأيت شيئًا ملقى على الطرف. هناك في وسط المخلّفات الباقية رأسُ قطة مجزوز، بشعر متشابك. وجهها ناحية الأرض، والأرض هنا حطام التفجير. ظننتُ أول الأمر أنها كرة طفل، أو لعبة ما، ربما لعبة كيس نقود يُفترض أن تكون كيس نقود حقيقي، وعليه أذنان تشبه آذان الحيوان وشعر وسبلات. لكنّ الذي رأيته كان قطة، رأس قطة، قطة كانت حيّة إلى أن وقع ذلك الانفجار. أدركتُ حينها أنّ كائنًا حيًا قد مات من انفجار القنبلة.

لا تُظهر القطط حبّها كالكلاب؛ فهي لا تهتم ولا يمكن الاعتماد عليها البتة في دعم الأنا البشرية. ذلك أنّ القطط تفعل ما يحلو لها، منشغلة بشؤونها، ليست طيّعة ولا تعتذر أبدًا. لم يصادف أحد قطةً تعتذر قط، ولو اقترفت قطة هذا، فسيتضح بجلاء أنها ليست صادقة. أما عن القطط الميتة - أي القتل المتعمد للقطط، كأن تُقتل على سبيل العادة - فقد صادفتُ هذا مرات عديدة. شهدتُ هذا في طفولتي، وكانت القطط في تلك الأيام تُعدّ حيوانات مؤذية، تشبه الساحرات، بمثابة اليد اليسرى، وسوء الطالع، تعدّ أنثوية - رغم أن لا أحد قد صرح بإدانة الأنوثة عدا أثناء السكر الشديد - وإن وقع عنف آنذاك على بعض الإناث التعيسات يُصبحن هنّ المَلومات على ذلك. كان الرجالُ والصبيانُ يقتلون القططَ، أو إن تعذّر عليهم ذلك يركلونها أو يقذفونها بالحجارة فيما يعبرون بجانبها. كان إيذاء القطط واحدًا من تلك الأشياء التي تحدث على سبيل العادة، فلا يذكر المرء إن صادف قطة ميتة. أما أنا فلم أكن أقتلها، ولم أرغب حتى في أن أكون حاضرة في ذلك المشهد. كنتُ في تلك الأيام قد اكتسبت اشمئزازًا منها، فكنتُ أخشى أن أصادف قطة حية، أكثر من مخافتي رؤية واحدة ميتة. كنتُ أفزع من مسّها، بل أصرخ إلى أن ينقطع الصوت إن لمستها. قططٌ كثيرة ماتت في ذلك الزمن، قبل سنوات. أمّا الكلاب، فكانت موجودة بوفرة وفي خير حال.

كانت الكلاب جسيمة، مخلصة، ذات نزعة عدائية، تغذّي اعتداد الإنسان بنفسه وتغذّي حاجتها الخنوعة إلى طاعة شخصٍ ما. لذلك كانت مقبولة، ومثار فخر. ورغم أنها عُدّت عنيفة وحامية أيضًا ولدى كل شخص واحد منها، إلا أن هذا لم ينقذها؛ ففي إحدى الليالي قُتلت جميع الكلاب تقريبًا، عدا اثنين. قُتلت مرة واحدة، دفعة واحدة، ومقتلة الكلاب العظيمة هذه كانت مخالفة للعادة، فالقطط هي التي تُقتل. حدثت مقتلة الكلاب في طفولتي، بآلية مروّعة واستعراضية، عندما جزّ جند بلاد «ما وراء البحر» أعناق كلاب الحي في منتصف إحدى الليالي. تركوا الجثث في كومة ضخمة، موضوعة عمدًا عند أحد المداخل، هذه المداخل عينها الممتلئة عادة بصناديق الحليب المحمّلة بالمولوتوف استعدادًا للمظاهرة التي ستندلع في وقتٍ ما في اليوم نفسه. أدرك الجميع أنّ الجنود هم من فعلوا ذلك، وأنه تصريح منهم لتلقيننا نحن أهل الأرض درسًا، ليعلنوا أنّ باستطاعتهم التعامل مع كلابنا، وباستطاعتهم التخلّص من نباح كلابنا وزمجرتها، وتحذيرها للمناوئين حال قدومهم. لكنّ كلابنا لم تكن تعني لنا هذا وحسب.

كان نباح الكلاب وزمجرتها وتنبيهها يخدمنا جميعًا، وليس في صالح المناوئين وحدهم. وحين تفعل هذا تحذّر الجميع، كل الفتية والشباب والرجال والشيوخ والمناوئين وغير المناوئين، والذكور على نحو أخص لأنّ الذكور هم أكثر من يعانون من ظهور هؤلاء الجنود الذين يجيئون في أعداد كبيرة بسياراتهم المسلّحة وعرباتهم التي يقفزون منها خارجًا ويعسّون شوارعنا باشتباهٍ محتدم. كان الجميع ممتنًا لنظام التنبيه المبكر الذي تقدمه الكلاب، إذ كانت تمنح المرء مهلة كي يبتعد عن طريق الجنود. لم يكن من المستحسن لك أن تخرج من باب بيتك حينها، وإلا سيوقفونك في الشارع، وهم يفوقونك عددًا، فيأمرونك بالإجابة على الأسئلة تحت تهديد السلاح، سيأمرونك أيضًا بمواجهة الحائط، وسيفتشونك على هذا الحائط، بجانب

المداخل، ووسط المداخل، ستظل في وضع التفتيش هذا إلى ما يشاء هؤلاء الجنود. كما لم يكن مستحسنًا أن يبتسم لكِ هؤلاء الرجال هازئين حاملين أسلحتهم، حين تخرجين أنتِ أيّتها الزوجة، أو الأخت، أو الأم، أو الابنة من بابكِ لتشهدي على ما يحدث لابنكِ، أو لأخيكِ، أو لزوجكِ، أو لأبيكِ. لم يكن مستحسنًا لا سيما إن كانوا سيثبّتون ابنكِ أو أخاكِ أو زوجكِ أو والدكِ على هذا الجدار طوال وقوفك هناك، تشهدين على ما يحدث له. إذن هل تواصلين؟ هل تقفين بصمود؟ هل تواصلين الشهادة، حتى لو أنكِ في هذه الحالة سوف تتسبّبين بمزيد من المعاناة والإهانة الطويلة لابنكِ أو أخيكِ أو زوجكِ أو أبيكِ؟ أم تشيحين بوجهكِ، وتعودين للداخل، تاركةً ابنكِ أو أخاكِ أو زوجكِ أو والدكِ لهؤلاء الناس؟ وحتى لو لم تكن الحالة هذه، فلا يُقبل من أي امرأة أن تخرج من بابها لتتلقى سيلًا من التعليقات الجنسية، متأذية من أسوأ التلميحات السافلة، فيشيرون إلى «صندوق سيارتها» أو «علبتها» أو «مدى ملاءمتها للبغاء»، وحتى قولهم: «لو تعرفين ما سنفعله بوجهك لو أننا...»، أو أشياء كهذه، يقولونها وأسلحتهم موجهة إليكِ، وانفعالاتهم نادرًا ما تكون متزنة، فتخرج عن السيطرة. لذا فمن الطبيعي - أو ربما ليس من الطبيعي ولكن من المفهوم - أن لا يكون غريبًا على الفتيات أو النساء هنا أن يقلن في أنفسهن: **أيها الجندي، ليت قنّاصًا من المناوئين من نافذةٍ ما في طابق أعلى يفجر رأسك الآن بطلقة، فموتك الآن هنا لن يسوءني، بل سيكون مسرةً مريحة نفسيًا، حدثًا رائعًا، شيئًا من الكارما.** هكذا كانت الكراهية. كراهية عظيمة، هذه هي كراهية السبعينيات الجبّارة. فإذا ما أراد المرء أن يصل إلى تقدير لهذه الكراهية عليه أن ينحّي جانبًا قصور المشكلات السياسية وتضليلها، وكل ما يتعلق بها من تبريرات واختيارات. وكما قال أحد الأشخاص مرة على التلفاز بإيجاز شديد، وهو شخص عادي للغاية من أهل «ما وراء الطريق»، إنه يودّ قتل كل شخص من ديانتي في منطقتي - أي

كل أهل منطقتي - ردًا على بعض مناوئي الدولة من منطقتي الذين يتمشّون وراء الطريق ويفجّرون فيقتلون عدة أشخاص من معتنقي دينه في منطقته: «**مدهشة تلك المشاعر التي بداخل المرء**». وقد كان محقًا. مدهشة، لا يهم ما إذا كنت أنت نفسك من أشعل الشرارة في البدء.

لهذا كانت الكلاب ضروريّة. كانت مهمة لتحقيق التوازن، فهي بمثابة حاجز آمن ضد المواجهات القاتلة، المباشرة والفورية الناجمة عن مشاعر الكراهية، ذلك النوع الذي يندلع في لحظات بين الأفراد، أو بين العشائر، أو بين الأمم، أو بين الجنسين، فيسبب دمارًا شاملًا لا عودة عنه. ولكي تصدّها، وتكبح الذكريات السيئة، وكل هذا الألم والإهانة الشخصية، ما إن تسمع النباح، ما إن تسمع انطلاقة هذا النباح العشائري البربري، حتى تدرك أنّ عليك الانتظار في المنزل - ما يقرب من ربع ساعة - إلى أن يمضي الجند في طريقهم. وهكذا لا تواجههم، فلا تضطر إلى الشعور بالضعف والانهزام والظلم، أو لن تشعر بالأسوأ من كل هذا، وهو أن ترغب وأنت شخص طبيعي، شخص عادي، شخص وافر اللطف، في القتل أو تشعر بالراحة من القتل. فإن كنتَ في الشارع مسبقًا، أي في ساحة المعركة، أي في الشارع الذي تكون فيه عندما تسمع النباح المفاجئ، فكل ما عليك فعله هو أن تنصت وتتسقّط اتجاه قدوم أولئك الجند، وبسهولة حينها، تنسلّ إلى زقاق فرعي آخر أقل انكشافًا لهم. لكنهم قتلوا الكلاب، فقضوا على هؤلاء الوسطاء، وهكذا فإلى أن تولد كلاب جديدة وتُربّى وتدرّب لمعونتنا في منطقتنا، فمن الواضح أننا نعود إلى كراهيتنا الأولى وجهًا لوجه. في البدء، خلال الصباح الذي أعقب ليلة نحر الكلاب، وبمواجهة هذه الجثث التي لا تعد، جاء الرد المحلّي على قدر فعلتهم، وجهًا لوجه.

اتّشح المكان بالصمت في معظمه. أو اتّشح بالصمت في البدء، فيما

كلب واحد - مبدئيًا بدا أنه الناجي الأخير في الحي - ينظر بمحاذاة بقيتنا، يلهث بغمغمات متقطعة، وذيله مطرق بين ساقيه. أما أنا فبدا لي، في عمر التاسعة، أنّ هذه الكلاب تتجاوز طاقة الحي على استيعابها أو إدارتها، فلا بد أنّ الجنود قد جلبوا المزيد معهم من خارج الحي، ولكن حين طفق السكان يتعرّفون عليها ويتنسّبونها، فقد تنسّبوها كلها، كل كلب على حدة. كما بدا لعيني الطفولية، ولعيني أخي الثالث الذي كان يقف بجانبي، أنّ رؤوس كل هذه الكلاب، في كومة الكلاب الضخمة هذه، مفقودة. ظننّا أنهم جزّوها. صرخنا: «مامي! الرؤوس! لقد أخذوا الرؤوس! أين الرؤوس؟ أين لاسي يا مامي؟ أين بابي؟ هل وجد إخوتي لاسي؟ أين بابي؟ أين لاسي؟ تشبثنا بمعطفها، ثم طفق أخي الثالث يبكي. أثارني بكاؤه، فبكيت، ثم أثرنا أنا وهو كل الأطفال الآخرين. طفق الكلب الناجي بعدها يعوي أيضًا. كنا نحن الأطفال كثيرين في ذلك اليوم، تجمّعنا وتعلّقنا في ذوينا. في البدء ساد الصمت، ثم ساد بكاؤنا، وعلى إثره اضطر الكبار إلى التصرّف فنحّوا صدمتهم جانبًا وشرعوا في التعامل مع المجزرة، حيث سار الذكور جميعهم - الشباب والرجال والمناوئون وغير المناوئين - عبر الكتلة الوبريّة الموحلة. فرزوا الأجرام المبتلّة والموحلة ليستطيعوا التمييز بين جثمان وآخر، يمررونها عبر طابور طويل إلى من يدّعي ملكيتها، من ينتظرها، من يأخذها إلى المنزل على عربة، أو عربة أطفال، أو عربات يدوية، أو عربة سوبرماركت، أو كما حدث مع الأغلبية، احتضنوها كما لو أنها حيّة بين أذرعهم. أما بابا، أذكر إلحاح الأخ الثالث وإلحاحي في السؤال عنه، حاجتنا الملحة له ليكون هنا، ليكون رجلًا بجانب الرجال، ليقوم بشؤون الرجال المعتادة، كما استطاع أن يفعل بعد سنوات عندما بحث مع الآخرين عن رأس شقيق فلان الفلاني. ولكن يبدو على الأرجح أنّ يوم الكلاب كان أحد أيامه السيئة، أحد أيّام ملازمته للسرير، أحد أيام المستشفى، ربما يومًا منذورًا للانهماك في موضوع

الهولوكوست أو مجلة ملاكمة مصفرّة عتيقة. أيًا ما كان الأمر، فلم يكن بابا حاضرًا هناك. غير أنّ الإخوة كانوا هناك، مع الآخرين، يحفرون وقد بدا أنهم وصلوا إلى القاع، وما زالوا مع ذلك يحفرون. أضفتُ إليهم جواريف، وفي رأسي كانوا يحفرون بهذه الجواريف. الأرض مُخضَلة آنذاك، وإخوتي والرجال لا يبدون إلا من خصورهم فأعلى. متخثّرون، متثاقلون، مبقّعون، يزدادون حمرة وسمرة ودكنة وتورّطًا وكآبةً كلما نقّبوا أكثر ليخرجوا تلك الكلاب. أتذكر منظر الإخوة، وكل كلابنا، ونحن، والناس المحيطين بنا. رغم هذا لا أتذكر أي رائحة للموت. في لحظةٍ ما صرخ أخي الثالث، «**الكلاب تتحرك! ماما! الكلاب تتحرك!**»، فنظرتُ أنا وإذ بها تتحرك، باهتزاز بسيط للأعلى والأسفل. كما أتذكّر أيضًا أمّنا، بجمودها وسكوتها عند تشبثنا بمعطفها، أتذكر عدم ردّها على قولنا «**لاسي يا مامي!**»، «**أين بابي يا مامي؟**»، «**الكلاب تتحرك يا مامي!**». أخيرًا، شرحتْ لنا أختي الثانية أنّ الرؤوس ما تزال هناك، لكنها مطويّة إلى الخلف، وأدركت لاحقًا أن هذا يعني أن الحناجر قد جُزّت بعمق إلى أن وصلت إلى العظم فبدا لأعيننا أنّ الرؤوس مفقودة. أظن أن تفسير وجود الرؤوس هناك أهون للاستيعاب، لاستيعاب أخي الثالث، من أن تكون مفقودة، أهون من أن يأخذها الجنود ليلعبوا بها، ليركلوها ربّما، ليطيلوا احتقارها. أو ربما المريح هو تقديم أي تفسير كان. واصلنا البكاء على أية حال، كما فعل بقية الأطفال، خاصة كلما خرج كلب معروف أو كلما تصاعد هلع ترقّب كلبٍ محدّد. ثمة موجات من الأمل أيضًا، تقول ربّما ليست ميتة لأنها تتحرك. ثم قال الكبار: «إنها لا تتحرك». وأخيرًا صرنا مزعجين بأملنا اليائس إلى درجة أنّ بعض الإخوة الكبار قد أُمِروا باصطحابنا نحن الصغار إلى بيوتنا.

أعادتنا الأختان الأولى والثانية، أنا والأخ الثالث إلى البيت. في ذلك الوقت كنّا الأصغر في الأسرة. ظللنا نحن الاثنان نتطلع إلى الوراء، نلقي

بنظرات طويلة إلى الخلف، مشغولَي الذهن بلاسي فيما كنا نبتعد عن ذلك المدخل حيث الإخوة والرجال الآخرون. كانت هذه كلابنا، كلاب شوارع، بمعنى أنك تطلق كلبك في كل يوم إلى الشارع ليستمتع بمغامراته مثلما تطلق أطفالك ليحظوا بنصيبهم من اللعب والمغامرة. يعود الأطفال والكلاب في الليل دائمًا، ما عدا تلك الليلة حيث عاد الأطفال ولم تعد الكلاب. لقد اقتادتنا الأختان الكبيرتان أنا وأخي إلى البيت، بعيدًا عن ذلك المدخل، وأذرعهن تحيط بنا. كنا ما نزال ننظر إلى الخلف حتى اقتربنا من المنزل، حيث اتقد أمل آخر فينا. فرغم أنّ الكلاب الأخرى قد ماتت، عدا واحدًا، ورغم أنّ لاسي ظلت طيلة الليل في الخارج، مثلما كانت بقية الكلاب في الخارج، لكنها ربما عادت إلى البيت. فحثثنا الخطى واندفعنا إلى الباب وإذ بلاسي هناك. كانت مستلقية بجانب المدفأة، وقد رفعت رأسها وزمجرت باتجاهنا، ربما لأننا فتحنا عليها الباب؟ وأدخلنا تيارات الهواء معنا فأزعجناها؟ لم تكن لاسي كلبة من سلالة راقية، كما لم يكن أي من تلك الكلاب من سلالة راقية. لم تكن لديها مميّزات، ولا شهادات، لم تكن مرحة، لم تكن مدرّبة على أي مهارة، ولا تهرع لمن يواجهون الخطر ولا تنقذ الأطفال من الغرق. لم يكن لدى لاسي وقت للأطفال، ولا لصغار العائلة، لكنه كان أسعد يوم إذ رأيناها وسمعناها، إذ عرفنا أنّ لها حنجرة تزمجر بها وتبدي حنقها. لم نرتمِ عليها بالطبع، لأن لاسي لا تحب هذا. لكنّ صباحنا ذاك كان مشؤومًا إلى أنْ عاودت الظهور. بعد هذا، نسيت. نسيت أمر الكلاب، وموتها، وأسى الحي، والصدمة، ونصر الجنود المحقق. في ذلك المساء بعد العشاء، وأنا ما زلت في التاسعة من عمري، انطلقتُ في أحدث مغامراتي، عابرة المدخل ذاته المليء الآن كالعادة بالمولوتوف من أجل المظاهرة القادمة. لم يتبق أي أثر لوجود كلاب ميتة، وقد شممتُ لوهلة ذاك المطهّر الفعّال، مطهر «جيس فلويد». أتذكر أنني حتى تلك اللحظة كنت قد أحببت هذه الرائحة المنزلية.

إذن فقد كان الجنود يقتلون الكلاب، وأهل الحي يقتلون القطط، ثم باتت اللوفتفافة[1] تقتل القطط أيضًا. رمقتُ الرأس الصغير الملقى في الحطام وصُعقت كما لم أصعق من قبل، ودون أن أدرك لماذا في هذه المرة كانت لدي ردة الفعل القوية هذه. أشحت النظر، واصلت مشيي بصرامة، مع هذا ظل منظر الرأس معي. ظل يصحبني إلى أن ألفيت نفسي قد توقفت وقفلت عائدة إليه. عدتُ من حيث أتيت إلى أن صرت مجددًا بجانب الرأس، وهذه المرة نظرت عن كثب ورأيت أنه رطب، أسود بعض الشيء، أسود مدمّى، متعجّن عند الرقبة، أو حيث كانت هناك رقبة. تقرفصت وبقطعة من الأنقاض قلبت الرأس. وجهها بأكمله متجه الآن إلى الأعلى، وإذ ما يزال من السهل التعرف على أنها قطة، بعينين كبيرتين ربما، أو محجرين كبيرين لأن إحدى العينين مفقودة. المحجر الفارغ كان كبيرًا وبدا منه أنّ شيئًا ما كان يحدث بداخل الرأس نفسه. خطر لي أنها حشرات، ودليلي ما رأيت من كتل وانتفاخات، في الأنف، والأذنين، والفم، كما أن العين المتبقيّة بها انتفاخ أيضًا. ثمة يرقات راكدة مرئية، بالرغم من هذا ومن وجود بعض الدبق وما يشبه الخميرة، فلم تكن ثمة رائحة. أما بالنسبة لبقية الجسد، فقد ألقيت نظرة خاطفة على المكان من حولي ولم أره. الرأس بمفرده كافٍ. ثم صار فائضًا عن طاقتي. وقفت ومضيت ثانية لأن صفّ الفرنسية كان جيدًا، وقد استمتعت به، كما استمتعت دائمًا بغرابة أطوار المعلمة، وحديثها عن ذلك «**الصوت الصغير الساكن**»، و«**عيش اللحظة**»، و«**ترك ما تظنه واجب الحدوث من أجل ما يمكن أن يحدث**». وهناك أيضًا تكرارها لقول «**غيّروا شيئًا واحدًا، أيها الطلاب، شيئًا واحدًا وحسب، أؤكد لكم أنّ كل شيء سواه سيتغيّر أيضًا**». كانت تقول هذا لنا، نحن الناس التي لا يقف الأمر معها عند عدم

---

(1) القوات الجوية الألمانية.

فهم المجاز وحسب، بل لا تعترف بوجوده من الأساس. لكنّ كلامها بدا قيّمًا. وبدت هي قيّمة، ولم أودّ أن أفقد هذا الشعور. ولكن بوجود هذا الرأس في الوحل - وقبل هذا رؤية الفان، ومنطقة العشر دقائق، والقنبلة التي تعود لزمن الحرب التي جلبت ذكرى بابا الميت ونوبات اكتئابه ومهاجمة ماما له جراء إصابته بهذه النوبات - فقد عاودتني كل أفكاري السابقة القائلة «**ما المغزى؟ لا فائدة من وجود أي مغزى**». قالت المعلّمة مرةً: «**بالمحاولات والمحاولات المتكرّرة، هكذا نعيش**». لكن ماذا لو كانت مخطئة بشأن المحاولات وتكرار المحاولات، بشأن المضيّ للفصول التالية؟ ماذا لو أنّ الفصل التالي كان مثل هذا الفصل، كما كان الفصل السابق؟ ماذا لو أنّ كل الفصول متشابهة أو حتى، بمرور الوقت، ازدادت سوءًا؟ خلال هواجسي هذه، حملت جسدي وطفقت عائدة إلى القطة، أتبع خطاي كما لو أنني لا أملك خيارًا في هذه المسألة. قلتُ لنفسي: **لا تكوني بلهاء. ماذا ستفعلين؟ هل تقفين هنا وتحدّقين فيه إلى الأبد؟** أجبتُ نفسي: سأحمله. سآخذه إلى مكانٍ أخضر. لحظتها، فاجأني هذا الخاطر، بل أذهلني. ثم أذهلتُ نفسي بعبور السياج، والعشب، وصولًا إلى جذع الشجرة. ربّما أستطيع أن أغطيه، بدلًا من تركه هكذا في المكان البشع المكشوف. فسألتُ نفسي: **ولكن لم؟ يمكنك الخروج من هنا في أقلّ من دقيقة. يمكنكِ الوصول إلى المقبرة، معلمكِ الثاني. ثم ثكنة الشرطة، ثم تمرّين برائحة القرفة المهدئة للأعصاب المنبعثة من منزل الخبز، ثم** -. قطعتُ أفكاري قائلة: بالطبع! سآخذها إلى المكان المعتاد!

كنتُ قد أخرجت مناديلي، مناديل حقيقية، ليست من ورق، بل من قماش. لم يمض وقت طويل على احتكار الذكور لاستخدام هذه المناديل الكتّانية البيضاء الكبيرة، فهي لأناقتها المساوية لأناقة المناديل النسائية لم تكن تستخدم للتمخّط. على أني بدأتُ أحبّها بعد أن قدّمَتها الأخوات الصغيرات على شكل طقم في عيد الميلاد. ومن وقتها أصبحتُ أحمل

منديلًا نسائيًا بوصفه علامة جمالية وحضارية، ومنديلًا رجاليًا أستخدمه للأغراض العملية. وفي ذلك المساء قررت أن أدرج الاثنين في الاستخدام العملي والرمزي. فرشتُ المنديل النسائي الصغير الرقيق أولًا على الأرض، ثم وكزتُ الرأسَ بالمنديل الرجالي الكبير فوق المنديل الأول. فلمّا وكزته، شعرت بأنياب القطة الأمامية تنشب في القماش، والجلد الذي على رأسها بدأ ينزلق. تساقط بعض الشعر فهلعت حينها، وقد حسبت أنّ الجمجمة ستنسلّ من غطائها الجلدي. لكنّ المهمة اكتملت حينها، والرأس في وسط المنديل النسائي، فحزمتُ المنديل القطني المطرّز الأنيق. وضعتُ الآن المنديل النسائي الذي يحتوى على الرأس في المنديل الرجالي الكبير المفرود، وحزمت هذا الآخر أيضًا. واصلتُ هواجسي: **هذا دليل آخر على جنونكِ، أحقًا ستمشين في الطريق برأس مقطوع، بصرف النظر عن كون المكان مهجورًا، فعلى الأقل تدركين أن شخصًا ما على نحو ما يشاهدكِ الآن. هذا يعني المزيد من الأقاويل، والاختلاقات، يعني الكثير من الإضافات على مثالب شخصيّتكِ.** لكنني في تلك اللحظة لم أهتم. إضافة إلى أنني لم أتمكّن من كبح نفسي. قلت في نفسي ستكون لحظة فحسب، لأنني سأعثر على البقعة المناسبة بسرعة، مكانًا ذا خصوصية، هادئًا، بجانب الحائط البعيد ربما، حيث القبور العريقة، حيث الأرض نائتة بعشب غير مشذب متشابك، المكان الذي لم يعد ينشغل به رعاة القبور. كنتُ قد ربطت نهايات المنديل الكبير ببعضها وكل شيء أصبح جاهزًا حين توقفت وكدت أصطدم بالحلّاب. كان صامتًا، بينما كنت مستغرقة في أفكاري، إلى حد أنني لم أشعر بظهوره. ها هو يبعد عني ببوصات، وأنا أبعد عنه ببوصات، وليس معي سوى هذين المنديلين، بمحتواهما القاتم الميّت، حاجزًا بيننا.

***

كان أول ما حدث، مجددًا، أن أصبتُ برعدة العمود الفقري تلك، الزاحفة، الرعدة الراجفة داخلي، الرعدة التي تشق طريقها من عمودي الفقري نزولًا إلى ساقيّ. توقف كل ما بي لا إراديًا. توقّف وحسب. توقفتْ كل آليات الحركة عندي. لم أتحرك ولم يتحرك هو. وقفنا هناك، لم يتحرك أي منّا، ولم نتحدث، ثم تحدث هو قائلًا: «كنتِ في حصة الإغريق والرومان، أليس كذلك؟». كان هذا هو الشيء الوحيد الخاطئ في تقّصي الحلّاب هذا عنّي. ليس لأنني لم أفكر في الالتحاق بصفٍ عن الإغريق والرومان، مثل صف الدراسات الإغريقية والرومانية الكلاسيكية بدلًا من الفرنسية. بل كنت منجذبة إلى تلك الأقوام السابقة، إلى مشاعرهم الحرّة، وشخصيّاتهم المتجردة من المبادئ، وأساطيرهم، وطقوسهم، وكل تلك المخططات والتصفيات المريعة والغريبة والارتيابية. هناك أيضًا آلهتهم المتقلّبة واللعنات التي يتوسلها النّاس من هذه الآلهة ليصبّوها على كافة أعدائهم، هؤلاء الأعداء الذين يتبيّن أنهم جيرانهم في البيت المجاور. يبدو عالمهم كله كعالم أليس في بلاد العجائب، كأولئك القياصرة الفسّاق الذين يتزوجون أشجار التفاح وينصّبون أحصنتهم قناصل[1]. فيها ما هو مشوّق. ثمة شيء نفسي، شيء غير طبيعي في تلك العصور لا يمكن أن يفهمه ويتقبله الإنسان الطبيعي إلا إن كان به شيء من خلل. لهذا السبب وصلت إلى حدّ قراءة الملف التعريفي بالمقرر لأرى إن كان بمقدوري الالتحاق به، لكنّ صف الإغريق والرومان كان موعده في ليالي الثلاثاء وكانت ليالي الثلاثاء مخصصة لشبه الحبيب. وبما أنّ صفّ الفرنسية كان في ليالي الأربعاء فقد اخترته. هذا يعني أنّ الحلّاب قد أخطأ، ولم أصحح له خطأه، فقد منحني هذا الخطأ أملًا بأنّ الحلّاب في ذروة

---

(1) في إشارة إلى قصة تقول إن كاليغولا أراد تنصيب حصانه إنسيتاتوس قنصلاً من شدة حبّه وتقديره له.

معرفته بكل شيء لم يكن يعرف كل شيء بالفعل. لكنه لم يكن أملًا حقيقيًا في الواقع، إذ تبيّنتُ حين وصلتُ إلى البيت وحلّلت هذا لاحقًا أنه قد قرأ أفكاري عن الصف بالتأكيد، وقد كانت أفكارًا من المستوى العلوي، أفكارًا من التربة السطحية للذهن، أي أنها غير مهمة، وليست سريّة، أي ليست عرضة للهجوم حتى يلزمنا تشفيرها. ما يعني أنّ أي أحدٍ من هؤلاء الذين يحملون أسماء عاديّة مثل توم، وديك، وهاري يمكنه إذا ما رغب أن يدخل إلى هذه الأفكار بسهولة. لكنه استطاع أن يقرأها رغم أنه لم يكن بالقرب مني أثناء تفكيري بها. صدمني مدى غرابة ودقّة وعمق الاستقصاء الذي قام به هذا الرجل ليستخرج المعلومات، ليوثّق ويؤرشف كل نتفة من المعلومات، حتى وإن أخطأ في النتيجة النهائية كما في هذه الحالة.

كما في المرتين الأخيرتين من لقاءاتنا، أو بالأحرى من مرّات تدبيره للقاءاتنا، هذه المرة أيضًا كان في الغالب يطرح أسئلة، دون أن يبدو طامعًا في الحصول على أي جواب. ذلك لأنّ أسئلته لم تكن أسئلة حقيقية. ليست طلبًا حقيقيًا للمعلومات ولا لتأكيدات افتراضاته. كانت جملًا خبريّة، نابعة من ثقة، تعليقات ذات قوة تقريرية، وتلميحات، وتحذيرات، ليخبرني أنه بارع في المعرفة، ثم يلحقها بتلك التذييلات التي توحي بالاستفهام: «ألستِ كذلك؟»، «أليس كذلك؟»، «أليس هذا صحيحًا؟»، «أليس الأمر هكذا؟». وهكذا ألقى بتعليقه عن صفّ الإغريق والرومان، وكنتُ أثناء ذلك أفكّر في ذلك الفان، الفان الأبيض عند المدخل، وأنه كان فانه بالتأكيد. أكان يتعقّبني حينها؟ هل كان جالسًا في تلك السيارة طيلة الوقت فيما كنت في صف الفرنسية، يراقبني، ويراقب الآخرين، يلاحظ قلقنا فيما نراقب غروبنا؟ تحدّث مجددًا إليّ كما لو أنه يعرفني، كما لو أننا قد تعارفنا مسبقًا على نحو لائق وقد قُدمنا لبعضنا البعض. هذه المرة أيضًا، كما في منطقة الحدائق والسدود، كان يلحظني بعينه ولا ينظر إليّ مباشرة، كما لو أنها تحديقة في جانبي. ثم جاء

بسؤال آخر، وهذه المرة عن شبه الحبيب، وكانت تلك أول مرة يذكره فيها.

فعل هذا على سبيل أنّ وقته قد حان، أصبح وقته الآن، أولم يحن الوقت أن نخوض نقاشًا صغيرًا عن هذا المدعو حبيبًا من نوع ما؟ قال «هذا الفتى الذي تلتقينه أحيانًا، هذا الفتى اليافع»، وقال «فتى يافع» كما لو أنّ شبه الحبيب كان صبيًا صغيرًا، كما لو أنه لا يكبرني بسنتين. «ترقصين مع الفتى الشاب في ملاهٍ خارج منطقتكِ وداخل منطقته، أليس كذلك؟ في تلك الملاهي المعدودة في البلدة أيضًا، وتلك الأخرى قرب الجامعة؟ ترافقين الفتى اليافع في أمسيات الشرب، صحيح؟». وقد سرد أسماء بعض الحانات، وذكر أماكن محددة، مع أيام معلومة، وأوقات مخصّصة، ثم قال إنه لاحظ أنني لا أستقل حافلة أيام الأسبوع الآن إلى وسط البلدة. لم يقصد الحافلة الصباحية التي كنت أستقلها وسبق أن تحدّث عنها في المرة الأخيرة، بل الحافلة الجديدة التي بتّ أحيد عن طريقي مؤخرًا كي أستقلّها، في محاولاتي لتفاديه. قال لأنّ الفتى اليافع في بعض الصباحات يوصلني إلى العمل بعد الليلة التي أقضيها في منزله. كان يعرف منزل شبه الحبيب إذن، وحيّه، واسمه أيضًا، ورفاقه، وأين يعمل، إضافة إلى عمله في مصنع السيارات ذاك الذي اضطر إلى الإغلاق آنذاك وخلّف كل طاقم عمله عاطلين. كان يعرف أيضًا أنني ضاجعت شبه الحبيب، وهنا انزعجتُ إذ شعرتُ بأنني في مأزق جرّاء دلالات تلك الكلمات الممكنة، التي أدركت أنها مقصودة. ثم قال: «لكنه ليس خليلًا، بالرغم من هذا، أهو كذلك؟ ليست مواعدة رسمية، ليس الأمر منتظمًا بينكما، لم تؤسسا لشيء أوثق، لم تراوحا مكانًا في علاقتكما، لم تغوصا لأي عمق، أليس كذلك؟». كنت أقف متصلبة في المكان الخطأ، لأنني إن كنتُ أتوقع شيئًا من الخلّاب هذا في لقائنا الثالث، فسيكون توبيخًا على مواصلتي للجري في حين أنه ليس علي أن أمشي قليلًا أثناء الجري وحسب، وفق رأيه، بل لا يجدر بي أن أمشي أساسًا، أولم يقل ذلك آخر مرة؟ كنتُ أمشي كثيرًا،

ولهذا فمن المخيّب له أنني هنا، ما زلت أقوم بالأمرين، بل إنني أجري مع الصهر الثالث في منطقة الحدائق والسدود. لكنه لم يشر إلى الصهر الثالث أو استمراري في الركض والمشي أو الحدائق والسدود. لقد صعقتُ تمامًا بمجرى الحديث الجديد كليًا هذا.

قال - في لفتة عابرة - إنّ الفتى اليافع ما يزال يعمل في مجال السيارات، أليس كذلك؟ وهكذا بات الحديث الآن تقريبًا عن المقرّ الحالي لعمل شبه الحبيب. تحدّث أيضًا، عن البلاور بنتلي. ثم عن الشاحن الفائق. ثم عن مسألة علم بلاد «ما وراء البحر»، فبدأتْ الاضطرابات في ظهر ساقيّ تتخذ إيقاعًا بغيضًا. لقد رصد إذن نظام شبه الحبيب، وكل تحركاته، تمامًا كما رصد نظامي وتحركاتي. ثم قال إن الفتى اليافع يحب الغروب، وقال هذا كما لو أنه فعل عبثي. لا أحد - بالأخص إذا كان هذا الأحد ذكرًا - يجدر به حتى أن يلاحظ الغروب، كما لو أنه طيلة سنوات بحثه، طيلة سنوات تتبعه للآخرين، ونصبه الفخاخ للناس كي تقتل، لم يصادف شخصًا واحدًا غريبًا بما يكفي - حقًا غريبًا بما يكفي - ليقتطع شيئًا من وقته ويقود مركبته إلى حيث يمكنه أن يشاهد الغروب، الغروب الذي تقبّلته الآن من أعماقي، على عكس التقصّي والتتبع ونصب فخاخ القتل. ثم قال: «كل أحد وشأنه». قالها بهدوء، على الأرجح قالها لنفسه. ثم عاد إلى موضوع الشاحن الفائق، أو على نحو أدق، إلى تلك الشائعة التي تدور الآن في منطقة شبه الحبيب بخصوصه هو والشاحن الفائق، وميوله المفترضة - ميول الخيانة - جراء امتلاكه قطعة استثنائية من بلد «ما وراء البحر» تحمل الشيء ذا اللون الأحمر والأبيض والأزرق عليها في منزله.[1]

ردًا عليه ألفيتُ نفسي أقوم بشيء شاذ عن شخصيّتي. قلت: «لم يأخذ

(1) إشارة إلى علم المملكة المتحدة.

تلك القطعة ذات العلم. كما لم يكن ثمة قطعة تحمل علمًا. لقد اختلق هذا أصحاب الشائعات في منطقته». ثم ناقضت نفسي حين قلت: «أحد فتيان «ما وراء الطريق» في مقر عمل حبيبي أخذ القطعة ذات العلم». ها أنا ذا بثلاثة أمور جديدة أفعلها لأول مرة. الأول أنني أكذب، فقد اختلقت كليًا أمر وجود شخص يعتنق الدين الآخر في مكان عمل شبه الحبيب أخذ القطعة ذات العلم. في الحقيقة، لا أدري إن كان ثمة أشخاص من الدين المضاد في الورش التي يعمل بها شبه الحبيب. الشيء الآخر أنني حوّلت «شبه الحبيب» إلى «حبيبي»، للمرة الأولى على الإطلاق. جاء هذا من رغبتي في الاحتماء، لإيقاف الحلّاب هذا عن تبيّن أي اشتباه في علاقتنا من وراء هذه الدقائق الصغيرة فيقرّر أن ينسلّ على إثره بيني وبين شبه الحبيب، والشيء الثالث هو كل هذا الحديث المفاجئ الذي حادثته به، هذه الثرثرة، هذا الإسراف فيها، وكما قلت، الأكاذيب، في محاولتي للدفاع عن شبه الحبيب لتتريسه من هذا الحلّاب المؤذي العارف بكل شيء، وكان هذا بمثابة نقيض صارخ لعدم فتحي فمي بالمطلق لا دفاعًا عن نفسي ولا لتتريسها. لم أدرك ما الذي يحدث، ولا ما كنت أفعل، لكنني شعرت بتشابه بين هذا الذي أفعله وصراخي من النافذة تلك المرة على الأخت الكبرى عندما جاءت دون وجه حق لتوبّخني لأن زوجها أرسلها، دون حق أيضًا، لتوبّخني. شعرتُ حينها، كما الآن، أنّ خطوتي تزلّ بي. بينما آليتي المعتادة أن أبقى بعيدة عن هذه الأقاويل، بعيدًا عن الألسنة المنفلتة وعن إشباع الخمسة آلاف شخص[1]. إلا أنني تعثّرت آنذاك، وسقطت وسط ما اعتدت اجتنابه. هول العقل الجمعي المستفزّ كافٍ لتوريط أي شخص. بالكاد أعرف ما كنت أوشك عليه، لِمَ كنت أتحدث،

---

(1) إشارة إلى معجزة السيد المسيح، إذ يذكر إنجيل يوحنا أنّ يسوع استخدم خمسة أرغفة وسمكتين لا أكثر لإطعام أعدادٍ كبيرة من الناس.

لِمَ أشرح وألتمس العذر نيابةً عن شبه الحبيب، وهذه المرة الأولى على الإطلاق منذ لقائنا الأول - عندما كنت أقرأ «آيفانهو» وقد خرج من سيارته بجانبي - التي حاولت فيها أن أردّ بكلمات على هذا الرجل. بيد أني واصلت قصتي التي تبدو حقيقية، مكررةً الحديث عن فتى من سكّان «ما وراء الطريق» عرضيًا، لتبدو قصة حقيقية. خطر لي حينها أنه لم يجدر بي أن أختلق وجود فتى من أهل «ما وراء الطريق»، وبدلًا من هذا كان علي التمسّك بحقيقة عدم وجود قطعة تحمل العلم من الأساس. لكن حينها، كل أهل «هذا الطرف من الطريق»، «طرفنا من الطريق»، «ديننا»، يدركون أنّ المشاركة في أيّ عنصر مشكوك حتى في انتمائه الوطني لبلاد «ما وراء البحر» قد يُدان، تمامًا كما ألمح جار شبه الحبيب الغيور، سواءً أكان عنصرًا بعلم أم لم يكن بعلم، فكان يجب على شبه الحبيب أن يرتدّ بفطرته عن المشاركة في قرعة تقود إلى الفوز بأي جزء من سيارة كهذه على الإطلاق. هناك أيضًا مسألة اليانصيب برمتها، مسألة ربح شيء صدفة، مسألة الظهور فجأة في المنطقة وقد أصبتَ ما هو أكثر من الكفاية المالية ولديك دخل متزايد نقديًا وعينيًا، من ممتلكات لا يمكنك في الظروف العادية أن تحصل عليها. عادةً عندما يحدث هذا تندلع معه شائعة المخبرين. إذ يقول وسطاء الدولة لمخبريهم: «قل لهم إنك حصلت على بعض المال. أخبر فتية الحي، أخبر المناوئين، أنك ربحت هذا المال، هذه الحفنة التي أعطيناك إياها مقابل المعلومات، قل إنك ربحتها في يانصيب مثلًا أو في لعبة لوتو أو بنغو ونحن سنعمل على أن يكون فوزك بها في يانصيب أو في لعبة لوتو أو بنغو موثقًا». والمخبرون يلتزمون بقول هذا: «ربحناها في لعبة يانصيب»، ويدمجون كلماتهم بهزات كتف مبالغ فيها ليبرهنوا على أنهم بالطبع ليسوا مخبرين ولا أحد يظن أنهم مخبرون. لا يبدو أنهم سيتعلمون أنّ هذا الكلام لا ينطلي على أحد، بالرغم من عدد جثث المخبرين التي تكدّست عند المداخل، أو على الأقل لا تنطلي

على المناوئين تحديدًا. ما زالوا يقولون: «فزتُ بها في يانصيب. حتى أنها موثقة في الصحف!». يقصدون أنّ الصحيفة المطبوعة من تلك الدولة التي تفيد بأنهم فازوا بها دليل على أنهم حقًا وصدقًا ليسوا مخبرين. مجددًا، يشيرون إلى الصحف «الخطأ»، فهي صحف من «هناك». مثل هذا الإعلان في مثل تلك المطبوعات بمثابة إدانة لهم وإعلان لإهدار حياتهم في جماعتي وفي جماعة شبه الحبيب أكثر من كونها عذرًا لهم أو منقذة لأرواحهم. وبالرغم من اعتبار تلك الصحف متخابرة مع الدولة، فالمخبرون يتمسكون برواية قادتهم. بالطبع فاز بها شبه الحبيب في قرعة حقيقية، في لعبة حظ مفاجئة في مقر عمله. أي مخبر تافه على أية حال، سيطلب شاحن فائق من بلاور بنتلي - ويحصل عليه -؟ سيكون على الأرجح لقاء معلومة من الدرجة الدنيا عن مناوئينا المحليين. لكنّ الوضع معقد. معقد للغاية. مرّتان في هذا اللقاء حتى الآن جرّبت سهولة الوقوع في الشراك. يمكن للمرء أن يبثّ شائعة، يواصل في أمرها، فتحتجزه ولا يستطيع الفكاك منها. لقد ابتدعتُ كذبة بشأن ربح شبه الحبيب قطعةً محايدة من سيارة محايدة، فيما لا شيء محايد فيها. والآن، بعد أن استهلكتُ نفسي للتعامل مع ذكاء حاد قاتل أتصوّره لدى الحلّاب، بالكاد أستطيع أن أتراجع وأقدّم قصة أبسط، - أي القصة الحقيقية - إذ لو فعلت فسوف يعقّد هذا الأمور على شبه الحبيب كما سيكشف للحلّاب أنني كذبت في كل شيء قلته.

قلتُ لنفسي: هذا جنون، أنتِ مجنونة. ماذا ستقولين بعد وماذا لو انتهت مسألة العلم إلى محكمة صوريّة؟ هل ستقرّين أنّ فتى «ما وراء الطريق» - لنقل إنّ اسمه إيفور - الذي لا بد أنه لأسباب تتعلق بانتمائه الديني أكثر من كونه مُخْتَلقًا، لا يريد أن يظهر بنفسه في جلسة استنطاق العدو المناوئ، ربما يكون مستعدًّا، دعمًا لزميله في العمل، أن يكتب رسالة قصيرة؟ هل سيقرّ إيفور في هذه الملحوظة بأنه هو من يمتلك القطعة ذات العلم، على

الأرجح سيرفقها بصورة لنفسه وبجانبه هذه القطعة ذات العلم، مع دلائل أخرى في الخلفيّة على كونه من سكان منطقة «ما وراء الطريق» - مع المزيد من الأعلام ربما؟ هذا يفي بالغرض. عدت من تفكيري الساخر إلى تهوّر شبه الحبيب وكيف أنه يعاني بشدة من سعار السيارات والتكديس القهري الذي يصل إلى الأسقف حدّ أن يخترق أعرافنا السياسية والاجتماعية والدينية. لم يكن الأمر مهمًا لدى الفتيات كما كان لدى الفتيان. فقيود «ما هو مسموح» و«ما هو محظور» أكثر صرامة عليهم وأصعب، ولم أشغل نفسي بمعظم أمور الذكور، مثل البيرة، وحتى بعض المشروبات الروحية. أما الرياضة، فلستُ مهتمة بها، لأنني أكره الرياضة، وأكره البيرة، وأكره المشروبات الروحية، لذلك لم أولِ اهتمامًا لطبيعة الخيارات المقبولة من الذكور سياسيًا ودينيًا. ومثلما لم أكن أعرف في أمور السيارات، لم أعرف أيّ السيّارات مقبول من «ما وراء البحر» وأيها كان محظورًا. بالنسبة للبلاور بنتلي، حتى أنا شعرتُ أنّ هذه المركبة بالتأكيد تروّج حسًّا وطنيًا من نوع ما، ولكن ألا يكون ممكنًا - كما تساءل جار شبه الحبيب اللبق الدبلوماسي - أن تصنّف كواحدة من تلك الأشياء المستثناة المسموحة؟ يبدو أنّ الشائعة الغاضبة التي تدور الآن في منطقة شبه الحبيب تقول إنّ هذا غير ممكن. لا قِطَع محايدة إذن. كل القطع خائنة. ماذا لو كان إيفور متعصبًا فرفض أن يكتب الرسالة؟

«سيارة مفخّخة وينتهي الأمر».

كان هذا صوت الحلّاب ثانية، فوثبتُ حين سمعته. قال: «كانت «أداة»، أَليس كذلك؟ ما أغرب تسميتهم لها بقول «أداة»، وهي مثبّتة بداخل العادم قبل أن تؤخذ إلى الصيانة الاعتيادية. أنا مندهش من أنّ حبيب أختكِ السابق، بالنظر إلى مهنته، لم يكتشف شيئًا جليًّا كهذا يمكن لأيّ ميكانيكي سيّارات أن يدركه بوضوح». هنا هجستُ: لا، هذا خطأ، إذن فهو لا يعرف

عنه. حبيب أختي المتوفى الذي خانها ثم قُتِل في سيّارته عندما زرع زملاؤه الطائفيون من الديانة الأخرى قنبلة أسفل سيّارته في مواقف سيارات المصنع، كان سبّاكًا لا ميكانيكي سيارات. شبه الحبيب هو الميكانيكي. ثم حينها تساءلت لم كان يتحدّث عن أختي وحبيبها السابق؟ بدا لي أنّ الحلّاب وإن أخطأ في مسألة الرومان والإغريق، فمن غير الممكن أنه جاهل بقدر أن تخفى عليه معلومة لم تكن سريّة حتّى. وبالطبع، لم يكن جاهلًا. لم يخطئ التمييز بين السبّاك وميكانيكي السيارات. إنما قدرتي على الاستنتاج لم تفطن بعد لطريقته التلميحية التي يحب أن ينقل بها مقاصده. لكنه واصل حديثه، ملمّحًا، مانحًا إياي وقتًا وفرصة سخيّة كي أفهم. يتنقل بسلاسة من الحديث عن حبيب أختي السابق المتوفى وقنبلة مناصري الدولة التي قتلته، إلى قول: «وهو يعمل الآن على سيارة خردة في بيته، أليس كذلك؟»، يعني شبه الحبيب. ثم عاد إلى الزوج الميت، الذي لم يكن زوجًا قط، لكنه الأوحد في قلب حبيبته السابقة التي ترمّلت. هزّ رأسه حينها، شاعرًا بالأسف من أجلها، من أجل أختي وعشيقها الميت. قال: «لقد راح ضحية مكان خطأ، وزمان خطأ، وديانة خطأ». كما قال إنه يرجو أن تتجاوز أختي الأولى مصابها وألاّ تأسى أبد الدهر على فقد ميكانيكي السيارات: «إنها امرأة جميلة، ما تزال امرأة جميلة. جذابة جدًا»، دون أن يشير البتة إلى الرجل الذي تزوجته، دون أن يشير إلى زوجها الفعلي، الصهر الأول. كنتُ قد تشوّشت آنذاك. هل كان يقصد أختي؟ أفهمت هذا خطأً وطيلة هذا الوقت كان سعيه وراء أختي لا ورائي أنا؟ ولكن لِمَ يذكر حبيبها السابق؟ ولِمَ يذكر القنبلة التي قتلته؟ ولم شبه الحبيب؟ في تلك الأثناء، طيلة هذا الارتباك، واصلتْ تلك الموجات الكريهة، الارتعاشات المزعجة تلو الارتعاشات المزعجة، واصلت هجومها على ساقيّ وظهري.

نتيجةً لتلميحات الحلّاب، وجدتُ خوفي على شبه الحبيب يبدّل أسبابه من سخط منطقته التي ترجو له الأذى على إثر تجاهله لتاريخه، ونسيانه لجماعته، وجلبه رموزًا صادمة ومرفوضة في منطقته إلى بيته وتكديسها بارتفاع السماء بجانب أجزاء السيارات في خزائن مزدحمة بداخل منزله المزدحم، ومن وجود ثأر شخصي من زملاء عمل من أية ديانة يرغبون في إيقاع السوء بشبه الحبيب لأنه ربح سيارة مشهورة عالميًا، ربح جائزة رغبوا هم أنفسهم في ربحها. الآن، مع كلمات الحلّاب هذه، تبدّلت أسباب خوفي، فبتّ قلقة من أنّ شبه الحبيب يواجه خطرًا وشيكًا يفوق ما ظننت. إذ يعمل على السيارات، على العديد من السيارات، من المرجح حتى أنه وصل إلى درجة الجرأة على القفز بداخلها، وإعمال مفاتيحها بأريحية في مفاتيح التشغيل. أما الأديان في عمله، فلم أسأل شبه الحبيب قط عن هذا. قد يكون عمله في بيئة مختلطة، ولو كان كذلك، فيمكن أن تكون بيئة مختلطة محترمة أو ربما واحدة من بيئات العمل المتوترة القاتلة تلك. لا أملك أدنى فكرة عن بيئة عمله، وهو أيضًا، لا يعرف المثل عن بيئة عملي، ولم يسألني عنها. كنت أعمل مع بعض الفتيات من الدين المغاير، بالرغم من أنني لم أشعر بحاجة لاكتشاف ما إذا كُنّ من الدين المغاير أم لا، إلا أنني أعرف من تلك الأشياء التي تجيء عَرَضًا منهن. يحدث هذا أحيانًا بالتدريج، كما يعرف الناس بعضهم بمرور الزمن على نحو طبيعي، عادةً يحدث الأمر بسرعة، مثلًا بسماع أسماء آباء الأخريات وأجدادهن وعمومتهن وخؤولتهن وإخوتهن. أما أنا وشبه الحبيب فلم يدر بيننا حوار كهذا قط، رغم أننا بطبيعة الحال لا نملك أدنى تعاطف مع جيش البلد الآخر، أو الشرطة هنا، أو الدويلة الحاكمة هنا، أو الدولة الحاكمة «هناك» أو جماعات «ما وراء الطريق» شبه العسكرية المناصرة للدولة أو لأي أحد من أي دين يسعى لمعرفة قناعات الآخر. بالطبع لا يمكن لمن يعيش هنا إلا أن يكون له رأي في هذا الأمر. من المستحيل في تلك الأيام، في

الأيام المتطرفة المريعة المحتشدة، وفي تلك الشوارع أيضًا، التي كانت أرض المعركة - أعني أنّ الشوارع حقًا هي أرض المعركة - من المستحيل أن تعيش هنا ولا يكون لديك رأي. أنا نفسي أمضيت معظم وقتي أصبّ اهتمامي في القرن التاسع عشر، بل حتى الثامن عشر، وفي بعض الأحيان ألتفت إلى السابع عشر والسادس عشر، لكنني رغم ذلك لم أكف عن تبنّي رأي في هذه الأوضاع. الصهر الثالث أيضًا، رغم هَوسه بالتمارين، وكل الذين قد يقسمون في حيّنا أن لا رأي لديهم فيما يحدث، تبيّن أن لديهم رأيًا دقيقًا. لا مفر من تكوين الآراء، وبالتأكيد تكمن المشكلة في أنّ هذه الآراء لم تكن غير موحدة بين المناطق وبين طرف وآخر وحسب. بل إن كل رأي غير متقبل للآخر إلى درجة أنّ خلافًا حادًا متراكمًا متصاعدًا ينتج عن هذا من وقت لآخر. لهذا إذا ما رغبتَ في الاحتفاظ بانفعالاتك المتفجرة بالرغم من رأيك الذي لا تستطيع الفكاك منه، فعليك التحلي باللباقة وتهذيب النفس لتتغلب عليها، أو حتى لتسيطر على العنف والكراهية واللوم، وإلا كيف ستعيش؟ هذا ليس فصامًا. هكذا كان العيش الممكن. كان هذا هو الوضع العادي إذ يحاول أن يحيا تحت خبايا الصدمة والظلام. وهكذا فملاحظة الفروقات اللطيفة، لا الخلافات المحمّلة بالكراهية، كانت جوهرية للتعايش المختلط، ومثال هذا صف اللغة الفرنسية، فهو صف مختلط، حيث لا بأس في الحديث عن فرنسا هناك، أو حتى ما هو أكثر من هذا لدرجة أنه لا بأس في الحديث عن الكتّاب الفرنسيين، ولكن لا يُقبل، ولا لثانية، وفق الآداب العامة، أن تطلب من أحد أن يفصح عن رأيه أو تشير إلى أفكاره أو إلى أفكارك البتة. أما المناوئون - رؤية شبه الحبيب ورؤيتي للمناوئين - فنحن لا نتحدث عنهم أيضًا. بالنسبة إليّ، كان مردّ ذلك أمران يسيطران على تفكيري حينها. الأول شبه الحبيب، والثاني علاقتنا «غير الفاعلة وغير العاطلة في الوقت نفسه». والآن هناك الحلّاب أيضًا. لذا توجد ثلاثة أشياء، وليس شيئين، تشغل

تفكيري طيلة الوقت عن سواها. وإذا ما وَجدتْ تعقيدات المناوئين مدخلًا، فسوف تجبرني على تبنّي رأي شامل عنهم، أي رأيًا جدليًا، فستكون لديّ أربعة أشياء. ثم هناك المشكلات السياسية، فلا يمكن للمناوئين أن يكونوا في رأسي دون تذكّر سبب ظهورهم، فتصبح خمسة أشياء. خمسة أشياء. هذا ما يحدث عندما ينفتح الباب على الصراعات الداخلية. من المستحيل حينها، مع كل هذه الخلافات، أن تفسّر الأمر على نحو منطقي لنفسك، ناهيك عن أن تفسّره بصيغةٍ سياسية سليمة. وهذا سبب الانقسام، والعلاجُ بالكيّ، والأشياء التي تبدو مألوفة لكنها منسية، والإغضاء، والقراءة أثناء المشي، بل وحتى تفكيري في التخلّي عن المخطوطات الحالية والاحتماء بلفائف وبرديّات القرون السابقة. وإلا، فإن اندلعت في ذهني القوى والمشاعر، فلن أعرف ما ينبغي عليّ فعله. أفهم ضرورتهم، ضرورة المناوئين، وكيف نشأوا، وكيف بدا أنهم قد اضطروا إلى الظهور، بالنظر إلى كلّ الظلم المشرّع المعزّز الذي يقع هنا، وما لحقه من تجاهل لأصواتنا، ثم ذلك العناد الصارخ، وهو تترّسٌ معروف في تلك الأوقات الشائكة. إذن فخطوط الصدع التي ظهرت حتمية، مثلما كان ظهور المناوئين حتمي. أما بالنسبة إلى حوادث القتل، فقد كانت اعتيادية، أي لم يوغل في تفسيرها أحد، لا لأنها عديمة القيمة بل لأنها هائلة، وعديدة للغاية حتى لم يعد لدينا وقت للتفكير فيها. ولكن من وقت لآخر قد يقع حادث متجاوز للأعراف إلى حدّ أنّ الجميع في «هذا الطرف من الطريق» و«ذاك الطرف من الطريق» و«ما وراء البحر» و«ما وراء الحدود»، كلهم لا يملكون معه إلا أن يتوقفوا. قد تدفعك وحشية فرد مناوئ لتجري متخبطًا، وتصيح «ربّاه ربّاه ربّاه. **كيف يمكن أن يكون لي رأي يدعم هذه الفعلة؟**». وسيكون هذا الحال إلى أن تنسى، وستنسى حالما يمضي الطرف الآخر في ارتكاب أفعاله المريعة. مجددًا، تخبّط مستمر ودوران. ثمة انتقام وانتقام مضاد. من وقتٍ لآخر تظهر حركات سلام مشتركة، تبدي التزامها

بالنقاشات العابرة للجماعات، والمسيرات التضامنية، والمواطنة الصحيحة الحقّة - إلى أن يُشتبه في اختراق جماعة أو أخرى لحركات السلام تلك ونواياها الطيبة وسلامة مواطنتها. حينها تغادر هذه الحركة، وتخلع عنك الأمل، وتهجر الحلول الممكنة وتقفل عائدًا أدراجك إلى الرأي الذي قد كان مألوفًا، موثوقًا وحتميًا. في تلك الأيام، يستحيل ألّا تكون منغلقًا، لأنّ الانغلاق في كل مكان: فنحن منغلقون في جماعتنا، وهم منغلقون في جماعتهم، الدولة هناك منغلقة، الحكومة «هناك» منغلقة، الصحف والإذاعة والتلفاز منغلقة لأنه ليس ثمة معلومة واحدة قد تذاع دون أن يعتبرها حزب واحد على الأقل تحريفًا للحقيقة. عند التعمّق في المسألة، حتّى مع حديث النّاس عن الوضع العادي، فلم يكن ثمة وضع عادي لأنّ الاعتدال ذاته خرج عن السيطرة. لا أهمية تولى عندها للتحفظات الموجودة، وهكذا لم يكن ثمة أهمية للوسائل والأخلاق، ولا أهمية لأي المجموعات المختلفة التي بدأت تنشط أو تلك التي كانت ناشطة منذ البداية. لا يهمّ أيضًا أنه في جماعتنا، في «طرفنا من الشارع» كانت الحكومة هنا هي العدو، والشرطة هي العدو، والحكومة «هناك» هي العدو، والجنود «هناك» هم العدو، والجماعات شبه العسكريّة من «ما وراء الطريق» هي العدو، وبفضل الشك والريبة والتاريخ يكون المستشفى، ومجلس محطة الكهرباء، ومجلس محطة الغاز، ومجلس محطة الماء، ومجلس المدرسة، وعمّال الهاتف وأي شخص يرتدي بزة عمل أو أي قطعة ملابس يمكن أن تلتبس بسهولة وتُخلط مع بزة العمل هو العدو أيضًا. كنا نُعتبر بدورنا أعداءً لدى أعدائنا. في تلك الأيام المظلمة، التي كانت أيامًا متطرفة، لو لم يكن لدينا هؤلاء المناوئون، هذا السد المنيع بيننا وبين الأعداء المجتمعين المنهكين، فمن سواهم في كل هذا العالم سيكون معنا؟

بالطبع لم نكن نقول هذا. لهذا السبب لم أكن وأنا في عمر الثامنة عشرة

أتحدث عن المناوئين، ولم أكن راغبة في التفكّر في شأنهم، بل وأسدلت الستائر على موضوعهم. لقد وددتُ أن أبقى عاقلة في تفكيري بقدر ما ظننت أنني كذلك. ولهذا أيضًا لم يكن شبه الحبيب يتحدث عن المناوئين، معي على الأقل، ولهذا على الأرجح انغمس في السيارات بقدر انغماس بعض الناس في الموسيقى. هذا لا يعني أننا لم نكن واعين، لكننا لم نكن نعرف كيف لا نكون متحزّبين. ثمة سلسلة لا منتهية من الاعتبارات، خاصة بالنسبة إلى مدرسة المناوئين الكلاسيكية، من لديهم أسباب يستمدونها من مبادئهم للمقاومة والقتال قبل أن ينتهي بهم الأمر إلى الموت أو الاعتقال. وقد تلتهم أعداد غفيرة، كما قالت ماما، من «المجرمين، وأهل الملذات، والوصوليين وأصحاب الأجندات الخاصة». لذا، نعم عليك أن تواصل التَعمية، أن تبتاع كتبًا قديمة، وتقرأ كتبًا قديمة، وتشغل تفكيرك بتلك اللفائف والألواح الطينية. وهذا ما فعلته حينها، في عمر الثامنة عشرة، وبالمثل فعل شبه الحبيب. لم نتحدث بهذا الخصوص، لم نخض هذا الحديث قط، لكننا كنا بالطبع كالآخرين نسكر تحت تأثيره اليومي، قطرة قطرة، في الشارع من حولنا. والآن، بمساعدة الحلّاب هذا، فها أنا ذا بخيالاتي المريعة وتفكيري الكارثي أتنبأ بمقتلٍ وحشي لشبه الحبيب. لم يكن تنبؤًا في الحقيقة، لأنّ الحلّاب بعبارته الفريدة قد نطق بها واضحةً لي: مقتل بسيارة مفخّخة، بالرغم من أنّ السيارة المفخّخة قد لا تكون الطريقة الفعلية المزمع قتل شبه الحبيب بها. ربّما تكون مجرد نموذج لإيصال التأثير والصورة. مع استبعاد أن يقتله زملاؤه من «الطرف الآخر» في العمل، إن وُجدوا، بسبب الطائفية. إنها لا. المسألة هي أنه مثلما كان ركض الحلّاب في منطقة الحدائق والسدود من أجلي وليس من أجل الجري عينه، فإن شبه الحبيب سيُقتل جرّاء المشكلات السياسية الشاملة حتى لو أنّ الحلّاب في الواقع سيقتله جراء غيرته الجنسية المتنكّرة عليّ. بدا هذا مؤكدًا فيما بين السطور في حديثي مع الحلّاب. وهكذا، مع اندفاعة هذه

الهواجس التي كانت محيّرة، ومخيفة - إذ لم تكن هواجسي الأدبية المعتادة عن القرن التاسع عشر، الهواجس التي أعود منها آمنة وسليمة - فلم أعرف كيف أردّ. كنت أعرف كيف لا أجيب، بأن أواجه، وأسأل، وأستوضح. لكنّ هذا لن يفيد بالتأكيد. أدركتُ أنّ الحلّاب يدرك أنني فهمتُ ما قاله لي؛ كما أدركَ ما أنا مضطرة وفق التنشئة الاجتماعيّة إلى التظاهر بأنه لم يقله لي. لم يكن من أثر التنشئة الاجتماعية وحسب، لكنه متعلق بأعصابي أيضًا. بشكلٍ عام، يفترض وفقًا للقاعدة الأساسية أن لا أعرف بأنّ هذا الرجل مناوئ، وهو ما كان واقعًا لأنني لم أكن أعرف. لقد خمّنتُ أنه مناوئ لأنه من بين جميع الأشياء محظورة الذكر لكنها تُذكر في كل الأحوال مع احتفاظها بصبغة المحظور ذكره، كان هناك مبدأ «المفروغ منه»، وفي هذه الحالة كان الشيء محظور الذكر في سيل الإشاعات هو: «هل أنت غبي؟ إنه مناوئ بالطبع». كان عليّ أن أقتنع بهذا، مثلما أقتنع بأنّ أشخاصًا معينين في المنطقة مناوئون. ثم إنّ هناك شيئًا آخر محظور الذكر قد برز مؤخرًا، ما يتعلق بالعلاقة الغرامية التي تجمعني بالحلّاب في حين أنني أعلم يقينًا - وإن لم يتيقّن سواي - أنه لا علاقة غرامية تربطني بالحلّاب هذا. ألا يمكن أن تكون تلك الشائعة بمثل هذه وأنّ هذا الرجل في الأخير ليس من إحدى الجماعات شبه العسكريّة؟ ربما يكون مقتنص فرص، حالمًا، واحدًا من أشباه وولتر ميتي[1] الذين ليسوا ملتحقين بأي جماعة، يحاولون أو ربما حتى ينجحون في خلق سمعة خرافية لأنفسهم - في حالتنا هذه أن يكون الحلّاب واحدًا من أكبر رجال الاستخبارات عند المناوئين -. كل هذا الأمر مبني كليًا على لبسٍ في تصوّر

---

(1) وولتر مِتي «Walter Mitty»: شخصية ابتكرها الكاتب الأميركي جيمس ثيربر في قصةٍ له نشرها عام 1939م بعنوان «حياة وولتر مِتي السرية»، وقد أصبحت هذه الشخصية مصطلحًا معروفًا في الثقافة الأميركية والأوروبية يُقصد به الشخص العادي الذي يتوهّم البطولة ويعيش في أحلام يقظة يكون هو بطلها.

الآخرين عنه. هل يمكن أن تكون انطلاقة الحلّاب هذا من دعمه للمناوئين وهو مرتاح في مكانه، هل يمكن أن يكون من النوع الذي من شغفه بالمناوئين وتصوّراته الفانتازية عنهم، يصبح أخرقًا أحيانًا فيصدّق أنه منهم، ثم يلمّح بهذا، فيعزز الفكرة؟ حدث هذا من قبل. يحدث من وقتٍ لآخر. حدث لفلان الفلاني مثلًا، الفتى الذي هدّدني بعد موت الحلّاب، عندما حاصرني في مرحاض أشهر نوادي الشرب في الحي. بالتأكيد، كان منغمسًا في اعتبار نفسه من أعلى طبقات مناوئي الدولة.

***

لن يتفق فلان الفلاني على الأرجح مع تقييمي هذا له لكنني اعتبره تقييمًا عادلًا ودقيقًا. عندما كان كلانا في السابعة عشرة، وبعد أن تقرّب مني للمرة الأولى فرفضته لأنني لم أكن منجذبة إليه، أدركتُ أنّ فلان الفلاني من النوع المتعقّب المترصّد الذي يحمل الضغينة. قال مهددًا حين تبيّن له أنني صددته ولم أقبله بعد أن افترض أنني سأقبله: «سنتبعكِ». رغم محاولتي أن أكون محترمة في صدودي إلا أنّ هذا لم يجدِ نفعًا، فقال: «سنكون قريبين منك، دائمًا قريبًا منك. أنتِ من بدأتِ. لقد دفعتِنا كي ننظر إليكِ. لقد جعلتنا نفكر... أنتِ ألمحتِ لنا... لا تدركين ما نحن قادرون عليه، وسوف تدفعين الثمن في الوقت الذي لا تتوقعين وجودنا فيه، عندما تظنين أننا لسنا هنا، عندما تظنين أننا رحلنا، أوه، ستدفعين ثمن... سوف... سوف...». أرأيتم؟ هذا سلوك المتعقّب، ويشير إلى نفسه بضمير الجمع بينما قبل وقت قصير لم يكن سوى شخص طبيعي يتحدث بصيغة المفرد كالبقية. الشيء الآخر الملفت بخصوص فلان الفلاني أنه مروّج للأكاذيب. لا أعني أنه يكذب الكذبات النابعة من الشعور بالخطر والتوتر والهلع، مثل النوع الذي اختلقتُه عفويًا

أمام الحلّاب بشأن شبه الحبيب وإيفور والشاحن الفائق وعلم بلد «ما وراء البحر». أعني أنّ فلان الفلاني كان مستغرقًا في اختلاقاته إلى درجة أظنّ معها أنه يحسب كل كلمة يقولها حقيقة. بدأتْ هذه الأكاذيب على طريقة جيمس بوند، رغم أنه بالطبع لا أحد هنا في «طرفي من الطريق» من «هذا الطرف من البحر» يعترف بجيمس بوند. كان هذا محظورًا آخر، رغم أنه ليس محظورًا بقدر مشاهدة أخبار مشكلاتنا السياسية كما تعرضها قنواتهم الإعلامية المخادعة، وليس محظورًا بقدر قراءة النوع الخاطئ من الصحف - أي بالطبع كل صحف بلد «ما وراء البحر» - وقطعًا ليس محظورًا بقدر تخصيص وقت من اليوم في آخر الليل لمشاهدة عزف ذلك النشيد الوطني على التلفاز. كان جيمس بوند واحدًا من تلك الأشياء الممنوعة لأنه، مثل الشاحن الفائق، كان ميزة وطنيّةً استثنائية لأمة «ما وراء البحر»، وإن كنتَ من «طرفنا من البحر» كما أنك من «طرفنا من الطريق» في الوقت نفسه وحدث أن شاهدت جيمس بوند، فلن تذكر هذا، وسوف تبقي صوت التلفاز خفيضًا للغاية. وإن ضبطك أحد وأنت تشاهده، فسرعان ما ستبصق قائلًا: «كلام فارغ! هه! ليس واقعيًا! كأنّ هذه الأشياء يمكن أن تحدث في الواقع!»، أي كم هو غير منطقي أن يكون جيمس بوند ببدلته الأنيقة في تابوت في محرقة الجثث، يتظاهر بأنه ميت، ثم يقفز في اللحظة التالية من التابوت ليهزم الأشرار من أجل بلاده، ويذهب إلى كل الحفلات ويمارس الجنس مع أجمل نساء العالم. لا بد أن تقول: «غير ممكن. يظنون أنهم أميركيون لكنهم ليسوا أميركيين! هه! هه!». هكذا تلتمس العذر لنفسك على ما يمكن أن يعدّ خيانة جرّاء التراخي في دعم صراع الثمانمئة سنة[1]، وتضع نفسك في مصاف أوليفر كرومويل، وإليزابيث الأولى، وغزو عام 1172م، وهنري الثامن. حينها كان هذا ما

---

(1) إشارة إلى بدء تعرض أيرلندا للغزو على يد النورمانديّين.

يعنيه جيمس بوند في الإجماع العام، في إجماع المنع السياسي التاريخي اليومي. أما اختلاق الأكاذيب على طريقة جيمس بوند فله زاوية مختلفة قليلًا. إذ يشتمل على الاستفادة من صورة الشاب الوطني العظيم، الشاب الطيب، الشاب البطولي، القوي، المثير، المنفرد الغالب لكل الأشرار نصرةً لبلاده. في هذه الحالة فقط، في ثقافتنا، في «طرفنا من الطريق»، تتبدّل الأدوار والأشياء.

كان المناوئون في حيّنا يُعدّون أخيارًا، أبطالًا، شرفاء، جسورين، محاربين أسطوريين، ورغم قلة عددهم أمام عدوّهم إلا أنهم يخاطرون بحياتهم ويدافعون عن حقوقنا بفدائية رغم كل التحديات. هكذا كان يراهم غالبية من في الحيّ إن لم يكن جميعهم، في بادئ الأمر على الأقل قبل أن يموت ذلك النوع المثاليّ منهم وتزداد التحفظات على النوع الجديد، أولئك الذين تحوّلوا إلى أسلوب العصابات. ومع هذا التغيير الهائل في صفوفهم ظهرت معضلة أخلاقيّة لدى غير المناوئين وغير المنشغلين بالسياسة في «طرفنا من الطريق». تتغذّى هذه المعضلة على التناقضات الداخلية، والضبابية الأخلاقية، وصعوبة النفاذ الكلي إلى الحقيقة. ثمة من يحملون اسم جون وماري ها هنا في هذا العالم، البسطاء الذين يسعون إلى عيش حياة مدنية بقدر ما تسمح به الأوضاع السياسية، غير أنهم لم يعودوا واثقين من الصوابية الأخلاقية للوسائل التي يحارب بها حماة شرفنا. ليس هذا بسبب الموت والوفيات المتزايدة وحدها، بل كذلك بسبب الإصابات، والأضرار المنسية، وكل المعاناة الشخصية والخاصة التي تخلّفها العمليات الناجحة للمناوئين. وكلما اِزدادت سيطرة المناوئين وقوّتهم، يزداد القلق الذي يعيشه أولئك البسطاء، بصرف النظر عن أنّ أولئك من الجهة الأخرى «هناك»، «وراء الطريق»، «وراء البحر» يردّون بقسوةٍ، ويعيشون في الأرض تدميرًا على طريقتهم. ثمة أيضًا مسألة نشر الغسيل المتسخ على الملأ يومًا بيوم، ومناوئو الحي يفرضون

قانونهم، وحدودهم، وعقوباتهم الرسمية على من ينشقّ عنهم. ثمة جلد ووسمٌ على الأبدان، قطرنة وترييش[1]، وإخفاء قسري، وتسويد محيط العين، ثمة أشخاص يسيرون بكدماتهم المتعددة وبضع أصابع مفقودة وقد كانت موجودة في اليوم السابق. هناك المحاكم العشوائية في معسكرات الحي، وفي مبانٍ أخرى مهجورة ومنازل موالية للمناوئين. ثمة طرائق لا منتهية لدى مناوئينا لتمويل قضيتهم. وفوق كل هذا جنون ارتيابهم، واستجواباتهم، والعمليات الدائمة تقريبًا في القضاء على المخبرين والمشتبه في كونهم مخبرين، ولكن إلى أن ترسّخ الانزعاج من الصراع الداخلي في صفوف البسطاء، كان المناوئون قد أصبحوا رموزًا ومقاتلين نبلاء في عين الجماعة كلها. أما تَبّيعات العسكريين اللاتي يلاحقنهم أينما ذهبوا - وهؤلاء فتيات ونساء عاجزات عن إدراك أي صراع أخلاقي لا بعقلهن ولا بعاطفتهن -، فلم يقتصر الأمر على أنهن كنّ ينظرن إلى رجال المناوئين بوصفهم أروع صنف يمثل القوة والجاذبية والرجولة، بل كنّ يسعين إلى إقامة علاقات معهم، فيرفعن بذلك حظوظهن في الوصول إلى غاياتهن الاجتماعية والوصولية. لهذا كان التوزيع الديمغرافي لهؤلاء النساء يتركز في نواحي المناوئين، قرب مساكنهم، ودوائر إقامتهم، فينحشرن في كل نقرة مناوئ، وإذا ما رأيتهن متمايلات على رجل غير معروف داخل المنطقة أو خارجها فلكَ أن تقسم بجدّك وجدّتك على أنّ هذا الرجل الذي يتلقى كل ذلك الدلال لا بدّ أن يكون مناوئًا للدولة. بالنسبة إلى هؤلاء التبّيعات لا يهمّ كثيرًا أن يكون أولئك الرجال يقاتلون من أجل القضية بقدر ما يهم أن يكونوا نافذين وذوي سلطة

---

(1) Tarring and feathering: عقوبة يعرّى فيها المعاقب ويطلى بقطران الصنوبر الساخن ويلقى عليه الريش ليلتصق به على سبيل التشهير. حيث يجمع العقاب على الضحية الأذى الجسدي والنفسي. أقدم دلائل على استخدامه تشير إلى ريتشارد الأول وآخر ما سجّل في ثمانينيّات القرن العشرين.

معتبرة وتأثير في المنطقة. لا يُشترط أن يكونوا من الجماعات شبه العسكريّة، ولا أن يكونوا خارجين على القانون. لهم أن يكونوا ما يشاؤون. والحاصل أنه في تلك الأيام ووفق النظام السائد آنذاك في كل مكتنف محكوم بطريقة شمولية، كانت الكلمة الفصل دائمًا لرجال هذه الجماعات. ورغم أنّ هؤلاء لم يكونوا مقبولين خارج جماعتهم، أي لدى الجماعات الأخرى، فليسوا بالطبع مثل أولئك الذين يَسمون على الانقسامات كنجوم الروك ونجوم السينما ونجوم الرياضة والزوجان بطلا الرقص الثنائي. إلا أنهم كانوا في مناطقهم الخاصّة لا يقلّون عن أولئك النجوم المشاهير. بالنسبة إلى التبّيعات إذن، كان هؤلاء مثل جيمس بوند، إلا أنهم ليسوا مثل بوند في خدمته للبلد الآخر بالطبع. إنما مثل بوند في سلوكه المتفرد، الخارق، العصي على الكبح، خاصةً وأنه كلما علا تصنيف المناوئ على السلم ازداد استعداده للموت في سبيل قضيته. وفي واقع الأمر فإنّ القضية - أي ذلك الحديث عن «طرفنا من الطريق» و«طرفنا من البحر» و«عَلَمهم ليس عَلَمنا» وغيرها - لم تكن من بين الدوافع والمحفزات الشخصية والأوّلية لأولئك التبّيعات. ولم يكنّ مهتمات دائمًا بملذّات الحياة. لا يسعين دائمًا وراء الملابس الأنيقة، والجواهر الجميلة، ولا التسوق الممتع، أو العشاءات اللذيذة، والحفلات المسلية ولا أكداس النقد في صناديق مصفحة سريّة، تُنفق كلها لتمنحهن أوقاتًا رائعة، وحيوات جميلة وعيش سعيد. عادةً، خاصة في سالف الأيام، أيام المناوئ القديم الشرس العنيد المخلص، لم يكن ثمة مال يقايض به من أجل تعظيم أناه لأنّ كلّ الأموال المكتسبة - دون شرعية، دون شرعية البتة، الأموال التي تفتقد للشرعية تمامًا - لا بد أن تنفق من أجل القضية وحسب. أما فيما يتعلق بالمكتسبات الشخصية المادية، فلم يكن ثمة شيء منها، والمناوئ القديم لم يكن يهتمّ بأيّ من هذا أيضًا. أما التبّيعات فالفوز الحقيقي بالنسبة إلى الواحدة منهن هو أن تتوّج بصفتها امرأة هذا الرجل. لا بد أن يكون

قائدًا، أن يكون رأسهم والرجل الأول في الجماعة، ما يجعلها بدورها صاحبة الرجل الأول. فإن حدث وشُغل شاغر هذه الصاحبة - من وراء تبّيعةٍ ذات كاريزما قد سبقَتْها - فتحظى بكونها السيدة الأولى على قائمة الانتظار وراء صاحبة الرجل الأول، وهو حضور واعد وإن لم يكن ذا صلة وثيقة به، فهي ليست خارج السباق في نهاية المطاف. إن كان متزوجًا، كبير الرجال، صفوة المحاربين هذا، ولم تكن زوجته مؤثّرة - ليست، على سبيل المثال، مناوئة مستعدة لقتل أي امرأة تتقدم نحو زوجها - حينها لا يكون هناك بأس من الاندفاع خلفه. إذن فلا بأس لدى التبّيعات أن يكنّ نساء بديلات أو عشيقات من أجل هذه المكانة المرموقة المضمونة ووتد المجد والشرف. هؤلاء «الثوّار العابرون خاطفو الأنفاس، من ينعشون الحبيبات بروعة» كما قالت أمي عندما اتهمتني بأنني تبّيعة أحد أفراد الجماعات شبه العسكريّة، كانوا صفوة الرجال آنذاك، كانوا الأمل الذي تراه أولئك النساء الطموحات لتحقيق مطامحهن.

لهذا السبب كانت ما تزال تأتي كي تحدّثني. أقصد أمي. كي توبّخني. كي تلقي عليّ محاضرة من محاضراتها. كي تأمرني بأن لا أظلّ واحدة من أولئك النساء -رغم أني لم أكن هكذا-. فقد شاع القول -بعد مواجهتين مع الحلّاب لا أكثر - أنني كنت أسوق نفسي إلى حيّز التبّيعات، وأتخذ لنفسي مكانًا بينهنّ، وأنني أطرق باب السُلطة والنفوذ في انتظار السماح لي بالدخول إلى مخدع بيت السلطة بعد أن أسكرتْني الطموحات والآمال والأحلام. ظلّت ماما تحذّرني، وتكرر ضرورة أن أصحو وأدرك أنّ هؤلاء الرجال ليسوا نجوم سينما، وأنّ هذا ليس عالمًا متخيّلًا، ليس قالبًا لشغفٍ عظيم مثل ذاك الذي لا أنفكّ أطارده بحماقة في القصص والروايات التي كنتُ أقرأها وأتمشّى بها. قالت إنما هذه حالة من إبداع ساذجٍ أنتجه خيالي المحض وهو يصوّر لي أن أتخذ عشيقًا مصنوعًا من رجولة جامحة. «لكنّ ما لا تقوله الكتب

يا بنيّتي هو أنكِ لا ترينه كما هو بل كما تريدين وتتخيلين أن يكون». قالت إنها هي نفسها ليست من الطراز القديم، وإنها ليست جاهلة، وإنها لم تنس شبابها تمامًا، وبمقدورها أن تومئ بقبّعتها لغواية متعةٍ استثنائية مُسكرة. لكنّ الحقيقة، حسب قولها، هي أنني أحاول الإمساك بالحب على نحو مريع لا يليق بسيّدة، بطريقة تخبّطية، ترصّدية، والأسوأ من ذلك هو أنني في خطر الانزلاق في هذا الأمر حدّ الوصول لعالم الأنثى التي لا تظلّ هامشية بل شريكة في جريمة قتل. «حين يجدّ الجدّ يصبح هؤلاء المغامرون - أو الروّاد، أو المنقذون، أو المنشقّون، أو الشياطين، أيًا ما كانت الصفة التي يختارها المرء لهم - سوسيوباثيين [معتلّين اجتماعيًا]، بل ربما حتى سيكوباثيين [معتلّين نفسيًا]. وحتى إن لم يصبحوا كذلك، فالواقع أنّ فردانيّتهم المحاربة هذه وعزيمتهم المتوطّدة تؤهلهم تمامًا لما يواجهونه في طريقهم، بيد أنّ هذه العقلية والفردانية لا تجعلهم ملائمين لأي شيء آخر». فليسوا ملائمين للعمل في وظيفة منتظمة من التاسعة إلى الخامسة، وليسوا ملائمين للانخراط في علاقات شخصية. يقصّرون نحو عائلاتهم ولا يفون بالتزاماتهم. بل إنّ متوسط أعمارهم أقل من البقية. «لذلك لا يصلحون للاختلاط بهم يا بنيتي. وعلى كلّ حال، فالفتاة المهذبة، الطبيعية، الفتاة ذات الأخلاق الراسخة والتي لديها حسّ لإدراك ما هو محترم ومتحضّر، ستهرب من ذلك المكان، بل لن تدخله أصلًا». ثم قالت إنني حتى لم أدخل إلى هناك كما يجب. وهذا يعني أننا عدنا إلى موضوع الزواج ونذور الزواج. يبدو أنها حتى وهي تحاول أن تبعدني عن الثوّار الخارقين الخطرين لا تستطيع أن تكفّ عن رؤية جانب الزواج في الأشياء. كانت تقصد أنني لم أدخل حيّزهم بطريقة محترمة، فلستُ الزوجة، أي أنني لو كنت أريد الارتباط بمناوئ، فلماذا لا أتزوجه رسميًا؟ هكذا أكون مقبولة. «مع ذلك، يعلم الربّ كم هو صعب أن تصبح المرأة زوجة واحدٍ منهم. فأمامها زيارات السجن، ثم زيارات القبر. ثم تجسّس

شرطة العدوّ عليها، والجنود وزوجات الرفاق المناوئين ورفاق الزوج. لا بدّ أن تنضمّ الجماعة كلها للتجسس عليها. كي يتأكدوا من إخلاصها. كي يتأكدوا من أنها لا تقترف خطيئة التصرّف بحريّة أو تهين زوجها بسلوكها. لا يا بنيّتي. حياتها ليست سهلة. لا بدّ أنها حياة منهِكة، مدمّرة، حياة تعيشها في غاية الوحدة. ولكن على الأقل ستكون موجودة هناك يا بنيتي. متزوّجة. مسجّلة. بسمعة ناصعة، تجعلها تتلقى هي وأطفالها الرعاية عندما ينتهي زوجها إلى الموت أو الاعتقال». وعلى النقيض من ذلك وفقًا لكلام ماما، فإنني حين اخترت دور الصاحبة التابعة دمّرتُ جهودها في تربيتي كي أصبح شابّة محترمة يمكن أن يرغب أحد الرجال يومًا في الزواج بي. قالت إنني حططتُ من قدر نفسي، وبدّدتُ ما تبقى من فرص إلى الحد الذي سأصبح فيه «سلعةً مستخدمة» في قاع تراتيبة النقر[1] التي تحكم التبّيعات. «وعندها ينتهي أمرك. تكونين قد دمّرت نفسك، وكل فرصك وحظوظك. من أجل ماذا؟». هزّت رأسها ثم قالت: «هؤلاء لا يمنحون نسوة الميدان أية صبغة شرعية يا بنيّتي».

ثم خَتمت خطبتها هذه بعبارتها المعتادة: «تذكّري كلامي جيدًا. أنتِ إنما تتوهّمين أنكِ تملكين هذه الكعكة وتأكلينها، ذلك أنك تصدّقين أنّ هذا ما ينعش حياتك، وأنّ الحياة العادية مملّة، وأننا مملّون، لكنّ الحقيقة ستنزل عليكِ عاجلًا أم آجلًا يا بنيّتي، شئتِ أم أبيت. لا ضير في أن يكون الإنسان عاديًا،

(1) إشارة إلى نظام يحكم جماعة الدجاج، حيث هرميّة الهيمنة تخوّل الدجاجة ذات الهيمنة بنقر كل الدجاج دون أن تنقرها دجاجة، من بعدها دجاجة تنقر كل الدجاج ولا تنقرها سوى الدجاجة الأولى، وهكذا حتى نصل إلى الدجاجة في قاع هذه التراتبيّة، تنقرها جميع الدجاجات ولا تنقر أي دجاجة. وصفها عالم الحيوان النرويجي ثورليف شيلدريب لأول مرة عام 1921م.

ولا بأس في الزواج من رجل عادي، ولا بأس في القيام بمهام الحياة العادية. لكنني أراكِ مأخوذة بذلك البريق، تُعميك الزينة والمال والاختلاف والرغبة في القَبول، مأخوذة بشبابك الفريد وصبيانيّتك. لكنّ هذا كله سينتهي نهاية سيئة. ستصبحين مجرّد صَدَفة، يصوغك كما يشاء، يسيطر عليك، يفرّغك، يرشح كل ما فيك من قوة وروح حيّة. سوف تضيعين يا ابنتي، وتخسرين ذاتك، وتنحدرين إلى مزالق الشرّ. ولن تتذكّري أي شيء عن ذلك الشيء الغامض في ما فَعل، وما يفعل، وكل تلك الأسئلة: **ما ذلك الشيء الغامض؟ ما كل ذلك الغموض في حياة عضو الجماعة شبه العسكريّة؟** بل إنك سوف تتعمّدين أن تخطئي في الذاكرة. والغريب أنني لم ألاحظ إلا الآن أنني كلما رأيتكِ وأنتِ فتاة بالغة، رأيت فيك أباكِ في مزاجاته وحالاته النفسية، في كفره بكل شيء. أنتِ أيضًا يا ابنتي مثله تبدين مثله في انجذابكِ إلى العتمة».

هكذا إذن. هذا هو الدرس الذي تلقّيته. وهكذا لم أعد عانسًا مريعة ترفض الزواج، بل أصبحت الآن بكل تأكيد امرأة مبتورة منحلّة بلا قيود أو ارتباطات. لكنّ الإهانة والازدراء اللذَين جاءا في كلامها لم يكونا من سوء خيال ابنتها، بل من سوء مخيلتها هي. فقد كانت تمرّر لي في كلامها آخر ما ظهر من شائعات عني وعن الحلّاب، وفي الوقت نفسه تؤكدها. فها هي الآن شخصٌ آخر مثل الحلّاب، ومثلهم جميعًا، يعرف كل الإجابات فلا يسأل الأسئلة، ولا يهمه أن ينتظر ردّي. ولا أقصد أنني سوف أردّ أو أرغب في أن أشرح لها أنني لم أتورّط في علاقة مع الحلّاب بعد. ما زال اتهامها إياي بالكذب يلسعني منذ المرة السابقة، ولا شكّ في أنّ صمتي ما يزال يلهبها منذ المرة الأخيرة، لذا تتقيأ هي الكلمات دون أن تبالي وأرفض أن أعترف بتأثيرها. لكنّ لتلك الكلمات وقعٌ عليّ، تمامًا مثل التغيّرات التي بدأتُ أعيها في تصرّف أهل الحيّ معي. وليس هذا بسبب الأقاويل التي تنتشر في

المنطقة، أو اعتنائهم باختلاق تلك القصص والزيادة عليها ونشرها، وإنما لأنّ تبّيعات أفراد الجماعات شبه العسكريّة بدأنَ يهتممن بأمري الآن. لقد قرّرن أن يتولين النداء التالي.

حدث هذا ذات مساء حين اقتربتْ ستّ تبّيعات منّي في مراحيض أشهر نوادي الشرب في الحي. أحطن بي وأخذن يحدّقن في وجهي طويلًا عبر المرآة. عرضتْ إحداهنّ عليّ علكةً، وعرضت أخرى أن أجرّب أحمر شفاهها. ومدّت لي أخرى زجاجة عطرها «إستي لودر». كُنّ ودودات، أو تظاهرن بذلك على الأقل، فقبلتُ منهنّ هذا الودّ أو التظاهر بالودّ، لا لشيء إلا لأكسب بعض الوقت لأنني كنتُ خائفة.

قالت تلك التي تبدو أكبرهنّ: «كنتُ دائمًا أحظى برجل شديد». كانت هي التي قدّمت لي زجاجة العطر. وقفت إلى المغسلة بجانبي تتحدث إلى صورتي في المرآة، ثم انتقلتْ إلى صورتها. نظرتْ إلى بهوها[1]، وبدت مسرورة مما رأت. وضّبت نهديها، ثم أعادت توضيبهما. بدت مسرورة أكثر. قالت: «رجلٍ خطر. رجوليّ. جدًا. لا بدّ أن يكون مفعمًا بالرجولة. أحبّ هذا النوع من الرجال». كانت تنظر إلى صورتي في المرآة في انتظار أن أؤيد كلامها، فقاطعَتْها واحدة أخرى: «لكنّ هذا البحث عن الجموح، مثل تذكرة ذهاب بلا عودة، لا مجال فيه لتغيير الرأي، ولا خيار للمغادرة. أقصد كل تلك الحياة والموت والبطولة. لا تنسي هذا». فقالت ثالثة: «لطالما كان الأمر أشبه برمية النرد. وليس له إلا أن يكون كذلك. فمهما تدرّب الإنسان واستعد، قد يأتي عليه يوم سيء، وذلك اليوم هو الذي يفضي به إلى يومه الأخير، ومع ذلك...». تركتْ جملتها معلّقة هكذا، فقالت واحدة أخرى: «الرجل العادي لا يمكنه أن يفعل ذلك. ولا حتى المناوئ العادي». وعقّبت أخرى

(1) بهو المرأة: فُرْجَة ما بين النهدين.

من الخلف: «صحيح. وتظلّين خائفة دائمًا، أليس كذلك؟ قلقة بعض الشيء، من أنكِ ربما تقضين آخر ساعاتك معه، فإن فشلتْ المهمة، طاخ! بووم! يا للحسرة! يسقط جريحًا، أو يموت، أو يُحكم عليه بالسجن المؤبد. يبدو الأمر كما لو أنّ الواحدة تحتاج إلى تدريب على مواجهة هذا المصير. لا بدّ أن تكون متحفّزة دائمًا». هنا عرفتُ معنى كلمة الحافز بالنسبة إلى التبّيعات. كنّ يقلن: «دعيه يعرف قدره عندك. تأنّقي. كوني راقية. عليكِ بالفساتين دائمًا. لا بناطيل. ولا تخلعي الكعب العالي، ولا المزاج العالي ولا المجوهرات. لا تخذليه أبدًا. ولا تذهبي إلى الحانة بمفردك. لا تدخلي إلى ساحة الرقص مع رجلٍ آخر أو تنفردي برجلٍ على شفا مغازلة. لا تفكّري في علاقة أخرى أبدًا، ولا حتى شبه علاقة. حافظي على شرفه، واعتزازه بكِ. لا يكن صوتك عاليًا، ولا تكوني ممن لا تُبلّ في أفواههنّ فولة، ولا تسألي كثيرًا. قدّري ما لديك». كنّ يقلن ذلك بنيّة أن يرشدنني. لقد أدركتُ طبيعة هذا الحديث. محض إرشاد. فهنا في دورة المياه كانت هؤلاء النساء يتزلفن إليّ بتلك الباقة الترحيبية.

وقبل أن أصوغ جوابًا، أو حتى أعرف في تلك اللحظة كيف أصوغ جوابًا، عدنَ إلى مسألة المخاطر، والجاذبية، وما يجعل هذا الأمر يستحق العناء. «ذلك الزخم، والتبجيل، والحاشية. ذلك الحضور الذكوري الجوهري الواثق. هذا قانون الطبيعة. فهم يسيطرون، ويواصلون سيطرتهم، فيلتفّ الجميع حول أصابعهم». فلمّا استمعتُ إلى هؤلاء النسوة عرفتُ أنّه مثلما يعجز الرجل العادي عن أن يكون مناوئًا، تعجز المرأة العادية أيضًا عن أن تكون امرأة مناوئ. «لن تطيق هذه الحياة. نعم تتوق النساء العاديات إلى هذا النمط من الحياة، لكنهنّ مقموعات بما يفوق قدرتهن على العيش هكذا. بل إنهنّ يخفن منه خوفًا شديدًا. امرأة العوامّ لطيفة وعادية ومملّة، فلا يمكنها أن تحصل على

هذه الحياة. المرأة العادية تحبّ بطريقة مضجرة. لا تقامر. تُرعبها المخاطرة. تملأ حياتها برجال بسطاء وأعمال لا تتطلب جسارة، لا برجال من العيار الثقيل، أصحاب المهارات الفائقة، الذين يعرفون كيف يُخضعون الصعب وغير المتوقع. مثل هذه المرأة تعيش في فقاعة آمنة محمية، فقاعة العمل المنتظم من التاسعة صباحًا حتى الخامسة مساء. الفقاعة المقبولة. ولكن من التي تودّ البقاء في تلك الفقاعات الساكنة إن كان بمقدورها أن تحظى بالإثارة التي تجلبها السلطة، والسيطرة، بل القسوة نفسها؟ يا لذلك الترقّي البطيء التدريجي! كيف يمكن للمرأة ألا تحب ذلك الارتياع الإيروتيكي المفاجئ؟».

لقد أخطأتْ ماما، أخطأتْ جدًا؛ فحين استمعتُ إلى هؤلاء النساء، هؤلاء الغريبات الهانئات بحياتهن، عرفتُ أنّ كلّ الذي قالته ماما عن غضّ الطرف، وضبابية الرؤية، وغفلتهن عما يقترفه عشّاقهن من شرور، كل ذلك كان خاطئًا. فتلك كانت المهارات المطلوبة في هؤلاء النساء. لم يكن الأمر أنهنّ لا يستطعن مواجهة الواقع، بل أزعم أنهن في حالة يخرجن معها العدسة المكبرة ويحدّقن في وجه ذلك الواقع. أما المرأة المرغوبة، تلك التي لا تحسن اكتشاف الشباب السيّئين، التي يلتبس عليها الشاب الخيّر والشاب السيء، تلك التي تجتهد كي تدجّن رجلًا يُساء فهمه ولم يكن يقصد ما تسبّب فيه من أذى، فلا يوجد شبه بينها وبين هؤلاء النسوة. هنا نساء يفضّلن صوت الزجاج المهشّم.

في ذلك الوقت نطقنَ اسمي، اسمي الأول هكذا عرضًا بينما يجتزن الحدود أو يتجاهلنها. وكنتُ هناك في وسطهن - واحدةً منهنّ - رغم أني لم أرتم بكلمة بعد. لكنّ هذا ما سيبدو عليه الأمر بالطبع لأي شخص يدخل دورة المياه. كانت الفتيات يدخلن وينظرن إلينا على عجل ثم يشحن بنظراتهن. كنتُ أنا أيضًا أفعل ذلك كلما صادفت هؤلاء التبّيعات أو أية

تبّعات أخريات في نادي الشرب هذا أو أي نادٍ آخر، في دورة المياه هذه أو في غيرها في أي مكان. أنظر، ثم أشيح بنظري، وأستدير، فقد كنتُ أجد هؤلاء النسوة مجنونات. كنتُ أراهنّ كائنات غريبة، مخلوقات من كوكب آخر يعشن في سياقٍ غير مفهوم على الإطلاق. لا أعتبر أنهن لسن مثلي وحسب، بل قررت أنهن في مراتب أدنى مني بكثير. لم يكن هذا رأيي وحدي؛ فلولا أنهن تابعات جنسيّات لأبطال الجماعات شبه العسكرية لكان الحيّ قد نبذهنّ منذ زمن بعيد واعتبرهنّ متجاوزات للأعراف. لاعتبرهنّ نُذر شؤم. ذوات شغف غريب، وبالأحرى شغف جنسيّ إدمانيّ غريب. ولم يكن لديّ أدنى شكّ في أنّ نمط الحياة هذا مرفوض تمامًا بالنسبة إليّ. لكنني في سنّ الثامنة عشرة لم أكن لأعترف بهذا، فهناك الكثير مما لا أفهمه حول موضوع الجنس. كانت تلك النساء - بمظهرن وألفاظهن والطريقة التي يحرّكن بها أجسادهن ورغبتهنّ في أن يرى الآخرون كيف يحرّكن أجسادهنّ - ينذرن بتقديم الجنس إليّ بوصفه شيئًا لا ضابط له، شيئًا جامحًا. ولكن ألم يكن بالإمكان أن أكون أكبر من سنّ الثامنة عشرة قبل أن أتعرّض لحَيرةٍ ما في الجنس من خبايا هائلة وتناقضات؟ ألم يكن بالإمكان أن أبقى دائمًا في مرحلة جرّبت الجنس، وعرفته مع شبه الحبيب، لذلك أعرف كل ما ينبغي معرفته عن الأمر، على الرغم من أنّني لم أكن أعرف عنه شيئًا، بالأخذ في الاعتبار تجربتي الجنسية المحدودة مع شبه الحبيب؟ في سنّ الثامنة عشرة كان ينبغي أن أُمنح فرصة أكبر للتفكير.

لذلك لم أكن مستعدة لهذا الأمر، لكي أعترف بأنني أقف على سدّة باب ما، أو على وشك اختطاف نظرةٍ أخرى، تمامًا كما هو الوضع بالنسبة إلى المشكلات السياسية الدائرة هنا وشبه علاقتي مع شبه الحبيب. كنتُ أصطدم بتناقضات الحياة وثنائياتها. راحت هؤلاء النساء تتحدثن عن سلوكهنّ،

وشبقهنّ، وعن الألم الذي يؤجج الشهوة لدرجة أنهنّ درّبن أنفسهن على ألا يقاومن، فتستديم المتعة ويصبح الألم رديفًا للّذة، وبذلك يكون الألم دائمًا في كل الأوقات متعةً، وتحدثن كذلك عما يشعرن به من تعب، وغيبوبة نشوة، وعجز عن التصرف وفقًا لإرادتهن، وتسارع دقات القلب، وارتعاشات الجلد، وحالات دائمة من الشهوة، فوصلتُ إلى مرحلة لم تعد فيها قدرتي على التحكم تستطيع مجاراة ذلك، فصرتُ أفعل مثلما كنت أفعل مع الصهر الثالث، إذ كلما أفرط في الحديث عن الرياضة أغلقتُ كلّ منافذي. في نهاية الأمر توقفنَ عن حديث التولّه هذا وقلن: «شَعركِ جميل»، فأقلقني ذلك لأنه لم يكن صحيحًا. قطعًا شعري ليس جميلًا. لكنّهن كرّرن ذلك، وقلن إنّ شعري يشبه شعر الممثلة فيرجينيا مايو تمامًا أو ربما حتى مثل شعر الممثلة كِم نوفاك. مجافاة قولهن الواضحة للحقيقة لم توقفهن، بل قلن أيضًا: «تشبهين جون بينيت في فيلم «**امرأة على النافذة**»، ولم أكن أشبهها إطلاقًا. لكنهنّ ظللن يغدقن عليّ المديح، ويحدّثنني بوصفي واحدة منهن، يحاولن مصادقتي. أدركتُ أنهن يعتبرنني الآن امرأته. وإن لم أكن كذلك حتى الآن، فقد أدركنَ بحدسهن وفهمهنّ الفطري لهذه الأمور أنني سأكون كذلك عما قريب. كنّ يحطن بي ويرشدنني، لا كمنافسات لي بل صديقات حميمات، مرافقات، يردن أن يعرفن أيّ منزلة ستكون لهنّ عندي. لذلك استمر تأكيدهنّ بأنني نسخة طبق الأصل من أي بطلة سينمائية يفترضنَ أنني أتمنى أن أكونها.

وجاء دور عظام وجنتيّ؛ فلا فرق بينها وبين وجنتَي آيدا لوبينو. وثمة شبه بيني وبين غلوريا غرام، وبيني وبين فيرونيكا ليك، وبيني وبين جين غرير. بيني وبين إلِزابِث سكوت، بيني وبين آن تود، وجين تيرني وجين سيمنز وأليدا فالي. هؤلاء جميعًا أشبه بالبنات الصغيرات اللائي يتهندمن كي يبدين مثل نجمات السينما، مثل الفاتنات القاتلات، وها أنا الآن مدعوة

للانضمام إليهن. قلنَ: «لا بدّ أن نجلس معًا. تعالي في أي وقت. دعي أصدقاءك المخمورين الذين تجلسين معهم وتعالي معنا». ثم غادرن، ولكن قبل ذلك: «خذي هذا. لكن لا تستخدميه في مكان عام». كان قرصًا صغيرًا لامعًا أسود اللون، ممتلئًا، صغيرًا وبه نقطة بيضاء صغيرة في وسطه[1]. مددن أيديهنّ به، فانبسطتْ كفّي وأخذتْه، كما لو أنها كانت تنتظره. هكذا بدا وكأنني أصبحت الشخص الذي يُفترض بي الآن أن أكونه في عين الجميع.

يبدو أنه قبل المساء الذي عقدتْ فيه التبّيعات جلسة التعارف والتودد تلك في مرحاض أشهر نوادي الشرب في الحيّ، وقبل أن يُدرك فلان الفلاني، وهو الشخص الذي يطاردني، من هو المناوئ النافذ الذي وضع أنظاره عليّ، قبل ذلك كله لا بد أنّ فلان الفلاني قد سمع بأنني أرغب في الانضمام إلى مجموعة التبّيعات، ففكّر في أن يعرض عليّ خطّته الرومنسية الجديدة. كانت هذه الخطة جزءًا من محاولته الثانية، بعد أن رفضتُه في المرة الأولى. كان يكرّس جهوده هذه المرة في التودّد إليّ رجاة أنه حين يكشف لي عن حقيقته سأصيح قائلة يا إلهي! أنت واحد منهم! نعم أرجوك أريد واحدًا منهم - أخذًا في الاعتبار أنني أصبحت أتوق للحبّ، وليس حبّ أي مناوئ قديم بل الأبرز بينهم -. حتى تلك اللحظة كان فلان الفلاني معروفًا في المنطقة بوصفه مؤيدًا متحمسًا للمناوئين، وينحدر من عائلة مناوئة أصيلة. ظلّ فترةً في صنف الداعم المتطرّف، ثم انتقل إلى الصنف الآخر، الصنف الذي يظنّ أنه مناوئ، ما يعني أنني ارتكبت خطأً فادحًا حين رفضته في المرة الأولى، وهذا ما أوحى به حين أقدم على خطوته الثانية. قال إنه على الرغم من هَذَره الكثير في ذلك اليوم ردًا على رفضي إياه، إلا أنه لم يكن يقصد ما قاله حين

---

(1) لعل المقصود هنا أقراص «بلاك بيوتي Black Beauty»، وهي أقراص منشطة راجت في الستينيات والسبعينيات.

قال: «صبرًا أيتها القطة القذرة. ستموتين». قال إنه يرجو ألا أكون قد أسأتُ فهمه بل أن أكون عرفتُ وتقبّلت كلامه بوصفه تعبيرًا عن رغبته الطبيعية في رفقتي. وقال إنه الآن بعد شيء من التفكير قرر أنّ الوقت قد حان كي يأتمّني على أخفى أسرار حياته. وعندها أخبرني بأنه مناوئ للدولة، وأنه وطنيّ حقيقي، واحد من أولئك الأبطال الراغبين في بذل حياتهم من أجل الحركة، من أجل القضية، من أجل البلد. لاحظتُ أنه مقتنع بأنّ كلماته هذه المرة ستحدث تأثيرًا مختلفًا عما سبق، تأثيرًا مرغوبًا وفي صالحه، لا سيما أنّ لديّ أخوَين مناوئين أنا نفسي. فعلى عكس ما تقوله كروم الشائعات، وكلّ الأقاويل التي تفترض من هو مناوئ ومن ليس كذلك، لم أكن أعلم أنّ اثنين من إخوتي كانوا مناوئين إلا بعد جنازة واحدٍ منهما حين لُفّ نعشه بعلم بلد «ما وراء الحدود»، ولم يتجه حَمَلة النعش إلى مدافن العامة في المكان المعتاد، بل إلى مدافن المناوئين، حيث ظهر ثلاثة منهم فجأة ببزّاتهم العسكرية وأطلقوا وابلًا من الرصاص فوق قبره. كانت مفاجأة بالنسبة إليّ، لكنّ مفاجأة أكبر كانت في انتظاري لاحقًا حين سألتُ الآخرين عن هذا الجانب من حياة أخويّ. عندها اكتشفتُ أنّ أمي وجميع أشقائي، بمن فيهم الأخوات الصغيرات، يعرفون أنّ أخي الثالث والرابع مناوئان، لكنهم رغم ذلك لم يُبدوا أي أسف لحجب تلك الحقيقة عني. قالوا إنّ هذا ليس مفاجئًا، بالأخذ في الاعتبار عادتي في اللجوء الدائم إلى التعمية بالقراءة أثناء المشي. أما عن فلان الفلاني وسرّه الذي دلقه علي، فقد كان الوضع محرجًا. بطبيعة الحال كان من الواضح وضوح النهار أنه ليس مناوئًا، وأنّ لا أحد يقتنع بسُعاره المجنون إلا هو. لكنه استمرّ على ما هو عليه. كان في ساعةٍ مناوئًا فعليًا، ثم في ساعةٍ أخرى مستشارًا موثوقًا يعيره أكبر المناوئين أذنًا مصغية. أما المُتوقَّع مني فهو أن أنبهر بجاذبيته البطولية وأثب بين ذراعيه قبل أن يفوت الأوان. قال لي، أو بالأحرى أخذ يتباهى بالقول، مفترضًا أنني أصدّقه، إنّ المرء حين

يخرج في عمليةٍ ما لا بدّ أن يتمالك أعصابه ويحافظ على قوة إيمانه بالقضية مهما حدث. قال: «قد يأتي علينا يوم سيء، يوم يقودنا إلى يومنا الأخير». ثم هزّ كتفيه وقال: «الرجل العادي كما تعلمين، بل حتى المناوئ العادي لا يستطيع أن يحافظ على ذلك حين يجدّ الجدّ. حينها تخور قوانا، ونتوتر قليلًا» - وهنا ناداني باسمي، اسمي الأول - «فقبل أن نبدأ يكون لدينا شعور بأننا نعيش آخر ساعاتنا وأننا أمام خيارات ثلاثة: إما أن نعيش، أو نموت، أو نُصاب، أو نفشل، أو تقبض الدولة علينا»، وهذه خمسة خيارات لا ثلاثة. لم أشأ أن أقاطعه وأصحّح له، كي لا أشجّعه على المواصلة. «فحين نغامر بحياتنا، لا تكون لدينا أية ضمانات» - وهنا قال اسمي، اسمي الأول مرة أخرى -. «لمدة ثلاث ساعات أو أربع نُدرك تمامًا بأننا سنظلّ على جرف حتى ينتهي الأمر. فإن نجونا في نهاية الأمر، حين ننتهي، حين نتمّم العملية، حينها فقط نُدرك كم هي الحياة جميلة». ثم أخذ يتباهى بحديث طويل عن «الدافع النفسي» و«الأعصاب الحديدية» و«القدرة الخارقة على التحمل»، «والتضحية بالحياة الطبيعية العادية». كان هذا الكلام رغم اقتطاعه من سياقه، بل حتى في سياقه، ضربًا من المحاضرات الطويلة المزعجة التي جرّبتها مع عدة أشخاص مؤخرًا. قال وهو يواصل الحديث عن نفسه بصيغة الجمع: «بالنسبة إلينا كما تعلمين، وبالنسبة إلى عائلتنا - ونظنّ أنّ الأمر ينطبق على عائلتك أيضًا - فإنّ حياة العسكرية مهمة مثل الطعام والهواء والنوم. ولكن ليس من حقك أن تشككي فينا وتستجوبينا» وهنا رفع يده كي يمنعني من سؤاله، وظلّ ينظر إليّ بحدّة، مشدّدًا على الرابط الذي يجمعنا ببعض، كما لو أننا بالفعل نشترك في شيء، كما لو أنه أصبح في منزلة رفيعة عندي حين أخبرني بموقعه في عالم جماعات المناوئين. لكنه لم يُوفّق. لم يُثر إعجابي، لم يصل عندي إلى منزلة رفيعة، ولم يكن مناوئًا أيضًا. وإن افترضنا أنه كان مناوئًا، وأنّ كل ما قاله قد أذهلني برومنسيّته، فإنه ما يزال فلان الفلاني، ذلك الذي

يروي الأكاذيب كعادته حين يتمثّل مزاجًا جيمس بونديًا.

صحيحٌ أنه كانت لديه ارتباطات بالمناوئين؛ فوالده وأخته الكبرى وأخوه الأكبر كانوا جميعًا مناوئين إلى آخر يوم في حياتهم. ولكن لا يمكنك أن تنسب أي فضلٍ لنفسك، ليس إلى الأبد على الأقل في معقل الجماعات شبه العسكريّة الثابتة على مناوئة السلطة، بسبب ما فعله أبوك أو أختك الكبرى أو أخوك الأكبر، إن لم تواصل أنت خدمة القضية بأفعالك. قد تحظى بشيءٍ من الحرية بعض الوقت، وبعض الانتباه، وبعض الاحترام بسبب قرابتك للمناوئين، وهو ما يتناقص مع الوقت على أية حال. قد ينبهر بك زوّار المنطقة، والباحثين عن التاريخ، أي هذه النوعية من الناس ويقدّرونك، فما أدراهم بحقائق الأمور؟ أما أهل المكان فيعرفون، ناهيك عن أنّ المناصرين المتطرفين الذي يظنّون في نهاية المطاف أنهم من العسكريّين وهم ليسوا كذلك، يقودهم تباهيهم إلى النأي عن الجميع. تلكَ مكانة فلان الفلاني الحقيقية، ولم يخطر بباله قط أنه كان مكشوفًا للجميع - فقد كان بإمكان أي أحد أن يشتري قناعًا صوفيًا من أي مكان -. وقد قيل إنه كان يروّج حكايات نضاله البطولية تلك إلى أن بلغت حدًا مزعجًا لدرجة أنّ المناوئين بدؤوا يفكّرون في التحدث إليه بحزم. هكذا إذن أخذ يتقرّب مني دونما اهتمام بصدّي إياه سابقًا وشرع في هذه الدردشة. قال إنّ شخصًا مثلي سيتفهّم، بالنظر إلى أقاربي المناوئين، أنه في أي لحظة قد يضطر إلى أن يختفي عن وجه الأرض، مثلما حدث لأخي الرابع. كان مزعجًا للغاية. وكنتُ في بادئ الأمر مهذّبة، أتساءل كم ينبغي أن أحتمل قبل أن أقول «عليّ الذهاب الآن». هؤلا الناس يعتقدون أنكِ غبية ولا يمكن أن تدركي رأيهم فيكِ بأنك غبية. وهم لا يرون فيكِ شخصًا بل صِفرًا، نكرة بلا قيمة، هدف وجودكِ الأوحد أن تنعكس فيكِ صورة عظمتهم. مديحهم واهتمامهم يثيران الريبة. إذ إنه مديح غير لائق، مُحرِج، مُدبَّر، مُفترِس، إذ يُدرك المرء أنه بُعيد هذا المديح - أو قُبيله كما في حالتي - سيتحوّل إلى

إهانات، وتهديدات بالضرب والقتل وهَذَر لا نهاية له عن الترصّد. وكأنهم في افتقارهم إلى الذكاء يعتقدون أنهم يخدعونك بينما أنتِ تخدعينهم، ويبقى السؤال عندها هل تتصرفين بلطف أم تزيحينهم بقوة عن طريقك. لكنني كنتُ لطيفة، فقد مات عدة أشخاص من عائلة فلان الفلاني، آخر اثنين منهما قبل أشهر قليلة. وبحلول هاتين الميتتين احتلت عائلتهم المركز الأول تقريبًا في قائمة العائلات التي تعرّضت لميتات عنيفة في منطقتنا، هذا إذا ما استثنينا صديقتي الأقدم منذ المدرسة الابتدائية التي مات كل أفراد عائلتها على درب هذه المشكلات السياسية. لكنّ فلان الفلاني مسكين. من الواضح أنّ وفاة أقربائه أثّرت فيه، وأزاغت عقله، لا بدّ أنها مسؤولة ولو جزئيًا عن فقدانه لاتّزانه. مات أبوه أولًا، ثم أخته الكبيرة، ثم أخوه الأكبر، قُتلوا جميعًا في السنوات العشر الأخيرة ضمن عمليات للمناوئين. بعد ذلك مات محبوب العائلة، ثاني الإخوة الكبار، إذ مات وهو يعبر الطريق. وبعد شهرين مات الأخ الرابع وهو في ذروة انشغاله بالتسلّح النووي. وجدوا إلى جانب جثته أقراص وشراب وكيس بلاستيكي في رأسه، وترك رسالة أدهشت الجميع: «**أفعل هذا بسبب روسيا، وبسبب أميركا**». بعد هذه الحادثة لم يبق من هذه الأسرة المكوّنة من زوجين واثني عشر ابنًا وابنة سوى فلان الفلاني وأمه المضطربة نفسيًا، وست شقيقات وصبيّ في الثالثة من عمره. لكنّ هذا ليس ذنبي. وليس ذنبي أنني لا أراه جذّابًا. فلا يمكن للفتاة أن تواعد شابًا لمجرد أنها تشفق عليه بسبب وفيات أهله. ولا يمكن أن يحدث ذلك طبعًا إن شعرتْ الفتاة بالغثيان من شيءٍ فيه منذ البداية، منذ اللحظة الأولى التي وقعت فيها عيناها عليه، قبل حتى أن يحدث أي تفاعل بينهما. في بادئ الأمر شعرت بتأنيب الضمير من مسألة الشعور بالغثيان، لكنه حين بدأ يهددني بالقتل لأنني رفضته لم أعد أشعر بأي ذنب. بعد ذلك أصبحت واثقة من عدم شعوري بالذنب بعد رفضي إياه مرة ثانية، حين تحدّث عن «قرابتنا»

الناجمة عن «مناوئتنا للدولة». كما تحدث عن «علاقتنا» رغم أنه لم تكن بيننا أية علاقة، وحينها أدركتُ أنه كان يتعامل مع رفضي في المرّتين السابقتين كما لو أنه قبول، كما لو أنّ تلك المرتين كانتا في موعدين غراميين. أما فيما يتعلق بهَذَره وثقته الكاملة في علاقتنا ومستقبل ارتباطنا ببعض، فلم أكن لأتصوّر أنّ هذا النوع المختلّ المهووس المؤذي المخادع قد يتعافى فورًا من اختلاله وهوسه وأذاه وخداعه ويلجأ إلى التزلف والنسيان. هذا بالضبط ما حدث لفلان الفلاني حين بلغتْه أنباء اهتمام الحلّاب بي، الشخص الذي حتى فلان الفلاني يقرّ بأنه أشدّ أذى منه، ويفوقه في مهارات الترصّد والمطاردة.

***

الآن، بعد أن توقفتْ هجمات فلاني الفلاني الرومنسية، ها أنا ذا أقف إلى جانب الحلّاب، وأفكاري آيلة للفزع، يزيدها فزعًا رأس القطة الميتة الذي كنت أحمله بين يديّ. طوال حديثنا لم أشر إلى هذا الرأس، بل لم أنظر إليه حتى. وهو أيضًا لم يبد أنه قد نظر إليه. لكنني كنتُ أعرف أنه يدرك جيدًا ما هو. ولعله كان يعرف مسبقًا تفاصيل التقاطي إياه والمشي قدُمًا ثم التراجع وما جرى من تردد. كنتُ واثقة أيضًا من أنه رآني ألفّه بالمناديل وأحمله، ولعله قرأ أفكاري وعرف أنني أنوي أخذه إلى المكان المعتاد. ولكن مثلما أنني لم أقل شيئًا عن الأمر، لم يقل هو شيئًا، كما لو كان الوقوف في مكان لا يقف فيه أحد عند العاشرة إلا ربع مساء ليلة صيفية إلى جانب مراهقة تحمل رأسًا مقطوعًا بينما تحدثها عن أخذ حياة حبيبها الذي ربما تكون مرتبطة به أمرًا لا أهمية له. لا عجب إذن أنني، بسبب تأثير مظهره وكلامه، نسيتُ لوهلةٍ ضئيلة وجود الرأس. لوهلة لا أكثر، لأنّ الرأس ذكّرني. ففي الوقت الذي فتح فيه الحلّاب فمه كي يقول شيئًا أعرف أنه سيتلف أعصابي، بدأت كفّاي

القابضتان على قماش المناديل تتحركان بعصبية. وقع أحد أصابعي على نابٍ أمامي طويل، وفي غمرة ارتباكي ركّزت على هذا الناب الأمامي الطويل الذي خرج من القماش إلى إصبعي. في تلك اللحظة نفسها تحرّك عمودي الفقري مرة أخرى. انتفض بالطريقة الغريبة نفسها كما حدث في صفّ اللغة الفرنسية. جاءت بعدها رعدة الساقين، تلك التيارات التي تسري في باطن الركبة، والارتياع الذي يضرب كالموجات في أعصاب فخذيّ وعجيزتي. ثم عاد ذهني الخالي إلى اليرقات، تلك الانتفاخات حول الأنف والعين والأذن. وعاد مرة أخرى إلى الكلام. لكنه هذه المرة انتقل من الحديث عن قتل شبه الحبيب، ولم يصرّح بذلك بل كان تلميحًا. وإذ كان أكبر مني بكثير، وأكثر ثقة بنفسه، ولا يبدّد أي طاقة لديه، رغم تعبير اللامبالاة في وجهه، فقد عرض عليّ مرة أخرى أن يوصلني بسيارته.

ومرة أخرى، مثلما حدث في لقائنا الثاني في منطقة الحدائق والسدود، قال إنه غير مسرور، وإنه قلق، وإنّ المشي في هذا المكان وفي وسط البلدة أو أي مكان خارج المنطقة لا يمكن أن يكون فيه خير لي، ولن يكون آمنًا. وقال إنه يرجو ألا أنسى بأنّ لا مشكلة لديه أبدًا في أن يؤمّن لي توصيلة بسيارته، أو يرسل من ينوب عنه حين يكون مشغولًا. قال إنه سيوصي آخرين ليساعدوني حين لا يكون هو موجودًا لمساعدتي. ثم تحدّث مرة أخرى عن عملي، قال لا تقلقي، وإنه سيأخذني إلى العمل بأمان، ثم في نهاية اليوم سيكون هناك من يعيدني إلى البيت. قال إنني بذلك سأتجنب خطر خطف الحافلات، والمواصلات العامة التي تتعطّل مع كل حالة شغب وتبادل لإطلاق النار، كما أنني سأجنّب نفسي المنغصات اليومية في المواصلات العامة. طبعًا كان ذلك كله تلميحًا، وهو يواصل حديثه على ذلك المنوال الودود، منوال الرغبة في مساعدتي، وذلك بتخليصي من المشي، وتخليصي من الركض، وتخليصي

من شبه الحبيب. لم يكن لديّ دليل ملموس على أنه كان يتعدّى حدوده، لذلك ربما كنت مخطئة ولم يتعدّ هذا الإنسان حدوده. لكن وهو يتحدث، دون أن يأبه لحَيرتي، أدركتُ أنه لا ينبغي لي أبدًا أن أركب أي سيّارة من سياراته أبدًا. لقد بدا أنّ الأمر كله تلخّص في تلك السدّة الأخيرة، وأنني لم أعايش شيئًا بعد، فإنْ اجتزتُها وركبت سيارته سيعني ذلك «نهاية شيء ما» و«بداية شيء آخر». لكنني في ذلك الوقت ظللتُ واقفة هناك، في حيّز التلميح بالأشياء لا التصريح بها، في المساحة التي لا ينبغي للناس أن يخطّوا الخطى فيها فحسب، بل ألا يدخلوها أساسًا. غير أني كنتُ واقفة فيها. وها هو ذا هنا، واقف فيها أيضًا. في ذلك الحين كنتُ قد أُنهكتُ ووصلت إلى حالة من المشاعر المضطربة التي تكسر النَفْس، عندها يمكن أن أقول فجأة «لا»، أو «اغرب عليك اللعنة!»، أو يمكن أن أصرخ أو ألقي بالرأس أو... من يدري، لعلي ألقيه في وجهه. لكنّ الذي حدث هو أنّ رجالًا آخرين ظهروا.

لم يظهروا بالضبط؛ فقد تبيّن أنهم كانوا ينتظرون هناك من قبل. فوجئتُ بوجودهم لأنّ سمعة المكان تجبر الناس على أن يهرولوا في منطقة العشر دقائق إذا ما اضطروا إلى عبورها للانتقال من مكان إلى آخر -فقد كان المكان معروفًا بقصص الساحرات والسحر الأسود والشعوذة والغيلان والأضاحي البشرية والصلبان المقلوبة المخيفة، بصرف النظر عما إذا كانت قوات الدولة بعملياتها الإجرامية واحتيالها على الناس في هذه الأوقات المضطربة على الأقل تختبئ هنا أم لا - وفيما عدا ذلك كان الناس يفضّلون الابتعاد عن هذا المكان. وُجودي أنا في هذا المكان وحديثي إلى رجل خبيث وأنا أمسك برأس قطّة فجّرها النازيون ليس إلا دليلًا آخر على أنّ منطقة العشر دقائق ليست مكان الأشياء الطبيعية. على أية حال كانوا هناك، وكانوا أربعة رجال. وقد بدا أيضًا أنهم كانوا مختبئين، أو نصف مختبئين على الأقل.

الأول خرج من تجويف أحد المتاجر، بعد أن أغلق المتجر أبوابه بسبب حلول المساء وليس لأنه متجر مخيف لم يكن ينبغي أن يُفتح من الأساس. خرج في الظلام ولبرهة قصيرة رمقنا، ثم أشاح بصره. وقف بعدها هناك يتجاهل وجودنا، ولكن لماذا يقف هناك؟ عندها خرج آخران من ساحتَي الكنيستين المهجورتين على مكان مرتفع قليلًا عنا، ونظرًا صوبنا باقتضاب. وقف الثلاثة هكذا، متحفزين، منتظرين. كانوا واقفين على مسافة متساوية من بعضهم البعض، فيما كنت أنا والحلّاب في الجهة الأخرى. في البدء خشيتُ أن يكون هؤلاء عسكريين متخفّين في ملابس مدنية، وسوف يهجمون علينا الآن ويقتلون الحلّاب، ما يعني أنهم سيقتلونني معه على الأرجح بصفتي شريكته. غير أني شعرت حينها أنه إلى جانب التفاهم الذهني الذي يجري بين هؤلاء الثلاثة، ثمة ارتباط آخر يمتدّ منهم إلينا. شعرتُ أنهم معه، أي هؤلاء الثلاثة والحلّاب. في تلك اللحظة مرّ رجل رابع بجانبي فقفزتُ رعبًا إذ إنني لم أره أو أسمع خطواته. مرّ على بعد سنتيمترات مني، دون أن ينظر إلينا أو يأبه بوجودنا أنا والحلّاب. ألحقتها بقفزة أخرى، إذ إنني حين أدرت نظري صوب الحلّاب كان قد اختفى هو الآخر.

كان قد تركني، ولا أدري لماذا شعرت بالصدمة في حين أنه لم يكن ثمة شيء واحد مُطمئِن في وجود هذا الرجل حتى الآن. ففي كل مرة كان يظهر فجأة، يأخذني على حين غرّة. وجدتُ نفسي دون شعور أنظر خلفي، باتجاه وسط البلدة، في الاتجاه الذي سار فيه الرجل الرابع كي أرى ما إذا كان الحلّاب يرافقه. فلا يمكن أن يكون قد سلك الطريق الآخر، وإلا لرأيته متجهًا صوب الرجال الثلاثة. في تلك اللحظة قرّر أولئك الرجال أن يسيروا بجانبي، ورغم أنهم مشوا فرادى، إلا أنني ظللتُ أشعر بوجود تنسيقٍ بينهم وخطة مشتركة. كانوا معًا. الأربعة كلهم. وأنا واثقة من أنّ الخمسة لن يلبثوا أن يلتقوا عند نقطة واحدة.

أنتِ مجنونة.

مرةً أخرى كنتُ أحدّث نفسي بعد أن تركني الحلّاب. لقد ذهب هو والآخرون بعد أن تظاهروا بأنهم لم يكونوا معًا، ذهبوا متفرّقين باتجاه وَسَط البلدة. بقيت وحدي وطفقتُ أمشي في الاتجاه المعاكس خروجًا من منطقة العشر دقائق، وهواجسي تدور حول تهديداتٍ ضمنية ضدّ المشي، وتهديدات ضمنية ضدّ الجري، وبالأخص ذلك التهديد الضمني بالقتل عبر السيارة المفخخة. هذا بالإضافة إلى رأس القطة الذي كنت أحمله بين يديّ. ولمّا كانت الساعة قد بلغت العاشرة ولم يبق إلا النزر اليسير من ضوء النهار، ما عاد بالإمكان الآن أن أحمل الرأس إلى المكان المعتاد. تختلفُ الأشياء في الظلام، ولكن لن أفعل حتى لو بقي من آخر الضوء ما يكفي لإيصالي إلى هناك، ووصولي إلى المنطقة الخلفية عبر تلك الصخور العتيقة والحشائش، وحتى لو بقي ما يكفي منه كي أجد مكانًا مناسبًا يرقدُ فيه هذا الرأس كما كنتُ أنوي، فقد شعرتُ بأنّ الحلّاب رغم أنه التقاني وأبلغني بأوامره وطلباته فهذا لن يمنعه من أن يظهر مرة أخرى من خلف شاهد قبر دراكولا كي يكمل خطّته. كنتُ قد أدركت أنّ لديه خطة تتعلق بي، لديه مخطط قابل للتنفيذ. لذلك ما كان ينبغي لي أن أذهب إلى المقبرة. ولكنني كنتُ ما أزال أرغب في أن آخذ الرأس إلى مكان مناسب. كل ما كنتُ أريده مكان كثيف الخضرة. بقعة مزروعة، وكانت بالطبع توجد مثل هذه الأماكن في منطقة الحدائق والسدود. غير أنّ هذه المنطقة لا يُنصح بدخولها ليلًا، شأنها شأن منطقة العشر دقائق. في كل الأحوال لماذا أنقل الرأس من مكان مظلم إلى مكان مظلم مثله؟ وحتى لو تمكنت من شحذ قواي كي أذهب إلى الحدائق والسدود كي أدفن الرأس تحت شجيرة أو خلف جنبةٍ من الجنبات فإن جواسيس الدولة خلف الشجيرات والجنبات - خاصة مع شكوكهم بصلتي الآن مع الحلّاب - سينقّبون فورًا ليروا ما الذي دفنته. إذًا إن لم

تكن تلك الخضرة، فثمة بقع خضراء غيرها. الحشائش المحيطة بالكنيستين المتبقيتين خضراء، لكنّ المكان كئيب. إضافة إلى أنه في حدود منطقة العشر دقائق. توجد حدائق، حدائق أشخاص آخرين، فنحن لم تكن لدينا حديقة، فلماذا لا أختار حديقة كثيفة من تلك الحدائق في طريق عودتي إلى البيت، فأتسلل داخلها وأدفن الرأس هناك؟ باتت خطتي الآن متشابكة مضطربة، أي أنني كنت أريد الاستسلام، ولم يكن هذا موقفي منذ البداية. غير أنّ موقفي الأول كان يتلاشى ذرة تلو ذرة من قبل حتى أن يظهر الحلّاب. فمنذ اللحظة التي تركتُ فيها المعلّمة وزملائي وطفقتُ أمشي باتجاه منطقتي شعرتُ بذلك الشعور الخانق المراوغ الذي يلحّ عليّ: «**لا فائدة، ما الهدف، ما الفائدة؟**». كان هذا الشعور يجتاحني، أو ربما يتنامى من داخلي. وفيما كنتُ في هذه الحال من التردد والجبن وجلد ذاتي بقول «**أنتِ فتاة مجنونة، توهنين نفسك بجنونكِ المتزايد لحظة بلحظة**»، وفيما كنت أفكر في وضع هذا الرأس أرضًا، أضعه وحسب، في أي مكان، عند أي قطعة إسمنتية أراها، أدركتُ أنني قد خرجت من منطقة العشر دقائق ومشيت إلى أن وصلتُ إلى المكان المعتاد. كنتُ الآن عند بوابة المقبرة العتيقة الصدئة، وهنا سمعت من خلفي صوت محرّك سيارة. على الفور سَرَتْ فيّ رعدةٌ أخرى. **أوه، لا. إنه هو! لا تتوقفي. واصلي السير. لا تلتفتي إليه أو تتجاوبي معه.**

كنت قد اجتزتُ مدخل المقبرة حين عبرتْ السيارة من جانبي. ناداني صوت منها: «مرحبا! مرحبا! أنتِ بخير؟». توقفتُ، إذ لم يكن صوت الحلّاب. كان شخصًا آخر. لقد كان هذا الرجل الحلّاب الحقيقي، إذ ثمة حلّاب حقيقي، يعيش في منطقتنا، يستلم طلبات الحليب، ولديه شاحنة توزيع حليب حقيقية، ويورد الحليب فعلًا. كان أيضًا الرجل الذي لا يحبّ أحدًا، وهو واحد من متجاوزي الأعراف المتفق عليهم. كان يعيش على مقربة من بيتنا، وقد حُكم عليه بأنه من متجاوزي الأعراف لأنه ذات يوم

بعد أن عاد من ذلك البلد «ما وراء البحر» حيث كان أخوه يُحتضر، اكتشف أنّ ثمّة خطب في منزله. كان يسكن بمفرده، ولمّا خرج إلى فناء المنزل ليحضر رفشة من الفحم لاحظ أثرًا قد خلّفه حفر شخص في فنائه بينما لا يعيش معه أحد. فحفر هو أيضًا ليعرف ما أمر ذلك الأثر. بعد برهة خرج من باب منزله معفّرًا بالتراب، يحمل مجموعة بنادق على ذراعيه. كانت البنادق ملفوفة بالبلاستيك، حملها إلى منتصف الشارع وألقى بها هناك، وصاح: «ادفنوها في أفنية منازلكم، ما المانع!»، ثم عاد إلى منزله وأخرج المزيد. واستمرّ ذلك، إذْ إنه بعد البنادق عثر على مسدسات كاملة، ومسدسات مفككة، وأكداس من الذخيرة ومخزونٍ آخر من الأسلحة ملفوف في قماش وبلاستيك. ألقى بكلّ شيء وهو حانق، يواصل صراخه إلى أن رأى مجموعة من الأطفال وقد كانوا يلعبون - قبل أن يبعثرهم - في البقعة التي ترك فيها الأسلحة. في البدء قفز الأطفال جانبًا وراحوا يراقبون ما يحدث، فلما رآهم هذا الرجل الذي لا يحب أحدًا توقف عن الصراخ. ثم استأنف صراخه، لكنّه الآن كان يصرخ فيهم. «اغربوا من هنا!». «**قلت اغربوا بعيدًا**»، هكذا كان يصرخ وقد استشاط غضبًا، إلى درجة أنّ الأطفال، المستهدفون الآن بصراخه، ابتعدوا فعلًا. لكنّ مجموعةً منهم ظلوا في مكانهم جامدين، وانفجروا في البكاء. عندها صاح الرجل الذي لا يحبّ أحدًا في جيرانه الذين خرجوا من منازلهم ليعرفوا سبب الصراخ. طلب منهم أن يأخذوا أولئك الأطفال، وطالبهم أيضًا أن يخبروه فيما إذا كان أحد من أولئك الجيران الطيبين يعرف ما فعله مناوئو الدولة في منزله أثناء غيابه. هكذا إذن راح الرجل الذي لا يحب أحدًا، أي الحلّاب الحقيقي، يتشاجر مع الجميع. تشاجر حتى مع الأطفال. ولكن ينبغي عليّ القول إنه عُرف بوصفه متجاوزًا للأعراف لأنه ألقى الأسلحة في الشارع، رغم أنّ الجميع يعرف أنّه يفترض بك إن عثرت على أسلحة في منزلك، بعد أن دفنوها فيه، فعليك أن تبتلعها وتتأقلم. أما وصفه بأنه الرجل الذي

لا يحبّ أحدًا فسببه أنه أبكى الأطفال ذات مرة بقسوة ودون حتى أن يعتذر.

لم يكن محبوبًا عند المناوئين إذن لأنه اجتث ترسانتهم، ولم يكن محبوبًا عندهم أيضًا لأنه كان يصرّح بمعارضته أنظمتهم وأوامرهم المحليّة. لم يكن محبوبًا عندهم كذلك لأنه احتجّ على محاكماتهم وعدالتهم الوحشيّة التي يفرضونها عندما لا نطيع نحن الأهالي أوامرهم وقوانينهم. وكلما تبرّم من اختفاء وشاةٍ مشتبه بهم، زادت كراهية المناوئين له. من الأشياء المعروفة عنه أيضًا أنّ لا أحد من سكّان المنطقة يعزو له الفضل حين يكون صاحب الفضل. يحدث هذا حين يساعد الناس، وكان كثيرًا ما يساعدهم، على الرغم مما يقال عنه من أنه لا يحب أحدًا. والسبب في عدم اعتراف الجماعة بأفعاله الخيّرة هو أنّ سمعته التي ارتبطت بالفظاظة باتت راسخة في وعي أهل الحي، لدرجة أنّ الأمر كان يتطلب تغييرًا هائلًا في وعي الناس للتخلص من تلك الشائعة. وبما أنه لم يكن ثمة ميل قليل حتى إلى تصحيح النزر اليسير من التصورات الخاطئة هنا، فمثل هذا الجهد الذهني الذي يؤدي بالجماعة إلى إدراك حقيقة الحلّاب الحقيقي لم يكن ليُبذل في أي وقت قريب. لكنه كان يساعد الناس. ساعد والدة الفتى النووي، والتي كانت هي نفسها والدة المناوئ، في العالم الفانتازي، فلان الفلاني. ففي مساء اليوم الذي انتحر فيه الفتى النووي خرج الحلّاب الحقيقي للبحث عنها، مثلما خرج الآخرون في المنطقة للبحث عنها. ذلك أنها اختفت بعد أن عرفتْ بهذه الوفاة الجديدة في أسرتها. وقد أُشيع أنها ذهبت لتنتحر مثل ابنها، لكنّ الحلّاب الحقيقي عثر عليها وهي تطوف في شوارع حيٍ آخر، سادرة، شعثاء، لا تعرف أحدًا ولا تعرف حتى من تكون. ورغم أنه أعاد والدة الفتى النووي إلى منزلها، ورغم سعيه الحثيث إلى تقديم المزيد من العون لها مستعينًا بالنساء التقيّات اللائي

كنّ في الوقت نفسه مداويات الحيّ، إلا أنّ أهل الحي ظلّوا يؤمنون بأنّ الحلّاب الحقيقي أفظع شخصٍ يمكن أن يقابله المرء في حياته. عن نفسي أنا لم أكن أراه فظيعًا أو وقحًا، أو حتى متجاوزًا للأعراف، بالمقارنة مع الآخرين من متجاوزي الأعراف في منطقتنا. هناك مثلًا فتاة الأقراص، وأختها المُربكة المشرقة، والفتى النووي المسكين حين كان حيًا، وذوات القضيّة القاسيات التبشيريّات. كان هؤلاء كلهم على الجرف وأكثر ملائمة لهذا التصنيف من الحلّاب الحقيقي. وربما كنت أرى الأمور على هذا النحو لأنّ الحلّاب الحقيقي ووالدتي كانا صديقين منذ أيام الدراسة، ما يعني أنه كان يزورنا بين وقت وآخر ليراها ويتحدث معها. كان يساعدها أيضًا، بالحليب المجاني وزيادة في الألبان المعزَّزة والمخبوزات والمعلّبات. وكان يساعدنا أيضًا في الاصلاحات المنزليّة اليدوية، إذ كان يتولّى أمور السباكة والصباغة والنجارة، بل إنه كان يصرّ أيضًا على التكفّل بإصلاح الأجهزة الكهربائية بدلًا من الأخوات الصغيرات. وهكذا فإنّه بصرف النظر عن أساليبه التي تبدو مبغضة للناس، أو عن السمعة التي اكتسبها بسبب تلك التصرّفات، إلا أنه كان يمتلك من الصفات ما يحمّله اهتمامًا صادقًا بالآخرين. وها هو الآن، الحلّاب الحقيقي، الرجل المتجاوز للأعراف والذي لا يحبّ أحدًا، يظهر في ذلك المساء عند المقبرة ليساعدني.

أول ما حدث حين سمعتُ صوت السيارة خلفي أنْ عاودتْني تلك الرعدة، لكنها انقضت فور أن أدركت أنه لم يكن ذاك الحلّاب، بل الحلّاب الآخر. كان يقود شاحنته، شاحنة الحليب الفعلية، وهي المركبة الوحيدة التي رأيته يستقلّها. استدرت أواجهه فيما استمرّ صوت المكابح. فتح بابه وترجّل طامرًا في اتجاهي. فجأة صار إلى جانبي، ولم تكن هذه المرة الأولى التي يكلمني فيها لكنها كانت أول مرة يزيد فيها عن كلمات التحية المعتادة.

غالبًا ما كانت تلك الكلمات «مرحبا»، «وداعًا»، «سلّمي على والدتكِ». خارج دائرة ماما، لم نتحرك، أنا والحلّاب الحقيقي في الدوائر نفسها، وحتى إذا ما استثنيت العيش معها في المنزل ذاته، فأنا لا أتحرك حقًا في دوائر ماما، لكن بما أنهما كانا صديقين فلا غرابة أن ألتقيه من وقت إلى آخر. كنتُ أصادفه في الشارع أو عند باب منزلنا أو في صالة البيت حيث تعدّ له ماما خبزًا خاصًا من الشعير، أو تقدّم له شيئًا من مخبوزاتها المحلاة الأخرى مع الشاي الذي يشربانه معًا. كنتُ أراها في شاحنته أحيانًا، إذ يوصلها من الكنيسة أو بعد الانتهاء من لعبة البنغو أو مكتب البريد، فتثب من شاحنته وهي تضحك كما لو أنها في السادسة عشرة من عمرها. تلك هي المناسبات التي ألتقيه فيها فنتبادل التحايا المقتضبة، وها هو الآن يسألني مرة أخرى إن كنت بخير. سألني ما إذا كان قد وقع خطبٌ ما، أو ما إذا كان يستطيع مساعدتي في شيء. أومأتُ مجيبة، دون أن أعرف عن أي سؤال كنت أجيب. في واقع الأمر لم أكن أستطيع أن أفهم شعوري آنذاك أو كيف يجدر بي أن أجيب عن أي سؤال من باب اللباقة. فقد بدا أنني التقيت لتوّي أربعة مناوئين - فمن المرجّح أنّ أولئك المتخفين كانوا مناوئين - وهم في طريقهم لتنفيذ مهمةٍ ما سوف تتصدر الأخبار غالبًا في وقت لاحق. هذا بالإضافة إلى الحلّاب، وهو على الأرجح ليس مناوئًا على طريقة وولتر مِتي، بل مناوئًا حقيقيًا كما يقول الجميع. أما الآن فها هو الحلّاب الحقيقي أمامي، صديق والدتي وواحد من متجاوزي الأعراف المنشقين المعروفين. كنا واقفَين على الرصيف بجانب شاحنته، الواقفة بجانب المقبرة، ولاحظتُ أنه نظر إلى صرّة المناديل التي أحملها بيننا. ثم توقف عن النظر وأعاد انتباهه إلى وجهي.

قلتُ، لأنّ الكلمات خرجت عفو خاطري، «أودّ الذهاب إلى مكان ملائم كي أدفن فيه هذه الصرّة أو أتركها هناك. بداخلها رأس قطة». قال «حسنًا»، كما لو أنني أخبرته عن «تفاحة» وليس رأس قطة، فارتحت لموقفه. هكذا لم

أكن مضطرة إلى تفسير كيف وجدت هذا الرأس، أو شرح ارتباطه بالحرب العالمية الثانية أو منطقة العشر دقائق. قال: «سآخذه عنكِ. هل تسمحين؟»، فناولته إياه، بسهولة، دون تردد، هكذا. قلتُ له بعد أن ناولته إياه: «ولكن لا تلقِه في الشارع؟ هل تعدني ألا تلقيه؟ لا تنتظر أن أذهب ثم ترميه في سلة قمامة أو في أي مكان على الأرض. إن لم ترغب حقًا في تولّي هذا الأمر كما ينبغي فيمكنني أن أتكفل به، ولكن رجاءً لا تتصنّع ثم لا تفعل». كان ذلك كلامًا كثيرًا صدر مني، وكان كلامًا صادقًا، إذ انتفت حاجتي لألتمس لنفسي العذر أو أبحث عن إذن أو قبول. حين تفكّرت في الأمر لاحقًا فاجأتني صراحتي ومباشرتي في الحديث مع رجل، مع شخصٍ يكبرني، مع شخص التصقتْ به أفظع صفات الوقاحة. لكنني أدركتُ أنّ مشاعري قد وصلت إلى نقطة حرجة بسبب ما حدث بيني وبين الحلّاب، وبسبب الرأس الذي حملته طوال ذلك الوقت. ثمة شيء في تعامل هذا الرجل يجعل الحديث سهلًا، سلسًا. وظلّ يتصرف بالطريقة نفسها. قال: «لن أتصنّع، ولن أرميه». فقلتُ له: «أودّ أن أمنحه بعض الخضرة. أريد أن أحمله إلى مكان ملائم». فقال: «أعرف. دعيني أقترح عليكِ شيئًا. لديّ خضرة. في فنائي الخلفي مساحة مزروعة. ما رأيكِ أن أضعه هناك؟ أحفر حفرة وأدفنه. هل يرضيكِ هذا؟». أومأتُ له موافقة وقلت: «شكرًا». بعدها عاد إلى شاحنته، ومدّ يده في أرضية السيارة ثم أخرج حقيبة قماشيّة خضراء اللون بداخلها كرات بلياردو. وضع الكرات بين مقاعد الشاحنة، وأدخل الرأس في الحقيبة، الرأس الذي كان ما يزال في المناديل، ثم شدّ الخيط لإغلاق الحقيبة. ثم عاد إليّ وقال: «لا تقلقي. دعي الأمر لي. ولكن اصعدي في الشاحنة، فالوقت متأخر وسأوصلكِ الآن إلى البيت». لقد بدا لي أنّ هذا التعاطي مع الأمر - وقد أعجبني - كان يسير على طريقة «**كيف يمكننا أن ننجز الأمر؟**»، مثل طريقة شبه الحبيب، والمعلمة، وليس على الطريقة السائدة «**ما الفائدة، لا شيء يُرجى من ذلك،**

لن يُحدث هذا الأمر أي فرق». وقد فاجأني ذلك. كان الحلّاب الحقيقي رجلًا وقورًا، جادًا، ومع ذلك كان يعطيني الآن شيئًا من وقته ويمنحني الأمل، يستمع إليّ ويأخذ كلامي على محمل الجد. لقد استوعب الأمر كله، وفهم ما أعنيه، فلم يبق مكان بيننا للأسئلة المنهِكة المزعجة. هذا مفاجئ فعلًا، لكنه هو نفسه كان مفاجأة، وقد فاجأتُ نفسي أنا أيضًا بقدرتي على تسليمه هذا العبء، ثم ركوبي شاحنته دون أن أشعر بأي قلق، ومعرفتي أنه أهل لثقتي في صدقه ليؤدي المهمة. أودع الرأس في الشاحنة، وفي تلك اللحظة تكتكت الكاميرا. واحدة من كاميراتهم، إذ جاء الصوت من الطابق الأول في مبنى يُفترض أن يكون مهجورًا، على الجهة المقابلة من الطريق. ومرةً أخرى لم أقل شيئًا، مثلما حدث مع الحلّاب في منطقة الحدائق والسدود. أما الحلّاب الحقيقي فقد قال: «ملاعين---» ثم انتبه لكلامه وقال: «لا يخلو أي مكانٍ منهم. ليفعلوا بالصورة ما يشاؤون». فاجأني موقفه هذا، وأراحني أيضًا على نحو غير متوقع. فلئن كان بمقدوره أن يعترف بحدوث شيءٍ من الأشياء التي لا تُذكر، ويعترف بعجزه عن فعل أي شيء لتغيير هذا الذي لا يُذكر، فربما يكون بمقدور أي أحد - وبمقدوري أنا - حتى في حالات العجز تبنّي هذا الموقف، موقف الاعتراف بالشيء، وتقبّله، والانفصال عنه أيضًا.

***

عبرنا الطريق بالحقيبة التي تحتوي المناديل التي تضم بدورها الرأس وهي موضوعة فوق كرات البلياردو في تلك المساحة بين مقعدينا في الشاحنة. عندها عرفتُ بأمر الوفاة الأخيرة في منطقتنا، إذ حدثت في ذلك اليوم. مرةً أخرى كانت الوفاة في عائلة فلان الفلاني، فقد سقط طفلهم الصغير، أصغرهم، من نافذة غرفتهم الخلفية من الطابق الثاني. قال الحلّاب الحقيقي

إنّ الأمر بدا في البداية وكأنّ الطفل قفز من هناك، وهذا ما دار في الشائعات المنتشرة كالكروم، وإن الدّارج حين كان يمشي قفز إلى حتفه رغم أنه لم يكن يقصد ذلك. يقول أهل الحيّ إنه كان يعتقد نفسه سوبرمان، أو باتمان، أو سبايدرمان، أو واحدًا من هؤلاء الأبطال. كان يحوم دائمًا بغطاء مخدّة أحمر مشبوك في ظهره وهو يصيح: «يااااه!»، «ووووه!»، «آآآه»، «بوووف!»، «أطفئوا النور!». لكنّ الحلّاب الحقيقي قال إنّه لم يَثبت أنّ الوفاة حدثت هكذا في الواقع. وقال إنّ الشائعات تقول ذلك لأنّ هذا ما اختلقه الناس هنا، إذ لا يمكن أن تحظى هنا بميتة عادية، ولا لأسباب طبيعية، ولا بحادث كأن تسقط من النافذة. لا يمكن قبول ذلك خاصةً بعد تلك الميتات الوحشية التي حدثت في الحيّ. لا بدّ أن تكون ميتة سياسية على حدّ قوله، أو متعلقة بالحدود، كي تكون مفهومة. فإن لم تكن سياسية، ينبغي أن تكون خارج المعتاد، مثيرة، مفزعة، كأن يظنّ الشخص نفسه بطلًا خارقًا ويقفز بالخطأ فيموت. قال إنّ هذا ما يتوقعه الناس الآن. وهكذا فإنّ ذلك الصغير الذي يبلغ من العمر ثلاثة أعوام ولا يفقه شيئًا عن الجاذبية الأرضية، أو إنه كان مجرد طفل متروك بمفرده في الغرفة الخلفية - في حين كانت والدته في الغرفة المقابلة لكنها لم تكن تخرج من غرفتها منذ أن اعتزلت الناس حدادًا، فظلّت في سريرها سادرة -. هذا الطفل ارتكب خطأ أدّى إلى موته، لكنه خطأ لا يرقى لأن يكون سببًا كافيًا لموت إنسان في هذه المنطقة. قال الحلّاب الحقيقي إنّ الحياة هنا لا بد أن تُعاش وتنقضي بتطرّف. ولقد تبيّن أنّ إحدى أخوات الطفل وجدتْه في الفناء الخلفي في أواخر الصباح. لم يكن هناك غطاء وسادة مشبوك في ظهره، فقد نُزع منه قبل الحادث لغسله.

استمعتُ إلى الحلّاب الحقيقي وهو يقصّ عليّ ما حدث، ثم أخبرني أنّ ماما ليست في البيت، وأنه قد رآها في بيت فلان الفلاني قبل وقت قصير،

وأنّ الجارات الأخريات - أي النساء التقيّات بمشروباتهن وإسعافاتهن الأولية وخلطاتهنّ السرّية - كنّ أيضًا هناك في بيت فلان الفلاني، يحاولن التخفيف عن المسكينة والدة الطفل الميت. والحلّاب الحقيقي نفسه كان عائدًا لتوّه من المشرحة ومتجهًا إلى بيت فلان الفلاني. ثم تحدّث أكثر عن المأساة التي وقعت، وبعدها عن المآسي بشكل عام، وما تخلّفه من ضياع، وتِيه، وحرمان، وتبعات كارثية من الفقر ومن هذه المشكلات السياسية التي لا تنتهي. ثم تكلّم عن التهميش والحرمان من فرص الحياة الكريمة، وبدا لي أنه استغرق برهةً في أفكاره. فلمّا عاد، وصل في حديثه إلى الأخوات الصغيرات وأنا وماما، ولا أدري إن كان ثمة رابط بين هذه وتلك.

قال: «أخواتكِ الصغيرات. يا لهن من ألمعيات. كم يكتنفن من فضول بديع وشجاعة وشغف وانهماك في اهتماماتهن. لديهن حسٌّ فطريّ أيضًا بما يستحق وما لا يستحق، وهذا كما تعلمين أمر نادر في هذا المكان. غالبًا ما يُخنق هذا، ينشأ الشغف والمبادرة في هذا المكان، فينمسخ إلى جُبن، إلى أن ينقلب ليصبّ في أنفاق مظلمة. لكنّهن في هذه السن الصغيرة جامحات منطلقات. في بعض الأحيان يصبحن شنيعات في فضولهن، لكنني واثق من أنهنّ يقدّمن كل العون لوالدتك». يقول إنّهن سيتطوّرن على الأرجح بمرور السنوات ويتوسّع تعطّشهن إلى المعرفة والمغامرة الفكرية. وفكّر قليلًا ثم قال: «المسألة وما فيها أنني لا أظنها تفهم، أقصد والدتك العزيزة، وربما لا تلاحظ تفرّدهن، أو يمكن أن نسميه عبقريّتهن. ولا أدري لماذا لم يتفطّن معلموهنّ إلى ذلك أيضًا. أم أنني مخطئ؟ هل تحدثوا إلى والدتك؟». فكّرتُ لحظةً ثم قلت: «لا أدري». بعد ذلك سألني عن تقاريرهن الدراسية، فقلت: «لا أدري». وفي الحقيقة كان «لا أدري.» هو الجواب عن جميع أسئلته التالية عن الأخوات الصغيرات. صدقًا لم أكن أدري، وكيف لي أن أعرف ما يتعلق بالأخوات الصغيرات؟ كنّ يذهبن إلى المدرسة، ويقرأن الكتب، ولديهن

نقاشات وجلسات ومختصرات وحلقات دراسية ومقارنات وتبادل أفكار، وأشياء أخرى يسمونها أنشطة لا صفّية، ولا أعرف كل ما يفعلنه. كان لديّ تصوّر بسيط عن أنّ معلميهنّ يحتفظون بسجلّ عن ذكائهن وموهبتهن وتفوقهن. كانوا يرسلون تقارير ورسائل إلى ماما. لكنني لم أقرأ أيًا من هذه الرسائل قطّ، فكما قلت سابقًا لماذا أحشر نفسي في ما يخصّ دراسة الأخوات الصغيرات؟ عمري ثمانية عشر عامًا، وأنا شقيقتهن ولست والدتهن، ولا والدهن، ولا وصية عليهنّ. لذلك إن تدخّلت في هذا الأمر سيكون أشبه بالحديث عن الغروب ودرجات الحرارة وأطقم الأسنان والأوجاع والآلام و«ماذا طبختم للعشاء؟» وما إلى ذلك من أحاديث يتداولها الكبار. وما الذي يجبرني على ذلك؟ مع ذلك أظنّ أنّ بعض المعلمين جاؤوا للتحدث إلى ماما. وتذكّرت الآن أنهم استدعوها ذات مرة لحضور اجتماعات خاصة في المدرسة لمناقشة كيفية تعزيز شيءٍ ما لدى الأخوات الصغيرات. أذكر أنني سمعتُ كلمة «تَرْبَويّاتية». أو ربما «تَربويّانيّة». شيئًا كهذا. وقد جاؤوا إلى المنزل أيضًا، أقصد هؤلاء المعلمين، مع آخرين من صنف التربويّين، وتناقشوا أكثر، ولا أظنّ أنّ ماما كانت تفهم كل ما يقوله لها أولئك الخبراء، لكنني أعرف أنها كانت تريد أن تريهم تلك الرسالة التي وصلتها من أكاديمية الطفل العبقري وترجمتْها الأخوات الصغيرات لها، لكنها لم تستطع أن تريهم إياها. أما فيما يتعلق بتقارير المدرسة المعتادة، فلست متأكدة من أنّ ماما كانت تقرأها، أو تأبه بها، ولا حتى الأخوات الصغيرات كنّ يأبهن بها. التقارير المدرسية والشهادات لا تعني الكثير هنا. قال الحلّاب الحقيقي: «لا أقصد أن أنتقد والدتك، فهي امرأة رائعة، ما تزال امرأة رائعة، وهي محبوبة، وأعرف أنها عانت بعد وفاة والدك ووفاة أخيك الثاني، ومسألة أختك الثانية... تعرفين موضوع أختك. بعد ذلك أخوك الآخر، الأخ الرابع الذي... عمومًا أنتِ تعرفين ما حلّ به أيضًا. أعتقد أنني سأسألها عن أمر أخواتك، فهناك فرصة

كبيرة هنا ويجب توجيهها على نحو صائب وحاسم قبل أن تحل كارثة أخرى، وضياع آخر، ومأساة أخرى. لا بدّ أن نتفادى سوء توجيه هذه الطاقة والمبادرة. يحتجنَ إلى التوجيه، والتقدير والرعاية، وإلا فقد يتّخذن مسارًا خاطئًا». فقلتُ: «نعم»، لأنني كنتُ أحاول أن أتفاعل في الحديث معه، لكنّ شيئًا خطر في بالي حول ما يقصده بـ «المسار الخاطئ». كان قد تحدّث عن الخلط بين القدرات الكامنة والسذاجة، عن انعدام الخبرة الذي قد يفضي إلى نهايات خاطئة، وخطرة، وفهمتُ من كلامه أنه يقصد النهايات الناجمة عن المشكلات السياسية - إذ ما الذي يمكن أن يقصده غير ذلك؟ - ورغم أنّ الأخوات الصغيرات لم يُبدين اهتمامًا مبالغًا فيه بمشكلاتنا السياسية - أي ليس اهتمامًا أكبر من اهتمامهنّ بمخارج الحروف وعلم المصريّات القديمة أو التفاصيل الدقيقة في الغناء، أو حالة العالم قبل أن يصبح على ما هو عليه، أو تأليه هِرقل، أو الفهارس والملاحق والحواشي والملاحظات العديدة في ظهور الكتب وما إلى ذلك - إلا أنني ذات مرة فتحتُ الباب مع الأخوات الكبيرات فوجدنا الأخوات الصغيرات يقرأن صحفًا من «هناك». كانت صحفًا من القطع العريض، مع صحف من القطع الصغير أيضًا من «هناك». لم نعرف من أين حصلن على تلك الصحف، لكنهنّ في تلك اللحظة كنّ قد بسطنها أمامهنّ على الأرض. قبل هذه المرة لم تنظر الأخوات الصغيرات في الصحف قط، ولم يشاهدن الأخبار السياسية على التلفاز، أو على الأقل لم يكنّ يشاهدنها باهتمام بالغ. كنّ في مرحلة جان دارك، لذلك أوضحن للجميع أنهن لا يُطقن بلد «ما وراء البحر»، لا بسبب إرثها التاريخي المعروف، ولا سطوة التاريخ التي تنامت وأعيد تشكيلها وتطوّرت وأثّرت في أحداث ذلك البلد وهذا البلد، وإنما بسبب دعمهن الفطريّ للفرنسيين. مع ذلك فبسبب خيانة جان دارك انقلبن ضدّ الفرنسيين مؤقتًا، ولم يكن الدوفين[1] محبوبًا لدى

(1) الدوفين: لقب وريث العرش الفرنسي.

الأخوات الصغيرات، بل كان مكروهًا لديهنّ لدرجة أنّه إن أراد أحد في منطقتنا التحدّث عنه بالخير فلن يفعل ذلك على مرمى سمعهن. إذن فهكذا أصبح الفرنسيون مكروهين جدًا، ما يعني غضّ الطرف عن أي عداء تاريخي بين بلد «ما وراء البحر» وهذا البلد. غير أني في ذلك اليوم حين دخلت مع الأخوات الكبيرات وجدنا أنهنّ لم يعدن مهتمات بجان دارك، بل بتلك الصحف. صحنا بهنّ: «**أيتها الأخوات الصغيرات! من أين جئتنّ بهذه؟ ماذا تفعلن؟**». فقلنَ: «اششش. نحن مشغولات. نحاول أن نفهم وجهة نظرهم». ثم عدنَ ليعكفن على تلك الصحف فيما كنّا نحن الأخوات الكبيرات ننظر ذاهلات. ثم نظرنا إلى بعضنا البعض - أنا والأخت الثالثة والأخت الثانية والأخت الأولى -. **تحاولنَ أن تفهمنَ وجهة نظرهم!** تُرى أي هراء آخر سننتظر من الأخوات الصغيرات بعد ذلك؟ فتعليقهنّ ذاك من النوع الذي يلطّخ سمعة المرء فورًا في هذه المنطقة. أولم يسمعنَ من قبل بعبارة «**احذروا الوشاة**»؟ حاولنا بحكمتنا أن نلفت انتباههن إلى أنهن حين يتعاملن مع هذه الأشياء الممنوعة فسوف يعرّضن أنفسهم لتهمة الخيانة. لكنهنّ لم يصغين إلينا، بل بالكاد اهتممن بوجودنا، فقد نسيننا وهنّ منهمكات في تلك الصحف القادمة من «هناك». كان واضحًا لنا نحن الأخوات الكبيرات أنهن لا يأبهنّ بالدافع الذي قد يختاره أي جارٍ يتلصص على غرفتنا حول هذا الأمر. هرعت الأخت الثالثة إلى النافذة وأسدلت الستائر، فانزعجت الأخوات الصغيرات، ونهضت إحداهن لتشعل مصباح السقف. فيما أشعلت واحدة أخرى مصباحَي ماما الزجاجيين القديمين، وأخرجت الثالثة مصابيحهن اليدوية الصغيرة. ولكن من أين حصلن على هذه الصحف؟ وهل لمحهنّ أحد من منطقتنا وهن يتدبّرنها؟ في ذلك اليوم تحديدًا أخذنا نتفكّر نحن الكبيرات فيما إذا كان سنّ السادسة والسابعة والثامنة قد يُعتبر سنًا صغيرًا لا يستحق صاحبه العقاب بالطريقة التي تعاقب فيها

الجماعات شبه العسكريّة من يعتقدون أنهم وشاة؟ أو ما إذا كان المناوئون سيكتفون بتوبيخ الأخوات الصغيرات ثم يأمروهنّ بالإقلاع عن قراءة هذه الصحف والعودة إلى قراءة قصص «الخنزير بامبر» كبقية الأطفال؟ فهل كان هذا ما يقصده الحلّاب الحقيقي حين تحدّث عن السذاجة والشغف الموجّه بطريقة خاطئة؟ هل هذا ما قصده من كلامه عن إفساد حسّ المغامرة؟ لم أجرؤ على السؤال. ولأنه عاد إلى التزام الصمت، فقد أخبرته عن معلميهنّ والنقاش الذي جرى عن إنشاء مراكز تعليم استثنائية، فلمّا قلتُ ذلك شعرتُ بشيء من الارتياح لأنني قد أساعد في طمأنته قليلًا بعد أن ساعدني في أمر القطة. لكنه لم يبد مطمئنًا، فقد عاود الحديث عن قلقه بشأن الأخوات الصغيرات واضطرار ماما إلى تولّي شؤونهن دون مساعدة من أحد، وحينها خطر لي أنه ربما لم يكن يتحدث فقط بل يلمّح لي كي أفهم. هل كان يقصد أنّ توجيه الأخوات الصغيرات وإرشادهن ينبغي أن يكون من مسؤوليتي أنا أيضًا مثلما هو مسؤولية ماما؟ أفهل يجب عليّ أن أساهم وأكون مسؤولة وأقدّم يد العون لماما في تأهيلهنّ وتنشئتهن؟ شعرتُ حينها بارتباك. لأنني إن توجّب عليّ أن أشارك في تربية الأخوات الصغيرات لن أستطيع أن أنتقل للعيش مع شبه الحبيب. ومرةً أخرى فوجئتُ بأنني منذ أن طلب مني العيش معه ورفضت ما زلت حتى الآن أفكر في سيناريوهات العيش مع شبه الحبيب. آمالي التي لم أدرك أنني أتفكّر فيها باتت مهددة الآن، لأنّ عليّ أن أكون أمًّا متدربة بجانب والدتي. عندها انتقل الحلّاب الحقيقي إلى موضوع آخر. كان موضوعي أنا والحلّاب. لم يقل لي مباشرة «هل هناك علاقة بينك وبين ذلك الرجل الذي عمره مئتا سنة؟». لكنه ألمح إلى معرفته بمحاولة انتهاك محتملة بحقي من أحد رجال الجماعات شبه العسكريّة، من شخص ذي سلطة ونفوذ في المنطقة. سألني فيما إذا كنت سأمتلك ما يكفي من قوة كي أدافع عن نفسي وأتكلم لو حدث ذلك. شعرتُ بنفسي أتوتّر وهو

يتحدث، رغم أني حتى ذلك الحين لم أكن أشعر مع الحلّاب الحقيقي إلا بالارتياح أو على الأقل لم أكن أشعر بقلق كبير. كانت الرعدة قد توقفت قبلها. إلا أنها قد عادت كلها الآن بحديثه هذا، كما عادت حيرتي كذلك، وعندها لاحظت أنه كان حائرًا هو الآخر. طفق يعتذر عن تدخّله فيما لا يعنيه، ثم تحدّث عن النساء ذوات القضيّة في منطقتنا، وقال إنهن بالتأكيد على اطلاع واسع فيما يخص تاريخ الجندر وما يتعلق بعلاقات القوة بين الجنسين. «يؤسفني القول إنني لا أفهم مثقال ذرة في مواضيع المرأة الواعدة هذه. ولكن بالأخذ في الاعتبار ما لديهنّ من خبرة، ولأنّ هذه المسألة تدخل ضمن اهتماماتهن، فربما إن كنتِ لا تشعرين بالأمان في الحديث عن هذا الموضوع على الملأ في المنطقة، يمكنك أن تذهبي وتتحدثي إليهن».

***

أذهب وأتحدث إليهن؟ أهو مجنون وأعمى وأصمّ وغافل عما يقال عن أولئك النساء في المنطقة؟ فلو أني تبادلت النظرات معهنّ في الشارع فقط سأكون قد انتحرت اجتماعيًا. لن أفعل. لست متحمسة للكلام معهن، لا الآن ولا في أي وقت آخر. هؤلاء النساء يشكّلن المجموعة النسويّة الناشئة في منطقتنا، ولهذا السبب تحديدًا أصبحن يُصنّفن متجاوزات جدًا جدًا للأعراف. كانت لفظة «نسوية» نفسها متجاوزة للأعراف. بل إنّ لفظة «امرأة» بالكاد نجت من هذا التصنيف. فإن وضعتَ الكلمتين معًا، أو حاولت - وسوف تفشل - أن تلطفهما بمفردة أعمّ، بمفردة مخاتلة مثل «قضية»، فقد انتهى الأمر. ستتلقى نفس المعاملة التي تتلقّاها هؤلاء النسوة. تُقال أشياء مريعة عن هؤلاء النساء ذوات القضيّة في حيّنا، وليس خلف ظهورهن فحسب بل في وجوههن أيضًا.

بدأ الأمر عندما وضعت إحدى ربّات البيوت ملاحظة على نافذة بيتها، وقد كانت ربّة بيت تقليدية طبيعية إلى ذلك اليوم. كان لديها زوج وأطفال، ولم تحدث في عائلتها أحداث قتل وحشية يُعزى إليها سلوكها الخارج عن شخصيتها، غير أنها علّقت تلك الملاحظة المختلفة تمامًا عن الملاحظات والإعلانات المعتادة على نوافذ بعض البيوت في منطقتنا. كانت الملاحظات المعتادة من قبيل «**ابتعدوا عن هذا البيت وإلا مصيركم الإعدام. هذا هو التحذير الوحيد**»، وتحته توقيع «**مناوئو الحيّ**»، وذلك لتحذيرنا نحن الأهالي بمن فينا الأطفال الذين قد يميلون إلى التسلل إلى بيت شخصٍ مسكين - كي يلعبوا هناك، أو يقيموا جلسة شراب، أو يستكشفوا ويتلصصوا، أو ربما حتى يحتلوه - دون التفكير في صاحب المنزل السكّير التعيس الميؤوس منه. لقد أوضحوا لنا، أعني مناوئينا، أننا إن أصرّينا على ظلمنا وسلوكنا غير المحسوب تجاه الضعفاء من أهل الحيّ، فسوف تكون العواقب وخيمة. أما الملاحظة التي كتبتها ربّة البيت فكانت: «**إلى جميع نساء الحي: بشرى سارة!!!**»، وتحتها معلومات عن مجموعة نسائية عالمية انطلقت مؤخرًا، وكانت تسعى إلى إنشاء فروع محلية في جميع بلدان العالم، ولا يُستثنى من نطاقها ذلك أي مكان - لا مدينة ولا قرية ولا جهة ولا حيّ ولا حارة ولا مسكن معزول -، ولا تُستثنى أي امرأة من هذا المشروع - من أي لون أو مذهب أو ميول جنسية أو إعاقة أو مرض عقلي أو أي مشكلة أو اختلاف - والمدهش أنّ فرعًا محليًا لهذه المجموعة العالمية قد نشأ في بلدتنا نحن. وقد نشرت وسائل الإعلام تقارير صادمة عن اللقاء الشهري الأول لهذه المجموعة قبل اللقاء وبعده. كانت تلك التقارير تستنكر الجرأة في عقد هذا اللقاء من الأساس. كان النقد سيئًا، سيئًا للغاية، لا يختلف كثيرًا عما وُصف به شارع المصابيح الحمراء من «رذيلة، وانحطاط، وانحلال أخلاقي، ونشر للسلبية، وانتهاك للذوق العام». على أنّ هذه الهجمة الإعلامية لم تردع بعض

نساء المناطق المختلفة من الذهاب إلى وسط البلدة لمعرفة ما يدور في فرع المجموعة النسوية هذا على الأقل. ولم تقتصر النساء المشاركات على الديانتين المتحاربتين هنا، بل كنّ كذلك من أديان أخرى يعتنقها أقليّة، بل مهمشة تمامًا. انضمّت إحدى النساء من حيّنا، من تلقاء نفسها، فلم تطلب إذنًا أو قبولًا من أحد، ولم تطلب من أحد رأيه ولا أن يرافقها دعمًا أو حماية. ألقت وشاحها عليها، وحملت حقيبتها، ومفتاح بيتها، وخرجت هكذا. وقد تبيّن أنها هي نفسها ربّة البيت التي علّقت تلك الملاحظة فيما بعد. قال الجيران: «ما إن عادت من اللقاء في وسط البلدة حتى علّقت الملاحظة فورًا». في تلك الأثناء كانت هذه المرأة تسعى إلى إنشاء فرع للجمعية في حيّنا بالتعاون مع فرع وسط البلدة الذي كان بدوره مرتبطًا بالحركة النسائية العالمية، مثلما كانت نساء أخريات من أحياء أخرى يفعلن الشيء نفسه في أحيائهن. هذا ما كانت تفعله تحديدًا حين وضعت ملاحظتها على النافذة، فقد وجّهت دعوة جريئة حديثة لكافة نساء الحيّ لإطلاق أطفالهنّ في مغامراتهم المسائية المعتادة كي يتخفّفن من أعبائهن ويقضين مساء الأربعاء في منزلها للاستماع إلى المحاضرة. وقد وَعَدَتْهنّ في الإعلان بأنهن سيندهشن من التفاصيل الدقيقة حول أهمية الأنثى، مثل التفاصيل التي قيلت في لقاء وسط البلد. كما سيلقى بثهن لرؤاهن حول أي شيء يمكن تصنيفه ضمن قضايا المرأة ترحيبًا، وسوف تطرح هذه الرؤى في الاجتماع القادم في وسط البلدة، ثم تُطرح أيضًا في الاجتماع العالمي التالي الذي يُعقد فصليًا. وما أثار الحَيرة هو أنّ هذا الإعلان لم يذكر شيئًا عن مشكلتنا الحدودية أو مشكلاتنا السياسية على الإطلاق. ذُهل رجال الحي ونساؤه. «ما الذي تقصده بهذا؟ ما المقصود من وضعها هذه الملاحظة على نافذتها؟». أخذوا يتناقلون الأحاديث عنها وعن إعلانها، ثم تركوها وعادوا إلى مواضيعهم المعتادة، مثل المشتبه في أن يكون مخبرًا، أو من اقترف خيانة زوجية، أو الدولة التي قد تفوز إحدى

بناتها بلقب ملكة جمال العالم في الدورة القادمة. هكذا إذن أشبعوا إعلانها نميمةً، ثم تجاهلوه تمامًا، وكان الرأي السائد هو أنّ لا شيء قد ينتج من هذا الإعلان سوى أنّ أهل الحي سيشفقون عليها، ولو أصرّت على ما هي عليه فسوف يحارون ما إذا كانت تستحق أن تنضم إلى متجاوزي الأعراف. وفي أسوأ الأحوال سوف يأخذها مناوئو الدولة بوصفها شخصًا بدرت منه تصرفات مريبة، وهذا صحيح إلى حدٍ ما. غير أنّ ما حدث خلال أسبوع من تعليق الإعلان هو مجيء امرأتين من أهل الحيّ إليها، فأصبحن ثلاث نساء في تدشين ربوعيّة قضايا المرأة. وفي الأسبوع التالي انضمّت أربع نساء إليهن، ولكن لم تنضم أية امرأة أخرى بعد ذلك، فأصبحن سبع نساء يلتقين مساء كل أربعاء بحضور منسّقة مثقفة من مجموعة وسط البلدة تأتيهن مرة كل أسبوعين. كانت هذه المنسّقة تلقي خطبًا حماسية، وتتحدث عن التوسّع، وتعرض ملاحظات حول قضايا النساء التاريخية والمعاصرة، وكلّ ذلك حسب قولها من أجل مساعدة النساء وإخراجهن من الظلام كي يلحقن بالركب. كانت هذه المجموعة تذهب مرة في الشهر أيضًا إلى فرع وسط البلدة لحضور اجتماع تلتقي فيه كلّ المجموعات الفرعية المدشّنة في أحياء «هذا الجانب من البحر»، و«هذا الجانب من الحدود». كان من الطبيعي إذن أن تنطلق القصص الزاخرة بالشك والارتياب في منطقتنا آنذاك.

من القصص التي دارت عن مجموعة نساء حيّنا واحدة تتمحور حول مكان اجتماعاتهن، فبعد الاجتماعات الثلاثة الأولى لم يعد زوج ربة البيت موافقًا على أن يواصلن هذه الموضة النسوية في المنزل الذي يعيش فيه مع زوجته، إذ إنه رغم لطفه ومحاولته أن يسترضيهن إلا أنه لم يكن في وسعه إلا أن يحافظ على سمعته. لكنّ هذا لم يردع النساء، فرتّبن السقيفة في فناء المرأة الأولى وجعلنها أنيقة ومريحة لعقد اجتماعاتهن فيها بدلًا من المنزل. ولكن

قبل السقيفة ذهبن إلى الكنيسة ليسألن ما إذا كان مسموحًا لهنّ باستخدام واحدة من خيمات الصفيح الموجودة في أرضهم الخربة. كانت الكنيسة تمتلك تلك الخيمات، وعادة ما تسمح لعدّة جهات - وغالبًا المناوئين - باستخدامها لعدة أغراض، مثل الدفاع عن المنطقة، أو دعم القضية، أو المحاكمات الكنغريّة، لكنها لم تسمح للنساء باستخدام واحدة أو استئجارها، بعد أن تغيّرت النظرة إلى تلك النساء. فلم يعد يُنظر إليهنّ بوصفهن بريئات طفوليات ومحطّ تندّر، ومجرد نساء يلعبن بعقد اجتماعات تناقش قضايا الكبار، ذلك أنهنّ بدأن يبحثن عن مقرّ ملائم لمواصلة تلك الاجتماعات. وسرى اعتقاد جديد حول سبب إصرارهن على ذلك. قال أهل المنطقة: «لو حصلن على خيمة، فقد يفعلن فيها ما يشأن. ربما يدبّرن أعمالًا تخريبية. ربما يمارسن الجنس معًا. ربما يجرين عمليات إجهاض هناك»، وكانت النتيجة بالطبع أنّ الكنيسة رفضت. قالت الكنيسة إنه «بالنظر إلى... وبما يتعارض مع... وعلى أساس... فإنّ الموافقة على طلب النساء تُعدّ تصرفًا فاضحًا ولا أخلاقيًا من الكنيسة، بقدر ما هو فاضح ولا أخلاقي للنساء إن أصررن على ذلك.» وهكذا لم توافق الكنيسة على استخدام الخيمة اتقاء فضيحة ورذيلة لا يجرؤون على النطق بها، غير أنّ هذا لم يعرقل ذوات القضيّة، فبدأن فورًا في تزيين السقيفة وصبغها. نصبن فيها أرفف، وستائر، وأحضرن مصابيح، وموقد كيروسين، وفناجين شاي ملوّنة، وعلبة شاي طبعًا، وعلبة بسكويت، وسجاجيد وثيرة وزهور ووسائد. ثم وضعن على الجدران ملصقات لنساء عالميات ذوات قضيّة أخذنها من فرع الجمعية في وسط البلدة، وكان الفرع قد حصل عليها من المقر العالمي للجمعية. ولكن قبل ذلك طلبت نساؤنا السبع من زوج المرأة الأولى أن يذهب إلى السقيفة ويتولى أمر العناكب والحشرات، فوافق في هدأة الليل أن يفعل ذلك شريطة أن لا يذكرن مشاركته في هذا الأمر.

أما القصة الثانية التي سرت حول هؤلاء المثليّات المنشقّات داعمات الإجهاض فهي أنّ ثامنتهتنّ، المرأة التي لم تكن من حيّنا، أي المرأة المثقفة التي تأتي من فرع وسط البلدة كل أسبوعين - لترفع معنوياتهن وتزوّدهن بالمنشورات النسوية - كانت من ديانة الجانب الآخر، ومن «ذلك» البلد. في الأحوال العادية لا تكون هناك مشكلة في هذا الأمر، فهي أولًا مجرد امرأة، أي أنها أقلّ وزنًا من أن تشكّل خطرًا محتملًا على أنشطة جماعات حيّنا العسكريّة، مقارنة بما سيكون عليه الخطر لو أنّ الزائر كان رجلًا. أما ثانيًا، فهو أنّها تلقّت الدعوة من سبع نساء من حيّنا، فيُعتبر هذا توصيةً مقبولة وكافية. ولكن بما أنه من الصعب اعتبار هؤلاء النساء طبيعيات آنذاك، فلا يمكن أن يبقى أي وزن للدعوة التي يوجهنها. معنى هذا أنه لم يعد مسموحًا بدخول المرأة الثامنة إلى منطقتنا، دون فحص دقيق على الأقل. وقد دارت شائعات تحذّر من احتمالية أن لا تكون هذه المرأة من ذوات القضيّة أصلًا، وأن لا تكون من جماعة تحرير المرأة، وإنما عميلة محرّضة «agente provocatrice» مندسّة تابعة للدولة. وبعد شيءٍ من المبالغة والتصعيد المعتاد في الشائعات، انتهى الأمر إلى كونها جاسوسة بالطبع، وهذا آخر تحديث وصلت إليه. ففي أعين الجماعة، وأعين الجماعات شبه العسكريّة تحديدًا، باتت تلك المرأة عدوة تهدف إلى توريط نسائنا السبع الساذجات الحمقاوات في أعمال وشاية. لذلك اقتحم المناوئون السقيفة في مساء يوم أربعاء لاعتقالها. اقتحموا السقيفة وهم يرتدون أقنعةَ البالاكلافا وأقنعة الهالويين التنكرية، يحملون مسدساتهم، وكان قلة منهم يتحلى بقوة وطول قامة تكفيانهم عن الحاجة إلى الأقنعة، لكنّهم لم يجدوا سوى نسائنا السبع بالأوشحة والشباشب يتناولن الشاي والكعك المحلّي، ويناقشن بحماس تبعات مجزرة النساء والأطفال في معركة بيترلو، تلك التي ارتكبها سلاح الفرسان التطوّعي في القرن التاسع عشر. كما علّقت النساء على جدران السقيفة ودلّين من سقفها صورًا ضخمة للغاية، تفوق

الأحجام البشريّة الطبيعية، أذهلت المناوئين. كانت صورًا لنساء قويّات أصبحن رموزًا وملهمات من الماضي والحاضر: أسرة بانكرْست، ومِلِسنت فوسيت، وإمِلي ديفدسن، وآيدا بِل ولز، وفلورنس نايتينغيل، وإلينور روزفلت، وهارييت توبمان، وماريانا بينيذا، وماري كوري، ولوسي ستون، ودولي بارتون، وأمثالهنّ من النساء، لكنّ المرأة الثامنة لم تكن موجودة، فقد حرصت النساء السبع على متابعة الشائعات في حيّنا وحذّرن أختهن من مغبّة الحضور. استعاد المناوئون تركيزهم بعد الصدمة الذهنية التي خلّفها وجود نساء من عصور سابقة في هذه اللوحة مع نسائنا السبع، فبعثروا محتويات السقيفة الصغيرة في ثانية واحدة بحثًا عن المرأة الثامنة. وبعد ذلك حذّروا ذوات القضيّة من دعوتها ثانية وإلا فسوف تُعدم بوصفها جاسوسة عميلة، فيما سيلحق بهنّ عقاب شديد على مساعدتهنّ للدولة. وبفضل ما تحلت به ذوات القضيّة من ثقة وثبات فقد انبثق شيء في داخلهنّ وقلنَ إنهنّ لن يفعلن ذلك. كنّ يقصدن أنهنّ لن ينصعن للأوامر، وعلى الرغم من أنّ المرأة الثامنة قد لا تعود أبدًا لأنّ المناوئين دمّروا كلّ شيء، إلا أنها لو قررت المجيء فلن يرفضن طلبها، بل سيحمينها أيضًا، وليشنق المناوئون أنفسهم إن أرادوا. قيل كلام كثير من الطرفين، ما بين تهديد المناوئين واستهجان ذوات القضيّة لعلل البطريركية والتنشئة الخاطئة. وفي النهاية قالت النساء السبعة «لن تفعلوا إلا على جثثنا»، على نحو يوحي بأنهنّ «سيحفرن قبورهنّ بأيديهنّ»، وهذا ما صبّ في مصلحة المناوئين. فرغم أنّ النساء التقليديات في حيّنا يتّحدن بفطرتهنّ في مثل هذه الحالات وينهضن لوضع حدٍ لمشكلة متفاقمة سياسية كانت أم متعلقة بشؤون الحيّ، إلا أنّ هؤلاء النساء السبع - رغم جرأتهنّ في تلك اللحظة التي استلهمن فيها الوقوف من أجل الحق - لم تكن لديهنّ كتلة اجتماعية صلبة مؤثرة. لذلك فحين قلن «على جثثنا»، ردّ المناوئون «حسنًا إذن، على جثثكن»، ولولا أنّ النساء التقليديات - بمن فيهن ماما - سمعن

بما حدث وتدخّلن في الأمر لانتهى فرعنا من الحركة النسائية العالمية في حينها بموت كافة عضواته ميتة وحشية. هكذا إذن سمعت النساء العاديات في حيّنا ما حدث فوحّدن صفوفهن وقررن التدخل، تضامنًا مع النساء السبع على الرغم من تحفظاتهن، لا على الاضطرار إلى التعامل مع آلة القتل هذه فحسب، بل كذلك لشيوع قصة ثالثة عن ذوات القضيّة المزعجات، وكانت قصة أثّرت سلبًا في النساء التقليديات.

تخرق النساء حظر التجوال دائمًا. أعني النساء التقليديات بالطبع، فحتى وقتٍ قريب لم يكن ثمة غيرهن، ولم تكن هبّة فرع الجمعية النسائية قد ظهرت بعد. تخرق النساء التقليديات حظر التجوال حين يكون صبرهنّ قد وصل إلى مداه. يُستنفد صبرهنّ كله، ويُبتلى مرة تلو المرة إلى أن تخرج الغضبة في وجه أي مجموعة من الرجال، أيًا كانت الديانة التي يعتنقونها وأيًا كان الجانب الذي يعيشون فيه من البحر، الذين يسنّون قوانين وأنظمة يتذاكون بها، وينتظرون من كل أحد آخر - أي النساء - أن يتماشى مع سخافاتهم التي يرونها عقلانية في رؤاهم الضيّقة. كانوا يتصرّفون وفق ذهنية صندوق الألعاب؛ فتوضع ألعاب القطارات في العلّية، وتوضع دمى الجنود على لعبة أرض المعركة، أما فيما يتعلق بالجماعات العسكريّة والدولة، فالدمية التي يختارون إخراجها من صندوق الألعاب عادة ما تكون حظر التجوال، فتنصّ قوانين اللعبة على أنّ من يخرق الحظر دون عذر بعد الساعة السادسة مساء وأحيانًا بعد الرابعة مساء، دون خوف منهم ودون أن يكون ذا حظوة لديهم، ودون احترام لمقامهم، فسوف يُطلقون عليه النار فورًا. كان يكفي المرء أن يضطر إلى التعامل مع طرزنا من العسكريين بقوانينهم المعقدة المتحذلقة، لكنك لو نظرت في الجهة الأخرى وقوانينها فسوف تجدها مضحكة أيضًا، لذلك لم يكن من المستغرب أن تنفجر النساء التقليديات في مثل هذه الظروف. كان صبرهنّ ينفجر لأنّ الحياة تمضي، وينبغي إطعام الأطفال، وتبديل الحفّاظات،

وإنجاز أعمال المنزل، وشراء الحاجيات الناقصة، فلا بدّ أن تُنحّى المشكلات السياسية قدر الإمكان أو تُوطّن النفس عليها. وحين ينفد الصبر تتّحد النساء، ويخرقن حظر التجوال رغمًا عن الشرطة والجماعات العسكريّة، التي تنتشر وتغير خططها التي تنفذها قبل الخروج بالبنادق ومكبرات الصوت للتأكد من التزام الجميع بالحظر، فيخلعن مريلاتهن ويرتدين معاطفهن وأوشحتهن ومناديلهن، وقد انتشر أمر الخرق هذا بينهن مسبقًا، فيخرجن من بيوتهن بالمئات عمدًا ودون تصريح، وعند الساعة السادسة أو الرابعة يغشين الأرصفة والشوارع وكل بقعة يشملها حظر التجوال، فينتشرن مجموعات في كل مكان. ولم يكنّ بمفردهن. كنّ يحضرن أطفالهن، والرضّع الباكين، والحيوانات الأليفة كالكلاب والأرانب وجرذان الهمستر والسلاحف. كنّ يدفعن عرباتهن ويحملن الرايات والأعلام واللافتات ويصحن: «**انتهى حظر التجوال! فليخرج الجميع! انتهى حظر التجوال**». فيدعين بذلك كل من في المنطقة إلى الخروج حتى ينضم الجميع إلى عصيان الدولة، وكلما فعلت النساء التقليديات هذا وجدت الشرطة والجيش بعد أن يستعيدوا وعيهم أنّ حظر التجوال قد انتهى أمام أعينهم. ولن يبدو صائبًا أن يطلقوا الرصاص على حيّ كامل من النساء والأطفال والعربات وأسماك الدُرُبّ، أو أن يجروا وسطهن بالسيوف المشهرة، بل سيبدو الأمر خطيرًا، ومتحيزًا ضدّ النساء، وغير متّزن، لا في نظر الطرف الناقد من الإعلام المحلي فحسب بل في نظر الإعلام العالمي كله. لذلك، فما إن ينتهي حظر التجوال حتى يعود الجيش والدولة إلى صندوق الألعاب كي يجدوا ما يمكن اللعب به، أما النساء التقليديات بعد أن يلوّحن بالأعلام ويعتصمن ويحتججن ويجرين بعض المقابلات، يعدن إلى بيوتهن عجلات وقد أخلين الشوارع في غضون ثوان، لإعداد شاي المساء.

كانت هذه إذن الآلية المعتادة في خرق حظر التجوال. غير أنّ الأمور

سارت على نحو مغاير في حظر التجوال الأخير الذي خرقنه، فقد قررت نساؤنا السبع الانضمام هذه المرة. وكالمعتاد نفد صبر النساء العاديات بعد أيام من حظر التجوال، فخرجن من منازلهن واحتشدن دون مبالاة بالأوامر التي كانت تقول: «**عدن إلى بيوتكن. هذه ليست لعبة. وهذا هو التحذير الأخير. التزمن بحظر التجوال بعد السادسة مساء، وإن لم تغادرن الشوارع في غضون...**». ولكنْ هذه المرة كانت ذوات القضيّة مع النساء العاديات، رغم أنّ الأخيرات لم يعرن الأمر اهتمامًا في بادئ الأمر. فالمشاركة مفتوحة للجميع في مقاومة الدولة. لكنّ الذي أغضب النساء التقليديات هو أنهنّ بعد أن هزمن حظر التجوال مرة أخرى وهرعن إلى بيوتهنّ لإعداد البطاطس، استولت ذوات القضيّة على الفضل في ذلك، رغم تأكيدهنّ لاحقًا بأنّ الذنب لم يكن ذنبهن. قلنَ إنه كان خطأ وسائل الإعلام، فقدّ ركزت على ذوات القضيّة وما يحملنه من لافتات وسط النساء التقليديات اللائي كنّ يحملن لافتتاهن الخاصة. ورغم أنّ ذوات القضيّة لم يزدن على سبع نساء في مقابل مئات النساء التقليديات، إلا أنّ كاميرات العالم كلها صبّت تركيزها عليهن. ولم تكن النساء التقليديات متعطشات إلى الشهرة والنجومية، ولم يردن الظهور على شاشات التلفاز والصحف العالمية، لكنهن لم يرغبن في أن يُعتبرن جزءًا من احتجاج لا يهدف إلى خرق حظر التجوال، وبالأخصّ حينَ يكون احتجاجًا متعلقًا بالقضايا التي لا تنفكّ أولئك النساء يتحدثن عنها دون كلل. كانت النساء العاديات يتوقعن، ويخشين، أن تنتهز ذوات القضيّة هذه الفرصة كي يبدأن العزف على الوتر الأعمّ عن ظلم النساء واضطهادهن، لا في يومنا الحاضر فحسب بل على مرّ العصور، باستخدام مصطلحات مثل «مصطلحات» نفسها أو عبارات مثل «أظهرت دراسات الحالة أنّ» أو «يشمل ذلك اضطهاد النساء المشرعن والمأسس والمنظّم والعابر للعصور»، وما إلى ذلك من حديث كانت تلك النساء يسهبن فيه هذه الأيام. كما سيتحدثن

عن المظالم أيضًا، تلك المظالم الكبرى، المظالم الشهيرة، المظالم العالمية، بما في ذلك حرق الساحرات، وطي الأقدام[1]، وإحراق الأرامل [الساتي في الهند] وجرائم الشرف وختان الإناث والاغتصاب وزواج القاصرات والرجم ووأد البنات والممارسات الشعبية النسائية ووفيات الولادة والاستعباد المنزلي ومعاملة النساء على أنهنّ عبدات، أو قطيع للتكاثر، أو ممتلكات، واختفاء الفتيات، وبيعهنّ، إلى غير ذلك من الفضائح الاجتماعية والقَبَلية والدينية التي يتحدّثن عنها، كما سيحذّرن من سطوة التاريخ البطريركي التي منعت النساء من التفكير في بعض الأشياء أو الحديث عنها. ولكن لا، لا ينبغي السماح بذلك، ففي وسط خرق حظر تجوال محلي سيكون هذا هو التوقيت الأسوأ لمثل هذه المواضيع. غير أنّ ذوات القضيّة أخذن يتحدثن عن أشياء بسيطة، شخصية، عادية، مثل أن تمشي المرأة في الشارع فيضربها رجل ما، أي رجل، لمجرد أنها تمشي، دون أي سبب آخر، لمجرد أنه في مزاج نكِد ويرغب في ضربها، أو ربما لأن جنديًا من جنود «ما وراء البحر» قد عيّشه بعض الوقت المزري، والآن دورها كي تتلقى بعض الوقت المزري منه بدورها. أو ربما تمشي المرأة فيتحسس مؤخرتها وهي تعبر الشارع. أو قد تتلقى تعليقًا ذكوريًا عن ملامح جسدها وهي تمشي. أو يتحرّش بها شخص وقد مرّغها في الثلج بحجّة أنه يمازحها بشجارٍ بريء. أو حين تقلق صيفًا نتيجة الأحداث الصيفيّة، لأنها إن لم تلبس الضافي من الملابس جراء ارتفاع درجة الحرارة، إن ارتدت فستانًا قصيرًا، فسيجلب لها هذا كافة تحرشات الشارع الصيفيّة. هذا إلى جانب مسألة الحيض التي كانت تُعتبر حطًا من قدر المرأة. والحمل أيضًا، لم يُستثنى من ذلك فأصبح هو أيضًا يحطّ من قدر المرأة. ثم تحدّثن عن العنف الجسدي المعتاد كما لو أنه ليس عنفًا معتادًا، وكيف أنّ تمزيق البلوزة أو المِنْهَدَة

---

(1) عادة طي الأقدام حتى تصبح ما يعرف بأقدام اللوتس في الصين.

في شجار، أو تحسّس الجسد في الشجار ليس عنفًا جسديًا بقدر ما هو عنف جنسي في الواقع، وحتى إن كان ينبغي على المرأة التظاهر بأنّ المِنْهَدَة والنهد مجرد جزء عارض من العنف الجسدي وليس شيئًا آخر يتستّر خلفه، فإنّ هذا لا ينفي كونه عنفًا جنسيًا. قالت النساء التقليديات: «مثل هذه الأشياء تُقال بكل تلك المصطلحات، فلا تثير سوى الضحك، ذلك أنّ الجميع يضحك عليهنّ - الكاميرات والمراسلون بل حتى الذين فرضوا حظر التجوال -، ولا غرابة في ذلك ما دمن يصررن على نشر هذا الغسيل طيلة الوقت». ما أزعج النساء التقليديات حقًا هو أنّ أي مشاهد في العالم سيظنّ أنّ هؤلاء النساء التقليديات العاقلات هنّ أيضًا ذوات قضيّة. هكذا حلّ البرود حين خطفت ذوات القضيّة الفضل في خرق حظر التجوال، وهذا ما كان الوضع عليه حين قالت ذوات القضيّة للمناوئين: «على جثثنا». ورغم انزعاج النساء التقليديات كما ينزعج المرء من شخص يتبرّع بالمساعدة في غسل الصحون فيكسرها بحماقته، إلا أنهنّ لم يستطعن أن يتركن ذوات القضيّة يلقين حتفهنّ على يد المناوئين.

لهذا السبب ذهبن إلى رؤيتهم، أي رؤية المناوئين. قلنَ لهم: «بالتأكيد تمزحون! لا يمكنكم قتلهنّ. هؤلاء مجرّد مغفلات. مثقفات مغفلات. من أهل الأكاديميا. هذا كل ما يعرفنه». ثم أضفنَ بأنّ التخلص من ذوات القضيّة مهما كنّ مزعجات سيُعد ظلمًا، سيكون تصرفًا لا مسؤولًا وقاسيًا في حق ضعفاء الحيّ. وإن فعل المناوئون ذلك ستصبح حادثة من الحوادث الفارقة التي تترتّب عليها تبعات تضرّ بسمعتهم في كتب التاريخ لاحقًا. واقترحنَ أن يترك المناوئون الأمر لهنّ للتصرف مع ذوات القضيّة، وأنهن سيذهبن إلى وسط البلدة للحديث مع المرأة الثامنة. وقد قالت النساء هذا الكلام بكل ما يمكن من دبلوماسية، كما لو أنهنّ يقدّمن للمناوئين معروفًا لا أمرًا، أو طلبًا

عاجلًا للمساعدة. ورغم أنّ المناوئين كانوا يعرفون الفرق بين الأمر وطلب المساعدة، إلا أن نجاحهم كعصابة مسلّحة في مساحة ضيّقة ومناخٍ معادٍ للدولة كان يعتمد اعتمادًا كبيرًا على دعم الأهالي، ولذلك كانوا مستعدين للتفاوض. وبدا أنهم كانوا يفكّرون بصوتٍ عال، فقالوا إنّهم لن يسمحوا باستغلال الحركة أو عضواتها، ولن يتساهلوا مع النساء السبع إن استضفن المرأة الثامنة مرة أخرى، بصرف النظر عن كونهنّ مغفلات أم لا. في نهاية الأمر، وبعد أخذ وردّ - بصرف النظر عن تشدّق ذوات القضيّة أثناء ذلك بأنهنّ مستعدات لبذل حياتهن فداء لأختهنّ الثامنة، وهو ما تجاهله المناوئون، في حين طلبت النساء التقليديات من ذوات القضيّة أن يهدأن ويتوقفن عن هذا الكلام - توصّلت النساء التقليديات والمناوئون إلى اتفاق. بعد ذلك زارت ثلاث من نسائنا التقليديات المرأة الثامنة في وسط البلدة ليشرحن لها حقيقة الموقف. قلن لها: «لا نعرف بأي شيء غسلتِ أدمغة نسائنا، ولا ندري حتّى ما إذا كنتِ ماتا هاري[1]. ولا يهمنا ما سيحدث لكِ. لكنّنا لا نريد نحن النساء الطبيعيات أن نترك مهامنا المعتادة ومشاويرنا اليومية كي نمنع المناوئين من اعتقال نسائنا التافهات. جئنا نقول لكِ شيئًا واحدًا: ابتعدي عن منطقتنا». وافقت المرأة الثامنة، وبذلك انتهت إمكانية أن تأتي صاحبة قضية من الخارج ذات أفكار عالمية شاملة إلى جحرنا الشمولي، وهذه القصص الثلاث - مسألة السقيفة، والارتباط بعميلة للدولة، وإزعاج ذوات القضيّة لنسائنا التقليديات والمناوئين على حدّ سواء - هي التي جعلتني أبتعد عن ذوات القضيّة. كان الأمر ينطوي على كثير من الخطر، بالإضافة إلى أنهنّ كنّ

(1) الاسم الفنّي للراقصة الهولنديّة مارغريتا غيرترودا زيلي، التي عاشت في فرنسا وتجسّست لصالح الحكومة الألمانيّة أثناء الحرب العالميّة الأولى بحكم مخالطتها للقادة العسكريين والسياسيّن هناك خلال عملها في الرقص. بات اسمها رديفًا للجاسوسة المغوية على إثر علاقاتها برجال السياسة.

يتحدّين الوضع القائم، في حين كنتُ أحاول أن أتسلل من وراء أعين هذا الوضع القائم. يُضاف إلى ذلك أنهنّ كنّ يخضعن لمراقبة دقيقة، للكشف عن أي علامات أخرى من علامات السقوط. وحتى لو كنتُ أتفق معهنّ إلى حدٍ ما في بعض الآراء المتعلقة بقضاياهن، فمن غير الممكن أن أربط نفسي بهنّ مطلقًا. لذلك لزمتُ الصمت في الشاحنة مع الحلّاب الحقيقي، ورحتُ أنصت في أدب حتى انتهت كلماته.

وكان يفعل ذلك في سهولة بالغة، تتدفق الكلمات منه، ربما بسبب إعجابه بالقضايا التي تدافع عنها تلك النساء. بعد ذلك واصلنا مشوارنا في صمت، وقد ابتعدنا عن منطقة العشر دقائق والمكان المعتاد. كما أننا وصلنا واجتزنا كل معالمي الأخرى: ثكنة الشرطة، ومنزل الخبز، ومنزل القديسات، والحدائق والسدود، متبوعة بالطريق الفاصل، ثم الشارع ذي المنزل الصغير، منزل الأخت الثالثة والصهر الثالث. بعد ذلك وصلنا إلى بيتي ووقفنا عند الباب. قال: «ادخلي البيت الآن. الظلام دامس، فهي ليلة حالكة الظلام، ولكن لا تقلقي. سأتولّى أمر الذي تحدثنا عنه». وكان يقصد رأس القطة. ثم قال: «قولي لماماتكِ، إن لم أجدها في منزل تلك المرأة المسكينة فسوف آتي للقائها غدًا». أومأتُ له، وكنتُ على وشك أن أسأله مرة أخرى إن كان حقًا وصدقًا سيدفن الرأس ولن يتصنّع فقط، لكنني أدركتُ أنه لا داعي للسؤال. تمتمتُ له: «شكرًا»، وقد كنتُ متعبة، هكذا بغتة أحسست بالتعب، وكأني مخمورة من التعب. كنتُ لفرط إنهاكي أشعر بصعوبة في قول «شكرًا». كنتُ أريد أن أعيدها كي أقولها بطريقة صحيحة، أي أن أشكره على موضوع القطة، وعلى توصيلي، ولأنه صديق ماما، ولأنه يقدّم العون دون أن يفرض نفسه. لكنني لم أفعل. ترجّلت من الشاحنة وهو ينتظر أن أدخل البيت. عندها، والسماء حالكة السواد فوقنا، أخرجتُ مفتاحي - لأول مرة منذ فترةٍ بدت لي دهرًا -

بسهولة، دون أدنى رجفة، وأعملته في القفل.

الفصل الرابع

لم يكن لقائي الثالث بالحلّاب نهاية عهدي به. فقد تبعت ذلك سلسلة من اللقاءات، لقاءات حقيقية، وأخرى من تلك التي تلفّقها الجماعة. في اللقاءات الحقيقية، كما حدث عندما التقينا في منطقة العشر دقائق، لم يتظاهر الحلّاب قطّ أنه يلتقيني محض صدفة. لم تكن هناك مفاجأة مفتعلة، ولا شيء من قبيل «سررتِ برؤيتكِ هنا». كان يقول: «آه، ها قد وجدتكِ»، بالإضافة إلى تعابير أخرى مألوفة تقال كلها بعفوية كما لو أننا كنا نلتقي وفقًا لتخطيط مسبق. كانت هذه اللقاءات تحدث في كل مكان. أذهب إلى المتاجر المحلية، فأجده هناك. أقصد وسط البلدة، فأجده هناك. أخرج من العمل، فأجده هناك. أزور المكتبة، فأجده هناك. وحتى حين أذهب إلى مكانٍ ما ولا ألقاه حين أخرج منه، أشعر كما لو أنه كان هناك. في بعض الأحيان أنتبه إلى وجود واحد من مستطلعي الحيّ، فأقول في نفسي لا بدّ أنّ هذا الطفل مُرسل لمراقبتي. لكنّ الأرجح أنّ الأمر لم يكن كذلك، وإنما كان الصغير يقوم بمهمته المعتادة في تطقّس وجود قوات الدولة والعسكر، أو ربما كان في إجازة ذلك اليوم. الأمر وما فيه أنّ شكوكي المتزايدة تجاه الجميع وتجاه كل شيء تقريبًا أصبحت دليلًا على تسلّل الحلّاب إلى حياتي. لقد اخترق ذاتي، وبات جليًا لي أنّ اللقاءات الثلاثة الأولى لم تكن صدفة كما حاولتُ أن أدّعي لنفسي. لكنه الآن أصبح يستوقفني، أو يقف في طريقي، أو يحاذيني بغتة، وكل هذا يحدث كما لو كان في لقاءات عادية. شعرتُ بالغبن. كانت نفسي تتوق في هفوات الذاكرة إلى الأشياء الطبيعية مع الشبّان، إذ تدور أحلام يقظتي حول

ما سيكون عليه الحال لو نلتقي أنا وشبه الحبيب كما اعتدنا بعد الانتهاء من العمل، مثلما يلتقي الخلّان بعد الانتهاء من العمل. فالحبيب المعتاد ينتهي من عمله ثم يذهب إلى المركز البلدي ينتظر حبيبته المعتادة. وهي كذلك تنتهي من عملها ثم تشق طريقها (بالآلية نفسها والاستحقاق نفسه) إلى المركز البلدي للقاء حبيبها. كان هناك عدد لا بأس به من الأحباب يفعلون ذلك. كنتُ أراهم هناك في طريق عودتي من العمل، فأدركُ أنّ هذا جزء من علاقة الحب الطبيعية المعتادة. يلتقون يوميًا على نحوٍ عفوي مريح، ويفعلون معًا أشياء يومية عفوية مريحة. قد يذهبون إلى كشك سمك وبطاطس لتناول العشاء، فيدردشون ويخبرون بعضهم البعض بمجريات أيّامهم وهم يأكلون. ورغم أنّ هذه «العاديّة» تبدو شيئًا بسيطًا، إلا أنني أدرك أنها الميزة الأهم، وهي البرهان على أنّ العلاقة الحقيقية لا تعرف كلمة «شبه». لكنّ الأمر لم يكن هكذا بيننا. فجدولي وجدول شبه الحبيب لم يكن يسمح بهذه الحميميّة. في حقيقة الأمر كانت حالة «الشبه» هي التي لا تسمح بهذا النوع من الحميميّة. أما الآن، مع تزايد هذه اللقاءات البغيضة، فقد تفطّن الحلّاب مرة ثانية إلى رغباتي السرّية وأحلامي، مثلما قرأ أفكاري المتعلقة بصفّ الإغريق والرومان. لكنه كان الرجل الخطأ. ولم أكن أقبل تصرفاته التي يفرضها عليّ. إلا أنه ظلّ يظهر في حياتي، ولا يمكن ردعه عن ذلك. كنتُ أحيانًا أراه، أو يُخيّل إليّ أني أراه، عندما أكون في نوادي وسط البلدة وحاناتها مع شبه الحبيب. كانت تلك الحانات والأندية مقرات مشبوهة، مقرات خطرة، قليلة في الواقع بسبب المشكلات السياسية. نظريًا كان بإمكان أي أحد أن يذهب إليها، أي أنها كانت أماكن مختلطة، ترحّب بكافة الأديان. كانت هناك أديان صغيرة أخرى غير الديانتين المتحاربتين، لكنها بالمقارنة مع هاتين الديانتين لم يكن لها أي وزن. البيئات الاندماجية هذه تكون هدفًا لفرق الاغتيالات التابعة للدولة إذ تخترقها بجواسيسها المتخفين، وأسلحتها

المخبأة، وجلسات التصوير، أي أنه لا بأس من الذهاب إليها، إلى تلك الحانات، وتلك الأندية، لتناول شراب أو اثنين، لكنه ليس المكان الذي تود أن ينتهي بك الأمر مخمورًا فيه. لهذا السبب كان غالبية الأهالي العاديّين - مثلي أنا وشبه الحبيب - ممن ليس لهم شأن بالسياسة يزورونها في افتتاح جولتهم، ليشربوا كأسًا أو اثنتين، ليتندروا على حماقة السيّاح، ثم يمضون إلى أماكن أكثر أمانًا وقبولًا في المناطق المحميّة الصامدة الأخرى. في حالتنا كنّا نذهب إلى منطقته المحميّة دائمًا وليست منطقتي اتقاءً لخطورة أن تثقلنا ماما بأسئلتها عن علاقتنا وخططها لتزويجي. لكنني مؤخرًا حين كنا نقصد أنا وشبه الحبيب وسط البلدة للحانات والأندية، كنت ألفي نفسي أتطلع حولي، خوف أن يكون الحلّاب هناك معنا. كان يخال لي أنه يراقبنا، يتجسس علينا، أو ربما يلتقط لنا صورًا سريّة، خاصةً أنه قد أوضح موقفه من مواعدتي شبه الحبيب. مع هذا، ما زلت أواعد شبه الحبيب، وهذا لا يعني بأية حال أنني تجاهلت تهديده بالقنبلة.

كنا نتشاجر بسبب ذلك، أقصد شبه الحبيب وأنا، لأنّ الحلّاب كان يواصل ضغطه عليّ بالاستمرار في التأكيد على تهديداته المستترة، في عدّه التنازلي، في التشديد على فكرته: كفّي عن لقاء هذا اليافع وإلا... ومرة أخرى، كان يفعل ذلك بكلامٍ يذكر فيه شبه الحبيب، والسيارات، والأخت الكبرى التي قُتل زوجها - الرجل الذي أحبه قلبها ولم تتزوجه، وليس المدمن على الأقاويل الجنسية الذي تزوّجته لفرط أساها وفقدها ويأسها- بقنبلة المناصرين للدولة. كان يقول مرة أخرى: «بسيارة مفخخة، أليس كذلك؟». هكذا إذن يتحدث عن شبه الحبيب، ثم السيارات، ثم أختي، ثم العشيق الميت، ثم تفجير السيارة. وبعدها يعود إلى شبه الحبيب مجددًا، وهكذا إلى أن يذكّرني كلامه بفلان الفلاني وحديث الترصّد المزعج. وفي النهاية يصل بالحديث إلى ذكر شبه الحبيب مع السيارات المفخخة مع الرجل

الميت الذي كان حبيب أختي، كلها في جملة واحدة، لذلك من المستحيل ألّا أتفطن إلى القصد الذي يلمّح إليه تلميحات واضحة. بلى تفطنت. تشرّبت مقصده، وجعلته الأساس الذي تنطلق منه تصرّفاتي، وبعدها افتعلتُ شجارًا مع شبه الحبيب. حينها، وبالنظر إلى ما كان يدور في عقلي آنذاك، فقد بدا لي أن هذا الشجار ذنب شبه الحبيب كليًا. لم يكن لأني لم أتحدث، بل ها أنا كنت أتحدث. ولكن للأسف، لأنّ علاقتنا كانت فضفاضة، ولأنه كان يسكن في الطرف الآخر من البلدة فلا يمكنه أن يسمع الشائعات التي تقول إنني أصبحت حب الحلّاب الجديد، ولأنني كنت مشوشة واهنة، يداي مكتوفتان أمام خطط الحلّاب، ولأنني كنتُ في الثامنة عشرة ولم أُعلَّم حتى ذلك الوقت الطريقة السليمة لإيصال أفكاري واحتياجاتي ومشاعري، فلم يكن شيء من تفسيراتي متماسكًا، ولم يبد أيٌّ مما حاولت قوله في محلّه. كنتُ ما أزال غير مقتنعة بأنّ الحلّاب سيقتل شبه الحبيب فعلًا، رغم أني كنتُ أعرف أنّ هؤلاء الأشخاص ذوي القضايا الأيديولوجية لا يتصرفون دائمًا وفق ما تقتضيه قضاياهم. ثمة خروقات فردية تحدث، وتفسيرات ذاتية، وقدرة على الانحراف لتحقيق الأهداف الشخصية. مجانين. لا يعني ذلك أنني لم أكن أتصوّر الحلّاب قادرًا على زرع قنبلة في سيارة، فقد كنتُ واثقة من قدرته على زرع قنبلة في سيارة. مع ذلك كان ما يزال عصيًا عليّ التصديق بأنه سيصل إلى هذا المستوى من الرغبة في امتلاكي. ومنذ أن انخرط في مشروعه لتجهيزي، لتشتيتي، لدفعي إلى جرفٍ أقف على شفاه مهزومة، فأثب طواعية إلى سياراته بصفتي امرأته، لم أعد أميّز بين ما هو معقول، أو مبالغ فيه، بين ما يمكن أن يكون واقعًا أو توهمًا أو جنون ارتياب. كما لم يخطر ببالي أنّ تنشئة الشعور المتنامي بالعجز والاستلاب العقلي المتزايد قد يكون جزءًا من دوافع هذا الرجل. لكنّ هذه الأشياء كانت تحدث. وتفخيخ السيارات يحدث. بدليل ما حلّ بالأخت الكبرى. لم تحضر جنازة حبيبها المقتول، فقد أصبحت امرأة

متزوجة ولا يفترض بها أن تواصل حبّها لذلك الرجل. في يوم تشييع الرجل الذي تحبه، جلستْ في منزلنا، في منزل والدتنا، ليس في منزلها، وقد انتقع وجهها، وانتفخت عيناها، فيما وضعت يدها على فمها غير مصدّقة. كانت تحملق في الساعة، تحملق فيها وحسب، ولا تريدنا قربها. لم تبكِ، ولكن كلما اقترب أحد منها - حتى ماما - كانت تقول بأسوأ نبرة: «**اخرجي. اخرجي. اخرجي**». هكذا إذن كنت خائفة على شبه الحبيب، أما هو فظلّ واقفًا هناك، دون أن يأخذ الأمر على محمل الجد. سألته أيجب عليه أن يقود سيارته، فنظر إليّ وقال، «أنا ميكانيكي سيارات، لكن حتى لو لم أكن ميكانيكي سيارات يا شبه الحبيبة، لستُ مضطرًا إلى أن أقود سيارتي لكنني أحب أن أقود سيارتي». فقلتُ: «ماذا عن... الأشياء؟»، فقال: «الأشياء؟ أي أشياء؟»، فقلت: «الأشياء... تلك المثبتة في... المثبتة في...»، «مثبتة في ماذا؟»، «... في الأسفل»، «ماذا تقصدين يا شبه الحبيبة؟». ظلّ ينتظر. فحاولت ثانية: «ماذا عن... القنابل؟».

قال شبه الحبيب وقد فهم، أو ظن أنه قد فهم، إن هذا صحيح في بعض الأحيان، أي يحدث، بالطبع يحدث، لكن يجب أن أفهم أنه لا يحدث دائمًا، وأنّ حالات تفجير السيارات، قياسًا بعدد السكان، لا تكاد تذكر. قال: «لا يتعرّض أغلب الناس هنا للتفجير في السيارات المفخخة. لا يتعرض الكثير منهم للتفجير أساسًا. كما لا يمكن، يا شبه الحبيبة، أن تكفّي عن عيش حياتكِ لأن أحدًا ذات يوم ربما يقتلك». قالها بأريحية تبرهن على أنه لم يفهم التفاصيل كاملة بعد. ولا أدري متى سيفهمها، ذلك أنه إلى جانب مضايقات الحلّاب، ثمة مضايقات من الجماعة أيضًا. فلقد انتشرت فضيحة هذه العلاقة مع الحلّاب كالفطر في كل مكان إلى درجة أنها أصبحت الآن ضارية جامحة، بل وصارت على الفور من الشائعات الأكثر مبيعًا، لهذا، وبسبب كل هذه

الانتهاكات المركّبة، ألفيت نفسي محصورة في مكان مبهم شلّ حركتي. عندها قال شبه الحبيب فمن الذي سيقتله على أية حال؟ فلم يكن يعمل مثلًا في منطقة مناصرة للدولة. بل لم يكن يعمل حتى في منطقة مختلطة. «اسمعيني يا حبيبتي، الأمر وما فيه هو أنكِ تفكرين في هذا بسبب ما حدث لحبيب أختكِ المسكين. كونه قد حدث له لا يعني أنه سيحدث لحبيب كل أحد». ثم أكمل مازحًا «كما أن احتمالية حدوثه تقلّ كثيرًا بالنسبة لأشباه الأحباء». بدا مطمئنًا، كما لو أنّ شيئًا كهذا، كما لو أنّ نتيجةً كهذه شديدة البعد عن عالمه. حاول أن يلمسني حينها، لكنني تراجعت، انسحبت، ابتعدت مسافةً، ابتعدت عنه. قبل الحلّاب، كانت لمسات شبه الحبيب، بتلك الأصابع، وكفيّه، أبلغ الجمال وأشدّه وأفضله بالنسبة إلي. أما الآن، بعد الحلّاب، فقد صار اقتراب أي جزء من شبه الحبيب يجلب لي اشمئزازًا متزايدًا أشعر معه أنني قد أتقيأ. كنت أنفر منه، شبه حبيبي أنا ينفّرني، وبالرغم من أنني أردت ألّا أنفر وأجهد حتى أتخلص من إدراكي لهذا، إلا أنني ألفيت نفسي ألومه على شعوري وألومه لأنني لم أجد لي مخرجًا منه. كنتُ أدفع يده، أدفع أصابعه، أدفعه بعيدًا، أتوتر وتتشنّج معدتي. علمت حينها أنّ هذا بسبب الحلّاب، لكنني لم أستطع أن أتبيّن علاقة الحلّاب به. إذ إنه في كل المرات الخاطفة منذ أن وضع عينه عليّ وبدأ في تدميري، في المرة الأولى وحسب نظر إليّ من مقعده في السيارة، ولم ينظر بعدها قط، ولم يقل شيئًا بذيئًا أو ساخرًا ولا تهجّم عليّ. بل إنه لم يمدّ إصبعًا علي. ولا إصبعًا واحدًا. ولا مرة.

أما بالنسبة إلى الجماعة، وعلاقتي الغرامية بالنسبة إلى هذه الجماعة، فقد كنت منغمسة فيها تمامًا، بصرف النظر عما إذا كان هذا صحيحًا بالفعل أم لا. قالوا إنّ بيننا مواعيد منتظمة، ولقاءات نفعل فيها «نقط نقط نقط» حميميّة في أماكن «نقط نقط نقط» متفرقة. وإننا كنا بالأخص نتردد إلى أحب

مكانين رومنسيين لنا، منطقة الحدائق والسدود ومنطقة العشر دقائق، كما كنا مولعَين بقضاء الوقت معًا، أي نحن الاثنين فقط - على ما يبدو مع كل أولئك الذين يتجسسونِ علينا - في المكان الذي تنمو فيه الأعشاب الطويلة على شواهد القبور العتيقة في القسم القديم من المكان المعتاد. قيل إنني كنت أركب سياراته المبهرجة بكل ثقة وغرور، فقد رآني كثيرون بالطبع. كانوا يقولون: «يقلّها بسياراته كي يذهبا في لقاءاتهما الغرامية السرية، ومواعيد العشق، فيذهبان إلى تلك الأماكن». وقيل أيضًا: «وحينما لا يكونان هناك، فإنهما يشبعان حميميّتهما غير الشرعية في الحانات والنوادي الخطرة في وسط البلدة». كانوا يهمسون بينهم: «هو متزوج أساسًا، كما تعلمون» فيردّ عليهم الآخرون: «إنه يخفيها». قالوا: «حسنًا، هذا طبعه. أما هي، ألم تكن لديها نزعة إلى شبه العلاقات بدلًا من العلاقات المنضبطة المستقيمة؟» - ما يعني أنه لن يمضي وقت طويل حتى يخرجني من منزل العائلة إلى مسكنٍ ما من أجل السانكاسِت[1]، وبالطبع فلا بد أن يكون المسكن في شارع المصابيح الحمراء - كانوا يقولون: «تذكروا كلامنا جيدًا»، وفي الحقيقة كان كل هذا منطقيًا في سياق حيّنا، ذلك الحيّ الاستبدادي المتداخل المعقّد، المغرق في سرّيته، المفرط في القيل والقال، الطهرانيّ رغم بذاءته. ولكن خارج هذا السياق، بعيدًا عن كل هذا التهامس، وتمرير الملاحظات والاهتمام السقيم بالمسائل الجنسية إلى

---

(1) سانكاسِت (cinq à sept): مصطلح فرنسي يشير إلى الوقت الذي يلتقي فيه الشخص بعشيقته (وبالأخص الأزواج الذين يخوضون علاقات خيانة حيث يتّخذون ساعات العمل الإضافية من الخامسة إلى السابعة عذرًا لتبرير الغياب عن المنزل في تلك الأثناء). في فرنسا يستخدم هذا المصطلح للدلالة على الخيانات الجنسية، لكنه لا يحمل الدلالة نفسها في مقاطعة كيبك الناطقة بالفرنسية في كندا، بل يشير إلى الوقت المخصص للقاءات الأصدقاء أو الزملاء أو العائلة، منذ انتهاء العمل إلى وقت وجبة العشاء، وهو الوقت المعتاد لمثل هذه الأنشطة.

درجة أن تصبح الانحرافات الجنسية أكثر ما يناسب القيل والقال كلما أراد المرء أن يرتاح من النمائم السياسية، فقد كان من الصعب أن يخمّن المرء من أين لهؤلاء أن يصلوا إلى كل تلك التفاصيل الدقيقة عني وعن الحلّاب. كانت خيالاتهم الإبداعية تصل إليّ جراء بثّهم الفضائحي. وفي أحيان أخرى كانوا يختارون التواصل المباشر، فيطاردونني كي يوسعوني أسئلةً وجهًا لوجه.

توجّسي من الأسئلة سابقٌ لشائعة علاقتي بالحلّاب. فحين يسألني أحدهم سؤالًا تبدأ هواجسي، من هذا الشخص؟ وما قصده من السؤال؟ لماذا يلفّون ويدورون، معتقدين أنهم يخدعونني بهذا اللف والدوران؟ لماذا يتواطؤون بأساليبهم التي يفترضون خفاءها مع التلميحات والتعليقات المقصودة في حين أنني أدرك أنهم يحاولون تحليل أفكاري، وآرائي ونزعاتي، ليستحثوا ردًا منشودًا دون أي نزاهة ليمسكوا بي عبر كلماتي؟ كنت قد انتبهت - تحديدًا عند نهاية المرحلة الابتدائية - إلى إمكانيّة أن أستشفّ نيّة الشخص حين يهدف إلى شيء ما حتى وهو يظنّ أنه يخفي ذلك الشيء. فالجوانب اللفظية أو النفسية ليست الشيء الوحيد الذي يفضحهم، بل تنكشف حقيقتهم كذلك بالجوّ الفاسد المضطرب الذي يحيطون أنفسهم به. تصحبهم هذه الهالة فيما هم يشقّون طريقهم إليّ، فيقشعرّ بدني لمرآهم ويقِفُّ شعر قفاي. كان هذا التعارض في سلوك الجيران - بين تلك المؤشرات الطاغية غير المرئية، والمعاملة التي يفترض أنها بريئة لا تضمر شيئًا سيئًا - هو أكثر ما يكشف لي أنهم لم يكونوا صادقين، لسببٍ أو لآخر. بطبيعة الحال قد لا أعرف السبب الذي يجعل شخصًا ما يُظهر غير ما يبطن. ربما لم يحاول بعضهم السخرية مني، أو استدعاء عاطفة طائشة بداخلي، أو استدراجي بالكلام. ربما كان الأمر يتعلق بشيء شخصي شعروا بالضعف حياله والرغبة في الصمت عنه، لكنهم في الوقت نفسه شعروا بالحاجة إلى توضيح بشأنه من شخص آخر.

وبالنسبة إلى الأقاويل ومروّجي الشائعات - بالأخص أقاويلنا ومروّجي الشائعات الكبار عندنا - كان الأمر دائمًا ما يصل إلى التدقيق والاحتيال والبحث عن معلومة تقوّي موقفهم، والتفاني في قدر ما يستثمر الرأي العام هنا في تخمين ما لا يُعرف، لا في الخارج فحسب، بل في دوائر القربى كذلك.

هكذا إذن يمضون في هجماتهم ويستهدفونني بأسئلتهم، لكنها لم تكن أسئلة مباشرة، مثل «لأي شيء هذا؟» أو «ماذا عن هذا؟». كانوا يقولون: «قال فلان» أو «قيل» أو «لقد سمعنا من صديقة ابنة أخ قريب خالنا التي لم تعد تعيش في المنطقة أن..». بعضهم قد يذكر الكلمة الفعلية «شائعة»، فيقولون «تقول الشائعة...»، ثم يواصلون تجسيد الشائعة، كما لو لم يكونوا هم من أطلق كائن الشائعة هذا أو روّجه. باستفساراتهم التي يحاولون أن يصبغوها بالبراءة، وادعاءاتهم التي تظل معلّقة، يفتحون أفواههم على أمل تحريضي كي أفتح فمي أنا أيضًا - بدافع الصدمة، أو الخوف، أو الدفاع عن النفس - لأعطيهم ردًا دسمًا يمكنهم أن يضخّموه كما يشاؤون. فقبل أن يتفوّهوا بـ «فلان قال» أتفطن إلى توريتهم دون أن أشي بأنني تفطّنت إليها. كان السبيل الوحيد الذي أعرفه لمواجهتهم هو التظاهر والادّعاء. كنتُ أفعله بطريقة معينة كي يكون رد فعلي انسيابيًّا وغير مريب قدر الإمكان. أتظاهر بأنني أجهل نيّتهم وأقول «لا أدري» ردًا على كل استفهام متقصٍ يشهرونه. هكذا أستخدم «لا أدري» بصفتها اللاعب الرئيس في فريق دفاعي الشفهي، وقد كنت مستعدة لمواصلة قولها لأن الأمر الآخر الذي تعلمته عند نهاية المرحلة الابتدائية هو أنه من الأفضل ألّا أفتح فمي بقول الحقيقة إلا لقلة موثوقة من الناس، هذه القلة الموثوقة قلّت بمرور الزمن في المرحلة الابتدائية ثم أصبحت أقلية في المدرسة الثانوية - من سن الحادية عشرة إلى السادسة عشرة - ثم تقلّص المتبقون من القلة الموثوقة إلى أن وصلت بعمر الثامنة

عشرة - عمري في زمن قصتي مع الحلّاب والأقاويل التي كانت تدور عني وعن الحلّاب - إلى نقطة لم يعد معها من موثوق متبقٍ عدا شخص واحد في العالم أجمع. خُيل إليّ أنني لو واصلت تقنيني، لو واصلت الاكتواء هذا بغية منع النزف، وكل التوجّس واعتزالي المنظّم عن المجتمع، فعلى الأرجح في سنّ العشرين سأصل إلى مرحلة لا أفتح فيها فمي لأحد، في أي مكان، مطلقًا.

هكذا إذن كانت «لا أدري» دفاعي ثنائي الكلمات في مواجهة الأسئلة. بهذا الدفاع استطعت أن أصدّ محاولات استدراجي، أو استخراج الكلام مني، أو دفعي إلى الكشف عما في داخلي. بدلًا من هذا تنزّرت من التفكير، وأمسكت عنه وحبسته قدر الإمكان، وتخلّيت عن فائض التواصل، ما يغني أنهم لم يحصلوا على أي محتوى ظاهر أو رمزي، ولا أي إشباع، ولا حرارة، ولا شغف، ولا انعطافة في الحبكة، ولا مسحة حزن، أو مسحة غضب أو فزع، لم يتبيّنوا منّي أي شيء. لم يكن أمامهم شيء سواي، وقد تجرّدتُ من كل أهمية. أنا وحسب، فارغة. أنا بمفردي، خالية من كل ما يرتجونه. أي أنهم في نهاية نبشهم وإيحاءاتهم الواضحة المستفزة، لم يزالوا صفري اليدين منّي، وشعرت بأنّ لي كل الحق في أن لا أمنحهم شيئًا، فقد تجلّى لي آنذاك أنّ ثمة أشخاص في هذه الحياة لا يستحقون الحقيقة. لم يكونوا أهلًا للحقيقة. لم يكونوا محترمين بما يكفي للحصول عليها. لذا لا بأس في أن تكذب أو تخفي عنهم. هذا ما وصلتُ إليه. بعدها توالت التعقيدات. كنت أدرك أنني حين أقول «لا أدري» لا أجرؤ على إظهار أنني لست غبية كما يبدو أنهم يفترضون من حديثهم، وإشارات أعينهم، ومحاولتهم كي يشوّهوا سمعتي. أدركتُ أيضًا أنّ عليّ قول تلك الكلمتين بطريقة غير تصادمية قدر الإمكان، في الوقت الذي أخفي فيه حفاظي على مسافة بيننا، ضرورية لكنها غير

مكشوفة. فإن هاجمتُهم - في ذلك الوقت وذلك المكان - سيكون ذلك بمثابة أن أقف عزلاء أمام جموعٍ تنقضّ عليّ، أو أعرّض نفسي لحقدٍ شديد، ولم أشعر أنني قوية بما يكفي كي أتعامل مع هذا ومع عواقبه. اتّبعت إذن طريقة صعبة وهشّة بإخفاء معرفتي بمغزاهم أو قول «**لا أدري**» التي تعني حقًا «**هيّا! على بيتك! ابتعد! اغرب!**»، ما يعني أنني كنتُ في حاجة إلى خطة دفاع احتياطية. كانت هذه واحدة من دفاعاتي غير اللفظية، فحاولتُ أن أستدعيها لتكون مستعدة. لكنها لم تكتف بذلك. ففي بادئ الأمر أثبتتْ لي قدرتها الهائلة على مساعدتي. ثم، وعلى عكس التوقعات، ودون أدنى تحذير، بدأتْ تتولى زمام الأمور. فأزالت «لا أدري» من مركز الدفاع الأول ووضعتْ بدلًا منها استراتيجيات متغيّرة أدركتُ متأخرةً أنها استراتيجيات عارضة ضدّ جيراني الثرثارين وضدّي أنا بالأساس. كنت أهاجم نفسي، أهاجم وجهي، أي التعبير الظاهر على وجهي - والذي كنت أريده أن يكون مؤقتًا، مرحليًّا، وقد كنتُ حقًا وصدقًا أعتقد أنه لن يكون إلا مرحليًا - كنتُ أفترض أنّ الطريقة التي يبدو عليها وجهي، وكيف كنتُ أجعله يبدو، وكيف كنتُ أقدّم وجهي للآخرين، كلّ ذلك كان أمره بيدي، تحت سيطرتي، «الأنا» التي في مركز القيادة. اعتقدتُ أنّ هذه الأنا الحقيقية موجودة هناك، مسيطرة، متخفية عنهم لكنها تدير الأمر من خلف الكواليس. اعتقدتُ أيضًا أنني اخترت تابعًا يساعدني وليس ثائرًا يقلب الطاولات ويطيح بي. لكنّ هذا ما حدث، وقد حدث أولًا في مسألة الوجه.

لقد عَلِق وجهي. كنتُ أظنّ أنّ أدائي الدقيق في قول «لا أدري» بوجهٍ ميّت - لا شيء فيه، لا شيء خلفه، لا شيء بادٍ عليه بوضوح - سيحيّر أصحاب الأقاويل، سيذهلهم، سيخيّب توقعاتهم، فينزعجون ويتعبون إلى أن يكفّوا عن ملاحقتي، فيستسلم الجميع ويعودون إلى بيوتهم. كنت أرجو أن يقودهم خوائي إلى التشكيك في اختلاقاتهم وإداناتهم، أن يقودهم إلى الشك في أنّ

مناوئًا - لا سيما رجل الرجال، محارب المحاربين، بطل الجماعة الأشهر - قد يرغب في واحدة بليدة وتافهة مثلي. لم أكن أفكر في أنهم سيعتبرونني غبيّة، أو أن يكتفوا باعتباري غبية، بل سيخلصون إلى أنني بالتأكيد لا أفهم اللغة كما تُتداول في المجتمع. سيخلصون إلى أنني لم أكن أستوعب ما يُطلب مني، ولا بدّ أنني أفقد ملكة التواصل العاطفي والنفسي. وددت أن أصدمهم ككتاب دراسي، كجداول لوغارِتمية: دقيقة، لكنها ليست صحيحة. هذا ما كنتُ أرجو أن يعتقدوه، أن تنجح توريتي واستخدامي وجهي فأتحرّر، وأغدو آمنة، منهم على الأقل إن لم يكن من الحلّاب. غير أنّ الحلّاب والأقاويل التي تدور عني وعن الحلّاب تحوّلت إلى مسألة تعلّم بالممارسة. لم أحبِك هذا. لم يكن ثمة وقت لأحيك أي شيء أصلًا، فذهني لم يكن يحسن التخطيط، ووضع المخططات، ووصل النقاط ببعضها البعض. لذلك اعتمدت على الفطرة، على التنحّي الارتجالي، على الحساسية العالية لما ينبغي أن يكون لي ردّ فعل بشأنه، بدلًا من الالتزام بتخطيطٍ عسكري مسبق ودقيق. لكنني أدركت لاحقًا أنّ الوشاة يفعلون هذا أيضًا بالتأكيد. ففي أول الأمر يسلّمون أنفسهم لما يريده منهم سائسوهم في الشرطة، ثم يسلّمون أنفسهم لما يريده منهم المناوئون حين يصرّون على قولهم «أنا لست مخبرًا لذا لا تظنوا أنني مخبر لأنني لست مخبرًا». أنا أيضًا بدأتُ أفقد قدرتي العقلية، قدرتي على رؤية الروابط الواضحة والحفاظ على أدنى قدر من الحس البدائي في معرفة سبل النجاة في هذا المكان. لكنني الآن أدركُ أنّ ما فعلتُه أو ما كان بإمكاني أن أفعله، تلك الأقاويل لم تكن لتتوقف، لم تكن لتنضب وتغرب قبل أن يغرب الرجل نفسه، بعد أن يكون قد نال مني وانتهى. لكنني في ذلك الوقت قلت كلمتاي وبدوت لهم منزوعة الصفات ونجحت في تحييرهم. ونتيجة لذلك أصبحوا وضيعين في سلوكهم، حانقين غير صبورين، يكشفون أكثر من ذي قبل عن طبيعتهم الحقيقية في دفعهم إياي كي أصبح مفهومة أكثر. لم يخطر

لهم قط أنّ دهائي وقدرتي على الخداع قد تفوق ما لديهم. أولئك الذين يتبنّون آراء مسبّقة يعرّضون أنفسهم للخطأ الشديد. ورغم أني لم أكشف ما بي من ضغط عاطفي وفكري، إلا أنّ هذا لا يعني أنني كنت موهومة بعكس ذلك. كنتُ أدرك بالطبع أنني حسّاسة. كنتُ أدرك بالطبع أنني غاضبة. كنتُ أدرك بالطبع أنني خائفة، وأنّ جسدي كان بكل تأكيد يطفح برد فعل طبيعي لا إرادي. في البدء كنت أشعر برد الفعل هذا وهو ما يؤكد أنني ما زلت حيّة، وأنني هناك داخل جسدي أشعر بهذا الاضطراب تحت السطح. ولكن قبل أن أفهم ما كان يحدث، أصبحتْ نظرتي المسطحة للحياة أقلّ تظاهرًا وأكثر واقعية بمرور الوقت. في البدء حلّ بي خَدَر عاطفي. ثم حان دور رأسي، الذي كان يطمئنني بالقول: «ممتاز. أحسنتِ صنعًا. نجحت في خداعهم بحيث لا يعرفون من أنا ولا ما أفكر فيه ولا ما أشعر به»، لكنه الآن بدأ يشك في وجودي هناك أساسًا. قال لي: «لحظة. أين ردة فعلنا؟ كان لدينا ردة فعل في السابق، صحيح أننا نعبّر عنها بسريّة، لكنها لم تعد موجودة. أين هي؟». وهكذا تلاشى تعبيري عن مشاعري. ثم تلاشت مشاعري عن الوجود. والآن تطوّر هذا الخدر الذي لا أعرف من أين أتى، فاصطففت مع الآخرين في المنطقة الذين يرونني غير مفهومة، وألفيت نفسي غير مفهومة. لقد بدا لي أنّ عالمي الداخلي قد غاب.

وعلى المستوى الجسدي أيضًا تعبت جرّاء كل ذاك الشك والجذب والدفع، جراء نيران القنّاصة، ونيران قناصّة الطرف الآخر، جراء الاجتناب والالتفاف، وتدحرجي أنا والجماعة في طريقنا إلى نقطة نهائية. ومثلما كنت أفعل مع الحلّاب، أتفحّص البيت في نهاية اليوم تحت السرير، وخلف الباب، وبداخل خزانة الملابس وما إلى ذلك لأرى ما إذا كان مختبئًا هناك في مكان ما، أو تحت شيء ما، أو خلف شيء ما، وأنظر في الستائر أيضًا، كي أتأكد أنها

مغلقة بإحكام، وأنه لا يختبئ خلفها هنا أو هناك، فقد وصلتْ الأمور إلى حدٍ بدأتُ معه أتفحص لأرى ما إذا كانت الجماعة تخفي نفسها أيضًا في تلك الأماكن المنزوية. مقدار الطاقة غير العاديّ الذي كنتُ أوليه لهؤلاء الناس - في محاولتي لتلافيهم - كانت تعني بالطبع أنني أجذبهم نحوي، لكنني لم أكن أدرك آلية الطاقة المثبّتة حينها. كان لذلك التعتيم والألاعيب المشتركة أثرٌ سيئ، فحتى وإن كان الغرض الأساسي من مواراتي هو أن أبتعد عنهم بعدم المشاركة معهم، إلا أنني كنتُ أسهم في وضع قضية مشتركة معهم. وقد أدركت بعد فوات الأوان أنني كنتُ طيلة الوقت طرفًا فاعلًا، عنصرًا مشاركًا، بل كنتُ مكوّنًا رئيسًا في تقويض نفسي.

أما بالنسبة إلى الأقاويل، وردّها على ردّي، فقد أدركتُ أني أوقعتهم في الحيرة التي أردت أن أوقعهم فيها، رغم أنني لم أرغب في تحيير نفسي معهم لكن هذا ما حدث. اتضح أنهم لم يأبهوا بالحيرة، بل وتذمروا من كون سلوكي غير لائق، وعصيًا على التعاطي الطبيعي، بل وضدّ المصلحة العامة، تذمّروا من كوني شبه فارغة على نحوٍ مفرط، شبه خالية من الحياة، شبه قاحلة، شبه غير منطقية، وهو ما لم يكن ولا يمكن أن يكون طبيعيًا لشخص يعيش على هذه الأرض. أما استخدامهم لكلمة «شبه» - مثل شبه فارغة على نحوٍ مفرط وشبه خالية من الحياة - فقد كان ضمن مقاصدي. فرغم قولي إنّ من المهم عندي تقديم نفسي على أنني فارغة وخالية، إلا أنّ ما كنت أعنيه فهو شبه فارغة وشبه خالية. ذلك أنّ الدقة والقطعيّة قد تفي وتكفي على الورق، لكنها ليست هكذا في الحياة والواقعية ولا تنطلي على أحد لثانية. فهذا التخطيط الدقيق يوحي بنيّة مبيّتة، والنيّة المبيّتة في مثل هذه الجماعة لم تكن أمرًا محمودًا، خاصة إن كنتَ تحاول أن تخدعها. فإن لم تكن تتعامل مع شخصٍ شديد الغباء، ولم يكن هذا هو الحال معي، فمن الأفضل أن تبعثر

الأمور، أن تختلق أشياء إضافية، أن تخلّف لطخات شاي، أو تترك أثر قدم صغيرة موحلة ولكن ليس في وسط القضية بل إلى جانب شيء عارضٍ فيها آملًا أن يشتت فعلك هذا الاهتمام قليلًا بالقضية الرئيسيّة. وقد نجح هذا بالفعل. لكنهم قالوا إنني شحيحة في تعبير وجهي، مشددين على «تعبير» بصيغة المفرد، كما لو أنني على ما يبدو أمتلك تعبيرًا واحدًا فقط. بل قالوا إنني **أوشك على** أن أكون بلا تعبير. **أوشك على** الجفاف، **أوشك على** العزلة، **أوشك على** التحرر من القيم، ومجددًا شعرتُ بأن ثمة أملًا جراء عدم قولهم إنني مبهمة. فالإبهام هنا لا يجلب الخير، شأنه شأن تبييت النيّة الواضح، والتفكير على مستوى سطحي ظاهر. قالوا في البدء إنهم غير واثقين مما إذا كنت أتصرف بسلوكياتٍ ماري إنطوانيتيّة فظة بجمودي، باعتقادي أنني أعلى منهم. ثم تراجعوا عن ذلك، وقالوا إنّ هذا على الأرجح شيء نابع من غرابة تتسق مع شخصيتي، متفرّعة ربما عن قراءتي للكتب القديمة وأنا أمشي. وكان رأيهم في المجمل هو أنّ عجزهم عن تصنيفي بشيءٍ أو آخر دليل على نضوب مواردهم، ومع هذا لم يتوقفوا عن مضايقتي ليستشفوا مني المزيد. قالوا إنني غريبة بعض الشيء، مخيفة قليلًا، مضيفين أنهم لم يلحظوا هذا من قبل لكنني أشبه منطقة العشر دقائق في سمة الانفتاح والتحفظ في الوقت ذاته. إذ لا يبدو أن ثمة شيء هناك فيما يبدو أن ثمة شيء هناك، بينما في الوقت نفسه، يبدو أن ثمة شيء هناك فيما لم يكن ثمة شيء هناك. قالوا إنني حالة عارضة، ناشزة، غير اجتماعية، لكنهم خففوا هذا بقولهم، «ربّما يكون هذا جانبًا واحدًا منها». ولكن بما أنهم لم يكونوا يعتقدون بوجود أي جانبٍ آخر، فقد عادوا إلى المربع الأول، إلى الاعتقاد بوجود جانب واحدٍ فيّ.

وفيما يتعلق بهذا الإنهاك المتبادل بيني وبين الجماعة - حيث تزعجني استنتاجاتهم، ويزعجهم وجهي، وبلادتي تُتلف أعصابنا جميعًا، لم أعد لحسن

الحظ مضطرة إلى قول «**لا أدري**» أو إبداء وجهي الذي يوشك على أن يكون شبه خالٍ لهم، أو أن أكشف لهم حالتي المتحفظة كثيرًا. وهذا لأنّ معظم الأقاويل حولي وحول الحلّاب كانت تدور خلف ظهري. ولكن أكانت الحال بهذا السوء؟ هل حقًا وصدقًا لم يكن لديّ أحد، أحقًا لم يكن ثمة شخص واحد يمكنني أن أقصده في تلك الأيام، وأفضي له، شخص يمكن أن يستمع إلي، ويمنحني الراحة، شخص يدعمني ويعتني بي؟ هل كنت حقًا عنيدة وناشزة ومثل منطقة العشر دقائق كما قال الذين يستهجنونني؟ حين أعود بالذاكرة الآن، وباستثناء صداقتي مع الصديقة الوحيدة المتبقية من القلة الموثوقة من أيام الدراسة، أعتقد أنّ هذا صحيح. إنما هيمن ارتيابي آنذاك إلى الحد الذي أعماني عن إمكانية وجود أفراد قد يساعدونني، قد يدعمونني ويريحونني - أشخاص كان يمكن أن أصادقهم، أو شبكة دعم يمكن أن أكون جزءًا منها - غير أني فقدت تلك الفرصة لعدم إيماني بهم أو إيماني بأهليّتي لفعل ذلك. ولكن في ذلك الوقت، وبالنظر إلى أنني كنت أسعى إلى ضبط أعصابي والحفاظ عليها في مكانٍ يسعى فيه الجميع بطريقتهم إلى ضبط أعصابهم والحفاظ عليها، فقد كان من المستحيل أن ألاحظ أو أستوعب أي مفهوم للمساعدة أو السلوان. مع ذلك كان هناك أشخاص حاولوا الاقتراب مني، وبعضهم ربما كانوا جديرين بالثقة، ربما كانت لديهم مساع حسنة. لكنني واصلت تحفّظي، حتى لو لم يكن ذلك نابعًا من عنادي وخوفي المعتاد. كنتُ ما أزال أفتقر إلى اليقين بوجود شيء يُقال من الأساس.

هكذا إذن جرت الأمور. كان ما يحدث عصيًّا على التعريف، أعني ذلك التعقّب، ذلك الافتراس، الذي يسير بالتدريج. شيء يحدث هنا، شيء يحدث هناك، ربما، وربما لا، يُحتمل، لا أدري. فآليته قائمة على التلميحات المستمرة، والرمزية، والتمثيلات، والمجازات. من الوارد أنه كان يعني ما أعتقد أنه

يعنيه، ولكن ربما لم يكن يعني أي شيء. فإن أخذنا كل شيء على حدة، أو وصفنا كل حدث منفصلًا عن غيره لا سيما في منتصف هذا الحدث، فقد لا يبدو أنه يعني أي شيء على الإطلاق. فلو قلت: «لقد عرض عليّ توصيلي فيما كنت أمشي على الطريق الفاصل وأنا أقرأ «آيفانهو» ذات مرة»، سيُقال: «ولم كنتِ تمشين في ذاك الطريق الخطر ولم كنتِ تقرئين آيفانهو؟». لو أنني قلت: «كنت أجري في منطقة الحدائق والسدود ورأيته هناك يجري أيضًا في منطقة الحدائق والسدود»، سيكون الرد حينها: «ولماذا كنتِ تجرين في مكان مشبوه وخطر وما الذي يجعلك تجرين من الأساس؟». لو أنني قلت: «لقد ركن فانه الأبيض الصغير في المدخل مقابل الكلّية فيما كنت أقف أنا وزملائي في درس الفرنسية ننظر إلى السماء نتأمل الغروب»، سيقولون: «كيف تتركين منطقتنا الآمنة وتذهبين إلى وسط البلدة، إلى منطقة مختلطة كي تدرسي لغة أجنبية وتنظري إلى الحياة كتجسيدٍ مصوّر؟». لو أنني قلت: «لقد واساني في فقد أختي لحبيبها المقتول وفي الوقت نفسه كان يشير إلى علاقة مستمرة بين شبه الحبيب وحادثة سيارة مفخخة»، فسيقولون، «لم لستِ متزوجة حتى الآن ولم تخرجين مع أشباه أحبّاء من الأساس؟». بصرف النظر عن الأقاويل - وحتى لو لم تكن هناك أية أقاويل - فقد كنتُ أرى منذ البداية أنهم لن يسمعوني ولن يصدّقوني أبدًا. لو أنني ذهبت إلى السلطات وسجّلت عندها بلاغًا رسميًا أقول فيه إنه يترصّدني، ويهددني، ويجري ترتيبات بشأني، لو سعيت وراء تدخّل هذه السلطات لمعالجة الوضع، فسوف يرد مناوئونا بالقول ... حسنًا لا أدري بم سيردون لأنه مناوئ أيضًا، فما الذي قد يدفعني إلى الذهاب إليهم من الأساس؟ ومن الناحية العملية، كيف سأذهب إليهم؟ فعلى الرغم من أنني أعيش في هذه المنطقة التي تديرها الجماعات شبه العسكريّة وتراقبها، إلا أنني لم أكن أعرف الطريقة للوصول إليهم. سأضطر إلى الاستفسار عن آلية ملائمة من الجماعة، والتي كانت تترصدني بدورها،

والتي سأشتكيها أيضًا لو ذهبت. أما عن الشرطة الفعلية، شرطة الدُويلة، فالذهاب إليها لم يكن أمرًا مطروحًا، فأولًا هم العدوّ، وثانيًا إن وضعتَ قائمة بالأسباب الداعية إلى قتلك بوصفك مخبرًا في منطقة صراع يديرها المناوئون، فإن الذهاب إلى قوات شرطة تعدّ موالية للدولة كي تشتكي على مناوئ في منطقتك سيكون على رأس القائمة دون أدنى شك. وبطبيعة الحال كانت جماعتنا بالنسبة إلى الشرطة عبارة عن جماعة مارقة. فنحن العدو بالنسبة إليهم، نحن الإرهابيون، الإرهابيون المدنيون، نحن المحسوبون على الإرهابيّين، أو على الأقل كنا أشخاصًا يُشتبه في كونهم إرهابيين ولكن لم يثبت ذلك بعد. فلمّا كانت هذه هي الحال، وكان الطرفان يدركان أنّ هذه هي الحال وأن الحالة الوحيدة التي تستدعي فيها الشرطة، في منطقتي، إذا كنت ستُرديهم قتلى بالرصاص، وبطبيعة الحال يدركون هذا فلا يأتون على إثر استدعائك أبدًا.

في نهاية المطاف سيكون الأمر برمّته خطئي، بسبب فقداني الإيمان بقناعتي وبما تخبرني به مشاعري. وتساؤلي هل كان يفعل شيئًا حقًا؟ هل كان هناك شيء يحدث؟ إن كنتُ أنا لا أجزم، فكيف يمكنني أن أشرح للآخرين وأقنعهم؟ لذلك شعرتُ بأنّ الآخرين سيدركون هذا الشك - في نفسي، وفي الوضع نفسه - ويركّزون عليه، ثم يشكّكون في مصداقيتي. وحتى لو افترضنا أنهم استمعوا إليّ، فالناس هنا لم يألفوا كلمات مثل «المطاردة» و«الترصّد»، بمعنى المطاردة الجنسية والترصّد الجنسي. سيكون الأمر أشبه بقول «الاصطياد عند الأرصفة»، كما يحدث في الأفلام الأميركية، وهذه سلوكيات أجنبية للغاية غير مألوفة هنا على الإطلاق. وإن اعترفوا بوجودها، فمن الصعب أن يتعامل معها مجتمعنا بجدّية. سيعدّون الأمر مثل مخالفة أنظمة السير، بل وربما أقل أهمية من ذلك، لأنها مشكلة نسائية، ناهيك عن أنها مشكلة نسائية تحدث في فترة تغصّ بالمشكلات السياسية، لدرجة

أنّ وجود فتاة مخبولة حوتكة[1] - أنجح مسمّمة في حينا - تتمشّى حرة في الشوارع وتسمم الناس أسبوعيًا لا يزن مقدار ذرّة مقارنة بتلك المشكلات. وهكذا فقد كان الهمُّ الأساسي في هذا المكان يحجب الرؤية عن الاصطياد الجنسي الهوليوودي، مثلما كان يحجبها عن كل شيء آخر.

مع ذلك فقد استمرّ الآخرون في الحديث إليّ عن هذا الموضوع. استمرّت الأخت الكبرى في الحديث وهي تقول «إنْ واصلتِ الارتباط بهذا الشخص» أو «لن تجني خيرًا مما تفعلين»، فلا تلقى مني سوى الإصرار البارد على ألا أدافع عن نفسي أو أحاول استرضائها بأي شكل من الأشكال. آنذاك كنا قد راكمنا العداء فيما بيننا، فبتنا لا نستطيع والحال هذه أن نسمع لبعضنا، كما لم نرغب في هذا. كان زوجها حاضرًا أيضًا في الكواليس، ذلك الذئب المستلقي، ذو المنخرين الغريبين، والأذنين اللتين تكبران، وتستدقّان، بشعره الكثيف في جذعه وأقدامه وأنفه، بأسنانه البارزة، بمخالبه الطويلة السوداء المتقوّسة، يحرّضها بكلامه، يتميّز غيظًا وهو يدفعها كي تظلّ تزعجني بحديثها، كي تأتي لزيارتي، كي تلحّ على أن أكشف لها عما في سريرتي. مع هذا فقد كان واضحًا للجميع أنّ الأخت الأولى كانت غارقة في هموم عشيقها السابق الميت، فلم تكن قادرة على لملمة شتاتها أساسًا. إضافة إلى أنني سمعت بأنّ الصهر الأول قد سيطرت عليه مؤخرًا انشغالات جنسية جديدة فتكاثرت عليه الأقاويل والمتاعب. وهناك ماما أيضًا، التي ظلّت تمطرني بالأسئلة، كيف لي أن أظلّ بلا زواج حتى الآن، ولماذا أجلب العار لها بالانضمام إلى تبّيعات الجماعات شبه العسكريّة، وكيف حططت من نفسي وأوقعتها في هذا الدَرَك فأصبحتُ مثلًا سيئًا للأخوات الصغيرات، وتحدّثتْ كذلك عن غضب الرب، والنور والظلام والشيطان والجحيم. قالت لي: «تبدين كالمنوّمين مغناطيسيًا، أو ربما

(1) قصيرة ضاوية.

مثل أولئك الذين يستحوذ عليهم مصاصو الدماء في أفلام الرعب. يا بنيّتي، أولئك لا يرون الرعب الذي يعيشونه. الناس الذين يشاهدون من الخارج هم الذين يرونه فقط. أما أولئك فيظلّون أسرى، دائخين، لا يرون إلا الانجذاب». أوضاعي في العمل أيضًا لم تعد كما كانت. بِتُّ نَعسى وشاردة طيلة الوقت في المكتب لأنني أفزّ من نومي ليلًا في سريري ولا أستطيع النوم بعدها. كانت هذه الاستيقاظات في جزءٍ منها لأن شيئًا بداخلي يدفعني إلى النهوض وتفقّد غرفتي مرة أخرى كي أتأكد من أنّ الحلّاب والجماعة لم يتسللوا داخلها منذ آخر مرة تفقدت فيها الغرفة قبل النوم. وكنت أفزّ مستيقظة أيضًا على إثر الكوابيس التي رأيتُ فيها نفسي وقد تحولتُ إلى الرايْف[1] الواهن كاره النّاس في «**حكايات كانتربري**». المنزل أيضًا لم يوفّر جهدًا - طقطقات، وأصوات، وتحركات، واضطرابات في الهواء، وتغيّر في أماكن الأشياء. تدوّي الأشياء ويرتدّ صداها - كل هذا من أجل توبيخي، وتحذيري، ولفت انتباهي إلى التهديد الذي كنت أدرك سلفًا أنه محدق بي. ودائمًا ما يكون الحال هكذا في غرفة نومي في هدأة الليل. توقظني خبطة على طاولة السرير الجانبية. تخشخش الأشياء، كالصورة على الجدار، أو تطقطق أرضيتي، تحتي تمامًا. أو ربما يبدأ باب غرفتي في الاهتزاز. في إحدى المرات سحبتْ أرواح المنزل لحافي المصنوع من زغب العيدر فحرّكت قدمي وأسفل ساقي من السرير بقوة هائلة قلبت جذعي كله فأوقعتني. صرختْ ماما من غرفتها: «بحق الرب، بنيّاتي الصغيرات، أحاول أن أقرأ قليلًا قبل النوم. ما هذا الضجيج؟» فردّت الأخوات الصغيرات بصراخ من غرفتهن: «ليس نحن، ماما! نحن في السرير كي ننام. إنها الأخت الوسطى». فصرختُ:

---

(1) الرايْف - The reeve: موظف إداري في مدينة أو مقاطعة بمثابة ممثل للتاج البريطاني سابقًا. - المورد الحديث.

«لست أنا! إنه المنزل. أرواح المنزل. أنا في سريري كي أنام أيضًا». صحيح أنّ المنزل كان يدفعني إلى أن أفعل شيئًا، وأنّ هذا الشيء متعلّق بالحلّاب، لكنني لم أكن أعرف ما الذي ينتظر مني أن أفعله. لكنه اعتاد إيقاظي، فأظل مستيقظة رغم أني لم أنم بما فيه الكفاية، فيصحبني النعاس المنهك والبلادة في عملي طوال النهار. وبلغ الأمر أن استدعتني المشرفة في عملي مرتين إلى مكتبها لتتحدث معي. بحلول ذلك الوقت أيضًا كانت دروس الفرنسية قد فقدت بريقها، أو ربما فقدتُ أنا شغفي بذاك البريق. فقد أصبحتْ الدروس أقل إثارة، وأقرب إلى مفهوم «**ما الفائدة؟ لا فائدة**». كما أني أصبحت منهكة، أستثقل أن أحمل نفسي كل أسبوع للذهاب إلى وسط البلدة لحضور تلك الدروس. بعد ذلك دبّ الألم في ساقيّ، فانسحبتُ شيئًا فشيئًا من الجري مع الصهر الثالث. في البدء كنتُ أذهب مرة وأتخلف مرة، ثم أصبحت أتخلف مرات ومرات فيما يستمر الألم ويستولي عليّ الإحساس بعدم القدرة على تنظيم حركاتي. وقد بلغ الأمر أني أصبحت عاجزة عن الاسترخاء وترك نفسي تنساب مع الحركة، ولم أكن أستطيع أن أتنفس جيدًا، رغم أنّ الجري في السابق كان يحثّني على التنفس، ويملؤني. لقد تغيّر شيء من مسلّماتي، وهكذا كففتُ عن الجري. بل كنتُ أوشك على أن أتوقف عن المشي أيضًا. اضطرب توازني، ومال، واستحوذ عليّ عجزٌ عن الصمود. آنذاك حاولتُ أن أقنع نفسي أنني أنا التي تركت الجري، وأنا التي لم أعد أمشي كثيرًا، وأنّ لا أحد اضطرني إلى ذلك. بعد ذلك تخلّيتُ عن يومٍ واحد من الأيام التي أقضيها مع شبه الحبيب، وهو اليوم الذي كنا نلتقي فيه أحيانًا فقط، وكنتُ أقنع نفسي بأنه قراري أنا، دون أن يدفعني أحد إليه، وأنّ لقاء يوم الخميس لم يكن مهمًا على أية حال. كان أقلّ يوم أشعر فيه بالتزام تجاه شبه علاقتي، وأذكّر نفسي أنها في كل الأحوال مجرد شبه علاقة. ومع ذلك، ورغم حذف يوم الخميس، إلا أنّ الحلّاب واصل ضغطه عليّ بمسألة السيارة المفخخة. وكان قد بدأ

يلوّح بخَطَرٍ جديد، بتهديدٍ جديد، فربما يُقتل شبه الحبيب، يقتله إما المناوئون في منطقته أو أي شخص آخر هناك بتهمة الخيانة والوشاية. قال: «هذا عبث، طبعًا»، لكنه أضاف أنّ الناس يموتون هنا من العبث أيضًا. بهذه الطريقة قدّم الحلّاب نفسه منقذًا، وترياقًا. وألمح إلى أنه هو وحده القادر على إبعاد ذلك الخطر عن شبه الحبيب. يُضاف إلى ذلك مسألة التوصيل، إذْ ظلّ يعرض عليّ أن يوصلني بسياراته مرة بعد مرة. عروض التوصيل التي ابتدأها ثم واصلت التدفق، ليس منه وحسب، بل من آخرين أيضًا. بحلول ذلك الوقت كان آخرون في المنطقة، من رجاله، وإمّعاته، وخدّامه الذين يفعلون ما يؤمرون، يوقفون سياراتهم ويعرضون أن يوصلوني إلى وسط البلدة أو يعيدوني إلى البيت، دون أن يقولوا بأنّ الحلّاب هو الذي أمرهم بذلك. غير أنّ كثرة العروض كانت دليلًا على أنهم كانوا ينفّذون التعليمات. فقد كانوا يتوسّلونني، ويُبدون امتنانهم لو أني قبلتُ عرضهم وركبتُ السيارة.

***

في تلك الأثناء تصاعد التوتّر بيني وبين شبه الحبيب. فقد طفقنا نتشاجر حول أشياء كثيرة، إلى جانب المعتاد حين أقول له: «هلّا توقفتَ عن قيادة سيارتك؟»، فيردّ عليّ: «طبعًا لا. ما تطلبينه مني غير منطقي. كلامك غير منطقي». ولو لم يُقتل في سيارة مفخخة، سيعتقله المناؤون بتهمة الوشاية بسبب احتفاظه بتلك القطعة التي تحتوي على العلم. وإن لم يحدث هذا، فسوف يحتشد حوله المتعصّبون للقضية في منطقته ويقرّعونه بسبب تلك القطعة المختلقة نفسها. وفيما يتعلق بشائعة الشاحن الفائق ودلالته السلبية على وطنية شبه الحبيب - سواء أكان به عَلَم أم لا -، فقد قال شبه الحبيب إنّ الدولة أصبحت تلتقط له صورًا دقيقة احترافية. سمعته يخبر الطاهي بهذا،

ويعتقد أنّه نظرًا لهذا التصوير المكثف بدأ يجذب الانتباه من خارج منطقته أيضًا. قال مازحًا: «يبدو أنّ الدولة ربما تحوّلني إلى مخبر بسبب هذه الأعلام والشعارات والخيانة والشواحن الفائقة». لكنه قال أيضًا إنه لا يستبعد أن تكون الجماعات المحلية المناوئة هي التي تصوّره، لا الدويلة. «لعلهم يبقون عينهم علي ليتأكدوا مما إذا كنت قد أصبحت مخبرًا». وهناك أيضًا المصوّرون الهواة، الموثّقون المبتدؤون، الذين يوثّقون اللحظات في أيامنا العصيبة تلك. قال إنّ أولئك فتية يتحيّنون الفرص، يبحثون عن أية فرصة للشهرة والثراء مستقبلًا، فكانوا يظهرون فجأة في كلّ مكان، بكاميراتهم وأشرطة التسجيل، يلتقطون الصور ويوثّقون شهادة اجتماعية وسياسية تاريخية للأجيال القادمة، على حدّ قولهم. يقول هؤلاء: «وما أدراكم أي الأشياء ستُعتبر الأهم والمبتغى من سنوات الحزن هذه». كنتُ أدرك طبعًا، رغم أنّ شبه الحبيب لم يكن يعلم، أنّ الأمر لم يكن يقتصر على احتمال أن تصوّره الدولة بوصفه مخبرًا محتملًا، وأنّ المناوئين قد يصوّرونه بوصفه مخبرًا محتملًا، وأنّ العاملين خفيةً قد يصوّرونه بوصفه شخصًا قد يشتهر ذات يومٍ لأنه مخبر مقتول، فالدولة قد تصوّره مرتين، مرة لأنه مخبر محتمل، ومرة لأنه محسوب على شخص محسوب على مناوئ يتصدّر قائمة المطلوبين لديهم. أخذ جيران شبه الحبيب ومعارفه يتجنبونه نتيجة شائعة الشاحن الفائق التي أخذت تتفاقم شيئًا فشيئًا. وبقدر إعجابهم بذلك الشاحن الفائق وولعهم فيه لبعض الوقت، إلا أنّ ثمة أشياء أخرى تفوقه تأثيرًا ووزنًا مثل فكرة «محبّ الجند» و«محبّ الراية» و«محب بلاد ما وراء البحر» و«عدالة الشارع». الحياةُ قصيرة، بل بالغة القصر أحيانًا، فلماذا تجلب لنفسك اتهامات بالتخابر، والاشتراك في جريمة، وارتكاب ما لا يليق بسكان المنطقة؟ لهذا السبب كان الآخرون يرون أنّ من الأفضل تصرم أوهن حبال الوصل بشبه الحبيب، رغم أنّ أصدقاءه الأساسيين ظلّوا معه بالطبع. وهذا ما فعله صديقه الآخر الذي قيل إنه من معارف شبه الحبيب

في العمل ويسكن «وراء الطريق»، أي زميل شبه الحبيب من الديانة المضادة. وقد قيل إنّ هذا الشخص - واسمه إيفور - أبدى استعداده للشهادة بأنّ شبه الحبيب لم يكن يملك تلك القطعة التي تحتوي على العلم، لأنّ إيفور هو الذي كان يملك القطعة التي تحتوي على العلم، ثم عرض أن يتكرم على زميله بإرسال صورة من كاميرا فوريّة له في منطقة مناصرة للدولة وهو يحمل تلك القطعة، كي يستطيع شبه الحبيب أن يدافع عن نفسه في حال آلت تهم الخيانة إلى أن يحاكَم محاكمة كنغريّة في منطقته. قال إيفور إنّ المناوئين أعداء لكلّ ما يؤمن به ويناصره، وليذهبوا إلى الجحيم، لكنه رغم ذلك سيكون سعيدًا بأن يقدّم شهادة مصوّرة لصالح زميله كي يساعده في محنته الحالية. حين سمعتُ بهذه الشائعة عن وجود إيفور، وقد اكتشفت حماقتي حين اخترعته في محاولة مرتجلة لحماية شبه الحبيب من الحلّاب، أفزعتني السهولة التي يمكن أن تهبّ بها فكرة عشوائيّة، حتى دون أن يُفصح عنها، من تربة التفكير السطحي وتتمكن من الخروج والرواج. وها هي الآن خرجت إلى العلن وأصبحت لها حياتها المستقلة، فلم يعد بمستطاعي إلا أن أرجو أن يطويها النسيان وتختفي كما لو أنها لم توجد قط، رغم أنها أصبحت مَشاعًا يُضاف إليها شيء جديد كل يوم. ناهيك عن أنّ إيفور لم يكن يمتلك أية مصداقية لدى جماعة شبه الحبيب لأنه ليس واحدًا منهم، بصرف النظر عن حسن نواياه أو تعهّده بإرسال مئة صورة ومئتي شهادة مكتوبة لدعم شبه الحبيب. وحتى إن كان إيفور هذا موجودًا بوصفه شاهدًا صادقًا - لو تجاهلنا بُعد احتمال أن يرغب في تهدئة مشاعرَ معادية لعلمٍ يبجّله في جماعته - فلقد أثبت أنه غير موثوق. إذ لوحظ أنّ إيفور لم يرسل ولا صورة واحدة، ولم يرسل حتى صورة سالبة، ولا شهادة واحدة مكتوبة. فعلى الرغم من كلّ وعوده لم يفعل أي شيء، الأمر الذي عزّز رأي الجماعة في أنّ شبه الحبيب الخائن يمتلك تلك القطعة دون شك.

كما أسلفت، كان الوضع معقدًا. وكل ما حدث قاد إلى تبعات سيئة علينا، أي عليّ أنا وشبه الحبيب؛ فقد كانت الشائعة التي تدور عني أنا والحلّاب في منطقتي تؤثّر سلبًا علي، والشائعة التي تدور عنه هو والعلم في منطقته تؤثّر سلبًا عليه. تضافرت الشائعتان وتأثيراتها علينا فكانت تلك نكبة لشبه علاقتنا أيضًا. فقد بدأت مشاجراتنا تحت هذا الضغط تزداد، وتواصلنا مع بعضنا البعض يقلّ، أقلّ من القدر الطبيعي من التفاهم والصراحة التي لم نكن نتبادلها أساسًا من قبل. كان واضحًا بالنسبة إليّ أنه بالإضافة إلى إخفائي موضوع الحلّاب والشائعات عن شبه الحبيب، فقد كان لشبه الحبيب جبهة دفاعيّة من الصمت، ناتجة عن عناده لي وللآخرين، وقد كانت هذه طريقته في تتريس نفسه البقاء آمنًا.

بدأتْ الخلافات والملاحاة تأخذ منحى جادًا، فيما التوتر بيننا يتفاقم يومًا بعد يوم. فلم أستطع أن أصل إلى أي حلٍ للمشكلة غير أن أقول لشبه الحبيب: «هل أنت مضطر إلى قيادة سيارتك؟»، أو أظلّ أعتقد أنّ الأمور قد تصل بي إلى الاضطرار إلى طاعة الحلّاب وهجر شبه الحبيب. في أثناء ذلك ثارت ثائرة شبه الحبيب، والغريب أنّ ذلك لم يكن بسبب العَلَم أو الخوف من إعدامه بتهمة الوشاية بسبب العلم. فالذي أثار حنقه أكثر من أي شيء آخر هو أنّ المناوئين جاؤوا إلى بابه وطالبوه بحصّةٍ مما لديه. لهذه المطالبة علاقة بالشاحن الفائق، فقد ظلّ الناس يتحدثون عنه فترة طويلة إلى أن سرت شائعة تقول إنه ما يزال يحتفظ بالعلم لكنه سيبيع الشاحن الفائق لقاء مبلغ هائل. وهكذا زاره المناوئون المحليّون في بيته وسألوه أن يعطيهم حصة من المبلغ، وبطبيعة الحال حين أقول «سألوه» فأنا أعني أنهم تساءلوا أيمكن أن يأخذوا بعض المال، أي أنهم طالبوا به. لو سبق لك العيش في منطقة يحكمها المناوئون فلا بدّ أنك سمعت كثيرًا عبارة: «نحن بحاجة إلى أن نصادر ذلك الشيء من ممتلكاتك لدعم القضيّة والدفاع عن المنطقة». يشمل

هذا كل شيء، بدءًا من منزلك وسيارتك وانتهاء بنسبةٍ من أي خصمٍ قد تتلقاه على أي شيء، كأن تكون قد ربحت في لعبة بنغو، أو حصلت على علاوة أعياد الميلاد، أو حتى ما ادّخرته من تخفيض على سعر الكعكة الباريسية المدوّرة في المخبز، أو خصم على علبة حلوى «سمارتيز» من البقالة القريبة. وهذه الحصص والنِسب التي يُفترض بك أن تسلمها إلى المناوئين تكون طبعًا في سبيل القضية والدفاع عن المنطقة. وهكذا كان صبية الحيّ ومناوئوه يرغبون في الحصص، ويطالبون بها، ويزورون البيوت في أي وقت للمطالبة بها، فخاف شبه الحبيب من أن يزوروه، خاف أن يطالبوه بنسبة مما اعتقدوا أنه باعه، وبالطبع لم يكن ليبيعه أبدًا، فشبه الحبيب هو شبه الحبيب ونحن نتحدث عن شاحن فائق لسيارة باور بنتلي، لكنهم قالوا له إن فكّر في بيع الشاحن - كان أربعة منهم بأقنعة الهالوين، وثلاثة بأقنعة البالاكلافا وهم جميعهم يحملون مسدسات، في الساعة السابعة مساءً على عتبة بابه - أو إن كان قد باعه أصلًا فعليه ألا ينسى حصتهم من أجل الدفاع عن المنطقة ودعم القضية. ثم قالوا لو كانت سيارة الباور بنتلي بأكملها موجودة في منزله التعيس، فسوف يضطرون إلى مصادرتها، وعندها سكتوا وأخذوا ينظرون إلى شبه الحبيب من خلف أقنعتهم، فأدرك حينها أنها مسألة وقت لا أكثر وسوف يغيّرون رأيهم، فيأخذون السيارة بأكملها بدلًا من أن ينتظروا نسبة من قطعة منها. قال إنهم غادروا آنذاك، ولكن قبل أن يغادروا جاء شخص وهم في وسط الحديث لكنه لم يكن من المناوئين. لم يكن يحمل سلاحًا أو يرتدي قناعًا، وكان يرتدي بدلة وربطة عنق، وقد بدا غريبًا عن المنطقة. وقد تبيّن أنه حصل على إذن من المناوئين في اليوم السابق كي يدخل الحيّ. هكذا إذن ظهر واعتذر عن مقاطعتهم، وهو واقف بين الأولاد بأقنعتهم وأسلحتهم، فيما كان شبه الحبيب واقفًا عند سدّة الباب، فقال إنه موظف علاقات عامة من مجلس الفنون في وسط البلدة، ويستأذن أن يلصق لوحة

معدنية على جدار المنزل. فلمّا أظهر اللوحة كان عليها عبارة منقوشة باللون الذهبي تقول إنّ الزوجَين المعروفين على مستوى العالم كانا يعيشان في هذا المنزل، منذ عام ألف وتسعمئة وشيء، إلى ألف وتسعمئة وشيء، ثم رحلا وأصبحا أشهر نجمَين من نجوم الرقص في العالم وأكثرهم إدهاشًا. ثم قال: «لو وضعنا هذه اللوحة هنا ستبدو المنطقة طبيعية أكثر، كي نُري العالم أنّ بلادنا ليست كلها حربًا ودمارًا وكآبة، وأنّ إطلاق النيران والقنابل ليس شغلنا الشاغل، بل لدينا كذلك فنون وفنانون مشاهير». لكنه لم يقل شيئًا عن من يُحتمل أن يفكّر بالمجيء إلى معقل من معاقل المناوئين كي يتأمل هذه اللوحة ويتحدث عن الفنون والمشاهير، فلن يأتي أحد. في واقع الأمر كان الأشخاص الوحيدون الذين يمكن أن يروا هذه اللوحة هم وحدات شرطة الدُويلة المسلّحة وجيش «ما وراء البحر» حين يندفعون عنوة ويدّمرون ما يعترضهم من وقتٍ لآخر تفتيشًا عن المناوئين، ومن الصعب أن يتوقف أشخاص في هذه الحالة كي يتأملوا اللافتة أو يتذوّقوا هذا النوع من الثقافة، وربما يراها الأهالي لكنها لن تضيف لهم شيئًا بما أنهم يعرفون مسبقًا أنّ الزوجين العالميين كانا يعيشان هنا. قال شبه الحبيب إنه لا يرغب في تعليق اللوحة، في حين قال المناوئون لمبعوث الفنون هذا إنّ اعتذاره عن مقاطعتهم لا يعني أنه لم يعد مقاطعًا متطفلًا. ثم قالوا إنّ الشخص الذي يسمّي نفسه مبعوث فنون -الذي كان في النهاية، واحد من موظفي الخدمات الحكومية الرسمية، سواء كان لديه إذن بدخول المنطقة أم لا- ربما يكون مجرد جاسوس للدولة. عندها قال الرجل: «أتفهّم ذلك، ولسنا مضطرين إلى تعليقها إذن». ثم غادر وهو ما يزال مبتهجًا يتأبط لافتته بعد أن حاول إعطاء بطاقته لشبه الحبيب، لكنه رفضها. قال شبه الحبيب لكنهم سيعودون، إذ عاد إلى اعتقاده بأنّ المناوئين قد قرّروا وضع أيديهم على الشاحن الفائق الرائع، شاحنه الذي ربحه باستحقاق وشُغف به. وهكذا زاد التوتّر بيننا لأنني ما فتئتُ أستعجب

من فقدانه فطنته البديهية، إذ إنّ موضوع المناوئين القادمين من أجل الشاحن الفائق أو لأخذ حصتهم منه كان ينبغي أن يكون آخر ما يهتم به. فبالنظر إلى كل اتهامات الخيانة التي كانت تتراكم ضدّه، من المتوقع أن يهجموا على منزله - بأقنعتهم، ومسدساتهم، ومجارف الدفن المختلفة - لا لكي يأخذوا الشاحن بل كي يأخذوه هو. ففي نهاية الأمر كانت حيوات كثيرة قد استُبيحت من أجل خيانات أقل وطأة من التلويح بأعلام لا تنتمي إلى هذا المكان، حتى لو لم يلوّح المرء بها أصلًا. لذلك قلتُ له: «دعهم يأخذوه يا شبه الحبيب، فأنت تعلم بالتأكيد، ومن المستحيل أن يخفى عليك، أنهم طالما أرادوه، فلا سبيل لردعهم عن أخذه»، فأزعجه ذلك. ولكن كان واضحًا بالنسبة إليّ، وإن لم يكن واضحًا بالنسبة إليه، أنّ حياته كانت على المحكّ. لقد بدا الأمر كما لو أنه نسي حياته، وكلّ هذا بسبب عناده وولعه بالسيارات، وعجزه عن التفكير بمنطق الأولويات والقبول بالتراجع أحيانًا، والتنازل، فقد يُضطر الإنسان إلى إراقة ماء وجهه، وثمة أشياء لا تستحق التشبّث بها مقارنة بأشياء أهم. لكنه لم يكن يرى الأمور بهذه الطريقة، فأصبح هذا واحدًا من النزاعات القائمة بيننا فتشاجرنا على موضوع الشاحن الفائق في صالة بيته ذات يوم. كان قد اكتسب عادة نقل ذلك الشيء بدقّةٍ وهوس من مكان إلى آخر في أنحاء البيت كل ربع ساعة أو نصف ساعة. كان يرجو أن يحار المناوئون ويُنهكون لو بحثوا وسط الكثير من قطع السيارات والأغراض المكدسّة، وعندها يستسلمون كالأطفال ويكفّون عن بحثهم، فدُهشت من ذلك. كان هذا دليلًا إضافيًا على ضيق تفكيره وانحداره، فلم يعد قادرًا على فهم أنهم لن يتجشموا عناء البحث عن الشاحن بأنفسهم، بل هو الذي سيبحث عنه تحت تهديد السلاح، سيأمرونه أن يجلبه في التوّ واللحظة من مخبئه. قلتُ له ذلك، فانزعج أكثر، وظلّ الشاحن الفائق في حالة تنقّل لا تنتهي، في حالة هروب، وقد أخذه الآن من تحت ألواح الأرضية الخشبية في الصالة التي فتح

مخبأً فيها، بعد أن كان في الليلة السابقة وإلى وقت الفطور من صباح اليوم خلف حائط مزيّف في المطبخ أقامه قبل ليال. أما الآن فقد وضعه في قطعة مجوّفة من سيارة رأى أنها تبدو مثل قطعة طبيعية وسط هذا الهوس القسري من التكديس، إلى أن ينتهي من صنع مخبأٍ خدّاع في غرفة في الطابق العلوي، لكنني رأيته ينقّب عن المكان التالي بعد المخبأ الذي خطّط له مؤقتًا في الطابق العلوي. في أثناء ذلك كان الشاحن رابضًا وسط خردة سيارة تبدو مثل دلو كبير، إلى جانب قطع سيارات شتّى ومنشفة استحمام معها منشفة أطباق وبضعة ملابس مبعثرة بمهارة كما لو كانت موضوعة هكذا بعفوية. كانت القطعة مطروحة على الطاولة الخفيضة بيننا، يضاف إليها ذلك التوتر الجديد القائم بيننا آنذاك. حينها بدأت أوبّخه مرة أخرى على قيادة السيارات. فلم أكد أبدأ حتى قاطعني واتهمني لأول مرة بأني أشعر بالخزي منه لأنني لا أسمح له بلقائي عند باب بيتي، وألتقيه بعيدًا في تلك الطرق النائية المشتركة. فثأرتُ لنفسي واتهمته بحبّ الطهو، وشراء المكوّنات مع صديقه الطاهي، أي أنه يحبّ الطهو فعلًا. حاول أن يثبت اتهامه بأدلة أخرى فقال إني بدأتُ أجفل منه مؤخرًا، وأنني لم أعد أقضي ليالي الخميس معه، وأنني منذ فترة طويلة لم أبت عنده في ليالي الثلاثاء والجمعة التي تمتد إلى السبت فالأحد، وهذا ما حدث طبعًا بسبب النفور المتزايد الذي كنت أحيله عليه رغم إدراكي أنّ ذلك النفور كان من الحلّاب أصلًا. في بداية الأمر بُهتُّ من كلامه فوجد المزيد من الوقت ليرشقني باتهامات أخرى عن حالة الخدر القبيحة التي لاحظ أنها كانت تعتريني، وشَعَر أنها بدأت تغزوني وتتملّكني، وكأنني لم أعد شخصًا حيًا بل واحدة من تلك الدمى الخشبية المفصّلة التي يستخدمها الفنانون في... وهنا أوقفته، لأنني لم أكن لأحتمل أن ينتهي من حالة خدري المتنامي ليبدأ في انتقاد وجهي. هكذا كانت المشاحنات بيننا، ثم تفاقم عجزنا عن مسامحة بعضنا البعض. وثمة ضغوطات أخرى كانت تحطّ علينا حين

نكون في سياراته. فدائمًا ما أكرّر لومه على قيادة السيارة، فيما يقول بأنه إنما كان سيوصلني إلى بيتي، إلى باب بيتي. فأشعرُ وقتها بأنه بدأ يتحوّل مع الوقت إلى الحلّاب، يتحكّم بي، ويرى أنّ بمقدوره السيطرة علي، أو أحيانًا أفكّر بأنه قد ضاق بي ولذلك اصطحبني إلى البيت رغبة في التخلص مني. كنتُ أقول: «أوقف السيارة! أوقفها هنا فورًا في هذه الطريق المهجورة»، فلا يوقفها، ويقول إنه لا يريد مني أن أترجّل من السيارة، فأقول له إنني أريد أن أمشي، فيردّ لا تمشي، فيكشف هذا عن محاولته كسحي وإيقاعي وإعاقتي، تمامًا مثلما كان الحلّاب يفعل. وهكذا أقول: «ما مشكلتك؟»، فيرد «لديكِ تعقيدات»، فأقول «أنتَ أيضًا لديك تعقيدات»، فيقول «ما مشكلتكِ؟». ويدور حوار آخر: «سأقلّكِ»، فأقول «لا أريد أن تقلّني»، فيقول «سأقلّكِ»، فأردّ «لا أريد أن تقلّني». وكنتُ أرى أنها مجرّد حيلة لم يعد يريد منها التخلص مني بل يحاول التخلص من فقدانه الذاكرة كي يطوّر شبه علاقتنا، لا إلى علاقة حقيقية حميمية بل إلى واحدة من تلك العلاقات الترصّدية التملّكية التسلّطية، ويحاول أن يفعل ذلك بالتنمّر عليّ، وهو قطعًا ليس السبيل الذي قد يسلكه شخص يسعى إلى علاقة حقيقية محترمة. في أثناء ذلك كان يقول إنّ إصراري على الترجّل من سيارته في ذلك المكان الخطر لم يكن سوى حيلة مني وتلاعب قاسٍ كي أعذّبه وأبتزّه عاطفيًا لتطوير شبه علاقتنا على نحو تافه خبيث. فيقول: «مخادعة»، ويشدّد على أنّه طالما اعتبرني أكبر من هذه التصرفات، فأجد نفسي أسمّيه «شبه الحبيب الموشك على سنة» بدلًا من التعبير الأكثر حميميّة «شبه الحبيب»، وأشعر حينها أنني محقّة في إبعاد نفسي عنه، رغم أنه بالتأكيد شعر بالمثل لأنه كان يسمّيني «شبه الحبيبة الموشكة على سنة»، ما يعني أننا لو واصلنا ذلك فلن نلبث أن نسمّي أنفسنا بأكثر الأسماء رسمية ولاذاتيّة، كالأسماء التي كانت تليق بنا قبل أن نلتقي. هكذا صارت الأمور، وقد زاد بيننا التوتّر حيث انتهى به الأمر مستشاطًا من الغضب في

منطقته وأنا مسحوقة في منطقتي. كنتُ أخلط الأمور باستمرار، أقلبها رأسًا على عقب، ألومه على أشياء لا تستحق اللوم، أو حتى لو كانت تستحق، فلم يقترفها هو، وأظنّ أنه كان يمرّ بشيء مماثل بالنظر إلى سلوكه وكلامه بحالته تلك تجاهي. في أثناء ذلك، وفي مكان ما في خلفية هذا كله كان الحلّاب قد دسر نفسه بيننا، ومثله أيضًا مسألة قتل الحلّاب لشبه الحبيب. وخلف هذا كله تشخص صورة أختي، الأولى، أختي الكبرى، الحزينة دائمًا، وهي جالسة في منزلنا تتشّح بالصمت المريع، فيما وجهها بالتعبير نفسه الذي كان عليه يوم تشييع جثمان حبيبها السابق.

***

بسبب تلك اللقاءات الإضافية، الحقيقية منها والمختلقة، ولأنني طويت كشحي على الأمر فأصبح هذا السلوك آلية مستمرة عندي للدفاع عن نفسي، فقد أرسلتْ لي أقدم صديقة من أيام المدرسة الابتدائية تقول إنها تودّ لقائي. وقد تجنّبتْ التواصل الهاتفي، فأرسلتْ تلك الرسالة مع واحد من أولئك المستطلعين، تلغرافات المنطقة الحيّة السرّية، كي يرتّب الأمر معي. طلبتُ منه إخبارها بأنني سألتقيها في ردهة أشهر نوادي الشرب في الحيّ عند السابعة مساء. كنت أحبّ صديقتي الأقدم، على الأقل كنتُ أحبها، أو ظللتُ أحبّ ما عرفته فيها. أما الآن فلا أكاد أعرفها، ولا أكاد أراها. لقد قُتلت أسرتها بأكملها في المشكلات السياسية، وهي الوحيدة التي بقيت، وتسكن بمفردها، رغم أنها كانت ستتزوج عما قريب. وفيما يتعلق بصداقتنا، فقد كانت الشخص الوحيد الذي أستطيع التحدث إليه، الشخص الوحيد الذي أستطيع الاستماع إليه، وهي آخر من تبقّى من القلة الموثوقة التي لا تستنزف ما تبقى من حياتي في هذا العالم. كانت كالصهر الثالث لا تحب

الأقاويل، رغم أنها أبقت عينيها وأذنيها مفتوحتين في الجانب السياسي. وهذا شيء تتهمني أنني أتجنّبه عمدًا، وهو اتهام لم أستطع إنكاره. لكنني دافعت عن نفسي بتذكيرها أنني أبغض القرن العشرين، وأنّ الأقاويل - البغيضة - الدائبة في الحيّ كانت تكفي وزيادة. أما صديقتي الأقدم فلم تكن هكذا. لكلّ شي معنى بالنسبة إليها، ولكل شيء فائدة، عاجلة أم آجلة، ولا بد من الاحتفاظ به إلى أن تحين الفرصة المناسبة. كنت أقول لها إنّ سعيها إلى المعلومات، وصمتها، وكل ذلك التخزين الهائل - لا فيما يخصّ الواقع الحقيقي فقط بل حتى المتخيّل والنظري - كان أمرًا مريبًا، ولئيمًا، ومخيفًا. فتردّ بأنّ قولي هذا أشبه بالقِدرِ الذي يعيّر الإبريق بسوادِه[1]. قالت لي هذا في الليلة التي التقينا فيها في ردهة أشهر نوادي الشرب في الحي. وقالت لي إنني أيضًا مريبة ولئيمة ومخيفة إن لم أكن أعلم. ظننتُها تشير إلى أنني كنتُ أسدّ أذنيّ ولا أسعى إلى المعلومات والأقاويل، وإلى عنادي طيلة حياتي ورفضي أن أقول للأوغاد المتطفلين ما لم يكن من شأنهم أصلًا أن يعرفوه. قلتُ لها: «ولمَ ينبغي لي أن أشبع فضولهم؟ الأمر لا يخصّهم، وفي كلّ الأحوال لم أفعل شيئًا». فقالت صديقتي الأقدم: «كثيرون لم يفعلوا شيئًا، وما زالوا لا يفعلون، وحتى سيظلون لا يفعلون شيئًا بعد أن يصيروا في توابيتهم تحت سطح المكان المعتاد». فقلت: «لكنني دائمًا أنشغل بشؤوني فقط، أمشي في الشارع، أمشي في الشارع ليس إلا و—»، فقاطعتني: «نعم، ولكن هناك مسألة أخرى أيضًا». سألتُها عما تعنيه فقالت إنها ستتحدث في الأمر بعد قليل، ولكن قبل ذلك تريد أن تتحدث في شيء آخر، ألا وهو أننا لم نعد نلتقي كثيرًا منذ أن انتهت أيام الدراسة. وحين نلتقي كانت لقاءاتنا تزداد رسمية، ويقلّ فيها المرح.

---

(1) رد يقال لمن يعيب غيره بعيبٍ فيه، وقد شاعت في الإنجليزية من ترجمة توماس شيلتون لرواية «دون كيخوته» للأسباني ثربانتس في عام 1620م.

حقيقةً لا أتذكر آخر مرة كانت فيها لقاءاتنا مرحة. وحتى في زفافها الذي تمّ بعد أربعة أشهر من ذلك اللقاء، كان المرح غائبًا أيضًا. بل إنّ الانطباع الذي سيطر عليّ هو أنّ الجميع كانوا يحضرون جنازة ثنائية لا زواجًا، فلم أستطع تجاهل الأمر واضطررتُ في نهاية الأمر إلى مغادرة ذلك الحفل باكرًا، والعودة إلى البيت والاستلقاء على سريري، في منتصف النهار، بملابس الحفلة، وأنا مكتئبة. من الأشياء التي ينبغي ذكرها قبل الموضوع التي كانت تريد التطرّق إليه هو أنّه كان بيننا تفاهم ضمني بموجبه لا أسألها عن عملها وبدورها لا تخبرني به. وقد تمسّكنا بهذا الاتفاق منذ أن بدأتْ هي تنخرط في شؤونها. كان ذلك قبل أربع سنوات من لقائنا ذاك.

كنا إذن في ردهة الطابق العلوي وطلبنا مشروبَينا وجلسنا في الخلف، ثم بعد برهة صمت لم تكن غريبة في المراحل الأولى بيني وبين الصديقة الأقدم، قالت: «من واقع معرفتي بك أستطيع القول إنك على الأرجح لم تفعلي شيئًا، ولكن وفقًا للشائعات يبدو أنك فعلتِ كل شيء. لا تنزعجي وتخنقيني الآن يا صديقتي الأقدم، لكني أودّ أن أسألك عما بينك وبينك مِلْكمَن [حلّاب][1]؟».

لاحظتُ أنها سمّتْه «مِلْكمَن [حلّاب]» بعد أن نزعتْ عنه «ال» التعريف. فهو بالنسبة إلى البقية «ذا مِلْكمَن [الحلّاب]»، رغم أنّ صغار المنطقة وحدهم من كانوا يعتقدون أنه بائع حليب فعلًا، لكنّ ذلك لم يدم طويلًا. قلتُ في نفسي ما دامت سمّته «مِلْكمَن» فلا بدّ أنه «مِلْكمَن». فهي تعرف أكثر من غيرها ممّن ينتمون للدائرة الخارجيّة، ولذلك نظرًا لمعرفتها ببواطن الأمور إذ

---

(1) تشير الصديقة الأقدم إلى الحلاّب هنا بصفته اسم علم في الإنجليزية: مِلكمَن (Milkman)، في مقابل تسمية الشخصية في بقية الرواية وفقًا لوظيفتها: الحلّاب (The milkman).

هي من الدائرة الداخليّة وبسبب صداقتنا ربما سيكون من المريح أن أخبرها، رغم أني لم أعرف مقدار تلك الراحة إلا بعد أن فتحت فمي وانهال كل شيء. كنتُ أعرف أنها سوف تصدّقني، لأنها تعرفني، ولأنني أعرفها، أو كنتُ أعرفها على الأقل، فلم يكن ثمة داع للقلق أو التفكير فيها إذا كان ينبغي أن أثق بها أم لا. ولم أكن في حاجة إلى بذل جهد كي أقنعها. كان بإمكاني أن أروي الأمر كله تمامًا كما حدث. وهكذا أخبرتها. حدّثتها عن ظهوره الخاطف في كل مكان وكلامه الهادئ، وحدّثتها عن معرفته بخصوصياتي، ومعرفته بكل شيء في حياتي. وأخبرتها كيف أنه يملي عليّ ما أفعل دون أن يقوله صراحة. حدّثتها كذلك عن مغادراته العجلى التي تفاجئني مثل حضوره، وإحساسي الطاغي بأنني إنما أقع في فخٍ ما. كان يتتبعني، يترصّدني، يعرف جدول تحركاتي، وتحركات كل الذين ألتقيهم. كان الأمر يبدو وكأنما لديه مخطط، لكنه لا يتعجّل في تنفيذه، يأخذ كل ما يحتاج إليه من وقت، ويبيّت النية لتنفيذه ذات يوم. أخبرتها أيضًا أنه لم يلمسني، رغم أنه بدا دائمًا كمن يلمس، فدائمًا ما كان شعر قفاي يقفّ في انتظارٍ وترقب وفزَع. ثم حدّثتها عن سياراته المبهرجة وعن فانه، رغم إدراكي أنّ صديقتي الأقدم تعلم بكل هذا مسبقًا، وقلت لها عن غريزتي التي تحذّرني دائمًا من الانهزام إلى الحدّ الذي يجعلني أدخل واحدة من سياراته. وأخبرتها أيضًا عن قوات الدولة ومراقبتهم إياي، لأنهم كانوا يراقبونه. كانوا يتلقطون الصور، لا حين نكون معًا فحسب، بل كذلك حين أكون وحدي أو مع أي شخص آخر، حتى الذين ألتقيهم صدفة أو بترتيب مسبق. كانت هذه الكاميرات تصدر تكتكات، فيتورّط أشخاص لا علاقة لهم بالأمر، بصرف النظر عما إذا كان شيء قد حدث أو كاد أن يحدث. وحدّثتها أيضًا عن لاعقي المؤخرات، المتملقين، لاحسي البصاق، وأنهم بدؤوا يظهرون لي ويزعمون كذبًا أنهم معجبون بي. وفوجئتُ بنفسي أحدّثها عن الصهر الأول البذيء. وألفيت

نفسي بعدها أتحدث عن ماما وصلواتها والقديسات اللائي تطلب منهنّ الدعاء لي، وعن أرباب الشائعات الذين يغيّرون ما يسمعون، وإن لم يسمعوا شيئًا اختلقوه. وختمتُ كلامي بالحديث عن تفجير سيارة محتمل قد يُقتل فيه الحبيب الذي كنتُ في شبه علاقة معه. قلتُ كل شيء ثم توقفت عن الكلام، وارتشفتُ جرعة كبيرة ثم استندت على الأريكة ذات الوسائد المخملية وقد شعرت بالارتياح. لقد صارحتُ الشخص المناسب. لا شكّ في أنّ صديقتي الأقدم كانت الشخص المناسب. ولا أدلّ على ذلك من أنّ الكلام انساب مني على نحوٍ طبيعي ودون ترتيب زمني.

ها أنا قد سُمعت، وكم كان رائعًا ومحترمًا أن أُسمع، وأُفهم، وأن لا يقاطعني أو يسكتني أشخاص ذوو آراء مسبّقة ووعي محدود. ظلّت صديقتي الأقدم وقتًا طويلًا صامتة لم تقل شيئًا، ولم أنزعج من صمتها. بل كنت أرحب بصمتها. فقد بدا علامة على أنها تهضم ما سمعته، وتتيح لنفسها الوقت لتتعامل مع المعلومات وتقرر الردّ الملائم والمنصف. هكذا إذن ظلّت صامتة وساكنة تنظر أمامها، وحينها أدركتُ فجأة أنّ تحديقتها التي كانت تتكرر كلما تقابلنا هي نفسها تحديقة مِلْكْمَن. فباستثناء تلك المرة الأولى عندما مال برأسه من السيارة ونظر إليّ، لم يلتفت نحوي بعدها قط. فهل كانت تلك «وضعية جانبية» يتعلمونها كلهم في مدرستهم العسكريّة؟ وفيما كنت أتفكّر في ذلك تحدثتْ صديقتي الأقدم. قالت دون أن تلتفت: «أتفهّم رغبتك في الصمت. ويبدو لي منطقيًا، وكيف يكون غير ذلك، أن يعتبروكِ من متجاوزي الأعراف».

هذا ما لم أتوقع سماعه، ولوهلةٍ شعرت بأني لم أسمعها جيدًا. سألتُها: «ماذا قلتِ للتّو؟»، فكرّرتْ ما قالته، وزفّت إليّ أخبارًا - كانت جديدة - بأنني كنتُ واحدة من متجاوزي الأعراف تالفي الأعصاب المارقين اجتماعيًا،

إلى جانب مسمّمة الحيّ، وأخت المسمّمة، والفتى الذي قتل نفسه بسبب أميركا وروسيا، وذوات القضيّة، والحلّاب الحقيقي، المعروف بلقب الرجل الذي لا يحبّ أحدًا. اعتدلتُ في جلستي، ورمقتها، ولا بدّ أنّي فغرت فمي من شدة الذهول. للحظةٍ واحدة على الأقل منذ أسابيع، اختفى كلّ شيء من رأسي، حتى مِلْكْمَن نفسه. قلتُ لها: «مستحيل»، لكنّ صديقتي الأقدم تنهّدتْ والتفتت إليّ: «أنتِ التي جلبتِ هذا على نفسك يا صديقتي الأقدم. أخبرتكِ مرارًا ومرارًا. منذ المدرسة الابتدائية وأنا أحذّركِ من تلك العادة التي تصرّين عليها وأظنّ أنكِ قد أدمنتِها، أقصد القراءة في الأماكن العامة أثناء المشي». فقلتُ: «ولكن—»، قاطعتني: «هذا ليس طبيعيًا». «ولكن—»، «هذا سلوك مزعج»، «ولكن كنتُ أعتقد أنكِ تقصدين الزحام، إن مشيتُ في الزحام». فقالت: «ليس في الزحام. الأمر أفدح مما لو كان في الزحام. ولكن فات الأوان الآن. لقد أعلنت الجماعة تشخيصها لك».

لا أحد، والمراهقون خاصةً، يطيب له أن يصمه الآخرون بأنه غريب الأطوار. **أنا، في القارب نفسه مع مسمّمتنا، فتاة الأقراص!** كان هذا صادمًا ومجحفًا. وبدا لي أنّ الجميع كان يهاجم عادتي البريئة في القراءة أثناء المشي ما عدا شبه الحبيب، ومِلْكْمَن - رغم أني أكره الاعتراف بذلك -. لقد تعلّمتُ خلال هذه الأشهر الماضية منذ ظهور مِلْكْمَن مقدار تأثيري في الناس دون أن أدرك أنهم كانوا ينتبهون إلى وجودي. واصلتْ صديقتي الأقدم كلامها: «إنها عادة شاذّة وعنيدة ومزعجة. فالأمر يا صديقتي ليس كمن ينظر في صحيفة وهو يمشي كي يعرف آخر الأخبار. إنما هي طريقتك في فعل ذلك. أنت تقرأين كتبًا، **كتبًا كاملة**، وتدوّنين الملاحظات، وتركّزين في الحواشي، وتضعين خطًا تحت الفقرات كما لو أنكِ جالسة إلى طاولة في مكتب بستائر مسدلة وإضاءة مُشعلة مع كوب من الشاي تعكفين على كتابة المقالات. هذا

بالإضافة إلى تأملاتك المسموعة. ما تفعلينه مزعج، وشاذ، ومؤذٍ بصريًا. سلوك خالٍ من الإيثار. أبعد ما يكون عن الحفاظ على السلامة الشخصية. سلوك يلفت الانتباه إليكِ، ولماذا قد يرغب أي أحد بلفت الانتباه لنفسه هنا على هذا النحو - والأعداء على الباب، والجماعة تحت الحصار، فيما علينا جميعًا أن نتكاتف -؟». قلتُ لها: «لحظة. أتريدين قول أن لا مشكلة في أن يمشي هو كما يحلو له وهو يحمل متفجرات السِمتكس، ولكن هناك مشكلة حين أقرأ أنا «جين أير» في مكان عام؟». فقالت وهي تنظر أمامها: «لم أقل لكِ لا تقرئيها في مكان عام. ولكن لا تقرئيها وأنتِ تمشين. فهم لا يحبون ذلك». كانت تقصد الجماعة، ثم قالت إنها غير مستعدة للخوض في مسألة الكلام الملتبس، والتوريات ومرواغات «ما وراء البحر» المعروفة، لكني إن نظرت إلى الأمر في سياقه الصحيح فسوف أرى أنّ المنطقي هنا هو اعتبار متفجرات السِمتكس طبيعية أكثر من القراءة أثناء المشي، «ولا أحد غيرك أنتِ يرى القراءة أثناء المشي تصرفًا طبيعيًا». ثم قالت: «السِمتكس ليست غريبة. ليست شيئًا غير متوقع. ليست شيئًا يستعصي على الفهم، بصرف النظر عن أنّ أغلبهم لا يحملونها معهم ولم يروها قطّ في حياتهم، ولا يعرفون شكلها ولا يأبهون بها. لكنّها متسقة مع الوضع هنا أكثر من قراءتك الخطرة أثناء المشي. يتعلّق الأمر بالوعي، وتصرفكِ هذا لا ينمّ عن وعي. وهكذا إن نظرتِ للأمر من هذه المعايير، أي معايير السياق والبيئة، فحينها أقول لك نعم، **لا مشكلة في ما يفعله وهناك مشكلة في ما تفعلين**».

كنت أشعر بأنّ في كلامها شيئًا من الحقيقة، كما في فكرة «النسبي والمطلق» التي سادت في فلسفة القرون الوسطى. مع ذلك لم ترقني إشارتهم إلى أنني أصبتُ بحالة لا يُرجى شفاؤها من تجاوز الأعراف. «كوني وحيدة في قبول القراءة أثناء المشي وكونكم تفوقونني عددًا في رفضها، لا يعني أنني مخطئة.

إن كان هناك شخص عاقل يا صديقتي الأقدم يقف في وجه عقل جمعي مجنون، فإن الوعي الجمعي سيعتبره مجنونًا، **ولكن هل يعني ذلك أنه مجنون فعلًا؟**». فقالت الصديقة: «نعم، من يصرّون على طريقتهم الفريدة في الحياة، طريقتهم المضادة للعالم فهم مجانين. ولكنكِ لست هكذا على أية حال، فهناك الموضوع الآخر أيضًا». وافترضتُ - وكيف لا أفترض - أنّ هذا يعني مزيدًا من الحديث في موضوع مِلْكْمَن، لكنّ صديقتي قالت إنها لا تودّ أن تقسو علي أو تضغط عليّ أو تحرجني. ثم قالت: «ولكن يا صديقتي الأقدم ما الذي يجعلك تتجوّلين وأنت تحملين رؤوس القطط؟». وقد شاع بين الناس أنني أحتفظ بحيوانات ميتة، ربما كي أستخدمها في السحر الأسود. قالت الصديقة الأقدم إنّ الجماعة كانت متوجّسة مني. فربما كنتُ أقيم جلسة استحضار أرواح في مواجهة النساء التقيّات بأجراسهنّ وطيورهنّ وتكهناتهن وبشائرهن. أم لعلي كنتُ حبلى؟ هل حبّلني مِلْكْمَن؟ كانوا يقولون: «**نعم، لا بد أنّ هذا ما حدث. حبّلها مِلْكْمَن، وبسبب التغيّرات الهرمونية—**». فصحتُ فيها: «لم تكن رؤوس قطط! قطة واحدة فقط. كانت مرة واحدة فقط!». عضّت الصديقة شفتها، وقالت: «إذن، تعتقدين أنّ المشي أثناء القراءة وإشعال مصباحك أثناء أعمال الشغب أو تبادل إطلاق النار وأنت تحملين حيوانًا ميتًا في جيبك، لا عدة حيوانات، لن يثقل الكفّة؟ السؤال يا صديقة هو **لماذا تحملين معك رأس قطة؟**». أخذتُ نفسًا، فكيف لي أن أشرح لها؟ كيف أقول لها إنني حملته مرة واحدة، للحظة واحدة، ومع ذلك كانوا يتجسسون عليّ. لم أعد أعرف كيف أتحدث، وأدركتُ أنّني حتى هنا مع الصديقة الأقدم، تلك التي كانت ذات يوم شقيقة فِكري، كانت حياتي تُستنزف. فها أنا مضطرة إلى أن أقنع وأثبت صدقي لشخصٍ طالما كان محلّ ثقتي، لشخصٍ شعرتُ بأنه راسخ في قلبي، رغم أني مع مرور الزمن - إذ مرّت أربع سنوات - أدركتُ أن ذلك الشعور لم يكن متبادلًا. لم أعرف

لماذا، فهل كان السبب ذاك الاتفاق الضمني بيننا؟ من أجل مصلحتي ربما؟ فلم نعد نسرّ لبعضنا البعض إلا بأقل القليل. كان بمقدوري أن أقول لها، هكذا افترضت، إنني ظننتُ أنّ تلك القنبلة التي انفجرت في منطقة العشر دقائق هي السبب، أن السِمتكس إن لم تكن قنبلة قديمة هي السبب، أنّ أيًا من كان الذي ترك القنبلة هناك أو أسقطها من طائرة مقاتلة هو المسؤول عن ذلك، أنني أردتُ أن آخذ القطة إلى المقبرة بعيدًا عن حطام الإسمنت المتفجر كي أمنحها شيئًا من الخضرة. لكنني لم أقل ذلك، فلا توجد طريقة يقُال بها هذا الكلام دون أن أبدو مجنونة. إضافة إلى أنّ الصراحة العفوية التي كانت قائمة بيني وبين الصديقة الأقدم منذ المرحلة الابتدائية قد شارفت حينها على النهاية. فلم أعد أرغب في الشرح، إذْ كنت أنظر إلى ذاتي لحظتها تمامًا كما تنظر هي إليّ، وكما يرونني هم جميعًا. كما أنني حقًا لم أعد أعلم السبب الذي جعلني أحمل رأس القطة. وبغتة شعرتُ بالأسى. فلستُ أنا من صرمت حبال الوصل وانسحبتُ من الصديقة الأقدم، بل الصديقة الأقدم هي التي كانت قد بدأت في ذلك فعلًا. لقد تبخّر قدرٌ من الثقة رغم بقاء الود، لكنّ الود شيء من الأشياء غير الأكيدة التي نشير إليها بـ«الشبه». فلمّا تركتُ الأشياء وأعرضتُ عنها -والقصدُ هنا من الأشياء أي الناس والعلاقات وما كان يُتوقع مني دائمًا- وتركتُ موضوع القطة قلت: «هل يمكن أن نعود إلى الموضوع الرئيس الآن؟».

استغربتْ الصديقة الأقدم، ولم يكن ذلك من عادتها. فقالت: «هذا هو الموضوع الرئيس»، فاستغربتُ أنا. قلت لها: «ظننتُ أنّ مِلْكْمَن هو الموضوع الرئيس»، فقالت: «لا. ولماذا يكون الموضوع الرئيس؟ كان موضوعًا قبل موضوع آخر، لا أكثر. فقراءاتك أثناء المشي، وعنادك المستعصي، بالإضافة إلى ما ينطويان عليه من مخاطر، هما السبب في لقائنا هذه الليلة. ولكن أتعلمين...»، وهنا صمتت قليلًا في ما يبدو واحدةً من تلك التأملات المتبصرة

الكاشفة، ثم قالت: «قد يكون في ما حدث لك من مطاردة مِلْكِمَن جانب علاجيّ، على نهج «الجانب المشرق من المأساة أو التعلّم عبر المعاناة». فبالنظر إلى رغبتكِ في الغياب، يبدو أنّ أحداث مِلْكِمَن قد أجبرتكِ على الظهور، وهذا مما وهبتكِ إياه الحياة كي تريكِ الأشياء على واقعها، كي تشكّلك، كي تدفعك خطوةً نحو الأمام، كي تنقلك إلى المرحلة التالية من رحلتك. ومما أراه يا صديقة، فإنّ الشيء الوحيد الذي استطاع أن يمنحك ذلك هو ظهور مِلْكِمَن في حياتك». عند ذلك سألتُ نفسي أليست صديقتي وغدة مغرورة وقلتُ لها هذا، فقالت لا، وإنه لا ينبغي لنا أن نشخصن الأمر، ولكن ما الذي كانت تفعله إذن في كلامها إن لم يكن شخصنة؟ قالت علينا أن نركّز في الموضوع الأساسي، وهو أنني كنتُ أربك الجماعة بقراءتي أثناء المشي، وأنّ هناك أشخاصًا ربما يصعب فهمهم لكنّ ذلك لا يمنع الآخرين من محاولة فهمهم كما يشاؤون، وأنه لا ينبغي لأحد أن يمضي في مشهدٍ سياسي كهذا بعقلٍ معطّل، وأنني أضيق ذرعًا بالأسئلة الاجتماعية المتكررة، حتى تلك الاستفسارات البريئة، رغم أني اعترضتُ وقلتُ إنني أتقبل الأسئلة، لكنها هزّت رأسها وقالت لا، وإنني لا أتقبل سوى الأسئلة الأدبية، وحتى في هذه لا أتقبل سوى ما يتعلق بالقرن التاسع عشر وما قبله. قالت أيضًا إنني أرفض التخلي عن البرود في تعابير وجهي وجسدي، رغم إدراك الجميع أنّ الاحتماء بالبرود لا ينفع هنا. هناك أيضًا موضوع الفتاة المشّاءة. قاطعتُها: «الفتاة المشّاءة؟»، فقالت: «نعم، أنتِ الفتاة المشّاءة. أحيانًا تصبحين الفتاة التي تقرأ، وأحيانًا تصبحين الفتاة الشاحبة العنيدة ذات التفكير المحصَّن المقيَّد». ثم قالت إنها ستضطر إلى الكلام معي بلغة التوجيهات، وكأنها لم تكن تتكلم هكذا حتى الآن. «لا أحد يطلب منكِ أن تقدمي تقريرًا مفصّلًا عن نفسك، لكنكِ تقرأين أثناء المشي وتبدين خالية التعابير ولا تمنحينهم ما يكفي للتفاعل، لذلك لا يتركونك وشأنكِ وينتقلون إلى الشخص التالي.

سوف تثيرين الناس إن لم تكفّي عن الغطرسة، فهم يعتبرونك متغطرسة، واعتبار أنّ لا أحد سيحاسبك لأنكِ تضاجعين مِلْكمَن—»، قاطعتها: «لا **أضاجعه!**»، فقالت: «حسنًا، يُعتبر أنكِ تضاجعينه، ولأنكِ تعتقدين أنّ هذا الرجل غير العاديّ سيحميك. ولكن عليكِ أن تدركي، بل تقدّري أيضًا أنكِ في منظورهم قد وقعتِ في الخانة الصعبة»، وكانت تقصد خانة «المخبرين وأشكالهم»، دون أن تقصد أنني مخبرة. فمن يقع في تلك الخانة شأنه شأن المخبرين، لا يكون مقبولًا أو محبوبًا أو مُحترمًا لا لدى هذا الطرف ولا الطرف الآخر، ولا حتى عند نفسه. أما أنا فيبدو أنني قد وقعتُ في الخانة الصعبة لا لأني لم أكن أخبر الآخرين عن حياتي فحسب، ولا بسبب برودي، ولا بسبب ارتيابي من الأسئلة. فالذي كانوا يحملونه عليّ أيضًا أنني لم أكن مثالًا للحبيبة المخلصة، وكأنه هو لم تكن له علاقات أخرى. بلى كانت لديه علاقات، وإحداها زوجته. وهكذا كنتُ أنا الجديدة، الفرنسية الصغيرة، المتسلّقة، الفاجرة. ومثل الوشاة، فحين تنتفي الحاجة إليك، أو تُستبدل، أو حين تكون قد أدّيت الغرض من وجودك، أو تُنحّى قبل أن تتمكن من تأديته، ينزعُ الآخرون إلى الانتقام منك، ربما تحت وطأة افتراضاتهم الخاصة عنك. تلك هي الخانة الصعبة. كانت شديدة التعقيد، تستوعب أي شيء حتى المتناقضات، ثم تقلّصها كلها في إجراءٍ واحد شامل. لكنّ الصديقة كانت مخطئة؛ فلم أقع في الخانة الصعبة، بل دُفعت إليها دفعًا.

قلتُ لها: «حسنًا، سأكفّ عن هذا»، وكنت أعني القراءة أثناء المشي. فقد قفزتُ إلى موضوع القراءة أثناء المشي كي أتهرّب من موضوع العناد. إن كان ولا بدّ أن أفرّط في شيء، فالأفضل أن يكون هذا. ردّت الصديقة: «أحسنتِ. اعْمِلي رغيفكِ[1]، وكفي عن العناد. حسّني من تصرفاتك،

(1) «Use your loaf» أي حكّمي عقلكِ، من الدارجة المنغّمة التي نشأت شرق =

وترجّلي من حصانك العالي وامنحي الناس شيئًا من التعامل الودود. امنحيهم شيئًا يرضيهم وإن كان تافهًا، بدلًا من صمتك الذي يستفزّهم. وإن توقفتِ أيضًا عن القراءة أثناء المشي فسوف يحسّن هذا من الوضع». أومأتُ لها لكنني قلتُ إنّ التوقف عن القراءة أثناء المشي لن يكون «أيضًا»، أي لن يكون مضافًا إلى شيء آخر، بل بديلًا. فقد كنت أحتاج إلى الصمت، والاستعصاء، كي أتترّس من خدش الآخرين وتحرّشاتهم بالأسئلة. كنتُ على عكس الصديقة أرى أنني إن حاولت أن أسترضيهم بالمعلومات فلن أجني إمساكهم عني، بل سوف أشجّعهم على الاقتراب أكثر. وإضافة إلى ذلك فلم أكن أرغب في استرضائهم. ظللتُ على موقفي. فهذه هي النتفة الوحيدة التي تبقّت لي من القوة، في مواجهة عالمٍ يظلّ يسلبني قوتي. فقالت الصديقة: «كوني حذرة إذن»، وهذا ما كان يقوله الجميع. لطالما أوصانا الناس بأن نتوخّى الحذر. ولكن كيف للمرء المسكين على هذه الأرض أن يتوخّى الحذر حين لا تكون الأمور في يده، وحين يرى الأشياء تتآزر ضدّه؟ لذلك تحدثتُ عن المشي والكتب على سبيل التسوية، لأنّ التنازل عنهما أسهل. ولم أندم على ذلك، فلم يعد هذا الأمر يرفدني بالمتعة كما كان. كنتُ أسترخي في ذلك الفعل، حين أخرج من البيت وأُخرج الكتاب من جيبي، ثم أغوص في الفقرة التي توقفتُ عندها، لكنّ هذا كله تغيّر منذ أن بدأتْ المطاردة، ومنذ أن بدأتْ الشائعات، ومنذ أن بدأت قوات الدولة ترتاب مني وتصادر «مارتِن تشَزلِوِت» لأسبابٍ أمنيّة[1]. وهناك أيضًا مسألة مراقبتي

= لندن في الأربعينيّات الميلاديّة «الكوكني»، حيث تستبدل مفردة بعبارة أو بمفردة أخرى من عبارة شائعة تتناغم معها صوتيًا، فتبدو مبهمة لمن ليس على إطلاع بها.

(1) رواية حياة مارتِن تشَزلِوِت ومغامراته «The Life and Adventures of Martin Chuzzlewit» للروائي الإنجليزي تشارلز دِكنز، وقد نشرها مسلسلةً بين عامَي 1843 و1844م. وهي آخر رواياته البيكارسكيّة. ولعلّ الكاتبة اختارت=

أثناء القراءة، والإبلاغ عن قراءتي، وتصويري سواء أكنتُ أقرأ أم لا. فكيف يستطيع القارئ أن يركّز في روايته ويستمتع بها في ظلّ هذا كله؟

وفيما يتعلق بقوات الدولة فقد قالت لي الصديقة ألا أقلق من الكاميرات أو التكتكات أو تخزين البيانات، فقد كان من المحتوم أن يخصصوا ملفًا عنّي في كلّ الأحوال، حتى من قبل ظهور مِلْكْمَن. قالت: «الجماعة كلّها جماعةٌ مُشتبه بها. لكلّ شخص ملف، وهناك رقابة مستمرة على كل بيت وكل حركة وكل علاقة. يبدو أنكِ الوحيدة التي لا تعرف هذا. فلا غرابة أن يكون لكل شخص ملف لديهم، بالأخذ في الاعتبار كل ما يفعلونه من مراقبة، وتسلّل، والتقاط، وتنصّت، ورسم لمخططات الغرف، وتحديد أماكن الأثاث، ومواضع الزينة، ونوع ورق الحائط، إلى جانب قوائم الخاضعين للمراقبة، والتصنيف وفقًا للمناطق، وقطع البث، وبثّ أشياء أخرى، وأناشيد «الأوزّة الأم» وقراءة الطالع بأوراق الشاي، ومروحيّاتهم طبعًا التي تحلّق فوق أماكن مجدبة قصيّة مريرة. فإن كان هناك شخص يعيش في منطقة يريدها المناوئون وليس لديه ملف، فذلك دليل أكيد على أنّ ثمة أمرًا مريبًا حول هذا الشخص. بل إنهم يصوّرون حتى الظِلال. إذ يمكن فكّ شفرات الناس هنا ومعرفة هيئاتهم من خلال الظلال والأطياف». فقلتُ وقد انبهرت: «إجراء دقيق جدًّا». فقالت الصديقة إنه لا بدّ وأن كان هناك ملف عني من قبل ظهور مِلْكْمَن، بسبب علاقاتي الأخرى. فلمّا هممتُ بسؤالها عن العلاقات قاطعتني وقالت: «يا إلهي! لا أكاد أصدّق. أين عقلك! أين ذاكرتك! ما بال كل هذه الانفصالات الذهنية عن وعيك! **أقصدني أنا! علاقتك بي! إخوتك! أخاك الثاني! أخاك الرابع!**». وبدأت تهزّ رأسها. «هذه الأشياء التي تلاحظينها ولا تلاحظينها يا صديقة. الحاجز الذي تضعينه بين عقلكِ وما

= هذه الرواية تحديدًا لأنها تتحدث عن الأنانية.

يحدث في الواقع. هذا العطل الذهني. كلّ هذا ليس طبيعيًا. ليس سويًّا. كل هذا الإدراك، وعدم الإدراك، والتذكر، وعدم التذكر، ورفضك الاعتراف بالمسلمات الواضحة. لكنكِ أنتِ تشجعين ذلك، فكل تلك الإخفاقات الذهنية واختلال الذاكرة - بل حتى حادثة الشرطة الأخيرة - أمثلة على ما أتحدث عنه». توقفتْ كي تلتفت ناحيتي وتحدّق في وجهي، فشعرتُ بالإهانة لكنني ذُعرت أيضًا، وكأنها سوف تلقي بي في أي لحظة إلى أبعادٍ لا أودّ الذهاب إليها. قالت: «لا عجب أنهم أصبحوا يوقفونك ويفتشونك أكثر من السابق»، فقلتُ معترضة: «ليس أكثر. لم يوقفوني ويفتشوني من قبل، وأصبحوا يفعلون ذلك بسبب مِلْكْ—»، قاطعتني: «لا، بل يوقفونك لأنكِ تجذبين الانتباه إليك بسلوكك المتجاوز للأعراف في القراءة أثناء الـ—»، «لا، ولو كان هذا صحيحًا لأوقفوني من قبل أن يظهر مِلْكْ—»، «بل كانوا يوقفونك وما يزالون يوقفونك. إنهم يوقفون الجميع!». وهنا تحوّلتْ نبرتُها من التحذير إلى التسليم. «أعتقد أننا حتى في هذه اللحظة نمرّ بنوبةٍ أخرى من نوبات الجامي فو التي تصيبك». فسألتها: «ماذا تقصدين بـجامي فو التي تصيبني؟»، ثم سألتها أيضًا: «وماذا تقصدين بأنها نوبة أخرى من الجامي فو؟ هل تقصدين أنني أصاب بنوبات متكررة من الجامي فو؟، وهنا بدا لي أنني مثلما كنت أحجب عن ذاكرتي كل محاولاتي المتكررة لإقامة علاقة حقيقية مع شبه الحبيب، فأعتقد في كلّ مرة أنها المحاولة الأولى في تطوير علاقتنا، ها أنذا أيضًا كما تقول الصديقة أتوهّم أنّ قوات الأمن لم توقفني من قبل، بينما من الواضح أنني قد أُوقفت، كما قالت، طيلة الوقت. قالت إنّ الأمر في البدء كان إجراءً روتينيًا، مجرد إيقاف عابر، على نحوٍ اعتيادي كما كانوا يفعلون مع كل من يدخل أو يخرج من مناطق المناوئين. أما الآن، - وليس بسبب حلّاب، وإنما بسبب ازدياد تجاوزي للأعراف - فلم تعد الإيقافات

عابرة، بل أصبحوا يوقفونني أكثر من السابق بكثير. وهنا أنهت كلامها عن المراقبة فقالت إنه لا ينبغي لي أن أبالغ في القلق من الانطباع الرسمي الذي يأخذونه عن سلوكي. فبالأخذ في الاعتبار أنني أصبحت متجاوزة للأعراف، ومعروفة بالقراءة أثناء المشي كما لو أنني أقرأ جالسة، وأميل، وفقًا لكلام الجماعة، إلى القراءة بالمقلوب، من الصفحة الأخيرة إلى الأولى كي أستبق مفاجآت السرد لأنني لا أحب المفاجآت، وأنني أضع مؤشرات في الكتب كي أعود إلى الصفحة التي توقفت عندها لكنني أضعها في أماكن غير صحيحة بغية التضليل لكي أخدع الناس بسبب شخصيتي الارتيابية، وأنني كما يقال مهووسة بالعدّ فأحصي السيارات وأعمدة الإنارة وأضع إشارات ذهنية على المعالم التي أمرّ بها فيما أتظاهر بتوصيف الطريق لأشخاص خفيّين - كلّ هذا وأنا أقرأ أثناء المشي -، وأنني لم أكن أحب صور وجوه الناس في الكتب أو أغلفة الأشرطة أو حين تُعلق في براويز على الجدران فذلك يشعرني بأنهم يتجسسون عليّ، وأخيرًا أنني كنت أحمل حيوانات ميتة في جيوبي، إن أخذنا كل هذا في الاعتبار كما قالت الصديقة «فما أهميّة العلاقة الغرامية مع مناوئ بارز، ومن الذي سيهتم بها في وسط ذاك الجنون كله؟»

حل بعد ذلك الجانب الخفيف من أمسيتنا، مثل الخبر اللطيف في نهاية النشرة الإخبارية. تناولنا شرابنا واتكأنا، فيما الصديقة تخبرني عَرَضًا أنّ صهري الأول هو الذي أطلق الشائعات عني. قالت: «ولكن لا تشغلي بالك. يجري التعامل معه حاليًا وعما قريب سيعود إلى صوابه». ولم يكن غريبًا أن تنبع عودة الصهر الأول إلى صوابه من هوسه الجنسي الجديد. فهذا الهوس الجديد دفعه إلى زيارة الراهبات - أي المقدّسات في جماعتنا - وطرح أسئلة حول الاستمناء متخفّية في شكل استفسارات ثقافية بريئة عن الفنّ. قالت الصديقة: «ذكر لهنّ تلك المنحوتة، تمثال الراهبة تيريزا الأفيلاوية،

صاحبة الاسترفاعات[1]». عرفتُ التمثال الذي تقصده، وعادت بي الذاكرة إلى سنّ الثانية عشرة حين تصفحتُ كتابًا في غرفة الفنون في المدرسة، فقلبت صفحة رأيتُ بعدها صورة التمثال ووثبتُ مبتعدة وأنا أصرخ حين أدركت ما كنت أنظر إليه. لم يكن ما رأيت متوقعًا، وجاءني على حين فجأة. الملابس الفضفاضة الملقاة على جسدها، ملابس الراهبات، وهي بداخلها، تختنق بداخلها، فيما الملابس تنبض بالحياة وتبتلعها. الطيّات واللفّات والطبقات المتحركة، بالطبع أخافتني. الصورة نفسها نفّرتني، لكنها استحوذت عليّ. وبعد أن أفقت من نفوري وعدت أنظر ثانية، وثالثة، ورابعة، وخامسة - وفي النظرة الخامسة فقط استوعبت وجود الملاك الذي يحمل العصا -، قلتُ في نفسي ربما لو لم تكن تلك الملابس على جسدها، لكانت الصورة أقل إرعابًا. ولكن ماذا لو صحّ ذلك، وكانت في تلك الحالة من الالتواء - بذراعيها العاريتين وساقيها العاريتين وأشياء أخرى عارية هنا وهناك - وذلك الوجه بنظرته تلك - العاجزة، التاركة، المستمتعة بنفسها، أو ربما نقيض الاستمتاع بالنفس - وذلك العريّ والصلاة - لكنّ ذلك لم يكن يبدو صلاةً، يا إلهي، أوهكذا تكون الصلاة -. فلمّا فكّرتُ ثانيةً، قررتُ وأنا ابنة الثانية عشرة أنهم ربما أحسنوا حين وضعوا الملابس هكذا مهملة وكثيفة على كامل جسدها.

ذهب الصهر الأول إلى الدير يحمل معه قصاصة من مجلّة فيها صورة

(1) الإشارة هنا إلى تمثال «نشوة القديسة تيريزا- The Ecstasy of Saint Teresa» للنحّات الإيطالي جان لورينزو بيرنيني. وقد اقتُبس التمثال من إحدى رؤى النشوة الروحية التي دوّنتها القديسة في يومياتها، إذْ قالت إنّ ملاك الساروف قد زارها في إحدى لحظات الاسترفاع الصوفيّ وشرع يطعنها برمحه المذهّب ذي اللهب المشتعل، طعنات متفرّقة بلغت أحشاءها، وزاوجت بين الألم والنشوة الروحية، فتضاعفت في قلبها محبّة الرب.

التمثال ذاك. ومن الواضح أنّ عاشق الفنون هذا كان يحملها معه منذ مدة. قال: «حسنًا يا أخوات، فيما يخصّ هذه الصورة المؤثّرة لهذا التمثال التعبّدي، كيف تنظرون إلى النشوة، وهذا التأوّه التأمّلي الصوفيّ الشهواني - العذب كما يبدو لي -، وفي الوقت نفسه يبدو تصويرًا مجونيًا عنيفًا لهذه الحالة؟ هل يمكن القول» - وهنا بدا منهمكًا، جادًا، يتظاهر بالدافع الفنّي ويخفي انحرافه الجنسي - «هل يمكن القول إنّ هذه المرأة في اتحادها الكامل مع الرب، هذه الراهبة - مثلكنّ تمامًا -، ربما كانت مستثارة للغاية وتُمتع نفسها من خلال مجاز الاسترفاع؟ أما ما يخصّ ملاك الساروف هذا الذي كان يغرز ويغرز، من منطلق تجربتكنّ الخاصة—».

وهذا أقصى ما استطاع الوصول إليه.

قالت الصديقة إنه كان مكشوفًا بالطبع، فالراهبات لسن حمقاوات أو جاهلات بالفنّ، ولم يكنّ جاهلات بما يُعرف عنه من انحراف جنسي قهري. بل كُنّ يصلّين من أجله. والحقيقة أنه كان يحتلّ الصدارة في قائمة أسماء طويلة لديهنّ عن الأشخاص الذين يحتاجون إلى الصلاة من أجلهم. لكنهنّ طردنه، فقد تجاوز الأمر مرحلة التحضّر، أو الدعوة الهادئة إلى الخروج من المكان، أو اللباقة الكافية لاعتباره نفسًا روحانية في درب الحياة مثلما هُنّ أيضًا أنفس روحانية في درب الحياة. هكذا طردنه، أو بالأحرى طَرَدتْه كبيرة الراهبات الأخت ماري بيوس، بعد أن صفعتْه بقية الراهبات على وجهه. بعد ذلك زارت كبيرةُ الراهبات نساءنا التقيّات، أولئك اللاتي يعملن وسيطات بين النساء المقدسات ومناوئي الدولة في منطقتنا. فلما سمعتْ النساء التقيّات بما حدث ذهبن إلى المناوئين، وعندها قرروا للمرة الأولى أن تخضع تصرفات الصهر الأول للمراقبة.

قالت الصديقة: «هذا الرجل حريز»، فقلت: «نعم، صحيح. هذا ما خطر

لي، ولكن يبدو أنه لم يعد كذلك. ما الذي سيحلّ به؟ ماذا سيفعلون به؟».
لم أسألها بدافع الاهتمام بأمره، بل من أجل الأخت الأولى، زوجته، أختي، رغم أنّ الأخت الثالثة حين سمعت بالأمر أبدت سعادتها لأنه سيلقى جزاءه ولم تكن تتعاطف معه أو تدعو له بالرحمة، وذلك لما كان منه من أذى شديد، وشهوة نهِمة، وافتقار للحشمة، وإدمان شَرِه يتحول معه كل شيء وكل كائن - ما دام أنثى - إلى هدف لا بد أن يستولي عليه. لم يكن يتحكم في نفسه. وهذا يشملنا نحن أخوات زوجته بدءًا من سنّ الثانية عشرة، إضافة إلى الفتيات الأخريات في منطقتنا، أو حتى الراهبات كما انكشف الآن. كان كلّ شيء عنده يدور في حقل الجنس، ولا يعرف هذا الرجل كيف يتفاعل في أي حقل آخر. لهذا السبب حاولتُ أنا والأخت الثالثة أن نتحدث إلى الفتيات. لكنّ الأخوات الصغيرات قلنَ إنهنّ لسن بحاجة إلى تحذيرنا كي يصبحن متأهبات لشيء محمومٍ وشَرِه من الصهر الأول؛ لأن إصابته باضطراب عصبي قهري مقرف، واضحة لكل الأعين التي تراه. «ولكن ما دخلنا بهذا؟ لماذا تخبراننا به؟ لماذا تحذراننا نحن من الصهر الأول؟»، فقالت الأخت الثالثة: «لو حاول فعل شيء»، «حاول ماذا؟»، «حتى لو تحدث لكنّ بما يبدو أنها طريقة بريئة في موضوعٍ ما، لنفترض مثلًا الثورة الفرنسية—»، «أي جانب من الثورة الفرنسية؟»، فقالت الأخت الثالثة: «لا يهم. أو حتى لو حاول أن يخوض نقاشًا معكنّ في تلك النظرية العلمية المغمورة التي شغفتنّ بها، تلك النظرية المتعلقة بالمياه الحرارية متعددة الاضطراب—»، فصاحت الأخوات الصغيرات: «اسمها ليس كذلك أيتها الأخت الثالثة»، فقاطعتهن: «ما تريد أن تقوله الأخت الثالثة هو أنه لو حاول أن يلفّ ويدور حول اختلاف ديموستنيز مع ألسيبياديز، أو إن ظهر بغتة وحاول أن يسهب في فرضية أنّ فرانسيس بيكن هو وِليَم شكسبير، وأقصد بالإسهاب—»، «نعرف ما يعنيه الإسهاب في الفرضيات!»، فقالت الأخت الثالث: «ما تريد أن تقوله الأخت

الوسطى هو أنه لو قدّم عرضًا موجزًا عن توقيع غَي فوكس قبل التعذيب وتوقيعه بعد التعذيب، وأقصد بالعرض الموجز—»، «نعرف ما يعنيه العرض الموجز!». فقلت: «اسمعنَ أيتها الأخوات الصغيرات، المهم هو أنه إن حاول أن يغريكنّ بذريعةٍ ما، مثل العلم أو الفنون أو الأدب أو اللغويات أو الأنثربولوجيا الاجتماعية، أو الرياضيات، أو السياسة، أو الكيمياء، أو القناة المعويّة، أو التلطيفات اللغوية الغريبة، أو المحاسبة المزدوجة، أو أقسام النفس، أو الأبجدية العِبرية أو العدميّة الروسية، أو الماشية الآسيوية، أو الخزف الصيني من القرن الثاني عشر أو الوحدة اليابانية—»، فصرختْ الأخوات الصغيرات: «وما الخطب في الحديث عن هذه الأشياء؟»، فقالت الأخت الثالثة: «المشكلة هي أن تُخدعن بها. فلن يكون همّه تلك المواضيع، وإنما يسعى إلى شيء آخر». «وماذا سيكون همّه إذن؟ ما الذي يسعى إليه؟ ما الذي تقصدانه؟». لقد أدركنا أنا والأخت الثالثة أنّنا لم نطمْئِن الطفلات ونحميهنّ، بل أفزعناهنّ فقط. فقالت الأخت الثالثة: «سيكون شيئًا مؤذيًا، انتهاكًا جنسيًا، شيئًا مريبًا، ودائمًا ما يكون لفظيًا. ولكن لا عليكنّ. ما زلتنّ صغيرات جدًا على معرفة هذا».

قالت الصديقة: «سيأخذونه»، وكانت تقصد إلى المحاكمة، فقد كانت هناك محاكمات. قالت: «هذا إنذاره الأول»، فقلتُ لها: «لا ينبغي أن يكون الأول. لقد تعرّض لي حين كنتُ في الثانية عشرة». قالت: «رُبما يُجلد، وهذا تجاوزٌ لمرحلة الإنذار، بسبب إيحاءاته للنساء المقدسات». قلت: «لن يُعجب هذا ذوات القضيّة»، فعبست الصديقة الأقدم، وظننتُ في البدء أنّ عبوسها كان بسبب إشارتي إلى مشكلة الهرميّة النسائية، أي افتراض أنّ النساء اللاتي كرّسن أنفسهن للربّ، صاحبات الرؤى والملابس الفضفاضة ينبغي أن يُقدَّمن على غيرهنّ من النساء، وعليه من تأتي بعدهن؟ الزوجات؟

الأمهات؟ العذراوات؟ ولكن تبيّن أنّ عبوسها لم يكن بسبب إشارتي إلى إصرار ذوات القضيّة على أن يكون كل شيء عادلًا، أي ليس أبويًا بطريركيًا، وإنما بسبب إشارتي إلى عملها رغم ذلك الاتفاق الضمني بيننا على أن لا أتدخل في شؤونها. ولكن هي التي بدأت، فهذا اللقاء كله من أوّله ضمن عملها. هي التي أرسلت ذلك الشخص، الفتى المستطلع، كي يرتب اللقاء بيننا. قلت لها: «أنت التي بدأتِ». فقالت: «اضطررتُ إلى ذلك، بسبب تدهور حالتك الذهنية، ولأنني قلتُ في نفسي بعد كل هذا الانتقاد القاسي لعيوبك ربما تحتاجين إلى شيء يبهجك، لذلك أخبرتك عن صهرك الأول. لكنكِ محقّة. لندع هذا ونتمسك بالحديث عن القضايا غير السياسيّة من الآن فصاعدًا».

بعدها انتهى لقاؤنا في الردهة، ومنذ ذلك اليوم التقيت الصديقة الأقدم ثلاث مرات فقط. كانت إحداها في حفل زفافها في الريف بعد أربعة أشهر، وكنتُ الوحيدة - باستثناء الرجل المقدّس الذي جاء لإقامة الطقوس - التي لا ترتدي نظارة سوداء. كان الكل يرتدي نظارة سوداء، حتى العريس والصديقة الأقدم بفستانها الأبيض. ثم التقيتها بعد زفافها بعام، هذه المرة في جنازة زوجها. وبعد ثلاثة أشهر ذهبتُ إلى جنازتها هي حين دفنوها إلى جانب زوجها. كان هذا في مكان المناوئين في المقبرة، شمال منطقة العشر دقائق، المكان المعروف أيضًا باسم «المقبرة التي لا تخصّ بلدة بعينها»، و«المقبرة القابعة خارج الزمن»، و«المقبرة المزدحمة»، أو المكان المعتاد.

الفصل الخامس

تلك الفتاة التي كانت في واقع الأمر امرأة وكانت تمضي بين الناس تدسّ السمّ في مشروباتهم سمّمتني دون أن أعلم، ولم أعرف حتى عندما أيقظني ألم قاتل في معدتي بعد ساعتين من النوم. في أول الأمر ظننتها واحدة من حالات الرعدة، جاءت بتلك الوخزات التي تصحبها، ذلك الإحساس المريع الذي بات ينتابني منذ ظهور مِلْكُمَن. ولكن لا. لقد دسّت فتاة الأقراص شيئًا في شرابي. حدث هذا في النادي حين كنتُ مع الصديقة الأقدم ننتهي من نقاشنا الذي ظننتُ أنه سيكون عن مِلْكُمَن فتبيّن أنه عن تجاوزي للأعراف. ذهبتْ الصديقة إلى دورة المياه فلمّا أصبحتُ وحدي إلى الطاولة تسلّلتْ الفتاة التي كانت في واقع الأمر امرأة ووقفتْ أمامي. ومن فورها اتهمتني بجرائم ضدّ الإنسانية، وبأنني أنانية، وسمّمتني، وكلّ هذا قبل تمكّني حتّى من أن أقول لها اغربي عن وجهي. قالت: «لا بدّ أن تخجلي من نفسك»، لكنها لم تكن تشير إلى علاقتي الغرامية بمِلْكُمَن، وقد افترضتُ ذلك لأنّ هذا ما كان يشير إليه الجميع آنذاك – رغم أنّ الأمر لا يخصّهم –. لكنها كانت تشير إلى تواطئي مع مِلْكُمَن لقتلها في حياةٍ أخرى. ويبدو أنني، إضافة إليها، كنت مسؤولة عن مقتل ثلاث وعشرين امرأة أخرى، «بعضهنّ من المعالجات بالأعشاب، لا يملكن إلا أدويتهنّ البيضاء البريئة، وبعضهنّ لم يفعلن أي شيء»، ويبدو أنني ارتكبت هذه الجرائم حين كنا كلّنا – الستة والعشرون شخصًا – في تلك الحياة الأخرى. كانت تقصد أننا كنا متجسّدين في حياة أخرى في القرن السابع عشر وقد أعطت تواريخًا وأوقاتًا لتلك الأحداث، وقالت إنه كان

طبيبًا، لكنه كان واحدًا من أولئك الأطباء الدجّالين. وحينها بدت ثائرة على اصطفافي معه، ومرافقتي لرجل دجّال كهذا رفقة قطة الساحر له. قالت أيضًا إنه لا جدوى من إنكار معرفتي بدَجَله. بل إنني حرّضته، ومن أجله مارست السحر الأسود، إذْ قطّعتُ له جِيف الحيوانات، وكنتُ شريكته في قتل أولئك النساء الثلاث والعشرين، وهي معهنّ، في قريتنا الخلّابة. «أختاه، لقد مِتنا كلّنا من جريرتك». وقالت إنني لهذا السبب أستحقّ ما سوف يحلّ بي. وعندها أخرجتُ نفسي من شتات تنويمها المغناطيسي وقلت: «ألا تغربين عن وجهي عليك اللعنة!». وحين عادت الصديقة الأقدم سألتني عمّا حدث، فهززتُ رأسي قائلة: «آه، فتاة الأقراص». فحذّرتْني الصديقة الأقدم كي أنتبه إلى تصرفاتي مع فتاة الأقراص، لأنّ «حالة تلك الفتاة المسكينة، التي كانت في واقع الأمر امرأة، تزداد سوءًا».

هكذا كان الأمر إذن. فأسوأ المتجاوزين للأعراف سمعةً لدينا كانت هذه الفتاة، المرأة في واقع الأمر، الصغيرة، الحوتكة التي تقترب من سنّ الثلاثين وتدسّ السم في مشروبات الآخرين. لوقتٍ طويل لم يستطع أحد أن يستشفّ منها تفسيرًا لهذه المسألة. لا بد أن ما حزرته الجماعة بخصوصها نابع من شح المعلومات، إذ قال الكثير بأنها تفعل ما تفعله بدافع مظلمةٍ نسويّة. لم يوضّحوا تلك المظلمة، لكنهم قالوا إنّ ذوات القضيّة - وهنّ تجمّع متجاوز للأعراف - شوهدن وهنّ يتحدثن إلى فتاة الأقراص، ربما كنّ يجهّزنها لشيء ما، أو يغسلن دماغها بحركتهن هذه، وبذلك قد تكون قضايا النسويّة المتطرفة هي السبب الوحيد الذي يدفعها إلى محاولاتها المستمرة لقتلنا جميعًا. أنكرتْ ذوات القضيّة هذه التهمة، وقلن إنّ هذا محض سوء فهم لأهدافهن، كما أنّ الجماعة لا تملك حتى شبهة يشهرونها في وجوههن. وقلن أيضًا إنّ فتاة الأقراص ضلعت في تسميم الناس من قبل أن يتحدثن معها، وإنهنّ لم

يتحدثن معها إلا لفهم الأمر ومحاولة إيقافه. لذلك فمن المستحيل أن يفهم المرء مغزى ما تفعله هذه الإنسانة الضاوية بمجرد تخمينٍ ارتجالي طائش. وهكذا استمرتْ محاولات التفسير، ومعها استمر تداول تلك التفسيرات ورفضها. وفي الوقت نفسه استمرت في التسميم، وغالبًا ما استمر خلال رقص ليالي الجمعة في أشهر نوادي الشرب في الحي، أي في المكان نفسه الذي استمرت فيه التفسيرات، في المكان الذي كان من الضروري الحذر فيه من فتاة الأقراص.

كان من المهمّ جدًا أن تحذري منها إذا ما كنتِ ترقصين مع حبيبك أو أصدقائك، فيما كؤوس المشروبات متروكة على الطاولة. كانت فتاة الأقراص قبل أن تدخل، تسبقها دائمًا مجموعتان. فأولًا، يدخل مناوئو الدولة بملابسهم السوداء وهم يرتدون أقنعة البالاكلافا و يحملون مسدساتهم، كي يتأكدوا من خلوّ المكان من القُصّر أو الأشخاص غير المرغوب فيهم. جرت العادة أن يكون هناك العديد من القُصّر أو غير المرغوب فيهم، ولكن لم يحدث قطّ أن طُرد واحد منهم. كانت مجرد مسرحية. يعرف الجميع أنها مسرحية، استعراض قوة، واحدة من العروض الرسمية التي تُقام أسبوعيًا. كانوا يذرعون المكان، بمظهرٍ حازم، يتفحّصون، ويشهرون أسلحتهم، ويُنهون فحصهم ثم يغادرون، ثم تدخل مجموعة أخرى فتقدّم مسرحية أخرى. إذ يدخل الجنود الأجانب، جيش الاحتلال من بلد «ما وراء البحر». وهم أيضًا يرتدون زيّهم الرسمي الخاكي، وخوذاتهم، ومسدساتهم، يبحثون عن المناوئين، أولئك الذين كانوا هناك قبل ثوان. ولا يخطر ببالنا إلا لمامًا حمّام الدم الذي يمكن أن يقع لو التقت المجموعتان. غير أنه لم يحدث ذلك قط في جميع ليالي الجمعة، طوال تلك السنوات. من الصعب أن يتخيّل المرء ألا يحدث هذا، وكنا نقول لا بدّ أنّ هناك تنسيقًا لا واعيًا، لقاءً لا واعيًا يحدث

بين المجموعتين. فيوحي جزء من عقل الطرف الأول الباطن إلى الطرف الآخر بسريّة فلا يعون جميعهم هذه المساررة: «الليلة ليلة الجمعة. لم لا نبسّط الموضوع؟ ما رأيكم لو تدخلون أولًا، وتغادرون، ثم ندخل نحن؟ وفي الأسبوع التالي ندخل نحن أولًا، ونغادر، فتدخلون بعدنا». لا بدّ أنّ هذا ما كان يحدث، فمن المستحيل أن يفقدوا أثر بعضهم البعض خلال عُشرٍ من الثانية، لا مرة واحدة ولا مرتين، بل مئات المرات. هكذا إذن كان أولئك الجنود يدخلون تباعًا، يؤدون مهمتهم، يتفرّسون في الموجودين، يستعرضون، يضفون ثقلهم على المكان، بينما الجميع - أي نحن، الشبان الواقفون في ساحة الرقص، أو إلى طاولات الشرب، أو من يقبلون بعضهم ويتعانقون في الظلام عند المشرب - غير آبهين بهم. وحالما تدخل فتاة الأقراص، فحسنًا، هذا أمر مختلف تمامًا.

«جاءت!»

«أسرعوا!»

«عودوا إلى طاولاتكم! انتبهوا! احذروا! فتاة الأقراص! فتاة الحبوب!»

بهذا يتهامس الجميع في النادي. يدبّ الهلع آنذاك في السكارى وفي من يتولى مراقبة المشروبات في هذا الأسبوع، أكان مراقب أو مراقبة. من كل مجموعة سيهرع واحد إلى طاولتهم مغادرًا ساحة الرقص أو دورة المياه أو المشرب أو العناق الخفيّ في الركن البعيد، حيثما كان - أو كانت - في تلك اللحظة فحتمًا سيغادر، لحماية المشروبات ومع ذلك نظلّ جميعًا متأهبين لظهورها. نلكز بعضنا البعض، نلتفت يمنة ويسرة، نتابعها وهي تذرع المكان وقد وجّهنا انتباهنا كلّه إليها، فيما كانت هي كالشبح، كالكابوس المرعب تنسلّ خفية وهي تتبرّم. قد يظنّ المرء أننا باحترازنا المفرط هذا وقد

كنا الأغلبية، قادرون على ردع فتاة الأقراص وحماية أنفسنا. غير أنّ هذه المقاتلة المنفردة كانت تنتصر في كل مرة بيدين مُرتخيتين[1]. لم يكن أحد يعلم كيف يتسنّى لها أن تفعل ذلك، لكنها تجد في كل مرة طريقة لدسّ السم دون انتباه الشخص المرابط عند الطاولة. كان هذا الشخص بشهادة الجميع يهرع إلى الطاولة ويحيط بالمشروبات كلها كي لا يسمح بأي فرصة ممكنة. ولم يكن أحد يتظاهر بالتهذيب في دفعها إلى الابتعاد. كانوا يصرخون بها «اغربي!»، ويصرّون على أنّ الصراحة أو الوقاحة هي الطريقة المثلى للتصرف في حالات التسميم هذه. ينهرونها وقد نبذوا اللباقة معها: «اغربي!». هكذا يقولون وقد انزلقوا إلى وقاحةٍ فظّة. فإن اضطروا إلى الاستمرار في هذا الصراخ الموجّه للمسمّمة الأنجح في الحيّ على مرّ العصور ولم تغرب عن وجههم بعد، فالمرجّح أن آلامهم أو آلام أحدهم ستتضاعف، وتتضاعف الهزيمة، ويتضاعف التهيّج، والارتعاش، والجزّ على الأسنان، والتلوّي، والتهام كل أنواع المواد المطهرة، فيصرخون ويتوسّلون لفرط إعيائهم، رجاة أن يأخذهم الموت فيتخلصون مما هم فيه، وكلّ هذا يحدث قبل انقضاء الليلة الطويلة وحلول الصباح.

هكذا إذن نفّرتْهم من نفسها، لكنّ الحيّ تعايش مع فتاة الأقراص رغم كل ذلك النفور. على أنه كان تعايشًا قلقًا، تعايشًا ارتيابيًا، تعايشًا سامًا، فالناس قد يشتاطون غضبًا ويرغبون في قتلها. ولم يخطر ببال أحد منا إمكانية طردها

(1) «الفوز بيدين مرتخيتين - to win hands down»: تعبير إنجليزي يُستخدم للدلالة على الفوز بسهولة، وهو مقتبس من عالم مسابقات الفروسية، إذ ينبغي للخيّال أن يشدّ عنان الفرس كي يدفعه إلى الجري بأقصى سرعته، وما إن يتصدر الفارس السباق ويضمن تفوّقه حتى يرخي يديه والعنان ويفوز دون أن يبذل مجهودًا إضافيًا.

من أشهر أندية الشرب في الحي، أو إيداعها في مصحة نفسية، أو سجنها، أو حتى أن تحبسها أسرتها في البيت، أو على الأقل أن نعدّ نحن جدولًا بنواظير يتناوبون على مرافقتها كلما خرجت، وبذلك لن يُضطر أحد البقية في كل ليلة جمعة إلى خوض تلك المحنة التسمّمية. ورغم الخطر الذي شكّلته، في ذلك الزمن المختلف، والوعي المختلف، والنظرة المختلفة إلى الحياة والموت والأعراف، إلا أنّ المجتمع احتملها، مثلما احتمل الجوّ، مثلما احتمل قضاء الرب، أو أولئك الجيشين في ليالي الجمعة. كان أقصى ما يمكننا فعله، نحن الجماعة، كما يبدو هو أن نصنّفها متجاوزة للأعراف. لذلك كان الباب دائمًا مفتوحًا لها، فظلّت تأتي وتواصل تسميمها. ثم غيّرت خطتها، وطفقت تسمّم الناس في بقية الأيام إضافة إلى أيام الجمعة، وبات سلوكُها أعصى على التفسير من ذي قبل.

قالت الصديقة إنها سمّمت أختها مؤخرًا، رغم أن الأسرة قد أبقت الأمر مستورًا، إذ التزموا الصمت حيال الحادثة. كانت فتاة الأقراص قد اتهمت أختها بأنها تمثّل جانبًا غير مقبول من شخصيّتها. قلتُ: «مهلًا. أتقصدين-»، فقالت الصديقة الأقدم: «نعم. شيء كحدوث انفصال قسريّ لجانبٍ منها». إذ بدا لها أنّ الحيّ لم يعد يتسع لجوانبها المتناقضة، وهكذا حفاظًا على حياتها بالأخذ في الاعتبار أنّ جانبًا منها كان مسمّمًا، فلا بدّ من التخلص من الجانب الآخر الذي لم يكن مسمّمًا، أي أختها. وقالت الصديقة الأقدم إنّ قدرة الجماعة على تفسير فتاة الأقراص تعقّدت منذ أن بدأت هي في تفسيراتها، وإنني إن كففتُ عن المشي بكتاب على وجهي وعدت إلى الواقع فقد أستطيع أن ألاحظ معاناة الجماعة في مواكبتها. كان الجميع بالطبع «يتحركون». فثمة نزعة ثابتة إلى «التحرّك معًا في مسار واحد»، وكان هذا يحدث طيلة الوقت. فوعي الجماعة الفطري كان يمكن أن يحتوي التبدّلات المقبولة، ولكن حين

يتعلق الأمر بمتجاوزي الأعراف مثل فتاة الأقراص (أو أنا، رغم أني كنت ما زلت أقاوم هذا التصنيف) فإنهم ينشقّون عن الجماعة ويتصرفون وفق أهوائهم. فعادةً ما يقال إنّ متجاوزي الأعراف يسخرون من العادات، ولا يتحركون كالبقية في مسار واحد، بل يمضون في غموض غير مقبول على مسارات متقاطعة أو ملتفّة، بل قد يتجاوزون التفافهم ويشطّون في مسار آخر تمامًا. وهذا ما فعلتْه فتاة الأقراص وهي تعتقد أنّ أختها كانت الجانب المضاد منها.

وأوضحتْ الصديقة أنّ الأخت الأصغر المُشرقة تسمّمت إلى الحدّ الذي يتطلب نقلها إلى المستشفى، بل إلى ما بعد المستشفى في واقع الأمر. فلفرط تسمّمها لم يكد يبقى شيء من جسمها. وبطبيعة الحال لم تُنقل إلى المستشفى، فالاتصال بالمستشفى شأنه شأن الاتصال بالشرطة هنا، يُعدّ تصرفًا طائشًا. فالمستشفى جزء من السلطات كما قالت الجماعة، والاتصال بها يستجلب سلطات أخرى، فإذا ما أُصيب المرء بطلقٍ ناري أو تسمّم أو طُعن أو جُرح بأي شكل لا يودّ الإفصاح عنه، فسوف تعلم الشرطة بذلك عن طريق المستشفى وتهبّ من ثكناتها في الحال. وما يحدث حينها، وفق تحذير الجماعة، هو أنّ قوات الدولة المعادية حين تكتشف الطرف الذي ينتمي إليه سوف تساومه وتخيّره بين أمرين. فإما أن يلفقون له شيئًا بحيث تظن الجماعة في حيّه أنه مُخبر، وإما أن يُصبح مخبرًا بالفعل ويزوّدهم بأسماء المناوئين في حيّه. وفي كلتا الحالتين عاجلًا أم آجلًا سيُلقي المناوئون بجثّته في مداخل المنطقة، برصاصة في رأسه وعشرة جنيهات مُتوقّعة في يده. لذا لا. وفقًا لقواعد الجماعة لا يودّ المرء التورط بالمستشفيات. وما الذي يدعوه إلى الذهاب إليها أساسًا، مع وجود أجنحة جراحية في المنازل الآمنة، وأجنحة لمعالجة المصابين في بعض المحال، وعطارة منزلية وأدوية كافية منتشرة في كل مكان؟

بالنسبة إلى أخت فتاة الأقراص، إذْ قطعتْ إلى القبر ثلاثة أرباع الطريق، فقد بذلت ما في وسعها هي وعائلتها والجيران أيضًا. بعد عمليات تطهير عديدة من السموم، حاول الجميع أن يقول إنها بخير. وفي أثناء تحسّنها، اتضح أنّ صحة هذه الشابة ونظرها لم يعودا كما كانا عليه في السابق، فتدخّلت عدالة الجماعة مجددًا على يد المناوئين. أُسقط في يد العائلة بسبب صلة الدم بين الضحية والجانية، فتوسلتْ إلى المناوئين أن يوقفوا العقاب ويمنحوا فتاة الأقراص فرصة أخرى لتخلّص نفسها. وقد أقسم المناوئون في آخر مرة أن يردعوا فتاة الأقراص بأنفسهم إن لم ترتدع عن سلوكها العدائي تجاه المجتمع. لذلك، وبعد أن ضربت بتحذيراتهم عرض الحائط قال المناوئون إنّ الوقت قد حان كي يبرّوا بقسمهم. وقالت الصديقة الأقدم إنّ المناوئين لم ينفّذوا تهديدهم على الفور، بل أخذوا يتداولون الأمر بعد توسّلات العائلة. وحينها استدعوا العائلة وقالوا لها: «حسنًا، سنمنحها فرصة واحدة أخيرة لا غير».

أنهينا شرابنا حينها وغادرنا نادي الشرب وعدتُ إلى بيتي وخلدتُ إلى النوم إلى أن أيقظني شيء خفيّ كان يتلوّى في غرفة نومي، يتلوّى فوق مفرش سريري، يدخل في فمي المفتوح وينسلّ عبر حلقي. وثبتُ صارخة: «**لقد دخل! استطاع الدخول! لقد دخلوا وأنا نائمة!**». ولكن قبل أن أستيقظ تمامًا وأستوعب ما كنت أقوله، اندلعت حرقةٌ في أحشائي. وكانت ثمة مرارة أيضًا في فمي، وقد ظننت في البدء أن حشوة الأسنان تسيء التصرّف. ثم قلت لنفسي إنه ليس سنًّا! ليس هذا سوى مِلْكمَن وتأثير رغبته في تملّكي. وحينها بدأ المغص، يدفع الهواء دفعًا من داخلي، يعتصرني، وعضلاتي تصرخ فأتصلّب ألمًا. ثم سقطتُ من السرير، وأنا ما أزال متصلّبة، وقد تحجّرت أحشائي. زحفتُ على ذراعيّ وركبتيّ، ونطحتُ الباب برأسي لأنني لم

أستطع أن أرفع رأسي لفرط تصلّبي. ساعتها لم أدرك كدمة الرأس، ولا ماهيّة الباب، ولا إلى أين أذهب حتى، لا أعرف عدا الحاجة للخروج وطلب النجدة.

فلما وصلتُ إلى بسطة الدَرَج حلّت بي آلام جديدة على هيئة أسهم متقاطعة. وبسببها اضطررتُ إلى التوقف عن الزحف في مكانٍ ما بين غرفتي ودورة المياه، وكنت أسمع أصواتًا غريبة خِلتها من المذياع وسوف تخبو. لكنني اكتشفتُ لاحقًا أنها كانت آنّاتي، وقالت الأخوات الصغيرات: «هل تصدّقين أنها أيقظت الجميع!». كان هذا بعد أربعة أيام من الحادثة، وكانت الأخوات الصغيرات يتحدثن باستمتاع عما حدث، وكنتُ ألزم الفراش وقتها، أتماثل للشفاء، في فترة النقاهة. روت الأخوات الصغيرات لي أمر الآنّات، وقلّدن بعضًا منها، ثم وصفن لي ما حدث في منتصف تلك الليلة، وقلن أيضًا إنني كنت شاحبة، «ولكن ليس بذلك الشحوب المريع الذي تبدين عليه عادة». قالت أكبرهن: «كان لونكِ أشبه بالحليب». وقالت الوسطى: «زجاجة حليب». وقالت أصغر الأخوات الصغيرات: «مثل حليب أبيض لُوِّن ببياض أنصع، فأصبح يضيء في الظلام». ثم اندلع شجار بين الأخوات الثلاث حول جزئية «الإضاءة في الظلام» وما إذا كانت صحيحة أم مُختلقة. ثم تجادلن أيضًا حول الوقت الذي ظهر فيه ذلك البياض الإضافي. هل كان **قبل** أن تطهّر أمنا والجيران معدتي أم **بعد** أن طهّرت أمنا والجيران معدتي؟ فقد طهّرت ماما والجيران معدتي فعلًا، إذ كانت ماما أول من وصل عندي على بسطة الدَرَج وطوّقتني بذراعيها، لكنني لم أدرك أنها صعدت إليّ بسبب ما كنتُ فيه. مع ذلك فقد شعرتُ بذراعيها القويتين وأنفاسها الدافئة وأدركتُ في تلك اللحظة أنني كنتُ في نعمة غامرة بوجود والدتي إلى جانبي. كنتُ أدرك أنني إن أمسكت بطرف ثوبها الليلي، وتسلقته،

فسوف أكون آمنة، ولن أعود وحيدة.

على أنها كانت وهي تنقذني تعنّفني بالطبع. فإلى جانب الفحص السريع لجسدي وأسئلتها التي كانت ترشقني بها - هل جرحني شيء؟ طُعنت بسكين؟ ماذا أكلت؟ ماذا شربت؟ هل أعطاني شخص غريب شيئًا غريبًا؟ هل تشاجرت مع أحد؟ هل ضربني أحد في رأسي؟ هل كل أصدقائي الثقات جديرون بالثقة؟ بماذا تسمّمت؟ -، جاءت أولى توبيخاتها. «ما الذي تتوقعينه يا صغيرتي حين تخطفين أزواج الأخريات؟ بالطبع ستحاول أولئك النسوة قتلكِ. مع كلّ تلك المعرفة التي تدّعينها بالعالم، كيف لم تعرفي هذا؟». لا أعرف ما الذي كانت تقصده ماما بمعرفتي بالعالم. فمعرفتي بالعالم كانت تتألف من «اللعنة!» و«اللعنة!» و«اللعنة!» دون أية حاجة إلى التفاصيل، فتلك الكلمات ذاتها هي التفاصيل. لكنّ ماما لم تكن قد انتهت من حديث الزوج والزوجة بعد. فظلّت تقول «ماذا تنتظرين؟»، لكن الحديث أصبح بتنويعات مختلفة فأنا أحيانًا ذات علاقات بعدة أزواج، وأحيانا بكلّ الأزواج، وأحيانًا بزوج واحد فقط، بمِلْكُمَن. صاحت: «حمقاء. طائشة! طائشة!». «مراهقة أنتِ وهو أكبر من ضعف عمرك!»، وهنا سكتتْ برهة كي تسندني لتأخذني إلى دورة المياه. ثم واصلت اتهاماتها واستنتاجاتها، وأضافت عابسة: «على أية حال، حين ننتهي من هذا يا بنيّتي أريد منكِ أن تسردي لي أسماء تلك الزوجات». في أثناء ذلك كنت ما أزال متكوّرة، لا أستطيع أن أمدّ جسمي، لا أستطيع أن أنهض، وموجات الألم تتصاعد، تندفع من الأسفل ثم تتفاقم - ما زالت على نحو متقاطع - وتعبرني. هكذا حملتني وأنا متكوّرة، وجعلتني ألفّ ذراعي حول عنقها وأنا أمسك الدرابزين باليد الأخرى، وفي الوقت نفسه كانت تلحّ عليّ أن أفصح لها عن نوع السمّ -«ولكن ما الذي وضعنه لكِ؟ هل تعرفين الشيء الذي وضعنه لك؟» - فاستطعتُ أخيرًا

أن أقول لها: «لا علاقة للزوجات بالأمر يا ماما. ولا الأزواج. ولا علاقة بِمِلْكْمَن. ولا سمّ». ثم - لم تنصت لأن فكرة أخرى تجول في رأسها الآن - حوّلت هي نفسها إلى حجر.

«يا ربّ السماوات! هل هم على حق؟ هل الجميع على حق؟ هل تلقّحتِ منه، من ذلك المناوئ، «الأول على قائمة المطلوبين»، ذلك الرجل الذكي، الحلّاب المزيف؟». فسألتها: «ماذا؟»، فالكلمة التي استخدمتْها غريبة، ولم أفهم ما تقصده. «تشرّبتِ منه؟ أنتج داخلكِ؟ فقّس داخلكِ؟ خصّبكِ؟ فعل شيئًا أزعجكِ؟ أحرجكِ؟ شوّشكِ؟ أشعركِ بالندم؟ تمنّيتِ لو لم يحدث - ربّاه، صغيرتي، أيجب أن أتلفظ بها؟». ولماذا لم تنطق بها؟ لماذا لم تقل حبلى؟ هكذا كان طبع ماما. كما لو لم يكن فيّ ما يكفيني لتزيدني. قبل أن أستقطع لي وقتًا من التسمم - الذي لم أدرك وقتها أنه تسمّم - وتطلب مني أن أخمّن آخر إشاراتها الخفيّة. لكنها لم تقف عند موضوع الحمل، فقد كان بمقدور ماما أن تقص على نفسها القصص المخيفة واحدة تلو الأخرى. فبعد ذلك جاءت حكاية الإجهاض، وكان عليّ أن أخمّن مقصدها أيضًا من تعابير على شاكلة «هل تناولتِ الدواء الطارد للديدان، أو النعناع البري، أو تفّاحة الجن [اليبروح]، أم هذا طرد مبكّر، أو عجز عن التشكّل»، ثم قطعتْ الشكّ والتخمين بقولها: «يا بنيّتي لا تخيّبي أملي فيكِ أكثر، وأخبريني الحقيقة. ماذا تناولتِ، وأيّ واحدة من الخالات الموسمات أعطتكِ إياه؟».

لم أكن أعلم أنّ هناك خالات موسمات في المنطقة، أو أنّ المناوئين قد يسمحوا لهنّ بذلك، أو ربما لم يستطيعوا إيقافهن. طبيعي أيضًا، أن تكشف لي ماما، ينبوع المعرفة، مثلما تفعل دائمًا، تفاصيل صادمة في الجانب الخفيّ من المنطقة حينما تتهمني في الوقت نفسه بأنني كنت أعرفها. ومرة أخرى إذن، لم تُشعرني بثقتها، ولم تصدّق أنني كنت صادقة، بل ولم تصدّق بأنني

ربما أكون صادقة، وأنني ربما أملك ما يكفي من فطنة كي لا أتورط مع رجل مثل مِلْكْمَن، ولم يشجّعني هذا كله كي أحثّها على أن تثق بي، ولماذا أفعل؟ ففي آخر مرة حاولتُ فيها اتهمتني بالكذب، وطالبتني بقول الحقيقة رغم أن الحقيقة هي ما قلته حينها. لم تكن تريد الحقيقة. كل ما كانت تريده هو تأكيد الشائعة. فما الفائدة إذن من محاولة تهدئتها، أو إقناعها بأنّ تلك الانقباضات والتصلّب وعجزي عن الوقوف، كلّ ذلك ليس بسبب السمّ أو أيٍ من خيالاتها، وإنما هو نسخة مركّزة مما يصيبني عادة؟ كنتُ أستفرغ بسبب مطاردة مِلْكْمَن، بسبب تتبّع مِلْكْمَن لي، ومعرفته بكلّ شيء عني، وترصّده للفرصة المناسبة، ومحاصرته إياي، وبسبب ما يطفح به هذا المكان من خباثة في التكتّم والتحديق والأقاويل. كنا أنا وماما إذن في تعارض، كعادتنا، لكنني بذلت جهدي حينها لأنني اشتقتُ في تلك اللحظة، وقد كانت لحظة وحيدة، اشتقت أكثر من أي وقت مضى إلى ثقتها بي، إلى أن تراني كما يليق بي. قلت لها: «لا علاقة للأمر بالزوجات يا ماما، ولا الأزواج، ولا يوجد جنين، ولا مومسات، ولا سمّ، ولا انتحار» - وقد أضفت الكلمة الأخيرة لأكفيها عناء أن تُضطر إلى قولها -. فقالت: «ما الأمر إذن؟»، وشعرتُ براحة عظيمة في ذروة الألم ولجّة التسمّم، شعرت بحسٍّ من السلوى لأنها توقفت برهة وقالت في نفسها ربما أكون صادقة. قد يكون من السهل أن أحبها. أحيانًا أدرك كم من السهل أن أحبها. وما لبثتْ تلك الراحة أن غادرتني، وكفّت ماما عن حيرتها ولمزها وشدّها واتهاماتها الزائفة كي تنادي الأخوات الصغيرات. كانت الأخوات الثلاث قد نهضن من أسرّتهن، يقفن خلفنا بمناماتهن.

أمرَتْهنّ أن يساعدنها فامتلأتْ الأخوات الصغيرات بهجة بذلك. كُنّ يعشقن الدراما، أيّ دراما، ما دامت دراما خالصة ويمكنهنّ أن يصبحن

جزءًا منها، أو يشهدنها على الأقل. هرعن إليها وتوقفن حيث أمرتهنّ ماما، فكنتُ بين الأربع يسندني وأنا أنزل الدرج ثم أفلتتني الأخوات الصغيرات حين دخلتُ دورة المياه، ظنًا منهنّ أنه ينبغي عليهن تركي هناك، فسقطتُ على الأرضية مع ماما. كان حادًا ومؤلمًا، ذاك السقوط، فأطلقتُ صرخة ألم. ثم أدركتُ أنّ الأرضية جيدة. كانت باردة، مصقولة، رحبة، لكنّ ذلك الشعور كان عابرًا، فما لبثتْ آلام جسدي أن فرضت نفسها مرة أخرى. فقد عادت إلى ساعديّ وركبتيّ، تجهّزني لشيء وشيك. في أثناء ذلك أمرت ماما الأخوات الصغيرات بأن يذهبن إلى غرفة نومها لإحضار مفتاح صندوق الأدوية في الحال. انطلقن من فورهنّ للتنفيذ، وهكذا تفعل الأخوات الصغيرات دائمًا، ثم ماما وقد استدارت، واصلت ضغطها على وسطي وهي تحثّني على أن أفكر! أفكر! إن لم يكن للأمر علاقة بشيء «مخجل» أو «طارد ديدان» أو «نعناع برّي»، فهل له علاقة بشيء قد أكلته؟ شيء شربته؟ هل كان هناك شخص غير مرغوب فيه يحوم حولي؟ لكنني آنذاك لم أستطع أن أجيب البتة. كنتُ ما أزال أعاني من المغص الشديد، ما أزال متصلبة في وضعية غريبة، أسحب نفسي تجاه الحوض، تجاه الأرضية، تجاه المرحاض، ثم أعود إلى الأرضية مجددًا. شعرتُ بشيء ضخم على وشك الخروج، ويبدو أنّ جسدي لم يكن مستعدًا لخروجه.

جاءت الأخوات بمفاتيح تتغتغ، فقفزت ماما وهي تصيح: «سأعود فورًا». قالت لهنّ ألا يتركنني أو يغفلن عني، وأن يحرصن على ألا أستلقي على ظهري أو أغفو، وأن ينادينها فورًا إن شابتني زُرقة أو حدث شيء آخر غَير التقيؤ. خرجتْ مسرعة وتحلّقت الأخوات حولي فشعرتُ بحرارة حماسهنّ أكثر من حرارة أجسادهن. ولم أكن أستطيع أن أرى أجسادهنّ لأنّ جبيني كان ملتصقًا بالأرضية الباردة في نوبة ارتياح مؤقتة. كنت أعلم

أنها مجرد مهلة قصيرة وسأعود إلى حالتي السابقة، وكنت أعلم ضرورة أن أستمتع بهذه الفسحة الجميلة قبل أن يندفع الألم مرة أخرى. لكنني ما إن وضعتُ جبيني حتى انطلقت الأخوات الصغيرات يهززني بقوّة: «لا، لا يمكنكِ النوم! مامي قالت ممنوع!».

عادت ماما وهي تحمل خلطة ذات رائحة كريهة ومنظر مخيف، في قنينة قبيحة صغيرة بسعة باينت[1] تقريبًا. وجاءت الجارات أيضًا يحملن دمجاناتهن ونواقيسهن الزجاجية وجرارهنّ الصفراء والخضراء والبنّية، والبلسم وشراب العشق والزجاجات الصغيرة والأعشاب والمساحيق والمقاييس والهاونات والمدقّات، وخزائن أدوية ضخمة، إضافة إلى محاليل أخرى يعتبرنها بمثابة «الإرث العائلي». هكذا ظهرن من العدم وقد كان ذلك معتادًا بين الجارات أثناء الحالات التي تستدعي «عدم الذهاب إلى المستشفى». كنّ مستعدّات مثل ماما، بأرديتهنّ الليلية وقد شمّرن أكمامهن. في البدء كان هناك مؤتمر في دورة المياه بين النساء اللائي كنّ واقفات فوق رأسي. سمعتُ كل شيء تقريبًا، ثم أكملتْ لي الأخوات الصغيرات لاحقًا ما فاتني عندما استيقظت. كُنّ يتجادلن حول الطريقة المثلى للتصرف، وقالت الأكثر تدقيقًا منهنّ إنّ الحث على الاستفراغ ليس تصرفًا حكيمًا ما دمنا لا نعرف المشكلة التي نتعامل معها. وقالت الأخريات ينبغي أن نجرّب، ومن الواضح أنه لا يوجد وقت يسمح بتحرّي الدقة، وأنّ الحلول السريعة البديلة ستفي بالغرض تمامًا. وقالت إحدى الجارات: «بمناسبة الحديث عن التمام، فهذا الوضع مطابق تمامًا لما حدث لتلك المسكينة التي سمّمتها أختُها». سألتها ماما: «أيّ مسكينة؟»، وقد انخفضت نبرات الأصوات، وفقًا للأخوات الصغيرات، عند هذه اللحظة.

---

(1) Pint: يعادل ثمن جالون.

قالت الجارة: «منذ بضعة أيام، ولا بد أن يبقى سرًا، يا جارات، إذ لم يتسرب بعد للجماعة، لكن تلك الفتاة الحوتكة، المرأة في الأصل، قد أصيبت بإحدى نوباتها. لقد سمّمت أختها، المشرقة. حضر بعض منا تنظيف معدتها، وخذيها منّا، حالتها كانت مزرية». أومأت الجارات فقد بدا أنّ معظمهنّ حضرن التنظيف، لكنّ ماما لم تحضر. والأخوات الصغيرات لم يحضرن، فصُعقن من أثر هذا الخبر. لا سيما الأخوات الصغيرات. فقد كُن يحببن أخت فتاة الأقراص بقدر حبّهن للدراما، وربّما أكثر حتى من حبّهن للدراما. فبصرف النظر عن الإثارة التي شعرن بها جرّاء السماح لهنّ في منتصف الليل بحضور مغامرة تشبه مغامرات إينِد بلايتن[1]، إلا أنّ هذه المغامرة بها شيء يفسدها، ولسنَ وحدهنّ من يعشن المغامرة. وعلى الرغم من إشراق تلك الفتاة وشخصيتها الودودة ونواياها الخيّرة وانفتاحها الذي جلب عليها ما حدث، إلا أنّ الجميع كان يحبّها، بمن فيهم كل الموجودين في دورة المياه. وهكذا شعرتْ الأخوات الصغيرات بالقلق في تلك الليلة حين سمعن ذلك الخبر، وماما أيضًا كانت قلقة. كنّ أربعتهن مصدومات. والحقيقة أنّ النساء كلهنّ كنّ مصدومات. سكتن فترة طويلة وكأنها لا تنتهي، كي يستوعبن ما حلّ بتلك الفتاة المشّعة، نسين خلالها أنّ فتاة أخرى ليست مشّعة مثلها كانت تُحتضر عند أقدامهن.

ثم قالت جارة أخرى: «كل هذا يستحق أن يؤخذ بعين الاعتبار، ولكن في واقع الأمر الحالة هنا لا تُقارن بتلك». فلمّا تحدثتْ جذبت انتباه الجميع إليّ وأنا فوق الأرضية. قالت: «الأخرى كانت في نظري أسوأ بكثير من

(1) إينِد بلايتن (Enid Mary Blyton) (1897-1968م): كاتبة بريطانية معروفة متخصصة في كتب الأطفال، كانت كتبها من الكتب الأكثر مبيعًا لفترات طويلة. (المحرر)

هذه». ووافقتها الجارات اللائي حضرن تنظيف الفتاة. مع ذلك، فبسبب تصوّرهنّ الخاطئ - بأنّ حالتي إنما هي نتيجة انتقام من زوجة مِلْكَمَن - فلم يُدركن أهمية كلامهن. ولا ماما أيضًا أدركت، ولا حتى أنا في تلك اللحظة. حتى حين خطرت أخت فتاة الأقراص في ذهني وأنا طريحة الأرض لم أدرك علاقتها الواضحة بما أصابني. بالطبع كنتُ قد شعرت بالأسف من أجل الفتاة عندما أخبرتني الصديقة الأقدم بما فعلتْه شقيقتها المجنونة، لكنه ذلك الأسف الذي نشعر به حيال أي شخص نسمع أنه مرّ بتجربة مريعة، دون أن نفكّر لحظةً أننا سنخوض التجربة عينها. كان ذلك إذن أسفًا عابرًا، شعورًا تافهًا بالأسف تجاه أخت فتاة الأقراص، ولم يكن شعورًا نابعًا من فهمٍ أو تعاطفٍ حقيقي. وأما تصوّري عن حالتي، فقد بدا من غير المنطقي اعتبار ألم المعدة هذا عائدًا إلى السمّ لا إلى الضغط العصبي - إذ أنّ حالتي العصبية كانت آنذاك في أوج سوئها منذ ظهور مِلْكَمَن -، وعندها أقدمت ماما على الشيء غير المتوقع وطرحت خيار المستشفى، فقالت إنها غير مستعدة لترك ابنتها تموت لأنّ تقاليد المجتمع تمنع استدعاء الإسعاف. كان كلامها بمثابة قنبلة. شهقت الجارات: «أوه، اسكتي!»، وتوسّلن إليها ألا تُكمل.

صاحت الجارات فيها: «هل جُننت يا جارتنا العزيزة! فكري جيدًا. لا يمكنكِ أن تأخذيها إلى المستشفى. فبالإضافة إلى تقاليد الحيّ التي تحظر الذهاب مخافة أن تستدعي حالتها استصدار تقرير من الشرطة، فكري في سمعة ابنتكِ التي تسبقها كما تعلمين، وبكل تأكيد سوف تسبقها هذه المرة إن أخذتِها إلى هناك وستصل قبلها إليهم. فإن اشتمّت تلك الشرطة الفاسدة أنّ عشيقة **ذاك الذي تعرفينه** موجودة في المستشفى، فسوف يرون أنّهم حازوا على أفضل طعم ليصطادوا به واحدًا من أبرع المناوئين في التخفي». وقالت جارة أخرى: «لماذا يفوّتون على أنفسهم فرصة كهذه؟ ابنتك شابة صغيرة،

يسهل التلاعب بها وإخافتها. سيرهبونها، أو يغرونها، سيورّطونها، ويحرّفون الحقائق - **اللعنة على قلوبهم، كلاب الشوارع** -، وحتى إن لم تطاوعهم فلن يحميها ذلك كما تعلمين، إذ أدنى تلميح بالتخابر سيكون كافيًا وزيادة».

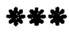
وقالت أخرى: «وأنتِ أيضًا. أنتِ أرملة مسكينة، ولك بيت كلّه بنات، بعد أن مات زوجك، ومات ابنك، وهرب ابنك الآخر، وضلّ آخر، وآخر يتسلل داخل المنطقة وخارجها كما لو أنه يخطط لشيء. وابنتك الكبرى في حدادها الغريب، وابنتك الثانية التي عاقبها المناوئون، وابنتك الثالثة التي هي كاملة تمامًا باستثناء بذاءتها التي تُعد الأفظع في المنطقة. والآن ابنتك هذه التي قد تُتهم بالوشاية. فكّري في الصغيرات» - وأشرن إلى الصغيرات اللاتي كنّ يقفن إلى جانبهن، ينصتن إلى كلّ كلمة تُقال -. هزّت الجارات رؤوسهن: «لا. لا ذهاب إلى المستشفى. سنتجاوز هذه المشكلة دون الحاجة إلى المستشفى. وهي كذلك ستتجاوزها. لا تقلقي أيتها الجارة». وهنا أخذن يربّتن على ماما ويحطنها بأذرعهن. «تذكّري أننا لا نجهل المطلوب منا هنا. فنحن كلنا وأنتِ معنا خضنا من قبل مرات عديدة هذه الأشياء المرتجلة، بهذه المبادئ الأساسية، وهذه القواعد البسيطة».

وافقتُ الجارات في مسألة اجتناب المستشفى، لكن ليس من منطلق سمعتي التي تسبقني. أما فيما يخص سمعتي التي تسبقني، فالسبب الوحيد الذي تسبقني من أجله هذه السمعة، فلأن الجماعة قد اختلقتها ووضعتها أمامي. فمقولة «**عشيقة ذاك الذي تعرفينه**» كانت ستبدو سخيفة لو أن مِلْكمَن نفسه لم يكن مصممًا على أن يحدد علاقتي به على هذا النحو. وفي حيّ كان يعتاش على الشكّ والافتراضات والغموض وكلّ شيء فيه يصبح مقلوبًا، يغدو من المستحيل أن تحكي قصةً كما ينبغي، أو تسكت عنها وتلزم الصمت، فلا شيء هنا ليُقال أو لا يُقال، إذ قد تحوّلت الشائعة إلى حقيقة. وبما

أنّ هذه الجماعة تصدّق هذه الحقيقة، فلا بد أن تستغلّ الدولة الفرصة، إذ هي تتعامل مع تعنّت المناطق المسلّحة، فتصوّر أي كلام فارغ وتضعه في ملفات وتخرجه من سياقه وتصدّقه بسهولة أيضًا. وفيما يخصّ الوشاية، فإن بإمكان الشرطة أن تقبض عليك في كلّ الأحوال. يعلم الجميع أنّ بمقدورهم أن يقبضوا عليك وأن يجنّدوك. وهذا بصرف النظر عن استدعائك للإسعاف من عدمه. استدعاء الإسعاف لم يكن قضيةً مهمة، لكنه أصبح قضية لأنّ هذا ما تقرّر أن تسير الأمور عليه في ذلك الزمن. في كلّ الأحوال لم أكن أرغب في الإسعاف، ولا المستشفى. ولا كنتُ أحتاج إليها أساسًا، لأنّ ما أعاني منه لم يكن تسممًا – **إلى متى أحتاج أن أقول هذا؟** –. لكنّ الجارات لم ينظرن إلى الأمر على هذا النحو. اقترحن عملية التنظيف، فقلن إنّني لو استفرغت كلّ ما في أحشائي على الأرض فسيكون هذا تصرفًا سليمًا. «في النهاية، يبدو أنّ جسمها يحاول أن يطرد شيئًا ما. ولن نفعل شيئًا سوى أن نساعده». وهكذا استقرّ الأمر على التنظيف وتفريغ المعدة.

تدخّلن في حالة أحشائي، مثلما تدخّلن في نوبة استفراغي التالية، وأيًا ما كان مقدار الجرعة المطهّرة التي سقينني إياها إلا أنها نجحت، وجعلتني أتقيأ. هكذا قضيتُ سحابة الليل أهضم كل ما أمكن، ثم أتقيؤه، فكنت أثناء ذلك أتنقل بين حالة التصلّب وحالة الدمية القماشية الهامدة سبع عشرة مرة على الأقل. في البدء كنت أحاول أن أحسب المرات كي أشتّت ذهني، وأتظاهر بأنّ ما يحدث محض تمرين. قالت الأخوات الصغيرات إنني كنتُ أعدّ بصوتٍ جهور، وإنني بعدها إما أخطأت العدّ أو بدأتُ أهتمل بالأرقام. أذكر أنني أحسستُ بشيءٍ مثل التمزّق في حنجرتي وبطني، وقد كنتُ أظنّ بسذاجتي أن كلّ ما يمكن أن يحدث سيكون مجرد تقيؤ طبيعي بغيض، وأنني سأستفرغ وجبتي الأخيرة، ثم لا يبقى شيء يخرج مني سوى

العصارة الصفراء. ولكن لا. في أول الأمر كان استفراغ ما في معدتي. وبعدها انطلقت نوبات من المحتويات المعويّة البنّية. وبعدها حين لم أعد أطيق تلك المحتويات البنّية بدأتُ أتقيأ العصارة الصفراء. لم ينته الأمر عند هذا الحدّ. فقد تهوّعت، عانيت الكثير من التهوّع. وسرعان ما دفعتني تلك المراحل كلها إلى الرغبة الشديدة، حدّ التوسّل، في أن أغلق عينيّ. فقد كنتُ أصارع كي أبقيهما مفتوحتين. كنتُ أقول لنفسي ينبغي أن أنام، ينبغي أن أستلقي، ينبغي أن أموت سريعًا. لم لا يدعنني أموت سريعًا؟ لقد بدا لي أنّ أولئك النساء بعملية التنظيف والصلوات المتقطعة هن من سيقتلنني في دورة المياه تلك الليلة، لا السمّ. لم يكنّ يعرفن الراحة، وقد انقسمن إلى مجموعتين، واحدة تقوم على التنظيف والثانية تتولّى الصلاة. وبعدها يتبادلن الأدوار، وبعد الكثير من الإنهاك حل القسم الأحنّ من ذلك المساء تدريجيًا. كان يأتي في لحظات سكون مقتضبة، يزداد طولها تدريجيًا بعد كل تنظيف متبوعٍ بإخراج السمّ من جسدي. حينها فقط، عندما يبتعدن ليقرّرن الخطوة التالية، يصبح بمقدوري أن أظلّ على الأرضية، مرتاحة، دون أن يعبث بي أحد، لوحدي. وهنا كنتُ أتأمل الأرضية، بالغبار الخفيف الذي فوقها، والشعر المتساقط، وبقع القيء الذي خرج مني قبل قليل، فأقول في نفسي إنّ الأشياء الوحيدة الحقيقية في هذا العالم هي تلك الأشياء - الغبار وما إلى ذلك - وهي وحدها التي تستطيع أن تحتملني إلى الأبد. لكنني في بعض الأحيان أغيّر رأيي فيصبح إطار الحوض، أو المرحاض، أو جدار الحوض الذي كنتُ أجد نفسي أتكئ عليه أحيانًا، تصبح هذه الأشياء أيضًا هي التي يمكنني أن أعتمد عليها إلى الأبد.



استيقظتُ أول ما استيقظت على ضوء النهار، في فراشي، وقد كنت أصرّف الفعل الفرنسي «treê» في ذهني. كنت أمرّ على الأسماء والأزمنة والحالات التي يمكن أن يُستخدم فيها ذلك الفعل. حين استيقظت في المرة الثانية كنتُ ما أزال في سريري، أفكّر، لو أنّ ما حدث كان بسبب مطاردته الجنسية، فكيف سأفرّ منه؟ وفي المرة الثالثة استيقظت من حلم عن مارسيل بروست، أو بالأحرى كان كابوسًا عن مارسيل بروست وقد تحوّل إلى كاتب معاصر من سبعينيات القرن العشرين يقدّم نفسه بوصفه كاتبًا من بداية القرن، ويبدو أنّ هذا كان السبب الذي جعلني أنا، كما أعتقد، أقاضيه في المحكمة. وعندها عدت إلى النوم مرة أخرى، ثم حين استيقظت للمرة الأخيرة - إذ إنني ظللتُ أنام وأستيقظ عدة مرات قبل أن أستيقظ تمامًا - أدركتُ أنني الآن أتعافى وأتماثل للشفاء. والسبب الذي جعلني أدرك ذلك كان فري بنتوس[1]. كنت أتخيّل بتلذذٍ فطيرة لحم وكلى[2] من فري بنتوس. كنتُ قد أخرجت العلبة من الخزانة، وفتحت الغطاء وأدخلت الفطيرة إلى الفرن. ثم أخرجت طبقًا، وسكينًا، وشوكة وكوب شاي. كان لعابي يسيل للفطيرة حتى وأنا أتخيّلها في رأسي، طريحة الفراش. والحمدُ للرب أنها نضجت في ثانية واحدة. أخرجتها من الفرن، وقد عييت من الانتظار، أوشكت على قضمها ففُتح باب غرفتي على مصراعيه. وإذ بالأخوات الصغيرات، وقد انقضضن على الغرفة انقضاض شخصٍ واحد.

(1) فري بنتوس «Fray Bentos»: شركة لحوم وفطائر محشوّة باللحم معلّبة. جاء الاسم من بلدة فري بنتوس في الأرغواي التي تُصنّع فيها الأطعمة وتصدّر إلى بقية العالم.

(2) فطيرة من المطبخ الإنجليزي محشوّة بخليط من مكعبات الكلى واللحم المتنوّع والبصل المقلي.

«لقد استيقَظَتْ!». هكذا صاحت الأخوات في وجهي ولبعضهنّ البعض. ثم أخبرنني فورًا أنّ ماما خرجت وأوكلت إليهنّ المهمة. وهكذا أخذن يردّدن على مسامعي الأشياء التي يُمنع عليّ فعلها، وهي السقوط من السرير، ومحاولة النهوض من السرير، والأكل والشرب، والتسكّع. وهنا تحديدًا أخبرنني عن تقيّؤي، وقلّدن لي أنيني. وبعدها تحدثن عن بياض بشرتي الشاحب المزري، فقاطعتهن وقلت إنني أتضوّر جوعًا ثم ألقيت عني اللحاف كي أنهض من فراشي، فصرخنَ: «ممنوع! بأمر ماما». فقلتُ لهنّ: «حسنًا، وماذا آكل؟ اذهبن واجلبن لي شيئًا آكله». لكنهن أعدنني على ظهري ووضعن لحاف السرير فوقي. ثم قلنَ إنهنّ سيقصصن عليّ قصة المناوئين، كي يشتّتن ذهني عن الجوع. ففي ذلك الصباح فيما كنتُ نائمة، جاء رجال من المناوئين العسكريين إلى منزلنا.

كانت الأخوات الصغيرات قد سمعن قرع الباب، ثم جاءت ماما وفتحت الباب هي والأخوات والصغيرات. كان هناك رجال واقفون عند عتبة الباب، تحدثوا بصوت خفيض، وقالوا إنّ ثمة شيئًا حدث في المنطقة ويودّون أن يتحدثوا معي بخصوصه. قالت لهم ماما: «لا يمكنكم الحديث معها. فهي مريضة، تلزم الفراش، إما نائمة أو تهذي بالفرنسية حين تصحو. ولكن ما الذي حدث؟ أخبروني بما حدث». فقال لها الرجال أن تطلب من الأطفال الابتعاد. أمرت ماما الأخوات الصغيرات بالذهاب إلى الصالة وإغلاق الباب، وحذّرتهن من التنصت. دفعتهنّ في الممر كي يذهبن. إلا أن الأخوات تسللن إلى صالة المدخل وألصقن آذانهن في النافذة ذات الستائر المسدلة. لكنّ المناوئين كانوا ما يزالون يتحدثون بصوت خفيض.

سمعنَ ماما تقول: «وماذا لو أنها كانت موجودة في النادي في الوقت نفسه؟ كثيرون يذهبون إلى النادي. فذلك النادي أشهر نوادي المنطقة. وجود

ابنتي هناك لا يعني معرفتها بتلك الأشياء». ثم قالت إنني مريضة منذ أربعة أيام، مُسمّمة، ويمكنهم أن يتأكدوا من النساء اللائي ساعدن في تنظيف معدتي، فردّ المناوئون بأنهم سيغادرون الآن وأنهم بالتأكيد سيتحدثون مع أولئك النساء، وأضافوا أنهم سيعودون مرة أخرى لو لم يقتنعوا بشهادتهنّ. ثم غادروا فذهبت ماما إلى الجيران كي تفهم هذه الثغرة الجديدة. قالت الأخوات الصغيرات: «ها نحن قد هوّنا عليكِ،» - ولا أعرف كيف استشففن ذلك رغم ما كنتُ فيه من توتّر - «حان دوركِ الآن أيتها الأخت الوسطى كي تقرئي لنا». وعندها وضعن أمامي قصصًا لم ألاحظ قبل تلك اللحظة أنها كانت بحوزتهنّ. كانت تلك القصص: «طارد الأرواح» التي أخذنها من كومة كتبٍ بجانب سرير ماما، و«**مأساة الدكتور فاوستس**» التي لا أدري من أين أخذنها، ونسخة للأطفال من كتاب «**أتسمّون حكومتكم ديمقراطية!**» الذي يبدأ بالفقرة التالية: «**تُرى أيُّ دويلة كانت تستطيع إلى ما قبل خمس سنوات من الآن أن تفتّش البيوت دون أمر تفتيش، وتعتقل أي شخص دون مذكرة اعتقال، وتسجن دون تهمة، وتسجن دون محاكمة، وتعاقب بالجلد، وتحرم المساجين من الزيارات، وتحظر التحقيق في حوادث الموت داخل السجن، هذا الموت الذي يقع بعد اعتقال المرء دون مذكرة اعتقال وسجنه دون تهمة أو سجنه دون محاكمة؟**». قلتُ في نفسي يا لهنّ من غريبات أطوار هؤلاء الأخوات الصغيرات. كما يقرأن شكسبير أكثر مما يلزم. أدركتُ أن الحلّاب الحقيقي كان على حق. يجب أن أتحدث مع ماما بشأنهن. في تلك الأثناء، وضعتْ الأخوات تلك الكتب على اللحاف المحشوّ بزغب العيدر فوقي. بعدها، تسلقن سريري واندسسن تحت اللحاف بجانبي. طوّقتني أصغر الصغيرات بذراعها قدر استطاعتها عند رأس السرير، في حين حشرت أكبرهن وأوسطهن نفسيهما عند لوح طرف السرير، ينتظرن جميعًا أن أقرأ لهن.

لاحقًا، حين خرجتْ الأخوات الصغيرات ينطلقن في مغامراتهن وعادت ماما، صعدتْ كي تطمئنّ عليّ. كانت تبدو كئيبة، ما يعني أنها تحمل مزيدًا من الأخبار السيئة. قالت: «تلك الفتاة المسكينة التي تسمّم الناس ... ماتت. وجدتْها دوريّة عسكرية عند أحد المداخل وقد حُزّ عنقها، أي أنّ شخصًا ما قتلها». لم يكن رد فعلي الأول كما قد يتوقع المرء عادة: «ماذا قلتِ؟ لا أصدّق. كيف تموت وهي التي تقضي وقتها تحاول قتل الآخرين؟». ولم يكن ردًا باردًا على منوال «من قتلها؟»، فرغم أنّني سمعت ما قالته ماما إلا أنّ عقلي لم يستوعب بعد أن أحدًا قتلها. كان مجرد ذكرها في معرض الحديث يجعلني متحفّزة. قلتُ في نفسي آخ، لقد فعلتْها مجددًا. ترى من سمّمت هذه المرة؟ لكنني لم أكن أرغب حقًا في معرفة ذلك، فتلك أشياءٌ تطول وتطول فتجد نفسك في نهاية الأمر خائر القوى. شعرتُ بالأسف طبعًا لذلك الشخص، أيًا من كان، لكنه كان على شاكلة الأسف الذي شعرت به عندما أخبرتني الصديقة الأقدم بتسمّم أخت فتاة الأقراص. كانت واحدة من حالات الأسف الفاترة، اللامبالية، دون أدنى شعور حقيقي بأنك جزء من هذا الأمر. كان هذا هو الحال على الأقل إلى أن أدركتُ بما يشبه الصاعقة أنّ الشخص الذي سمّمتْه فتاة الأقراص هو أنا. وهنا رحت أقول في نفسي كم كنت عمياء! كم كنت غبيّة! فقد اتضح الأمر وبات جليًا صارخًا. كانت تُسمِّم الناس. وكانت في النادي. وجاءتني هناك وأزعجتني باتهامها أنني قتلتها مع أخريات بتواطئ مع مِلْكَمَن أو شيء كهذا. كانت هذه طريقتها الجديدة، تتحدث دون انقطاع وتسرد القصص التي تشتّت العقل وتنوّم الشخص مغناطيسيًا. هكذا تتمكن منك، أنت ضحيتها التالية، وتصطادك وتورّطك. فحين يتملكك القلق وينشغل ذهنك بعد أن تسلّط تركيزك على كلامها - بالرغم من أنك تعرف طريقتها وجرائمها السابقة -، لا تنتبه إلى ما تفعله بيديها. وهذا بالضبط ما تريده. فهي ماهرة للغاية، وماكرة للغاية،

وتمتلك قدرة عالية على التخفي والذوبان في كل شيء، فتتلاشى حتى تصير عدمًا. يقول البعض إنها فتاة حوتكة ماكرة بالفطرة، وذات توجّه نسويّ شرس، لكنها لم تكن نسويّة وفقًا لكلام النسويات الحقيقيات، فذوات القضيّة يعتبرنها مختلة عقليًا.

وقالوا لقد اتضح الآن أنها من حين لآخر لم تكن تكتفي بقضايا المظالم النسوية المشروعة، بل كانت كذلك تستخدم أية مظالم أخرى كواجهة تغطّي بها جنونها، تمامًا كما قد يستخدم آخرون أي شيء لتغطية جنونهم: التعليم، أو المهنة، أو الحياة المنزلية، أو الحياة الجنسية، أو الدين، أو اللياقة البدنية، أو الإفراط في الطعام، أو تجويع النفس، أو تربية الأطفال، أو النضال، أو الإدارة الحكومية لبلدٍ ما. كل ما كانت تفعله تلك المرأة المسكينة، قالوا، أنها اتّبعت إصدارها الفردي الخاص من هذه التغطية عوضًا عن التغطيات التي يتيحها الإصدار الجمعي . كانت ذوات القضيّة قد قلن للمناوئين قبل ذلك إنه من العبث الاستمرار في تحذير فتاة الأقراص كي تتوقف عما تفعله، لأنها لم تكن تستطيع أن تتوقف، وكانت تحتاج إلى تدخل، إنما ليس إصدارهم من التدخل. وقلن أيضًا إنّ المناوئين نصّبوا أنفسهم حكّامًا على هذا المكان، فلم لا يوكلون أمر فتاة الأقراص لهنّ، أي لذوات القضيّة، ويحقّقون بدلًا من هذا مع واحدٍ من جماعتهم؟ واقترحن على المناوئين أن يتصرفوا مع ذلك الشخص الداعر منتصِف العمر الذي يفترس الفتيات ويطاردهن. فقال المناوئون إنهم لا يقبلون الانجراف في أحاديث غامضة، ولا يقبلون أن يملي عليهم أحد ما يفعلون. ثم قالوا: «لقد مُنحتن الفرصة مع فتاة الأقراص، وفشلتن، بل إنّ الأمر انتهى بتسميم البعض منكن. لذا، أفسحن الطريق الآن ونحن سنتصرف»، وكانوا يقصدون بالطبع أنهم سيتولّون الأمر بطريقتهم المعهودة التي لا تُخطأ.

وهكذا أصدر المناوئون تحذيرهم، وقالوا إثر تسميمها للعديد من الناس، لم يعد مسموحًا لفتاة الأقراص أن تسمم شخصًا واحدًا بعد، لكنها قد فعلت، وآخر من سممت، وهذا ما اكتشفته لاحقًا، لم يكن أنا حتى. فهناك شخص جاء بعدي، رجل، وقد سمّمته ظنًا منها أنه ... لا أدري، ربما هتلر، وقد قضت زوجة الرجل وجيرانه سحابة الليل ينظّفون معدته من السم. بعدها، ذهبت الزوجة إلى المناوئين فأخبرتهم بما فعلت فتاة الأقراص، لكنّ شخصًا مجهولًا سبق المناوئين قبل أن يتخذوا إجراء بشأنها. هذا ما قالته ماما، حين جلستْ على مقعد قبالتي تنقل لي أقاويل الحيّ. قالت إنهم جاؤوا إلى بيتنا لأنّ مهمتهم لم تعد قتل فتاة الأقراص، بل اكتشاف الذي قتلها. لذلك كان على كل شخص تعامل معها مؤخرًا أن يذهب إلى المناوئين ويدلي بأقواله. وقد استثنوني من ذلك - أنا التي شوهدت أتحدث مع فتاة الأقراص في نادي الشرب قبل ليال -، كما استثنوا الرجل الذي التبس عليها مع هتلر، إذ كنا طريحَي الفراش حين جاء المناوئون إلينا. استطاع الرجل أن يثبت براءته لأنّ أسرته وجيرانه شهدوا بعجزه عن القيام بذلك. كما أنّ والدتي قالت للمناوئين على سدة بابنا أن أسرتنا ومن ساهمن في تنظيف معدتي، ونيابة عني، يمكنهن تأكيد الأمر ذاته.

لم يعد المناوئون إلينا، وقد اقتنعوا بأني كنتُ أيضًا طريحة الفراش أثناء مقتل فتاة الأقراص، ومن الغريب أنني لم أستوعب بعد أن هذه الفتاة لم تعد حية. هيمن على ذهني عنادي لأمي، بسبب عنادها لي. فرغم تصديقها الواضح لإمكانية أن تكون فتاة الأقراص هي التي سمّمت ذلك الرجل الذي التبس عليها مع هتلر، إلا أنه لم يكن ثمة أمل في أن تفترض مسؤولية فتاة الأقراص عن تسميمي، ذلك أنّها كانت تؤمن إيمانًا قويًا بوجود علاقة بيني وبين مِلْكْمَن، كما أنّ ثقتها بي كانت ضعيفة جدًا. وفي الوقت الذي

شعرت فيه بارتياح لأنّ المسؤول عن ليلتي المشؤومة تلك كان فتاة الأقراص وليس للأمر علاقة بتأثير مِلْكَمَن عليّ، إلا أنني بدأت أشعر بتفاقم انزعاجي من والدتي التي لم تكن ترى ما هو ماثل أمامها. فحين راحت تواصل حديثها عن الموت ونَسِيَت على ما يبدو أنّ «فتاة الأقراص المسكينة» كانت مسؤولة عن ثماني حالات من كل عشرة حالات تسميم في الحيّ، وجدتُ نفسي أنفجر وأقول، رغم أني لم أقل أصوب ما يمكن قوله: «اسمعي ماما، ليست فتاةً صغيرة. إنها أكبر مني. إنها امرأة!»، فردّت: «آخ، تفهمين ما أقصده. كانت هزيلة ضامرة، والجميع كان يعلم أنها لم تكن على ما يرام. فحتى لو لم تُقتل لم تكن لتكبر أبدًا». وفي تلك اللحظة فقط بدأتُ أستوعب أنها ماتت.

قلقتْ ماما. قالت إن لم يقتلها المناوئون - فهم أنكروا ذلك، ولا يوجد سبب يمنعهم من الاعتراف بقتلها لو أنهم فعلوا ذلك بالنظر لتجوالهم وإعلانهم أنهم سيقتلونها - فهذا يعني أنها جريمة قتل عادية لا أكثر. وجرائم القتل العادية غريبة ومبهمة، وهذا النوع من الجرائم لم يكن يحدث هنا البتة. فلم يكن بمقدور الناس أن يقدّروها أو يصنّفوها أو يفتحوا نقاشًا حولها، ذلك أنّ جرائم القتل السياسية وحدها التي كانت تُرتكَب في هذا المكان. وكلمة «سياسية» بطبيعة الحال تشير إلى كل ما له علاقة بالحدود، وكل ما يُمكن أن يُفسّر بأنّ له علاقة بالحدود - حتى لو لم يمتلك أدنى صلة بالسياسة، وإن لزم الأمر سيُلوى ليتّسم بأوهى صلة ممكنة بالسياسة، حتى لو لم تر بقية العالم هذه الصلة -. كانت الجماعة إذن تُصاب ببلبلةٍ وعجزٍ عن التعاطي مع أي جريمة قتل غير سياسية.

كانت ماما بالتأكيد قلقة. قالت: «لا أدري ما نحن مقبلون عليه. إننا نتحول إلى ذلك البلد، «ما وراء البحر». فكلّ شيء يمكن أن يحدث هناك. جرائم القتل العادية تحدث هناك. التهتك الأخلاقي يحدث هناك. يتزوجون،

ويدخلون في علاقات غرامية، فيما الأزواج والزوجات لا يهتمون بذلك لأنّ لهم غرامياتهم الخاصة أيضًا. لماذا يتزوجون إذن؟ لا يقولون لماذا يتزوجون. ثم يتطلقون، أو لا يأبهون بالطلاق ويتزوجون من أبنائهم. ثم يُنجبون أطفالًا من أطفالهم. ثم يخطفون أطفالًا آخرين. فما إن يخرج المرء من منزله هناك إلا ويرى جرائم جنسية». لم أرَ ماما من قبل هكذا، بهذا القدر من الصدمة والهستيريا، وهذا ما يحدث حسب افتراضي عندما تقع جرائم قتل عادية في محيط أناسٍ لم يعتادوها. حاولت أن أوقفها: «ماما! ماما!». رفعت ماما عينيها، مشوّشة، وجاهدتْ كي تستعيد تركيزها. «أخبريني ماما، ما الذي سمعتِه أيضًا عن فتاة الأقراص؟».

لم تكن تعرف شيئًا آخر عدا أنّ الشرطة تدخّلت في الأمر، دون أن يوافق أحد من الجماعة على الحديث معهم. قِلّة تحدثوا إليهم بكلام فارغ لا معنى له، وقلة آخرون عملوا على إلهائهم. كان هناك قنّاصة بلا شك يستعدون لإطلاق النار عليهم. وبمجرد أن غادرت تلك الدورية بمعدّاتها الثقيلة ووحدة قنّاصتها وقد أخذوا الجثة معهم، لم تستطع الجماعة أن تصمت، كالعادة. ظلوا يقولون: «لا يمكن أن تكون جريمة قتل عادية. جرائم القتل العادية لا تحدث عندنا. لا بدّ أنها جريمة قتل سياسية، ولكن لم تُعرف بعد صلتها بالسياسة». هكذا كانت الأشياء، أو هكذا ظننتُ بعد أسبوعين تقريبًا حين قررت أن أذهب إلى متجر المقليّات.

فمنذ أن تعافيت من التسمّم لم أستطع أن أتوقف عن الأكل. كما لم أستطع أن أكف عن خيالاتي وأنا آكل عندما لا آكل في الواقع، إذ كان ذهني يصوّر لي الحلويات والموالح تصويرًا شهيًا بمؤثرات متعددة. رأيت المزيد من أطعمة «فري بنتوس»، ومعه بسكويت «فارليز»، وحبوب الإفطار «شوغر بفس»، وسمك البلكارد في صلصة الطماطم، وشطيرة البسكويت بكريمة الكسترد،

وشطائر شوكولاتة «مارس»، وشطائر البطاطس المقرمشة، والاسطرمباء، وأقدام الخنزير، وكنافة البحر، وكبد مقليّة، وحلوى دولي الهلامية مع العصيدة، وهذه كلها أطعمة كنا نحبها في طفولتنا لكنّي صرتُ أراها الآن مقرفة. فلمّا شعرت برغبة شديدة في المقليّات، ولا شيء غير المقليات، قلتُ في نفسي نعم هذا طعام حقيقي. ها قد عدت إلى حالتي الطبيعية.

غادرت المنزل بقلقي المعتاد الذي أحمله خشية ظهور مِلْكَمَن المفاجئ، ووصلت إلى متجر المقليات في وسط المنطقة دون أن يظهر مِلْكَمَن، ففتحت بابه الضيّق وغمرتني على الفور رائحة المقليات الشهية. انغمستُ فيها، تنشّقتها، تمرّغت فيها، إلى حدّ أنني لم أدرك في بادئ الأمر ذلك الجوّ الغريب من حولي، وهي الغفلة المماثلة، وقد أدركت لاحقًا، لغفلتي عن إدراك تسمّمي، فقد استغرقتُ وقتًا أطول مما يستلزم شخصًا عاقلًا ليدرك أنه تسمّم. وقد تبيّن أنّ حالة متجر المقليات هذه كانت مثلها تمامًا.

كان هناك طابور، طويل جدًا، يمتدّ إلى اثنين من جدران المحل فوقفتُ في آخره. وما لبث أن جاء آخرون ووقفوا خلفي. معظم هؤلاء كانوا ممن أعرفهم بالوجوه ولا أتحدث إليهم، نساء منتصِفات العمر، جئن يشترين العشاء، وبعض الرجال، والأطفال، والمراهقين. ولكن لم يكن من بينهم أحد أعرفه شخصيًا. رحتُ أستمتع بالرائحة وأنا أنتظر، أشغل نفسي بالتدرب على اللغة الفرنسية في ذهني: « je suis, je ne suis pas [أنا، أنا لست]»، كما كنت أحصي الناس الذين كانوا أمامي في الطابور. لكنني حين كنتُ أفعل ذلك بدأ الناس الذين أحصيهم يتركون الطابور. قِلة منهم غادروا المتجر فورًا، ومعظمهم تنحّوا جانبًا أو ذهبوا إلى ركن قصيّ. وهذا يعني أنني وصلتُ إلى المحاسب قبل تسعة عشر شخصًا كان من المفترض أن يكونوا قبلي، كما انتابني إحساس بأنّ الذين كانوا يقفون خلفي قد غادروا

أيضًا. وما لبثتُ أن أصبحت وحدي في الطابور، رغم أنّ هذا أفراد الطابور كانوا ما يزالون موجودين في المتجر. خلف منضدة المحاسبة ثمة امرأتان، جاءت إحداهن إليّ وهي ترتدي مريلة بيضاء كبيرة. كانت تضع يديها على خاصرتيها، ولم تسألني عن طلبي، ولم تنظر حتى إليّ فيما كنتُ أمليه عليها. لكنها كانت توجّه نظرها إلى جانب رأسي. لم أكن قلقة، لكنني شعرت بشيء ما، فأخذت أنظر إليها حين ذهبتْ لتحضر البطاطس المقلية لي وللأخوات الصغيرات. عندها فقط تنبّهت على الصمت المطبق، وبالأخذ في الاعتبار أنني عشتُ في هذا الحي طوال حياتي واعتدت تيّاراته وغموضه وإيقاعه، دون أن أعترف بذلك، فلا بدّ أنّ السبب في بلادتي في تلك اللحظة هو البطء الذي خلّفه مرضي الأخير. كان خلفي، أعني الصمت، يبثّ ارتعاشات في ظهري، ولم أستطع أن ألتفت، رغم أنّ تفكيري بدأ في الغليان. **أرجو ألا يكون مِلْكْمَن خلفي. عسى ألا يكون مِلْكْمَن.** ثم استدرت، ولم يكن مِلْكْمَن. بل كان الجميع هناك، حين التفتّ، ووجدتُ كل شخصٍ في المتجر يحدّق فيّ.

البعض منهم أشاح ببصره فورًا، نقله إلى الأرض، فيما حوّل الآخرون نظرهم إلى كفوفهم أو إلى قائمة الأطعمة الكبيرة المعلقة على الجدار بجانب المنضدة التي أمامنا. غير أنّ آخرين كانوا يحدّقون بصراحة، بل بتحدٍ، فقلتُ في نفسي اللعنة، ما الذي فعلتُه الآن كي يحملقوا بي هكذا! ثم أدركتُ أخيرًا ما يحدث وشعرتُ بأنّ للأمر علاقة بفتاة الأقراص. لا أقصد تسميمها إياي طبعًا، وكنتُ أعلم أنّ الجميع قد سمع بذلك. بل أقصد موتها. لكني قلتُ لنفسي لا يمكن أن يتصوّروا أنني أنا المسؤولة عن موتها. في تلك اللحظة عادت المرأة ووضعت مقليّاتي على المنضدة. استدرت عن الآخرين، وحملتُ الأكياس وارتبكتُ محاولةً أن أسلّمها المال، لكنها ذهبت. أدارت إليّ ظهرها

العريض ووصلت إلى الطرف القصيّ، تقف بصمت هي الأخرى إلى جانب المرأة الثانية. لم تكونا تقدّمان طلبات للآخرين، ولا أحد طلب شيئًا. كان الجميع ينتظر، كما يبدو، ما سيحدث بعد ذلك.

قال المناوئون إنهم لم يقتلوها، ثم أخذوا يحقّقون في الأمر ليعرفوا من قتلها. ثم قيل إنهم زعموا ظهور دواعٍ طارئة على الحدود، فلم يعودوا يلحّون في هذا الأمر وتراجعوا عنه. لكنّ هؤلاء الناس لم يتراجعوا عن شيء قط. كانت هذه سمعتهم، وسَمتهم، أن لا يستطيع أحد إيقافهم. لذلك خلصت الجماعة إلى أنّ الذي قتل الفتاة واحد منهم. وليس لأسبابٍ سياسية بطبيعة الحال، فبالأخذ في الاعتبار صمتهم المفاجئ، وانسحابهم الهادئ، وتلك النهاية المفاجئة لتحقيقهم الدقيق الشرس، لا سيما مع غياب اعترافهم المعهود بالأشياء التي يفعلونها، لا يمكن بعد كل هذا أن يكون مقتل فتاة الأقراص سياسيًا. وهكذا لم يكن ناتجًا عن دوافع متعلقة بالحدود. لا لإنقاذ البلد، أو حماية المنطقة، أو إبعاد السلوكيات المرفوضة في المجتمع. كان مِلْكُمَن. هو الذي قتلها. لقد قتلها قتلًا عاديًا، لا سياسيًا، وكلّ هذا - وفقًا لرأي الجماعة - لأنه انزعج من محاولتها قتلي.

ربما كان هذا صحيحًا أو غير صحيح، لكنّ الموجودين في متجر المقليّات كانوا يؤمنون بصحّته، وفي تلك اللحظة التي كنتُ فيها محاطة بكل أولئك الناس الذين قرروا موقفهم مسبقًا، صدّقتُ أنا أيضًا. لقد ارتكب بطل من أبطال الجماعة الكبار شيئًا فظيعًا، أي جريمة قتل عادية، وكلّ هذا من أجل الانتقام لفاجرةٍ دنيئة. لم أعد الآن شديدة السذاجة، أي أنني اكتشفتُ أنّ المرء إنما يعيش كثيرًا من حياته مع أيام يشوبها الخلل، خارجة قليلًا عن السيطرة، لكنها ليست عصيّة، بل تظلّ في نطاق المتوقع. ثم يأتي يومٌ تتغيّر فيه الأوضاع جذريًا - بعلمك أو من دون علمك، برضاك أو من دون

رضاك- على كافة الأصعدة. تمضي الأشياء، نعم، ولكن ليس واحدًا واحدًا.
قبل هذا كنتُ أشعر بربكةٍ في أحشائي، وألم في معدتي، ورجفة في ساقي، ورعشة في يديّ حين أدخل المفتاح في القفل. كنتُ أشعر بارتيابٍ مَرَضيّ في داخل المنزل، مخافة أن يكون رابضًا في خزانة الملابس، أو في دولابي، أو رابضًا تحت السرير. كان يقترب في كل مرة أكثر.. فأكثر.. فأكثر، لكنني لم أستطع أن أحدد، ولا حتى الآن، ما إذا كان ما يزال يحاول أن يضع دمغته عليّ أم أنها كانت موجودة طوال الوقت. كانت الصديقة الأقدم قد حذّرتني: «أنتِ غير مفهومة. غير قابلة للتحليل. وهم لا يحبون هذا. أنتِ عنيدة أيتها الصديقة، وأحيانًا غبيّة، بل شديدة الغباء، فأنتِ تستميلين الناس إلى أن يكرهوك بسبب تمنّعك. وهذا خطير. فالذي لا تقدّمينه للناس - لا سيما في الأوقات الخطيرة المتحوّلة - يختلقونه لأنفسهم». فقلت لها: «ليس الجميع هكذا. وعلى كلّ حال حياتي ليست ملكهم. لماذا عليّ أن أشرح لهم وألتمس الأعذار في حين أنهم هم الذين اخترعوا تلك القصص، وها هم الآن مثل الكلاب المسعورة يراقبون وينتظرون الفرصة السانحة لكي ينقضّوا عليّ؟». أما عن رأيهم فيّ بأنني فاسقة، خليعة، عديمة الحياء، فقلت: «حين يجدّ الجدّ أيتها الصديقة الأقدم فأنا في الواقع أقرب إلى مريم العذراء من أي أحد—». قالت: «أنتِ في الثامنة عشرة. أنتِ فتاة. لا سند لك، إلا إذا رغبتِ في أن يكون مِلْكْمَن سندك. امنحيهم شيئًا، أي شيء، حتى لو لم يصدّقوه، لا سيما وأنهم سوف يستمتعون بتكذيبه. عندها على الأقل لن يستخدموا مكانتكِ العالية عنده ضدّك». لكنني لم أفعل. لم أستطع. لم أعرف كيف أفعل ذلك. ولم أعتقد أنّ الوقت ما يزال يسمح. كانت الشائعات والاستنتاجات و«**ليس من شأنك**» قد استمرت طويلًا فلم يعد بالإمكان تداركها.

كنتُ إذن أكتشفُ شيئًا ما، لكنني أثناء ذلك الفوران، فوران المشاعر

خاصة، لم أكن أعرف ما كنت أكتشفه بالتحديد. ولم أعرف ما الذي ينبغي عليّ فعله، فارتكبت فعلًا أحمق. ففي وسط الصمت والتحديق أخذت البطاطس واحتفظت بنقودي وخرجت من المتجر. لم أعد أريد البطاطس، ولا حتى أريد نقودي. بطبيعة الحال كان ينبغي أن أتركهما هناك على المنضدة، البطاطس والنقود، كي أنزّه نفسي عن ذلك الوضع، غير أن التفكير في الأمور الواضحة المشرّفة النبيلة يصعب في الوقت الذي تحدث فيه الأشياء الصادمة بغتة. وكيف تعرف بعد مضيّ الوقت ما هو الطبيعي والنبيل وما هو غير ذلك؟ هكذا إذن أخذتها ولم أدفع ثمنها، وجزء من السبب في ذلك كان غضبًا بداخلي يقول **نعم يا مِلْكْمَن، انطلق، اقتل، اقتلهم جميعًا، تقدّم، نفّذ ما أقوله، أنا آمرك**، وجزء من السبب تفهّمي وقلقي على مشاعرهم. لم أكن أريد التورّط في مشكلة مع الكبار في حيّنا، فكيف لفتاة في الثامنة عشرة أن تتجرأ على التقليل من احترامهم وتقويم سلوكهم. لذلك غاب وعيي وسمحتُ لنفسي أن تنجرف إلى أخذ البطاطس تحت التهديد. والأسوأ من ذلك سلوكي وتصرفي الأرعن في متجر المقليات، رغم أنّ جميع من كان هناك أجبرني على ذلك التصرف. لكنني عرفتُ ما كانوا يعرفونه منذ فترة، وهو أنني لم أعد فتاة مراهقة بين مجموعة مراهقين، أدخل وأخرج من المنطقة أتسكّع وأستمتع بوقتي. أدركتُ وقتها أنّ تلك الدمغة - وليست من مِلْكْمَن وحده - دون تحفظ وضدّ إرادتي، قد طُبعت علي.

الفصل السادس

في الفترة التي كنتُ فيها في السرير أتماثل للشفاء تلقينا ثلاث مكالمات هاتفية منذ سماعي خبر مقتل فتاة الأقراص وحتى تلك المواجهة في متجر المقليات. كانت منها مكالمتان من أجلي، أولاهما من الصهر الثالث. فقد سمع بخبر التسمّم لكنه اتصل كي يستفهم من والدتي، التي أجابت على مكالمته، عن سبب تخلّفي عن الجري. قال إنني فوّتّ جولةً أول الأمر، ثم فوتّ جولات أخرى بعد ذلك، ولم أزره لمناقشة الأمر أو لأتشاحن معه حول ذلك. ثم قال إنّ ما حدث يُعد انحدارًا في المعايير، وإنه متعجّب مما يحدث للنساء في هذه الأيام. فقالت له ماما: «يا صهر، لن تخرج للجري، فهي طريحة الفراش متسممة». فقال الصهر إنه يتفهم مسألة التسمم. «ولكن هل ستأتي للجري؟». فأجابته ماما: «لا، فهي تلازم السرير، متسممة». «نعم، ولكن هل ستأتي للجري؟»، «لا—»، «حسنًا، ولكن—». قالت لي الأخوات الصغيرات لاحقًا إنّ عيني ماما كادتا تخرجان من مكانهما. فحاولت مرة أخرى: «يا بنيّ، إلى متى أقول لك؟ لن تخرج للجري. لأنها متسممة. لن تجري. فهي تلازم الفراش. لأنها متسممة». أما الصهر الثالث وقد غلب هوسُه الرياضي ملكاته الفكرية فكان على وشك أن يسأل مرة أخرى ما إذا كنت سأخرج للجري، لكنّ ماما سبقتْه وقالت: «لتحلّ عليك محبة الرب وكل شي يا بنيّ، ولكن ما مشكلتك؟ أنت تعلم أنها متسممة، وكل الحيّ يعلمون، وأنا منذ عشرين ساعة أخبرك أن معدتها قد محيت أو مهما تكن المفردة المناسبة لوصف ما حل بمعدتها وقد اضطررت إلى البقاء

ليلتين مستيقظة أراقب حالتها لأتأكد من تمام التنظيف، لكنك لا تستوعب بل وتتصرف كما لو أنني لم أقل شيئًا». فقال الصهر بلعثمة طفيفة: «تقصدين أنها لن تأتي للجري؟». قالت ماما: «أخيرًا! وما حكاية الانزلاق الذي قلتَه؟»، فصحّح لها الصهر: «انحدار، انحدار في المعايير. انحدار للنساء». عندها حجبت ماما فم السّماعة وهمست للأخوات الصغيرات: «هذا الفتى يخرّف. فتى صغير غريب. ليس وحده، بل أسرته كلها غريبة. ولا أدري لم تزوّجت أختكنّ من تلك الأسرة». ثم رفعت يدها من السماعة وإذا بالصهر يختم كلامه: «حسنًا، أولًا تقرأ الكتب أثناء المشي وهذا سلوك غير مفهوم. ثم تتحجج بأنّها لا تستطيع تحريك ساقيها، وهذا غير مفهوم أيضًا. والآن تقولين إنها لن تجري. إذا أصرّت على هذا الغموض أيتها الحماة فقولي لها إنها تعلم أين تجدني حين تعود إلى رشدها. في أثناء ذلك سأجري بمفردي». قالت ماما: «حسنًا بنيّ، وأنا أتفق معك في مسألة القراءة أثناء المشي، لكنّ الوضع الآن هو أنها على شفا الموت لذلك ستلازم السرير»، ثم توادعا واستغرق هذا خمس دقائق لأنّ الناس هنا غير معتادين على الهواتف، ولا يثقون بها، ولا يريدون أن يكونوا وقحين بإغلاق السماعة فور قول توديعة واحدة، مخافة أن يكون الطرف الآخر على وشك أن يقول وداعه أيضًا لكنّ الصوت يتأخر قليلًا عبر الموجات. وبسبب إتيكيت الهواتف هذا كان هناك الكثير من «باي»، «باي»، «إلى اللقاء أيّها الصهر»، «إلى اللقاء حماتي»، «وداعًا»، «وداعًا»، «باي»، «باي»، وكل واحد منهما يلصق أذنه بالسماعة وينحني ببطء، يقترب شيئًا فشيئًا من الهاتف مع كل «وداعًا». وينتهي الأمر بالسماعة وقد عادت إلى مكانها، وتخلّصت من الأذن البشرية أخيرًا. وقد تظهر «وداعًا» أخرى للاطمئنان حتى في هذه المرحلة اضطرارًا إلى إنهاء الأمر، وهذا لا يعني أنّ الشخص الذي عانى تلك الإطالة في المهاتفة لم يكن يشكو من التواء في جسده أو إرهاق في ذهنه جرّاء فصل نفسه عن المحادثة

الهاتفية. القصدُ هو أنهم يريدون الاطمئنان إلى أنّ تلك المحادثة قد وصلت أخيرًا إلى نهايتها الطبيعية، من دون أن يقلقوا من مسألة «**هل أغلقتُ الهاتف في وجهه؟ هل انزعج مما فعلت؟ هل أغلقت سريعًا وآذيت مشاعره؟**». وحين أخبرتني ماما شعرتُ بالارتياح لأنها هي التي ردّت على المهاتفة، ذلك أنني لم أستعد عافيتي بعد كي أتحمل عقليّة الصهر العنيدة وأُضطر إلى الاستئساد عليه.

بعد ذلك ردّت ماما على المهاتفة الثانية، وهي التي لم أرتح لها، فقد كانت من شبه الحبيب ولم تجر على ما يرام. فأولًا، كان هذا شيئًا غير مسبوق إذ لم أكن أعرف أنّ شبه الحبيب يحتفظ برقم هاتفي. لم يتصل بي قطّ في المنزل ولم أتصل به في منزله، ولم أكن أعرف رقم هاتفه ولم أكن أدري ما إذا كان يعرف رقم هاتفي. لم تكن الهواتف مهمة بالنسبة إليّ، ولا أظنّ أنها كانت مهمة لشبه الحبيب. ومن بين أسباب تعلّقي بأدب القرن التاسع عشر أنني لن أُضطر إلى التعامل مع هذه الأشياء الحديثة المحفوفة بالمشكلات. كنا نرتّب لقاءاتنا القادمة في نهاية اللقاء ونلتزم بالمواعيد. هكذا كان الحال، فالهواتف لم تكن وسيلة تواصل موثوقة، بوصفها أدوات تكنولوجية غير طبيعية. لكنّ السبب الأهمّ هو أنّ الهواتف لم تكن موثوقة بسبب تلك «الممارسات القذرة»، وحملات التجسس التي تشنّها الدولة. وهذا يعني أنّ الناس العاديين لم يكونوا يستخدمون الهواتف في شؤونهم الخاصة، أي في الشؤون الغرامية التي قد تستخدم ضدّهم. وبطبيعة الحال لم يكن المناوئون العسكريون يستخدمونها أيضًا، لكنني لا أقصدهم بالحديث هنا. الخلاصة أنّ الهواتف لم تكن موثوقة. كان لدينا هاتف واحد بالطبع، لأنه كان موجودًا في المنزل قبل أن نسكنه، لكنّ ماما توجّست من إزالته مخافة أن لا يكون الأشخاص الذين سيأتون لإزالته موظفي التمديدات الهاتفية بل جواسيس

متنكّرين. نبّهنا الجيران قائلين إنهم قد يزيلون الهاتف، لكنهم في الوقت نفسه سيزرعون أشياء أخرى، أشياء تكشف صلتنا القوية بالمناوئين رغم أنه لا توجد أية صلة قوية لنا بهم. فعلى الرغم من أنّ اثنين من إخوتي كانا مناوئَين، إلا أنّ صلتنا بهم كانت ضمن الإطار العادي، وهذا ينطبق على السابق أكثر مما ينطبق على وضعنا في الفترة الأخيرة. أما الآن، وبالرغم من أنّ ماما ما تزال توافق على أهدافهم من حيث المبدأ، ولا يمكن أن تتبرأ منهم علنًا أمام دولةٍ لا تعترف بانتسابها لها، بالاعتماد على آخر ما فعلوه وآخر حالةٍ وصل إليها اضطراب مشاعرها تجاههم، إلا أنها لا تتوانى عن التنديد بهم في وجوههم، وأعتقد أنّ هذا دليل على أنّ صلتنا بهم ليست قوية. وهكذا ظلّ هاتفنا معلقًا على الحائط إلى جانب الدرج، والناس تستخدمه أحيانًا. وقد كان لزامًا على المرء الذي يريد استخدام الهواتف أن يفتحها في كل مرة ليتأكد من خلوّها من أجهزة التنصّت. أنا أيضًا كنتُ أفعل ذلك في الحالات النادرة التي استخدمت فيها الهواتف، رغم أني لم أكن أملك أدنى تصور عن شكل أداة التنصت، أو عن مكانها المفترض، أهي في الهاتف، أم في السلك الخارجي، أم في بدّالة الهاتف إن كانت ثمة بدالة. في الحقيقة، كنت أمضي مع الموجة في مسألة البحث عن أداة التنصّت وحسب، كما كان الآخرون يفعلون حين يفكّكون هواتفهم.

هكذا إذن لم أحتفظ برقم هاتفه، هذا إن كان لديه هاتف، وكنتُ أظنّ أنه لا يعرف رقم هاتفي بسبب التعقيدات التي يترتب عليها الاحتفاظ بأرقام الهواتف. في العموم كان السبب في عدم احتفاظنا بأرقام بعضنا البعض هو علاقة «الشبه» التي تربطنا. وهذا «الشبه» تحديدًا هو الذي حال دون أن أخبره عن فتاة الأقراص وما فعلته بي، وحال دون أن أخبره عن ملاحقة مِلْكمَن، وحال دون أن أخبره عن أقاويل الحيّ التي تكالبت عليّ. لم يخطر ببالي أن

أخبره، فما الذي يجعل شبه الحبيب في شبه علاقتنا هذه يرغب في معرفة هذه الأشياء، أو يعتقد أنه يُفترض بنا أن نتكاشف أو نتشارك الأفكار والمشاعر والحاجات المتعلقة بأشياء كهذه؟ وماذا لو أنني حاولت فلم يُنصت؟ ماذا لو لم يستطع أن يتحمل العبء الذي لم أستطع أنا أن أتحمله؟ لكنه اتصل بي على كل حال وردّت عليه ماما، ثم طلب منها أن يهاتفني فقالت له: «لا، لن تهاتفها. لا تهمني شعوذاتك أو عظمتك بين المناوئين أو إقدامك أو مكانتك بين أبطال الجماعة. فلستَ سوى مدنِّس للفتيات الصغيرات، وحلّاب مزيّف وفاسد تسيء إلى سمعة الحلّابين الحقيقيين. لن تتحدث إليها، هل فهمت؟ لن تدمّرها أكثر من ذلك. ابق بعيدًا عنها. احمل نفسك وقنابلك - أيها المتزوّج - واغرب!». قالت هذا غير عابئة، دون انتقاء للألفاظ، ودون مواربة خشية أن يكون هناك طرف ثالث يتنصت. وعندها أغلقت الخط، دون أن تقول وداعًا، فلم تتعب نفسها بالتوادع من أجله. في أثناء ذلك كنتُ في سريري لكنني سمعتُ كل ما قالته بوضوح، وقد ظننتُ أنها كانت تكلّم مِلْكْمَن. فبالأخذ في الاعتبار مهاراته في المراقبة، كان احتمال أن يعرف رقم هاتفي واردًا أكثر من احتمال أن أعرفه أنا أو «شبه الحبيب الموشك على سنة تقريبًا». وها هو الآن يواصل مطاردته الدؤوبة ويصل إلى عقر داري. حينها فكّرت في شبه الحبيب، فكرتُ فيه باشتياق، وقد رجوت للمرة الأولى منذ أن تسممت أن يكون هنا، في هذا المنزل، معي، في غرفة النوم هذه تحديدًا، إلى جانبي. ليته يتواصل معي. لكنّ تلك الأفكار لم تمكث طويلًا بسبب الفكرة التي خطرت لي بعدها. فما الذي قد يحدث لو أنّ ماما التقته: «**قل لي إذن، أيّها الشاب متى سيكون الزفاف؟ ومتى ستنجبان أيّها الشاب؟ وهل صحيح أيّها الشاب أنك تعتنق الدين الصحيح ولست متزوجًا؟**». يا إلهي، فكرة مريعة. أزحتُه من ذهني على الفور، لا لأنه لا يهمني، بل لأنه يهمني. قلتُ في نفسي يا له من محظوظ، لأنّ والديه هربا منذ زمن طويل.

أما المهاتفة الثالثة فكانت لماما من إحدى صديقاتها التقيّات، جيسن صاحبة الأسماء، إذ اتصلت وهي في عجلة من أمرها. قالت إنّ شيئًا ما حدث عند المكان المعتاد. واحد من فرق الاغتيال التابعة للدولة نصب كمينًا وأطلق الرصاص على الحلّاب الحقيقي، فنقلوه إلى المستشفى، والمستشفى هو المكان الذي يعرف الجميع - بسبب وصمة الوشاية - أنه ليس مكانًا آمنًا لا سيما إن كنت تشكو من علة سياسية. قالت الصديقة: «لم يكن له رأي في الأمر يا صديقة. لم يملك خيارًا. أخذوه إلى هناك بعد أن أطلقوا النار عليه. لكنكِ إن شغّلتِ مذياعك ستسمعين في الأخبار أنهم يسمّونه إرهابيًا. هل تصدّقين؟ **الحلّاب الحقيقي! الرجل الذي لا يحب أحدًا! إرهابي!**». وقالت الأخوات الصغيرات إنّ سماعة الهاتف سقطت من يد ماما آنذاك.

بعد ذلك ركضتْ إلى غرفتي وقالت إنها مضطرة إلى الذهاب إلى المستشفى، وإنّ عليها الذهاب لرؤية الحلّاب الحقيقي. سألتني إن كنت استعدت ما يكفي من عافيتي لكي أنهض وأعتني بالصغيرات والمنزل، فسألتُها: «هل مات؟» وقد فوجئتُ بسؤالي إذ ليس من طبيعتي أن أسأل سؤالًا كهذا. قالت إنها لا تعلم، لكنّ الشياطين كلاب الأرض الملاعين المُفترين الجوّالين في الأرض صالوا وجالوا وأطلقوا النار عليه ثم حملوه إلى المستشفى، وإنها لا تدري ما إذا كانت جيسن تقصد أنهم حملوه ميتًا، أي إلى ثلاجة الموتى المجاورة للمستشفى، أم تقصد أنه فقد وعيه، وربما يُحتضر، لذلك لم يستطع أن يعارضهم ويمتنع عن الذهاب إلى المستشفى. أو ربما لم يمانع وأصرّ على الذهاب إلى المستشفى، فقد عُرف عنه أنه كان يفعل بالضبط ما يأمر المناوئون باجتنابه. قالت ماما: «لا أعلم»، ثم أردفت: «يقولون إنه إرهابي. يفتشون منزله الآن، ويحفرون في فنائه الخلفي، يبحثون عن أشياء إرهابية مدفونة هناك». قلت لها وأنا أنهض من السرير: «لا بأس يا ماما.

اذهبي وأنا سأعتني بنا وبكل شيء». عندها انحنت وقبّلتني، ثم انحنت أكثر وقبّلت الأخوات الصغيرات اللاتي تبعنها إلى الدرج. كنّ يتشبّثن بملابسها ويبكين ويتوسّلن: «لا، مامي! لا، أرجوكِ لا تذهبي!». فقالت لهن إنهنّ بنات عاقلات، ولكن ينبغي لهنّ الآن أن يسمعن كلامي، أنا أختهن الوسطى. وبعد أن وقفتْ منتصبة وتخلّصت من قبضاتهن، أخذت بعض النقود من حقيبتها للطوارئ، وأدخلتها في جيب تنّورتها، ثم أعطتني الحقيبة بما فيها من بقية نقود. في تلك اللحظة أدركت حالة الأخوات الصغيرات، وتشبّثهن، وبكائهن، وتوسّلاتهنّ، ورجائهن. فماما لم تستودع حقيبتها إحدى بناتها من قبل إلا مرتين. أما المرة الأولى فكانت حين جاءت شرطة الدولة لتأخذها كي تتعرف على جثة ابنها، أخينا الثاني. في تلك المرة تركت حقيبتها عند الأخت الكبرى، لا تدري ما قد تفعله، وما قد يُفعل بها حين يتهكم عليها أولئك الآلهة المتأنسنون، على حدّ قولها، فيقولون: «تستحقين ما جرى لكِ. يستحقّ بكركِ ما جرى له أيضًا، في ميليشيّاه الصغيرة. يستحق ما جرى له بعد أن تحزّب مع معارضينا». وأما المرة الثانية فكانت حين جاء مناوئو حيّنا بحثًا عن الأخت الثانية، كي يقتلوها أو ربما يعاقبوها - لا لأنها تزوجت من الأعداء، بل لأنها تجرأت على إهانة المنطقة بأكملها حين عادت لزيارة أسرتها بعد زواجها من العدو -، أو ربما ليجبروها على التكفير عن ذنبها باغترابها في هذا الزواج عبر تدبير كمين لزوجها كي يقتلوه. في تلك المرة دفعت ماما حقيبتها على عجل إلى الأخت الثالثة ثم هرعت إلى المكان الذي اعتقلوا فيه الأخت الثانية. وقد حملت معها مسدّس أخي الميّت من الطابق العلوي، ولم أكن أعرف حينها أنه هناك، كما أنني واثقة من أنها لا تملك أدنى لمحة عن استخدامه. وبطبيعة الحال أخذه المناوئون منها وأنذروها، فيما جلدوا الأخت الثانية وأمروها ألا تعود إلى المنطقة أبدًا. وها هي الحقيبة الآن أصبحت وديعتي. قالت ماما وهي ترتدي معطفها وتلقي وشاحها عليها:

«ربما تحتاجون إليها». صاحت الأخوات الصغيرات فيما قرفصتُ وأحطتهنّ بذراعي، لتهدئتهن. كانت ماما متجهمة للغاية، ولم أملك إلا أن ألاحظ بأنها لم تتجهم هكذا حين كان زوجها، أبونا، يُحتضر في المستشفى. لذلك لم أستطع أن ألوم الأخوات الصغيرات على شعورهن بالهلع. أنا أيضًا شعرتُ بشيء، ليس هلعًا، لكنه حالة ذهنية غامضة قد تتحول في لحظة إلى هلع. لم أشأ أن أفكّر في الأمر، ولكن ماذا لو صدق شعور الأخوات الصغيرات ودخلت ماما في شجار ينتهي بها إلى الاعتقال ولا تعود إلينا أبدًا؟

عادت ماما، ولكن ليس قبل حلول الظلام، حينما خلدت الأخوات الصغيرات إلى النوم، بعد أن هدّأتهن بحلويات «رايس كريسبيز» وبطاطس «تايتو»، والكعك الباريسي المدوّر، والخبز المحمّص في المقلاة، وشرائح سمك الهلبوت مع البرتقال، مع كثير من السكّر بالطبع. بعد ذلك حان وقت قراءة «**من يخاف فيرجينيا وولف؟**»[1]، وقد كان اختيارهنّ لا اختياري. ساءني ذلك الكتاب كثيرًا، كونه من أدب القرن العشرين، غير أني اكتشفت أنّ الذي جذب اهتمامهن في الكتاب ليس الحوار أو القصة، بل العنوان السحري الذي أردن أن يسمعنه مرارًا وتكرارًا. وهكذا أخذت أكرر العنوان بعد كل جملتين، فهدأن ونمن. تركت بابهنّ مواربًا، ثم تسللت إلى الطابق السفلي، إلى الصالة وجلست على المقعد في هدأة أول الليل. فكرت في تشغيل المذياع كي أسمع ما إذا كان قد مات، لكنني لم أكن أطيق المذياع، بكل تلك الأصوات التي تذيع، والتي تغمغم، تلك الأصوات التي تكرر على مدار الساعة ونصف الساعة في نشراتهم العاجلة كل الأحداث التي لا أودّ

---

(1) من يخاف فيرجينيا وولف؟ «Who's Afraid of Virginia Woolf?»: مسرحية لإدوَرد ألبي صدرت عام 1962م، وأنتج منها المخرج الأميركي مايك نيكولز فيلمًا عام 1966م يحمل العنوان ذاته.

سماعها. رجوتُ ألا يكون قد مات، لكنّ الناس دائمًا ما تموت في مثل هذه الحالات. فلماذا أشغل نفسي إذن بمواجهة سابقة لأوانها مع كل ما يمكن أن يرتاح عقلي منه في الوقت الحالي؟ لم أكن قد وصلت إلى تلك النقطة الحرجة التي يصبح عندها عدم المعرفة أشدّ وطأة من المعرفة. كنت ما أزال في مرحلة «تمهّلي، ليس بعد»، وفي ذلك الوقت سمعتُ قلقلة مفتاح ماما في القفل.

ورغم أنّ الظلام كان يغشى الحجرة إلا أنّ ماما شعرت بوجودي، بالطريقة التي يعرف بها الإنسان هذه الأشياء، ربما بتأثيرات غير مرئية، أو بقدرات ذهنية، أو حواسّ متيقظة. لم تُسدل الستائر ولم تشعل الضوء، بل جلست قبالتي وهي ما تزال ترتدي معطفها ووشاحها فوق رأسها، وقالت إنه ما يزال حيًا، وإنّ حالته مستقرة لكنها لم تكن تعرف المقصود بكلمة «مستقرة»، ولأنها ليست من عائلته، رغم أنّ الحلّاب الحقيقي لم تعد له عائلة - بعد وفاة أخيه قبل سنوات - فلن يقدّموا لها أو لأي من الجيران الذين أتوا إلى المستشفى أية معلومات عن حالته. تبدّلت حالها عندئذ - ولم يكن ذلك غريبًا عليها -، فالعقل قد يُجبر فجأة على الالتفاف والحديث عن شؤون ربما تكون مرتبطة بالموضوع لكنها لا تبدو كذلك لمن يسمعها. طفقت تتحدث عن شخصٍ ما، عن فتاة كانت تعرفها. كان ذلك قبل زمن طويل، حين كانت هي أيضًا فتاة، وكانت تلك الفتاة ثاني أقدم صديقة لماما، لكنني لم أسمع شيئًا عنها من قبل، فماما لم تتحدث عنها قط. قالت إنهما افترقتا وانتهت صداقتهما لأنّ تلك الصديقة نذرت نفسها لتصبح امرأة مقدّسة، وانضمّت إلى النساء المقدّسات في منزلهنّ المقدس. تنهّدت ماما. ثم قالت: «لم أصدّق ذلك. كنا في التاسعة عشرة، وتخلّت بيغي عن الحياة - عن الملابس والحليّ والرقص والجمال، وكل ما يعنيه ذلك - لمجرد أن تصبح امرأة مقدّسة». لكنّ هذا كله لم يكن أفدح ما تخلّت عنه بيغي. واصلت ماما حديثها، لكنني حِرت

وتساءلت ما إذا كانت ما تزال تتحدث عن تلك الفتاة، التي ربما لم تكن موجودة أصلًا، ذلك أنّ صديقها الأقدم الأول والحقيقي منذ طفولتها أصيب بطلق ناري وقُتل في ذلك اليوم: الحلّاب الحقيقي. فقد تكون هذه قصة مختلقة، بديلة، توريةً لقول «**لقد مات يا بنيّتي. مات. كيف لي أن أواجه الأمر؟**». لعلّ ذهنها يحاول أن يفكّك الأشياء، ويصمّم على ألا يقبل العواقب السيئة، يخترع الحكايات كي يؤخر تلك العواقب، ويرفض أن يكون حاضرًا حتى في اللحظة التي يصل فيها ذلك الـ... قطعت ماما حبل أفكاري عن أفكارها وقالت: «المسألة وما فيها يا بنيّتي، أنني أنا أيضًا كنت أريده». كانت بالتأكيد تتحدث عن الحلّاب الحقيقي، وتقول إنّ كلّ الفتيات تولّعن به، كل الفتيات اللاتي أصبحن الآن نساء جليلات، أولئك النساء منتصِفات العمر المتضرّعات للرب في حيّنا، اللائي يُعتبرن أدنى في المرتبة قليلًا من النساء المقدّسات، اللائي لولا أنهنّ زللن مع الرجال والجنس والإنجاب في وقتٍ ما لما نزلن عن تلك المرتبة العليا. قالت ماما: «أذكر بوضوح كوضوح النهار حين سمعن بأنّ بيغي قد قرّرت أن تسلك طريق التراتبية المقدّسة. ضحكن من هذا العبث، من حسن الحظ، من توقيته المناسب، فالآن وقد تنحّت بيغي عن الطريق من ذا الذي يوقفهن؟». قالت ماما إنها غضبت من ذلك، لكنها غضبت كذلك من بيغي التي تحوّلت إلى إنسانة متأمّلة تمامًا، مئة بالمئة، وفي حالتها الصوفية تلك وزواجها من المسيح لم تعد تفرّق بين الحلّاب الحقيقي وأي رجل آخر، ولم يعد يهمها ما يقول الناس أو ما يدور في أذهانهم. قالت ماما: «حيّرني أمرها، فقد أحبّته، أعرف أنها أحبّته، لكنها تخلّت عنه، وتخلّت عن تواصلها الجسدي معه، نعم يا بنيّتي» وهنا أخفضت ماما صوتها وأكملت «في تلك الأيام كان هناك احترام أكثر، وكشفٌ أقل، وطيش أقل، وعاطفيّة أقل مما يحدث الآن، لكنني أعلم أنها ضاجعته، وفي تلك الأيام لم يكن يحدث هذا قط».

صحيح أنّ الرب عظيم وما إلى ذلك، لكن تخيّلي أن تهجري الحلّاب الحقيقي من أجله! هذا ما قالته ماما. لقد قالت ماما هذا بالفعل، وجاءت مكاشفتها هذه مباشرة، من فمها إلى أذنيّ. أمي، واحدة من أشهر خمس نساء تقيّات في الحيّ تقول تلك الجملة التي لا تُصدّق: «**صحيح أنّ الرب عظيم وما إلى ذلك، لكن**». كان قولها هذا فضيحة، ومثيرًا في الوقت نفسه، بل ويبعث على الراحة، أن تكشف واحدة من ذوات التقى أنها ليست تقيّة مئة بالمئة، أو أنّ معنى التقى ينبغي أن يتعدل معناه ليشمل النصف السفلي من الجسد أيضًا. كنا محقّات إذن، أنا وأخواتي كنا محقّات. إذن فقد جرّبت ماما في شبابها المواعدات والغراميات في الأماكن التي تسميها «نقط نقط نقط»، أو حاولت أن تجرّبها، أو لم تكن ضدّها على الأقل. كانت تجيز هذه الأشياء في أعماقها. مثلما يظهر الموت الحقائق، فإن خبر «هوجم وأُطلقت عليه النار ويوشك أن يموت» يظهرها أيضًا. فلم أكن لأعرف أبدًا عن هذا الجانب الخفيّ من حياة ماما والحلّاب الحقيقي وبيغي والطبقة العليا من نساء الحيّ التقيّات الساميات غير المترهبنات لو لم يُطلق الرصاص على الحلّاب الحقيقي ويوشك على الموت. وظلّت ماما تواصل حديثها. لقد فَرِحنَ بما فعلتْه الصديقة الأقدم حين اختارت الحجاب ومضت، غير أنّ الحال لم يستمر هكذا طويلًا، إذ اندلع بينهنّ نزاع شرس آنذاك. قالت ماما: «تنافسنَ عليه، وأنا أيضًا، بنيّتي، نافستهنّ عليه». وهنا التزمتُ الصمت لأنني أردتها أن تُكمل ما بدأتْه، لم أرد لها أن تعود إلى وعيها، أو تتذكر من تكون أو من أكون، ولا أن تتذكر ذلك الرجل الآخر، الرجل الميت الذي تزوّجته، والدي. «لكنّ شيئًا مريعًا قد حدث، شيئًا لم أتوقعه ولم تتوقعه الأخريات». أما ذلك الشيء المريع فهو أنّ الحلّاب الحقيقي من منطلق معارضته المعتادة اتخذ قراره في مسألة حالته الاجتماعية. فإن لم يتزوج بيغي، لن يتزوج أية امرأة أخرى. أما فيما يخص مصدر اسمه – فقد انتقلت ماما مباشرة إلى هذا.

كنتُ أنا وكلّ أبناء جيلي نعتقد أنه عُرف باسم «الرجل الذي لا يحب أحدًا» بسبب فظاظته في ذلك اليوم وصراخه على الأطفال. لأنّ أهل الحي كانوا يقولون إنه رجل سريع الغضب وغير اجتماعي ولا يحبّ الآخرين. وقالوا إنه لم يكن لاعبًا فاعلًا في الفريق، فقد أثبت تخليه عن دعم جهود المناوئين. قال الناس: «كانت من أجل مصلحتنا، تلك البنادق. وقد اضطرّ فتيان الحيّ إلى إخفائها في مكانٍ ما». هكذا اتفق الجميع على أنه لم يكن متعاونًا. كان ميّالًا إلى الجدال أيضًا، مع المناوئين في المقام الأول، لأنهم هددوا فتاة الأقراص بالقتل، ولأنهم جلدوا أختنا الثانية، بالإضافة إلى محاولتهم قتل الضيفة التي جاءت إلى سقيفة النسويات للتحدث عن قضايا النساء العالمية. كما أنه جادلهم في مسألة إطلاق النار على الركبتين، والجَلد، وفَرض الإتاوات، وتشويه السمعة - لا سمعة الآخرين فقط، بل سمعته أيضًا. كان الناس يرون أنه دائمًا يجلب المشكلات. لم يكن يؤثر السلامة، لم يكن يتصرف بلباقة، بل يفضّل أن يكون عنيدًا واعيًا ومدركًا ومتمردًا. وبطبيعة الحال كانت هذه هي الأسباب التي أُريد لأبناء جيلي أن يفسّروا بها تسميته بـ«الرجل الذي لا يحب أحدًا». وهناك اسمه الثاني بالطبع، «الحلّاب الحقيقي»، لكنّ هذا الاسم لم يأتِ إلا لاحقًا لتمييزه عن ذلك الرجل الذي يُفترض أنني مغرمة به. غير أني حين استمعت إلى ماما انكشف لي أنّ هناك سببًا حقيقيًا أقدم اكتسب منه اسمه. قالت: «بعد أن حطّمتْ بيغي قلبه من أجل الرب، حطّم بدوره قلوب كل الفتيات الأخريات بعزوفه عن الزواج، ورفضه أن ينساها». ظلّ على وسامته، لكنّه فقد براءته واكتسب مسحةً من الفظاظة المرّة، فأصبح اسمه أولًا «الرجل العاجز عن حبّ أي أمرأة غير بيغي»، ثم أصبح «الرجل الذي تعمّد ألا يحبّ إلّا بيغي». وبعد ذلك في فترة القحط وقسوة القلب أصبح «الرجل الذي اتبع سياسةً راسخة في ألا يحبّ أحدًا أبدًا، لا سيما بيغي»، وهو الاسم الذي اختصروه إلى «الرجل الذي لا

يحب أحدًا» فظلّ متداولًا إلى أن جاء اسم «الحلّاب الحقيقي» وبات ثابتًا كالنقش على الحجر. قالت ماما إن الاسم لم ينحسر، رغم أعماله الخيّرة. فقد ساعد والدة فلان الفلاني، وهي نفسها والدة الفتى النووي المسكين، بعد وفاة زوجها، ثم بعد وفاة ابنتها، ثم بعد موت كل واحد من أولادها الأربعة. ثم ساعد ماما حين مات بابا، وبعد وفاة الأخ الثاني، وحين وقعت الأخت الثانية في ورطة مع المناوئين بسبب اختيارها الثوري لزوجها. وساعدني أيضًا بعد لقائي بمِلْكْمَن في منطقة العشر دقائق. هكذا إذن كان يهرع لمساعدة الآخرين، الكثير من الآخرين، حتى فتاة الأقراص التي نهرتْه لكنها ويا للغرابة لم تسمّمه. كما ساعد ذوات القضيّة حين كانت الجماعة تسخر منهنّ وتعاقبهنّ على إثارة زوبعةٍ في فنجان في الوقت الذي ما تزال فيه المشكلات السياسية قائمة منذ ثمانمئة عام[1] . كان يقدّم هذه المساعدات كلها، من منطلق رحبٍ وحالة متسامية. لكنّ لم تكن لهذا كله قيمة مع وجود اسمه على هذا النحو في جماعتنا. قالت ماما: «يا للخسارة! يا له من رجل. يا له من رجل نزيه نبيل. ووسامته يا بنيّتي—»، وهنا توقّفت وسألتني إن كنت أتفق معها في أنه نسخة من الممثل جيمس ستِوَرت، وكذلك من الممثلين روبرت ستاك وغريغوري بيك وجون غارفيلد وروبرت ميتشم وفكتور ماتشور وآلان لاد وتايرون باور وكلارك غيبل. لم أكن أوافقها على ذلك، لكنّ العاشقين يرون أشياء غريبة طيلة الوقت. قالت: «وفي النهاية اضطررنا نحن النساء إلى الكفّ عن المحاولة»، فنظرتُ إليها، فأحسّت رغم الظلام بأنني كنتُ أنظر إليها. فحاولت على عجل أن تصحح كلامها: «لستُ منهنّ. لا أقصد نفسي. فقد صرد عنه قلبي منذ زمن طويل». لكنّ هذا لم يكن

---

(1) إشارة إلى الغزو النورماندي لشمال أيرلندا في القرن الثاني عشر، والذي تعاقبت بعده الصراعات السياسية.

صحيحًا. لا، لا لم تنسه. في تلك الليلة تحديدًا أدركتُ شيئًا. قالت مصرّة: «بالتأكيد نسيته»، ورفعتْ صوتها كي لا تسمح لأفكاري باختراق أفكارها. «لو أن قلبي لم يصرد عنه، يا بنيّتي، فلماذا - وكأنّ هذا دليل- تزوّجت أباك؟»

لماذا حقًا؟ ومرة أخرى وجدتني أعود للتفكير في مسألة «الشريك الخطأ». ولا أقصد انتهاء ما كان عِلاقة ناجحة كان كل شريك فيها يساهم في العلاقة ويلتزم بها ويحتفي بشريكه إلى أن يصلا إلى نهاية طبيعية لدربهم المشترك، فيفترقان بحبٍ أو من دون حب، لكنهما يباركان قرارهما بالمضي إلى شخصٍ آخر أو شيء آخر. إنما أقصد من يتزوج شخصًا لا يحبه ولا يريده، وحين ينظر إليهما أحد يهزّ رأسه ويقول لا يجدر بأحد أن يكون في هذه المكانة الحميمية من حياة شخصٍ آخر إذا ما تبيّن أنه أساء الاختيار. غير أن ثمّة أسباب في التفكير الجمعي لمثل هذه الزيجات. أحد هذه الأسباب هو الوضع السياسي القائم هنا، فالشريك الذي تتوق إليه حقًا ربما يموت موتًا مبكرًا، وعنيفًا. فلماذا تُتعب قلبك في علاقة مع الشخص الوحيد الذي أحببته وأردت أن تقضي حياتك معه ثم يتخلى عنك بعد قليل ويمضي إلى المقبرة؟ والسبب الثاني هو الخوف من الوحدة، نظرًا لوصمة العار التي يلحقها المجتمع تلقائيًا بمن يعيش وحيدًا. لهذا يتزوج الإنسان من أي أحد متوفّر. من الأفضل إذن أن تتزوج الفتاة أي رجل. أي رجل سيفي بالغرض. أو أي امرأة ستفي بالغرض، فاختر أي امرأة. والسبب الثالث هو الضغط الاجتماعي، فأنت مُجبر على أن تتسق مع الأعراف والتقاليد، ولا يمكنك أن تخيّب أمل الناس. لقد تَحدد موعد الزواج، واختيرت كعكة الزفاف، ألم تحجز رحلة شهر العسل بعد؟ وهناك أيضًا خوف المرء من نفسه، ومن استقلاليته، ومن طاقاته، لذلك يُفضّل أن يتزوج المرء من شخص لا اهتمام له بها، من شخص لا يشعر بها، شخص لن يدركها ولن يوقد جذوتها فيك. وهناك أيضًا تجنّب السعي إلى من تريده، لأنك إن فعلت ذلك أثرت

حسد الآخرين وغضبهم، ممن تعرف أنهم يريدونه مثلك. وهناك أسباب أخرى تجعل المرء يختار الزوج الخطأ - كالخوف من فقدان السيطرة حين تسمح لمن تهواه بأن يتغلغل إلى أعماقك، أو الزواج من شخص قريب من الشخص الذي تريده، فحين لا يحبّكِ ذلك الشخص تتزوجين من صديقه العزيز، أو زميله أو قريبه أو جاره. وهناك طبعًا السبب المهم، السبب الأكبر في عدم اختيار الزوج الصحيح. فهبَي أنكِ تزوجت **ذلك** الشخص الذي تحبينه وتريدينه ويحبّك ويريدك، وكان زواجكما خير زواج ومليئًا بالسعادة، ثم لم ينصرف هذا الزوج الرائع عن حبك ولم تنصرفي أنتِ عن حبه، ولم يُقتل أحد منكما في المشكلات السياسية، فماذا ستفعلين بكل ذلك الهناء الأبدي؟ هل أنتِ واثقة حقًا، حقًا، أنكِ قادرة على احتمال ذلك؟ لقد قررت الجماعة أنها لا تستطيع احتمال ذلك. فالسعادة العظيمة المستديمة كانت مطلبًا صعبًا للغاية. لهذا السبب كان الزواج المحفوف بالشكّ والشعور بالذنب والندم والخوف واليأس والعتب والتضحية المريعة بالنفس هو المطلب هنا. ولهذا السبب حميتُ نفسي بالعزوف عن الزواج. بل إنني تمسّكت بشبه علاقات رغم اشتياقي من وقتٍ لآخر ومحاولاتي العقيمة لتحويل علاقتي أنا وشبه الحبيب إلى علاقة حقيقية. كانت هذه هي الأسباب - وهي أسباب حافلة بالتأكيد - لما يُمكن تسميته بالزواج من الشخص الخطأ. والآن أدرك أنّ بابا كان **فعلًا** الزوج الخطأ، فرغم أنها كانت تلومه، دائمًا تلومه - على اكتئابه، على ملازمته السرير، على ذهابه إلى المستشفى، على احتضاره، على أنه لم يقع في حبها -، إلا أنّ المشكلة لم تكن في بابا. بل لأنها كانت تحبّ الحلّاب الحقيقي وظلّت تحبه طيلة الوقت. فهل أدرك بابا أنه كان الزوج الخطأ؟ هل انشغل بالأمر، هل تحطّم قلبه، لا لأنه وُضع في المكان الخطأ بل لأنه سمح بأن يوضع في المكان الخطأ؟ هل أدرك بابا أنّ ماما كانت طيلة سنوات الزواج تلك، حتى قبل الزواج، الزوجة الخطأ؟

الآن، وبعد أن انقضى أسبوعان تقريبًا، ما تزال ماما في المستشفى ترعى الحلّاب الحقيقي، فيما أنا في المنزل أرعى الفتيات. هدأ روعهن حين أدركن أنها لم ترحل إلى الأبد، ولن تختفي، أو تُخفى، أو تُختطف بعيدًا في أماكن مخيفة كالمستشفى أو السجن، وأنها ليست ميتة وجسدها مدفون في قبر سرّي دُفن على عجل. لقد اقتنعن بأنها سوف تأتي بين الفينة والأخرى، وحين تأتي يمكنهنّ أن يجلسن معها، واقتنعن أيضًا أن بوسعهن في الوقت الحالي الانتصار عليّ بما يقلنه نقلًا عنها. «مامي قالت يمكننا أن نتناول هذا»، «مامي قالت يمكننا أن نذهب إلى هناك»، «مامي قالت يمكننا أن نظلّ خارج البيت إلى الرابعة فجرًا». كنتُ أسلّم لهنّ ببعض تلك الادعاءات، وحين يحين الليل أقرأ لهنّ، فقد كُنّ يحببن ذلك جدًا. حدث في ذلك الوقت أن ذهبتُ في وقت العشاء إلى قلب الحيّ لكي أشتري (إن صحّ القول) تلك المقليات اللعينة، فقد طلبتْها الأخوات الصغيرات، وكنتُ أنا أشتهيها أيضًا.

هكذا دفعتُ باب المحلّ ودخلته كي أعيش تلك التجربة البغيضة التي اعتُبرت فيها شريكة من دون شك في مقتل فتاة الأقراص الذي اقتنعت حين خرجتُ من هناك أن لا علاقة بينه وبين مِلْكْمَن. لم يكن الأمر سوى نزعة الإثارة فيهم، وحبهم للاختلاق، والأكاذيب التي يريدون أن تكون حقيقية، فيجعلونها حقيقةً في رؤوسهم وفي أقاويلهم. على أية حال، حتى لو كنتُ شريكة في مقتلها، فمن أعطاهم الحق في أن يتكلموا؟ فكلهم شركاء أيضًا. دفعتُ الباب إذن ودخلت، ولم يمض وقت طويل حتى خرجتُ من هناك بصدمةٍ وإحساس بالخزي ومقليات مجانية وما قلته غضبًا: «**اقتلهم يا مِلْكْمَن. اقتلهم جميعًا. أكرههم كلهم. أسرع واقتلهم**». مشيتُ في الشارع من متجر المقليات وانعطفت عند الزاوية وأنا أهجس أهذا ما سيكون عليه الحال من الآن فصاعدًا؟ أي أنني سأحصل على الأشياء دون مقابل. كنتُ قد شهدت مع مرور الزمن بضعة أشخاص مختارين في المنطقة يحصلون

على الأشياء دون مقابل. يدخلون المتاجر، فيعطيهم الباعة الأشياء مجانًا في صمت، وفي بعض الأحيان بفظاظة، ولكن في أغلب الأحيان بقلق كبير ووداعة طاغية. أتُرى هذا هو دوري في عالم مِلْكْمَن الآن؟ سوف يكرهونني، ويخافون مني، ويحتقرونني، لكنهم سيحافظون على علاقة طيبة بي. لئن كان هذا هو الحال - بكل هذه الأشياء التي ستعطى لي، سيّان أردتها أم لا - فماذا ستكون خطوتي التالية إذن؟ هل أتأقلم وأقبل الأشياء المجانية ثم أكدّسها في زاوية ولا أنظر إليها البتة؟ أم أكون حازمة ولا أسمح لأحد بأن يرغمني على قبول شيء فأخبط بنقودي على المنضدة؟ أم أغادر المكان بكبرياء مصقول دون أن أشتري شيئًا أو آخذه مجانًا؟ لو اخترت هذا الخيار الأخير فسوف أمسك بزمام أمري، لكنني كنتُ قد أخذت المقليات وانتهى الأمر، وهكذا أصبحوا هم من يمسك بزمام الأمور. وهذا يعني أنه لم يعد أمامي سوى أن أخرج خارج المنطقة لكي أتسوّق، لا الأشياء البسيطة فقط، بل كل حاجياتي الأسبوعية. كما أنه لم تكن لديّ أدنى خبرة في التعامل مع هذا الوضع، لا أعرف كيف أرفضه ولا كيف أتغلب عليه. ولو أنّه مات - لو أنّ مِلْكْمَن مات، أو سُجن أو اختفى، فلم يكن يرفّ للمناوئين جفن في إخفاء بعضهم البعض من وقت لآخر - أو لو أنه وصل إلى مرحلة لم يعد فيها راغبًا بي، فسوف أهوي من مرتبتي هذه، وسوف يرغب الباعة بالثأر من كل التملّق الذي اضطروا إليه، كما أنهم سوف يطالبون بأن أعيد إليهم كل الأغراض المجانية. هكذا إذن واصلت سيري بأفكار يائسة ووجه حالك وأنا أقول في نفسي ما الغاية من ذلك؟ ما الفائدة؟ وقد تنامت سلبيّة جمّة في داخلي. حينها أيضًا داهمني ذلك الإحساس بالطفو في جسدي مجددًا، فلم أعد أشعر بساقيّ، ولم تعد قدماي تلمسان الأرض. كنتُ أراهما تتحركان، لكنني لا أحسّ بحركتهما. كما عاودني ذلك الشعور بأنني عارية ومكشوفة من ورائي. ما الذي يحدث؟ هجست في مدى كرهي لهذا، وهنا توقفت عن

المشي وتمسّكت بسياج كان أمامي. وهناك، سرت بداخلي نوبة أخرى من تلك الرجفات التي تكبح النشوة، وكأنها كانت في انتظاري تتحيّن اللحظة. كان ينبغي إذن أن تكون صدمة تلو صدمة، شيء مقرف تلو الآخر، حتى أفهم الرسالة. ولكنْ أي رسالة؟ كيف يكون ذنبي أنهم قرروا أنه هو، من أجلي، قد حزّ عنقها؟

ثم تذكّرت المقليات. كنتُ ما أزال أحملها، ما أزال مُثقلة بها، فطرحتُها عنّي آنذاك. فلمّا وقعتْ على الأرض أفسدتُ هذه اللفتة النبيلة بتفكيري، حين قلت في نفسي لماذا فعلت ذلك؟ هل يجدر بي أن أحملها؟ لم تتسخ، وما تزال في مغلفها. كنتُ أستطيع أن أنفض عنها الغبار، ثم أرسم إشارة الصليب عليها وأعود بها إلى البيت من أجل الأخوات الصغيرات. لكنّ الأمر قُضي على أي حال حين بزغ قطيع كلاب الشوارع من العدم، فانطلقتْ نحو المقليات وتقاتلت عليها، حتى أخذت الكلاب المنتصرة تسرطها في لحظات. وحشية الكلاب تلك أثارت شهقةً على الطرف الآخر من الطريق، فنظرتُ فإذا بها أخت فتاة الأقراص، الأخت التي، مثلي، قد سُمِّمت ومن الشخص عينه، كما شارفت على الموت. ومثلي أنا كانت تتمسك بالسياج، ذاهلة، وتبدو كذلك مثلما قالوا، كأنها في بداية بلاء تسمّمها، كأن معدتها لم تنظّف ولا يفترض أنها في مرحلة التعافي. كانت تخزّر عينيها، نحوي أولًا، ثم صوب الكلاب، وقد رأيتُ بعينيّ صحة ما قالوه بأنها لم تستعد إشراقها منذ أن تسمّمت، ويبدو أنها لم تعد تُبصر جيدًا. قالوا إنها لا تستخدم عصا، وصدقوا، فها هي هنا لا تستخدم عصا. كانت تطوّع ما تبقّى من بصرها، إضافة إلى الجدران والحسائك وأعمدة الإنارة والوشائع كي تتبيّن دربها، تقرّب وجهها من الأشياء وتتحسسها بيديها. كانت الجماعة تقول عن حالتها الصحية «إنها بخير، تتدبر أمورها»، وهذا تلطيف لغوي لعبارة «تعافت لكنها مكسورة»، وهذا نفسه تلطيف لعبارة «تحتاج إلى رعاية طبية عاجلة»، غير أنّ الشخص

المحتاج إلى كل تلك الرعاية لسوء الحظ لن يذهب إلى المستشفى كي يحصل عليها. أما إشراقُها، فلديّ الآن تأكيد واضح من نفسي بأنه معطوب، مبعثر، ومن الصعب تمييزه. فإن استثنينا الغمزات القليلة المخادعة واللمعة ذات المسحة الكئيبة الغريبة، لأصبحتْ مثل أي واحدة منا، نحن البقية، بأعبائنا الثقيلة. كان هناك أشخاص قليلون في الشارع في تلك الساعة، لأن أغلب الناس كانوا في منازلهم، يشربون الشاي، ويشاهدون الأخبار، أما هؤلاء الذين كانوا في الخارج فكانوا يمرون من جانبها. البعض منهم تعمّد ألا ينظر إليها، والبعض الآخر كان يتوقف ويبطئ ثم يقف لحظة، وبعدها يقطع الطريق فجأة إلى المكان الذي ما تزال الكلاب تتقاتل فيه، وقد اختاروا هذه الطريق بوصفها أقل الطرق إثارة للقلق. تردّد شخصٌ أو اثنان، مثلما ترددتُ أنا، لا لأننا لا نودّ مساعدتها، بل لأنّ أخت فتاة الأقراص بإشراقها المنكمش، في عتمتها المتفاقمة، قد تصد عروض المساعدة. وقد يرغب شخص في المساعدة لكنه لا يستطيع بسبب تشبّثها بالسياج. ثم اتخذ ذانك المترددان القرار. قطعا الشارع أيضًا، فلم يبق إلا أنا وأخت فتاة الأقرص. وبقيتْ الكلاب طبعًا، بعضها تتقاتل، بعضها تلعق أكياس المقليات بل تأكلها. بعدها شاهدت رجلين على مقربة منا، يتعاركان، يتعاركان فعليًا. لم أرهما قبل ذلك لأنهما لم يصدرا أي صوت على الإطلاق. كانا منهمكين في العراك في صمت، يلفهما هدوء مطبق. قبضاتهم مرفوعة عاليًا، يتدافعان، يوجّهان لبعضهما اللكمات المستقيمة، واللكمات الخطّافية، واللكمات التصاعدية، يتراوغان، ويعودان للإمساك بتلابيب بعضهما البعض. كان منظرًا غريبًا، لكنّ الأغرب من ذلك هو أنّ كليهما كان يحتفظ بسيجارة تتدلى من فمه وهو في غمرة ذلك العراك البدني الشاق.

رفعتُ يدي عن السياج وتقدمت نحو أخت فتاة الأقراص. قلتُ لها من أنا، إذ بدا أنها لم تكن قادرة على رؤيتي. سألتها إذا ما كانت تريد المساعدة

دون أدنى اعتقاد أنها سترد بالإيجاب ولست واثقة حتى من أنها ستردّ من الأساس، أحد الأسباب وراء هذا، إن كانت مثل الآخرين في متجر المقليات، فلأنها تظنّ أنّ لي يدًا في مقتل أختها، فما الذي يجعلها تعتقد أنني أعتقد أنها ستقبل مساعدة مني؟ أما السبب الآخر فيتعلق بموضوع الزواج المحفوف بالشك، بالزوج الخاطئ. فالبعض كان يقول إنّ العتمة التي حلّت على أخت فتاة الأقراص لم تكن بسبب تسمّمها بقدر ما نتجت عن يأس تدريجي حط على روحها بعد أن هجرها حبيب المدى الطويل قبل عام. بالنظر لمن تركها، تقريبًا في الحقيقة، هجرها، وحقيقة أنه أحد أقربائي، لم تكن لتقبل مساعدتي، لكنّ ذلك لم يخطر ببالي في تلك اللحظة. عرضتُ عليها المساعدة فقالت: «ماذا فعلتِ؟ رأيتُ حركة، والآن هناك كلاب لا أستطيع المرور من جانبها». كانت قد استدارت لتسلك الطريق الطويلة المعاكسة. وعلى الأرجح سوف تمضي على وشيعة تلو وشيعة، وعمود إنارة معطوب إثر آخر إلى أن تقترب من منزلها. قلتُ لها أشرح السبب: «رميتُ المقليات»، ثم قلت: «لا تذهبي من هناك. ثمة رجلان يتقاتلان». عندها توقفت، وقالت إنها تعاني كي تتبيّن الأشياء، لا سيما لافتات الشوارع، وأشارت بيدها إلى أنها مكتوبة بخط باهت. نظرتُ إلى المكان الذي تشير إليه فلم أر لافتة مرورية هناك. ففي حيّنا الذي تتطابق فيه معظم الشوارع عمد المناوئون إلى إزالة جميع اللافتات من أجل إبطاء العدو وتشتيته، والمفترض أنها تعلم ذلك، فتساءلتُ في نفسي ما إذا أصاب السمّ دماغها أيضًا. قالت وهي ما تزال تخزّر عينيها ويدها تقبض على السياج: «كنتُ أسجّل تحركاتي في الطريق، لكنني لا أستطيع أن أتذكر ما إن كنت انعطفت إلى—»، وذكَرت طريقين من المؤكد أنها لم تسلك أيًا منهما. أما شارع بيتها فلم يكن يبعد عن هذا المكان إلا بثلاث شوارع فقط. بيّنت لها أين نحن وعزمتُ على سؤالها إن كانت تودّ أن نمشي معًا. لكننا تحدثنا في الوقت نفسه. اتجه كلامنا مباشرة إلى المواضيع الأساسية وكنت قد حذّرتُ

نفسي مسبقًا ألا أستسلم لأنانيتي وأقول ما قلته فعلًا في اللحظة التالية، وهو: «لم أقتل أختكِ. ولست المسؤولة عن أنّ حبيبكِ الحقيقي رفضكِ». أما هي فقد قالت في الوقت نفسه: «وجدنا رسالة في حجرة أختي».

عثرتْ أخت فتاة الأقراص على هذه الرسالة أثناء تفتيش جماعي أجرتْه أسرتها. كانوا مصرّين على اكتشاف المكان الذي تخبئ فيه فتاة الأقراص محاليلها وسمومها وبقية أدوات صنْعتها. كان لديها مخزون دائم ولا يُعقل أنها كانت تحمله معها أينما ذهبت. خطر لهم أنها كانت تخفيها بالتأكيد في مكان ما في المنزل. وفيما تولّى بعضهم البحث في المخابئ البعيدة مثل حفرة الفحم وخزانة الخردوات وصهريج الحمّام والعلّية وما إلى ذلك، ذهبت أخت فتاة الأقراص إلى الأماكن غير المتوقعة. تلك الأماكن، التي على حد قولها، مثل التي يختبئ فيها الهنود الحمر، أي في مكان واضح، ولا يُكتشفون، أولئك أصحاب الحكمة والبصيرة والانسجام العريق مع الطبيعة ومكوّناتها. ترجمةُ كلامها أنّ المقصود هو الصالة. كانت فتاة الأقراص، تلك التي تسمّم الناس، تتجنب حتى التجمعات الأسريّة الأساسية، ما يعني، في عقول الآخرين، أنها لن تُقدم أبدًا على دخول الصالة التي يدخلها الجميع. هكذا توجهتْ أخت فتاة الأقراص مباشرة إلى الصالة وبحثت عن أكثر مكان مُستبعد في هذه الغرفة المُستبعدة تمامًا كي تكتشف أنسب مكان يمكن لأختها أن تخفي سمومها فيه. ومرة أخرى استلهمتْ خطى الهنود الحمر. فهناك فوق الأريكة دمية قُماشية ملقاة، منذ خمس سنوات أو يزيد، تُعد من الدمى الأثيرة عند أسرتها. فقد مرّت هذه الدمية عبر الأجيال من طفل إلى آخر حتى وصلت إلى الطفل الأخير، فهجرها حين بلغ الحادية عشرة. لا بدّ أن أحد أفراد الأسرة قد قال في نفسه ذات يوم، أنه ذات يوم قريب، نعم، حين ينتهي أو تنتهي من الأعمال المنزلية المهمّة، سيتخلص من هذه الدمية

أو يهديها لأحد ما. ولأنّ الدمية كانت شيئًا هامشيا للغاية، وهي دمية مركّبة منجّدة محشوّة، فذلك اليوم لم يأت قط. لقد نسي المسؤول عن التنظيف في الأسرة أمر الدمية، فظلّت مهملة هناك على الأريكة أمام الجميع حتى أصبحت غير مرئية. اتجهت أخت فتاة الأقراص إليها والتقطتها. وهناك، في بطن الدمية، بين شاكرا العجز وشاكرا الضفيرة الشمسية[1] ثمة فتحة كبيرة مغطاة بمشبك. أزالت أخت فتاة الأقراص المشبك، وفي الداخل لم تعثر على سموم فتاة الأقراص بل على رسالة مطوية في ثماني طيّات. كانت الرسالة مكتوبة بخطّ أختها، ويبدو أنها كانت رسالة خاصة من إحدى أطياف شخصية فتاة الأقراص إلى طيفٍ آخر. وقد استفتحتها هكذا: **غاليتي سوزانه إليَنور ليزابيتا إيفي**. وهنا توقّفتْ أخت فتاة الأقراص ولم تكمل، ذلك أنها أنِفت من أن تتطفل على شؤون شخصٍ آخر، مثلها مثل بقية أفراد تلك الأسرة ذات الضمير اليقظ. في الأحوال العادية لم تكن لتفعل ذلك، لكنّ الأسرة كانت مضطرة إلى العثور على أسلحة ابنتها القاتلة والتخلص منها، ولما كان المناوئون عند الباب يهدّدون بقتلها فلم يعد أمامهم سوى المضيّ في الأمر. وفيما استمر بحث البقية في أعلى البيت وأسفله وأمامه وخلفه، وهم يزيحون ألواح الأرضية، ويحفرون الجدران، ويبحثون تحت الروافد عن القناني والسموم، راحت أخت فتاة الأقراص، وقد حطت على حافة الأريكة، بتردد ووخز ضمير تفتح طيّات ما يصل إلى ثلاث عشرة ورقة مكتوبة بأصغر وأرتب خطّ ممكن وأكثرها سوادًا. سحبت نفسًا عميقًا

(1) الشاكرات (chakras) وفقًا لتعاليم اليوغا هي المناطق الرئيسة السبع المسؤولة عن الطاقة الروحية: شاكرا الجذر (في نهاية العمود الفقري)، وشاكرا العَجُز أو الشاكرا الجنسية (أسفل السرّة)، وشاكرا الضفيرة الشمسية (في البطن)، وشاكرا القلب، وشاكرا الحنجرة، وشاكرا العين الثالثة (في منتصف الجبهة)، وشاكرا التاج (في أعلى الرأس). (المحرر)

وبدأت تقرأ. غاليتي سوزانه إليَنور ليزابيتا إيفي. هكذا استفتحت الرسالة.

غاليتي سوزانه إليَنور ليزابيتا إيفي،

نحمل على عاتقنا مسؤولية أن نذكّركِ بمخاوفكِ خشية أن تنسيها: فثمة خوفكِ من الحاجة، وخوفكِ من الاعتماد على الآخرين، وخوفكِ من الغرابة، وخوفكِ من أن تكوني غير مرئية، ومن أن تكوني مرئيّة أيضًا، وخوفكِ من الخزي، وخوفكِ من الرفض، وخوفكِ من الخداع، وخوفكِ من التنمّر، وخوفكِ من الهجر، وخوفكِ من الضرب، وخوفكِ من كلام الآخرين، وخوفكِ من الشفقة، وخوفكِ من السخرية، وخوفكِ من وصمة «طفلة» وفي الوقت نفسه «امرأة عجوز»، وخوفكِ من الغضب، وخوفكِ من الآخرين، وخوفكِ من ارتكاب الأخطاء، وخوفكِ من المعرفة الفطرية، وخوفكِ من الحزن، وخوفكِ من الوحدة، وخوفكِ من الفشل، وخوفكِ من الفقد، وخوفكِ من الحب، وخوفكِ من الموت. فإن لم يكن من الموت فمن الحياة إذن. وخوفكِ من الجسد، من حاجاته، ومكوّناته، من مكوّناته الجريئة، ومكوّناته غير المرغوبة. وهناك الرعدة، والتغضنات، وتحوّل ساقينا إلى كتلة رخوة على إثر تلك الرعدة والتغضنات. مقدار تسعة وتسعة أعشار من عشرة منّا يؤمن بأننا فقدنا قوّتنا واستسلمنا للضعف، ويؤمن كذلك بخبث الآخرين. نؤمن أيضًا بالاضطراب. تسعة وتسعة أعشار منّا يعتقد أنّ هناك من يتجسس علينا، وأننا نعيد معايشة صدمة نفسية قديمة، وأنّ تعابير وجهنا بخيلة وتعيسة ولامبالية. تلك مخاوفنا، عزيزتي سوزانه إلينور ليزابيتا إيفي، فانتبهي لها رجاء. تذكّريها من فضلك. سوزانه، بل سوزانتنا. نحن خائفتان.

قلتُ: «أيحى!».

فقالت أخت فتاة الأقراص: «نعم. وهناك المزيد».

لا أودّ أن أطيل ولا أن أثقل عليكِ، لكنّ الهمّ الأكبر، الهمّ الذي نحمله، ولولا أننا نحمله لسعدنا أيما سعادة حتى وإن اضطررنا إلى مقاساة جميع المخاوف الأخرى، ذلك الهمّ الذي تسبّب في إدانتنا، بل غيّرنا إلى الأسوأ، ذاك الذي عرقل تغلّبنا على التوافه، كالمخاوف المذكورة أعلاه، ذاك الشيء الغريب الكامن في النفس - أتذكرين يا سوزانا العزيزة ذلك الشيء الغريب الكامن في النفس، تلك الخفّة والطيبة التي تسللت إلينا، التي كانت بداخلنا، وما تزال كذلك ،كما تذكرين، تستحوذ علينا؟

قالت أخت فتاة الأقراص: «كانت تقصدني. فقبل أن تنطلق في عمليات التسميم، وأعني انطلاقها فعلًا - وهنا أشير إلى الأيام الخوالي حين كانت أختي تسمّم شخصًا بين مدة طويلة وأخرى -، ولا تنسي أنها كانت أختي الكبيرة، فكان من واجبي أن أحترمها، لكنني تحدثت إليها ذات يوم ونظرًا لقلة وعيي لا بمدى مخاوفها فحسب بل بوجود تلك المخاوف أصلًا، فقد ذهبت إليها في غرفتها وتخبّطتُ في كلامي. لم أكن أعلم أنني أتخبّط، لكنني جعلت الأمور أسوأ ممّا كانت. لم أكن أرى ما هو ماثل أمام عينيّ. فلم تفلح محاولاتي إلا في زيادة توجّسها مني. أردتُ أن أجتثّ السبب الذي يدعوها إلى تسميم الآخرين، أن أداوي التشوّه الذي أصابها، أن أعيدها إلى صوابها. فقالت لي إنّ ذلك مستحيل، فالتركيز على الخير، فيما ثمة شرور في هذا العالم، محفوف بالمخاطر. لا يمكن أن تُنسى كل تلك الأشياء السيئة. قالت إنّه ينبغي لنا تذكّر الأشياء السيئة القديمة مثلما نتذكر الأشياء السيئة الجديدة، وينبغي الإقرار بوجودها، وإلا فإنّ كل ما فات سيصبح هباء. وفي غمرة جهلي، رغم أني لم أفهم شيئًا مما تقصده بكلمة «هباء»، إلا أنني سألتها أولا يمكن أنه كان هباء حينها، وربما على نحوٍ يدعو للأسف، لكن يُمكن تنحيته، ويمكن لها أن تمضي بعيدًا عنه الآن؟ «وعندها سمّمتني للمرة الأولى». فقلتُ: «المرة

الأولى؟». «نعم، سمّمتني خمس مرات. لكنني في المرات الثلاث الأولى ظننتُها آلام الدورة الشهرية». بعد ذلك قالت هذه الأخت إنها شربت الشاي مع أختها الأكبر مرة أخرى وتحدثتا. في هذه المرة، وبينما كانت فتاة الأقراص تعدّ الشاي ثانية، سمعتْها الأخت الأصغر مرة أخرى تتحدث عن الأشياء السيئة التي ينبغي تذكّرها. لقد أدركتْ أنّ أختها ما تزال عالقة في شرك تلك المسألة، مسألة الأشياء السيئة. لكنها هذه المرة تحدثت عن وجوب عدم التخلي عنها، وإلا فإن الغفران سيدخل من الباب الخلفي. قالت أخت فتاة الأقراص إنّ أختها قالت إنها لا يمكن أن تغفر، على الأقل ما دامت لم تتلق أي اعتذار. وتابعتْ: «فقلتُ، وقد قلت ذلك رغم أني لم أكن أعرف ممن ينبغي أن تأتي تلك الاعتذارات أو على ماذا يعتذر المغضوب عليهم، لكنني قلتُ لها إنّني أعرف بغريزتي أنّ انتظار الاعتذارات جزء من الحرب الذهنية، وسألتها إن كان بإمكانها أن تتوقف عن انتظارها، ذلك أنّ الانتظار لن يؤدي إلا إلى تحطيمها أكثر. قالت إنها عاجزة عن المضيّ، وإنّ لا شيء يمكن أن يحدث قبل أن تتلقى الاعتذارات، فقلتُ لها إنها مخطئة، مخطئة حقًا، وحدث في ذلك الوقت أن ظننتُ أنني أُصبت بنوبة حادّة من آلام الدورة الشهرية للمرة الثانية». وفي المرة الثالثة حين تناولتا الشاي معًا وتحدثتا، قالت أخت فتاة الأقراص بدا أنهما تركتا موضوع «الهباء» والاعتذارات التي لم تجيء، ومسألة الغفران، وانتقلتا إلى مسألة الهوية والإرث والتقاليد. أكملت أخت فتاة الأقراص: «قلت لها يبدو لي أنها كانت تعطي الأمر أهمية كبيرة، وتحرص حرصًا شديدًا وتهتم اهتمامًا بالغًا أكبر مما ينبغي بفصل نفسها، بعزل نفسها عن الناس، وهذا ما كانت تفعله حين تسمّم الآخرين. فقلتُ لها: «ماذا عن التعايش؟»»، فقالت إنّ هناك أشياء تستحق الاحترام، وإلى جانب ذلك فإنّ قصر التركيز على الجوانب المضيئة سيوهّم الجميع ألا وجود لجوانب أخرى. سوف ينسون. سيعتبرون أنّ الأمور كلها على ما يرام، وتبقى هي

وحدها من يتذكّر. ولم أكن أعرف تلك الأشياء التي تتحدث عنها. قلتُ يبدو أنّ هويتها تنبعث من حافة متطرّفة، فلماذا لا تتحلى بالشكّ بدلًا من الضغط على تلك الحافة، وعندها أُصبت بانقباضات الدورة الشهرية المبرحة للمرة الثالثة». قالت أخت فتاة الأقراص إنها أدركت في المرة الرابعة أنّ أختها كانت تسممها، وبعد ذلك توقفتا عن شرب الشاي والدردشة. ثم قالت: «لكنني مع ذلك قلت في نفسي لا بدّ من وجود طريقة أخرى». في ذلك الوقت كان مناوئو الدولة في حيّنا قد هدّدوا فتاة الأقراص، فبدأت الأسرة تبحث عن أسلحة الجرائم. «وحينها وجدتُ الرسالة التي ابتدأت بذكر المخاوف واستمرت صفحات وصفحات، كثيرة تصل إلى ثلاث عشرة صفحة مكتوبة بخط صغير». وانتهت الرسالة كما يلي:

مع محبتي وقلقي واهتمامي الشديد بسلامتك الحالية والمستقبلية دومًا.

من المخلصة لك رغم ارتعابها جدًا جدًا

رعبًا صادقًا من الآخرين وليس رعبًا مقتصرًا على الأيام الصعبة.

وذلك **الرعب الصادق من الآخرين وليس رعبًا مقتصرًا على الأيام الصعبة** لم يخفّف من حدته. كما وفقًا لأخت فتاة الأقراص، لم يوجد ردّ على الرسالة، وتقصد الرد من قوةٍ مضادة، من مكوّن داخلي معارض يشنّ هجومًا مباغتًا في محاولة لإلغاء حالة الرعب وقلبها إلى حلٍ مشجِّع. كانت هناك ورقة واحدة من الخفّة والطيبة لكنها مليئة بمقاطعات من **الرعب الصادق من الآخرين وليس رعبًا مقتصرًا على الأيام الصعبة**. وقد استفتحت هذه الصفحة الوحيدة بقول **عزيزتي سوزانه إلينور ليزابيتا إيفي**.

عزيزتي سوزانه إلينور ليزابيتا إيفي

لستِ في حاجةٍ إلى أن أقول لك—

إنه لمن المرعب! من المرعب جدًا!

—أنّ كل ما ترينه انعكاس لـ—

مرعب، مرعب!

—صفحتك الداخلية وأنكِ غير مضطرة إلى—

النجدة! النجدة! سوف نموت! سنموت جميعًا!

—تصديق—

بطني! رأسي! أمعائي!

—صفحتك الداخلية هذه. عوضًا عن ذلك بمقدورنا أن ... —

تذكّري يا سوزانه عدّتنا، عدّة النجاة! عدّة الراحة! عدّة الدفاع عن أنفسنا! وسيلتنا لنقاتل دون قضيتنا! قنانينا وسمومنا وأقراصنا السوداء اللامعة! أسرعي! الانتقام! نريد أن يحسّوا بألمنا و...

هكذا إذن فرض الرعب من **الآخرين** نفسه وشوّش على **الخفة والطيبة** ثم اغتالها. غير أنّ **الخفّة والطيبة** جاءت في صُور أخرى: **الاتحاد، والإشراق، والأخت**. جاءت في صورة **الأخت**. كان ذلك منطقيًا. **الأخت** حلّت داخلها. لم تكن في حاجة إلى **الأخت** داخلها. لذلك كان ينبغي **للأخت** أن ترحل. وهكذا تسمّمت أخت فتاة الأقراص للمرة الخامسة، والتي كادت تكون القاضية. وبعدها تسمّمتُ أنا. وبعد ذلك تسمّم الرجل الذي التبس عليها مع هتلر. وبعد ذلك ماتت فتاة الأقراص نفسها ميتة عنيفة. يبدو أنّ مكوّن الرعب من **الآخرين** قال بمقدوره أن يعيش بنفسه بعد موتها. سوف يحتفل، وينطلق دون رادع، ويواصل إرهابه. هذه المكوّنات النفسية التي تعتدي على الضحايا وتستحوذ عليهم لا تدرك أبدًا أنها حين تتخلى عن حاضنها - الذي

تحتاج إليه لكي تبقى - فهي إنما تتخلى عن نفسها أيضًا. عندها حدّقتُ في أخت فتاة الأقراص، وقد استحوذ عليها امتقاع شديد، فتفصّد العرق عن حاجبيها، وضاق تنفّسها، وضعفت عيناها، فيما يداها الصغيرتان ما تزالان تقبضان على السياج. كانت تتمسّك به كأنما هي محمومة. لعلها كانت محمومة بالفعل. كانت نحيلة مثل المحارم الورقية، لا في جسدها فحسب بل في كل شيء فيها. كانت مهتاجة، وقد تحوّلت ارتعاشاتها الداخلية إلى ارتعاشات ظاهرة، وأُنهكت كل حساسياتها ووسائل إنذارها المبكر وكشف المراقبة. اقتربتُ كي أساعدها، لكنني لم أعرف كيف أساعدها. بل إنني شعرت بأني أُشدُّ معها. عندها نادتني باسمي الأول، فأشعرني ذلك بالدفء، بالودّ، بالراحة، إذ كان بعيدًا عن الجملة التي توقعتها: «أنتِ التي قتلتِ أختنا!». بعد ذلك قالت: «أرأيتِ كم كانت مرعوبة! لم أدرك أنها كانت مطوقة بالمتاعب لأنها أختي الكبيرة، وبصرف النظر عن أنها كانت دائمًا متحفزة ضد عدوٍ ما». أجبتُها بإيماءة من رأسي ثم أدركتُ أنها ربما لم ترها. لذلك قلت: «نعم» ولم أعرف ماذا أقول بعدها، فقد شعرتُ برغبة في أن أضيف شيئًا أو أفعل شيئًا، مثلما شعرتُ مع الحلّاب الحقيقي في شاحنته. غير أني قبل أن يخطر لي شيء أقوله أو أفعله، ظهر حبيبها السابق.

شعرت بوجوده خلفي قبل أن أحسّ بيديه. كان الأخ الثالث، أخي الثالث، الذي لم أره منذ سنة تقريبًا. لم يعد يظهر كثيرًا في هذه المنطقة، منذ وقت طويل، منذ زواجه قبل سنة تقريبًا. كان يأتي لزيارة ماما، يعطيها بعض النقود، لكنه يأتي في عجلة ويرحل في عجلة، يصطحب معه ماما والأخوات الصغيرات، فيأخذهنّ قائلًا: «هيا، أسرعن!»، ويعيدهنّ وهو يقول: «هيا، أسرعن!». كان يأخذهن في نزهة بالسيارة. قالت الأخوات الصغيرات إنه كان يأخذهن إلى وسط البلدة، أو إلى التلال، أو الساحل إن كان الجو مشمسًا، فيتوقفون لشراء الحلويات والأطعمة اللذيذة: «الكريمة المثلّجة،

والبطاطا المقلية، وعصير الليمون، والسجق». وقلن أيضًا: «وحينما تكون لعبة دوّامة الخيل هنا، نذهب ونلعب كلنا، حتى ماما، في كلّ الألعاب». كان يأخذهن أيضًا إلى الجانب الآخر من البلدة من حين لآخر، كي يشربن الشاي في بيته معه ومع زوجته الجديدة. كانت هذه الزوجة الجديدة غير متوقعة. لم يتوقع أحد أن يتزوجها، لا ماما، ولا نحن، ولا الجماعة، ولا الأخ الثالث، ولا أخت فتاة الأقراص بالطبع، حبيبته التي ظلّ يحبها سنوات طويلة. لم نلتق أنا وهو منذ زواجه، ذلك أنه يأتي كل أسبوعين أو ثلاثة في يوم ثلاثاء، وهو اليوم الذي أقضيه في بيت شبه الحبيب بعد العمل. وها هو الآن خلفي، يضع كفيه على كتفي قبل أن أستدير وأدرك أنه ليس مِلْكمَن، ولا الغوغاء من محل المقليات، ولا الرعب من الآخرين، ولا شبح فتاة الأقراص نفسها. كان هو، الأخ الثالث، وقد شعرتُ بذبذبات اقترابه، ولم أكن وحدي التي شعرت بها. فقد شعرتْ أخت فتاة الأقراص بشيء أيضًا. كفّت حديثها عن الرعب الشديد الذي كانت تعيشه أختها، الذي التبس على الآخرين مع الغضب الشديد، وبادرت بالقول ثم صاحت: «من هذا؟ من هناك؟ من هذا؟». كان في صوتها نبرة إلحاح وإصرار، لكنه صوت متحمّس، متفائل، لأنها أدركت قبلي من يكون ذاك الذي يقف خلفي. لقد أدركتْ ذلك حتى من قبل أن يقول أخي: «تنحّي يا أختي التوءم، أريد أن أمر».

اضطُر إلى تنحيتي بنفسه، فالمفاجأة قد شلّت حركتي. ورغم أنه تحدّث إليّ، إلا أنه نسي وجودي تمامًا، وكان ينظر أمامي، يتجه مباشرة نحو الفتاة الوحيدة التي أحبّها. فلمّا سمعتْ أخت فتاة الأقراص صوته ندّت عنها صرخة أخرى، وطارت إحدى يديها إلى فمها، وامتدت الأخرى، على الأرجح لتصدّه، أو ربما لتمسك به. ثم أفلتت يديها، وحاولت أن تتراجع لكنها لم تستطع، إذ كانت تتكئ على السياج. فتنحّتْ جانبًا، وعندها عرفتُ

أنها هي أيضًا نست وجودي. كان هذا هو الشيء الثاني الذي ظننتُ أنها سوف ترفض مساعدتي بسببه. فبما أنني أخت حبيبها السابق الذي هجرها وتزوج امرأة غير معروفة تليق به، أليس من المنطقي أن ترفض أي تذكير بهذه الحادثة الفاجعة حتى وإن كانت من الماضي؟ نعود إذن إلى موضوع الزوج الخاطئ، وفي هذه الحالة كانت زوجة الأخ الثالث هي الزوج الخاطئ، بينما كانت أخت فتاة الأقراص لتكون الزوج الصحيح. هكذا بدا الأمر لنا، لأسرتي، وأسرتها، والجماعة كلها. لكنهما لم يتزوجا لأنّ الأخ الثالث مضى واختار الخيار المعروف اللاواعي، الخيار المعتاد الذي يختاره الجميع لحماية أنفسهم. فحين أحبّته تلك التي أحبّها إلى حد لا يستطيع عنده التعايش مع الهشاشة الناتجة عن حتميّة الأخذ والعطاء، أنهى العلاقة قبل أن يفقدها، قبل أن تؤخذ منه، لا فرق إن أخذها القدر أو أخذها أي أحد آخر. لم يحاول أحد أن ينصحه، فمن ذا الذي يمكن أن يفعل ذلك؟ لقد حاول أخي أن يهرب من خوفه الكبير من فقدان أشدّ ما يرغب فيه في هذه الدنيا، فاستبدله بغيره. ولم يكن مفاجئًا أن يكون لدى أخت فتاة الأقراص ما تقوله بهذا الخصوص.

قالت: «اغرب عني. لقد رحلتَ من قبل أيها الحبيب السابق، فلترحل الآن». كان صوتها يرتجف، وجسدها يرتعد، بالتأكيد كانت غاضبة وتحاول التركيز بصعوبة بالغة. من الواضح أيضًا أنها لم تستطع رؤيته جيدًا. أما أنا فغير مرئية بالنسبة إليهما، لكنّ ذلك لم يوقف سيل هواجسي. هل فات الأوان؟ هل أحرق كل قوارب العودة؟ هل أفسد كل شيء؟ أم إنها ستهدأ وتسمح له بإصلاح الأمور؟ وبدا أنّ الأخ الثالث لم يرحل كما طلبت منه لأنه كان ينوي إصلاح الأمور. بل إنه اقترب منها، ورغم أنه لم يلمسها بعد، إلا أنه كان يتحدث إليها، ويتوسّل. تحدّث دون مراجعة لما يقوله، ودون تلميع، ذلك أنه لفرط انفعاله لم يكن بإمكانه أن يقيّم نفسه، فقال أشياء عن:

«... ارتكبت خطأ... أحمق!... شديد الحمق!... أبله!... لا أدري كيف كنت أفكر، وكيف فعلت ذلك... غبي!... الشخص الخطأ. لأنني أحببتك... خفت. كان خطرًا... آثرتُ السلامة... بعتُ الحلم... يا لحماقتي!... يا لغبائي!... اللعنة!... الشخص الخطأ... اللعنة... غير ناضج!». وتحدث أيضًا عن «ليست معزّة»، ثم قال شيئًا عن «المعزّة»، وشيئًا عن «الحب، حبي»، و«لم أستطع التأقلم»، و«أبله، معتوه، السعادة، لم أستطع... لم أكن لـ... أبله ابن حرام». أعتقد أنه كان يقصد نفسه. بعد ذلك قال شيئًا عن «مسألة الحب هذه» وكيف أنه ضحّى، وكيف «قبل بالأقل»، وقال لها إنه كان يرتجف، وإنه ها هنا يقف أمامها الآن، يرتجف. قال: «ألا ترين أني أرتجف؟» ثم قال: **«اللعنة! ألا تستطيعين رؤية ارتجافي! لا تستطيعين أن تري! ماذا فَعَلت؟ ما الذي فعلتْه أختكِ بعينيكِ؟»**.

ردّه هذا عما كان يفعله، وأظنّ أنه لا بد سمع مؤخرًا عن تسمّم أخت فتاة الأقراص، حبيبته السابقة، لكنه لم يعرف مدى الضرر الذي لحق بها، فربما لم ير الكثير من المتسممين لكي يدرك أنّ الجهاز الهضمي ليس وحده الذي يتضرر. لكنّ أخت فتاة الأقراص استعادت زمام أمرها الآن، وصاحت: «لقد حطّمتَ قلبي. خلّفتني تعيسة، وتسببتَ في تعاستك، ومهما نظرت إلى الموضوع من أي زاوية، فلا بدّ أنك تسببتَ في تعاستها أيضًا، أيًا كانت. ارحل، ارحل بعيدًا»، وامتدت يداها مرة أخرى. وامتدت يداه هو مرة أخرى، فحاولتْ، وحاول، ثم توقفتْ. ثم حاول مرة أخرى، فدفعته عنها. حدث بينهما هناك إيقاف، ودفع، ثمة يدان تمتدان، وذراعان، ثم يدان تدفعان، قالت «ابتعد» أكثر من مرة، دون أن يبتعد. بعدها كرّر عليها أنه يحبها، وكرّر اعترافه بأنه كان أحمق وأبله. صاح بها: «لو أنها قتلتكِ! ماذا لو أن أختكِ قتلتكِ! كان من الممكن أن تموتي ثم أبدًا لن ...»، ورغم أنه لم يكن

يرتجف فعلًا، جسديًا، إلا أنّ شيئًا كان يعتمل في جسده. لم تكن تستطيع أن ترى ذلك، لكنّ هذا لا يعني أنها لم تسمع الحالة التي كان عليها. كان صحيحًا أنه ضحّى، ورضي بالأقل، وتحطّم، وأُنهك، لدرجة أنه في غضون عام آخر من انحرافه عن أمر قلبه سوف يتحول إلى واحد من أولئك المدفونين أحياء، المتبلدين حدّ الموت، القابعين في توابيتهم. ولكن في وسط اعترافات الحب تلك وارتجافه الداخليّ تغيّرت نبرته. فقد حلّ فيها حسّ الإلحاح، والحدّة، والجرأة المرغوبة، بل الغضب أيضًا. سألها مرة أخرى عما فعلته أختها بها، وما إذا كان هناك أحد قد أخذها، أي حبيبته، لتلقي العلاج. إذن بدأ يتحدث عن الطبيب. هل أخذها أحدهم إلى الطبيب؟ ما الذي فعلوه لمساعدتها؟ هل فعل أحدهم أي شيء لمساعدتها؟ لكنّ أخت فتاة الأقراص قاطعته، وصدّت اهتمامه بهذا الأمر التافه، أي بما فعلته أختها بها. «ولماذا يهمّك ما فعله الآخرون بي في حين أنك أنت نفسك لم تعبأ بما فعلتَه بي!». ودار كلام كثير هنا، من الطرفين، تلاه دفعٌ من ناحيتها، ثم تشبّث بقميصه، ثم تشبث به، ثم كادت تريح رأسها على — ولكن لا! رفضتْ قميصه، ورفضته، ثم دفعته أكثر، ثم تشبثت بقميصه مرة أخرى، ثم اقتربت، أكثر، وأكثر، وأكثر وأكثر. ثم مالت، وانحنت عليه، ووضعت رأسها على ذراعيها، وحطّت في مكانها عند قلبه. أغمضت عينيها، وعبّته داخلها، عبّت حبيبها، حبيبها السابق، حبيبها، ويبدو أن الأخ الثالث، عشيقها، في تلك اللحظة اعتقد أنه حاز مغفرتها. رفع ذراعيه - ما أبكرك! - فأدرك أنه لم يسترضها بعد، إذ دفعتْه مرة أخرى وهي تصيح.

هكذا كان حالها. دفعتْه مرة أخرى، دفعة أضعف، وكان قد أبعد ذراعيه عنها، بحكمة، ينتظر، يتحيّن الإشارة، يتحيّن أي دليل طفيف على أنّ الوقت المناسب قد حان، وبطبيعة الحال لم يكن من المفترض أن يصل كلّ هذا إلى

مسامعي أو عينيّ. في الأوضاع العادية كنتُ سأشعر بالذهول والقرف من أي شخص - لا سيما أنا - يقف على بعد أقدام ويحدّق ببلاهة في عاشقين في غمرة انفعالهما. لكنني لم أستطع أن أتحرك من مكاني، ولم أستطع أن أمنع نفسي، وما أردت أن أمنع نفسي، إلى جانب أنهما كانا قد بدآ الأمر وما يزالان عليه. والآن وقد سمحت له بأن يطوّقها بذراعيه، فيما هي تتشبّث به وتدفعه في الوقت نفسه، راحت تعنّفه: «أعتقد أنني أكرهك»، ما يعني أنها لم تكن تكرهه، فعبارة «أعتقد أني أكرهك» تشبه عبارة «يُحتمل أنني أكرهك»، وهي نفسها عبارة «لا أعرف ما إذا كنت أكرهك»، التي تشبه عبارة «يا إلهي، لا أكرهك يا حبيبي، أحبك، ما زلت أحبك، وظللتُ أحبك دائمًا دائمًا، ولم أتوقف عن حبك لحظة». ثم رفعت وجهها عن صدره، أتدفعه أم لا تدفعه، توقّفا. كانت هناك لحظة من اللاشيء، ومضة من التوّقف، وبعدها سقط كل واحد منهما - دون مزيد من الكلام، ولا مزيد من الحركات المسرحية - بين ذراعي الآخر.

وعندها قبّل أحدهما الآخر، وهم يحتضنان بعضهما بإحكام، وهو يميلها ويسند بذراعه ظهرها وخصرها، فيما هي تطوّق عنقه بذراعيها، وقد تركته يحتضنها، ويسندها، ويميلها. وما لبث أن بدأ يقبّلها منطلقًا من قدميها. كان المشهد يشبه واحدًا من إعلانات العطور الفرنسية التي تقول «لن يقبّلكِ أحد هكذا ما لم تعبقي بهذه الرائحة». وهنا لاحظتُ - رغم أنهما لم يلاحظا ذلك - قدوم آخرين لمشاهدتهما. أغلب أولئك الناس جاؤوا من الحشد الصغير الذي اجتمع ليشاهد الرجلين المتقاتلين. كان الرجلان ما يزالان في عراكهما، وما تزال السيجارة تتدلى بين شفتي كل واحد منهما. لعلها كانت مشاجرة هادئة للغاية، طويلة للغاية، محيّرة للغاية، مشاجرة مُربكة، يصعب تقييمها، مشاجرة تحدث غالبًا باجتماع الأفكار، مواجهة على طراز الفن الحديث. وبما

أنّ المتفرجين كانوا جمهورًا تقليديًا، معتادًا على الواقعية التقليدية والتاريخية، فقد بدأ أغلبهم يتشككون في أنّ الرجلين يتقاتلان أصلًا. لهذا السبب فقدوا الاهتمام بهما وانفصلوا عن الحشد واقتربوا منا، وكان أغلب هؤلاء الجيران يومئون الآن. أومأت المرأة التي بجانبي إلى المرأة التي بجانبي الآخر، فأقرّتها تلك على إيماءتها وأومأت أيضًا. قالت الأولى وهي تتحدث إليّ: «كنتُ أعلم أنه بسبب الشعور بالذنب. هذا ما يفسّر سلوك أخيك، وتخفّيه وتسلّله إلى المنطقة، كما يفسّر تعجّله بمغادرة المنطقة. الذنب. الذنب وحده. لا دخل للمشكلات السياسية، ولا المناوئين، أو أية شكوك في كونه مخبرًا. كلّ هذا من الشعور بالذنب - والحسرة أيضًا -، وتأنيب الضمير على ما فعله بها. ولكن هل لديك فكرة» وعندها استدار الجميع إليّ «عما ستقوله زوجته الخطأ عن هذا الذي يحدث الآن؟».

هذا شأن آخر. أمّا الإخوة. إخوتي. كان لديّ أربعة إخوة، ثلاثة في الواقع، فالأخ الثاني تُوفي. لكنني أعدّ الأخ الثاني المتوفى لأنه في كلّ الأحوال أخي. وأعدّ الأخ الرابع أيضًا الذي لم يكن أخي قط، إلا أنه أقدم أصدقاء أخي الثاني منذ أيام الحضانة. لقد عاش معنا، هذا الأخ الرابع، رغم أن لديه أسرته الخاصّة - والدَين، وأخوين، وسبع أخوات - وكانوا ما يزالون على قيد الحياة ويسكنون على بعد أربعة شوارع منا. في عمر الرابعة عشر، وقد ترك المدرسة، واصل عيشه في منزلنا، رغم أنه قد انضم إلى المناوئين. وانضمّ الأخ الثاني إليهم أيضًا. وحتى الآن بعد أن رحل الأخ الثاني، ما يزال الأخ الرابع يعيش معنا نظريًا بوصفه أحد أفراد أسرتنا، لكنه في الوقت الحالي غير موجود في بيتنا لأنه هارب. يُقال إنه أخذ دراجة نارية نحو الحدود بعد أن أطلق النار على دورية للدولة فقتل أربعة من رجالهم متعمدًا، وقتل ثلاثة أشخاص عاديين بالخطأ -رجلًا كبيرًا وطفلين في السادسة من العمر- كانوا

ينتظرون حافلة في موقف الحافلات. لم نعد نراه، ولكن يُقال إنه في واحدة من مقاطعات بلد «ما وراء الحدود». أما الأخ الأول، الأخ الأكبر، فقد كان المتوقع وفقًا لما جرت عليه العادة أنه إن كان هناك شخص في الأسرة ينضمّ إلى الحركة، فسوف يكون الولد البكر. وقد ساد هذا الاعتقاد لدرجة أنّه حين قُتل الأخ الثاني، الذي انضم إلى الحركة، في تبادل لإطلاق النار مع قوات الدولة وجاءت الشرطة لكي تأخذ ماما من أجل التعرف على الجثة، ظلّوا يخطئون ويسمّونه ابنها البكر. أما ابنها البكر، الأخ الأول، فلم ينضم إلى المناوئين، بل سقط ذات ليلة وهو مخمور فكُسرت ذراعه. حمل نفسه إلى المستشفى وقال إنّ سبب الحادثة سوء تعبيد في الطريق إذ تعثّر في حجر، وقد صدّقه أولئك المسؤولون عن التصديق أو التكذيب، وكافؤوه بتعويض بالآلاف. أعطى ماما جزءًا منها، ثم قال فيما يتعلق بالبلد والمشكلات السياسية: «يلعن هذا! أنا ذاهب من هنا»، وسافر إلى الشرق الأوسط بحثًا عن القليل من السلام والهدوء والشمس. وقبل أن يذهب عرض على الإخوة أن يأخذهم معه، لكنّ الأخ الثاني والأخ الرابع رفضا الذهاب إذ كانا منغمسين مع المناوئين، فيما لم يرغب الأخ الثالث في الذهاب لأنه كان متيمًا بأخت فتاة الأقراص. هكذا ذهب الأخ الأول بمفرده ولم يسمع أحد عنه شيئًا منذ ذلك الوقت. وهكذا هام الأخ الأول على وجهه وسافر وفعل ما يريد. وأيضًا الأخ الثاني، أخي الراحل، فعل ما يريد. والأخ الرابع الآن يفعل ما يريد. أما الأخ الثالث، فقد حدّد ما يمكن أن يقال عنه - على الأقل حتى الآن - بعد أن هجر زوجته الصائبة، تزوج الزوجة الخطأ، دون أن يفعل شيئًا حيال الأمر حتى ذلك الحين.

وبعد أن فرغا من قبلة جان بول غوتييه[1]، دون أن يدركا وجودنا، نحن

---

(1) مصمم فرنسي شهير عُرف أيضًا بماركة عطور فرنسية تحمل اسمه. وقد اشتُهر=

الجمهور، حمل الأخ الثالث زوجته الحقّة بين ذراعيه. قال كلمة واحدة: «المستشفى!»، ثم تحوّل من اعترافات الحب والحماقة إلى «الحاجة العاجلة إلى الرعاية الطبية»، فاستدار وحمل حبيبته إلى سيارته. غمغم الحشد وهم يهزّون رؤوسهم: «لا ينبغي أن يأخذها إلى المستشفى. المستشفى خيار خاطئ. خاطئ تمامًا. ولا يوجد ما هو أكثر خطأً من المستشفى. فهناك استمارات ينبغي تعبئتها، وأسئلة عن المتسبب في تسمّمها، ثم سيرسلون في طلب الشوتزشتافل[1] ويجُبر الاثنان على أن يصبحا مخبَرين». وعندها التفتوا إليّ. «سيتعرفون على أخيك. سيعرفون من يكون، وأنه شقيق أخيك الثاني الذي مات وأخيك الرابع الذي هرب، ولن يفيده أنه ليس مناوئًا. فما دامت له علاقة بأحد المناوئين، ستُعتبر قرابته بأحد المناوئين دليلًا على اتصاله بهم». وانتظروا أن أردّ. أما أنا فقد رجوتُ أن يكفّوا عن الحديث في أمر المستشفى. فكثير من الناس أصبحوا يعارضون هذه الموجة، ويكسرون حظر المستشفى، فيحملون أنفسهم إلى هناك مرة تلو الأخرى. وهكذا بات المستشفى يغصّ بأشخاص من منطقتي لا يفترض وُجودهم فيه. ولن يمضي وقت طويل حتى تكون هناك رحلات صباحية إلى المستشفى، وعطلات تُقضى هناك. لقد بدأ عهد جديد، على الأقل فيما يتعلق بالمستشفيات، وحالما يدرك هؤلاء الجيران هذا الأمر سنستطيع كلنا أن نتكيف مع الوضع ونمضي قدمًا. كنتُ أعرف أنهم لن يجرؤوا على ذكر ما يحومون حوله، أي أنّ الأخ الثالث سيُعرف أيضًا بوصفه شقيق الأخت المرتبطة جنسيًا برجل الجماعات العسكرية المهم، وهو نفسه الذي ارتبط اسمه قبل فترة وجيزة بالوقوف خلف حوادث قتل

= إعلان ترويجي لعطوره يستخدم ما يُسمى بالإنجليزية «القبلة الفرنسية». (المحرر)

(1) وحدة من وحدات الحزب النازي أوجدها هتلر لحمايته واضطلعت مع الوقت بمهام بوليسيّة أخرى.

القضاة وزوجاتهم، وهو الذي قتل الشخص الأبرز من المسمّمين الذين عرفهم حيّنا. سكت الجيران إذن عن مسألة القتل هذه، وعن كوني المحرضة لجانب «القتل العادي» في الجريمة تلك. غير أنهم ظلوا يكررون الكلام عن احتمال أن تحوّل الشرطة أخي الثالث وحبيبته إلى مخبرَين. في أثناء ذلك كان الأخ الثالث قد صمّ أذنيه عن كلام العقل والرفض وتعريض نفسه لخطر الوشاية، فوضع حبيبة حياته على مقعد الراكب في سيارته، ثم قفز فوق غطاء المحرك فصار في مقعد السيارة فشغّلها مباشرة. انطلقت السيارة وانعطفت عند الركن بصريرها في التقاطع الذي يقود إلى المستشفى. وبعد ذلك اختفت صورة أخي الثالث وصوته، الأخ القلق الذي أصبح سعيدًا مع حبيبته السابقة التي أصبحت سعيدة لكنها في حالة شديدة الخطورة.

***

هذا كل شيء. انتهت الأحداث المثيرة. وكانت فائضة علي بالنسبة ليوم واحد. لا أحب الأحداث المثيرة، فنادرًا ما ينتج عنها أي خير، وقلما تتعلق بأشياء لطيفة. هكذا كنت متوجهة إذن إلى البيت، وقد تغيّرت خطتي لهذا المساء فصارت أن تتناول الأخوات الصغيرات الكعك. وبعد الكعك يمكنهنّ الخروج في مغامراتهن، فيما أظلّ أنا في البيت. سأملأ الحوض بفقاعات الصابون، وأتناول الكعك أيضًا، في الحوض، وأرفع قدميّ عاليًا قبل ذلك وبعده، وأنتهي من كتاب «**رسائل فارسية**»، والذي ستبتلّ أوراقه على الأرجح وسط البخار وقطرات الماء، لكنّ ذلك لا يهم فسوف أنتهي منه بعد بضع صفحات على أية حال. بعد ذلك، إن جاء وقت نوم الأخوات الصغيرات ولم تعد ماما بعد، فسوف أقرأ لهن قليلًا من كتب تومَس هاردي، فقد كنّ في مرحلة الإعجاب بهاردي الآن. قبل ذلك كنّ في مرحلة كافكا،

وبعدها مرحلة جوزِف كونراد، وكان ذلك كله عبثًا فلم تصل أي واحدة منهنّ إلى سنّ العاشرة بعد. هكذا كنت أقرأ لهنّ رغم أنّه كان القرن القبيح لتومس هاردي وليس قرنه المقبول[1]، لكنني كنت أقرأ لهنّ لأختتم أعمال المساء، ثم أذهب إلى سريري وأبدأ في قراءة «**تأملات في تاريخ الرومان، أسباب النهوض والانحطاط**» وهو كتاب من القرن الثامن عشر، منشور عام 1734م، وفي رأيي هذا نموذج لما يجب أن تكون عليه كل الكتب. كانت خطتي بسيطة متسلسلة، سهلة التنفيذ، لا يعتريها أي تعقيد، لكنني ما إن دخلت البيت حتى رأيت الأخوات الصغيرات يخرجن من الصالة ويحملن شمسيّات شرقية، متّشحات بزينة شجرة الميلاد اللماعة التي أخذنها من صندوق زينة أعياد الميلاد، المحفوظ بعيدًا أعلى الخزانة. أول شيء قلنه: «شخص اسمه شبه الحبيب اتصل بك». فوجئت بذلك، فلم يسبق أن عرف شبه الحبيب رقم هاتفي. لم يتصل بي قط في منزلي، ولم أتصل به في منزله، ولم أكن أعرف رقم هاتفه، ولا أدري أساسًا ما إذا كان— . وهنا واصلت الأخوات الصغيرات كلامهن: «أختي الوسطى، قلنا لهذا الشخص إنك في متجر المقليات تحضرين لنا البطاطس»، ونظرن في يدي بحثًا عن البطاطس فلم يجدن شيئًا. «ثم طلبنا منه رقم هاتفه كي تعاودي الاتصال به لكنه قال «هذا إن كانت ذهبت من أجل البطاطس، إن كان هذا فقط ما خرجت من أجله» وقال إنه سوف يتصل مرة أخرى بعد نصف ساعة. واتصل بعد سبع وثلاثين دقيقة لكنكِ كنت ما تزالين خارج البيت. لقد استغرقتِ وقتًا طويلًا لجلب البطاطس يا أختي الوسطى». ونظرن مرة أخرى بحثًا عن البطاطس، فغشي شيء من العبوس وجوههن. «اقترحنا عليه مرة أخرى أن يعطينا رقم

(1) لعلّ الإشارة هنا إلى القرن التاسع عشر الذي كتب فيه تومس هاردي رواياته، والقرن العشرين الذي لم يصدر فيه سوى قصص قصيرة وبعض القصائد. (المحرر)

هاتفه، لكنّ هذا الشخص، شبه حبيبك، قال مرة أخرى «لا داعي». ثم سألنا إن كنا نحن الأخوات الصغيرات فقلنا نعم، ولكن يا أختي الوسطى **أين البطاطس؟**». ها قد جئن إلى مربط الفرس، فشرحتُ لهنّ السبب في عدم وجود البطاطس دون أن أذكر لهنّ شيئًا حقيقيًا عما حدث. قلتُ لهنّ شيئًا غامضًا، أنّ المتجر لم تكن لديه بطاطس، رغم معرفتي بأنّ الأجوبة الغامضة لا تخدعهنّ بسهولة. ولكي أتجاوز الأمر بسرعة وأمنع أي تعليق يعترضن به على مبادئي الأخلاقية بعد أن كذبتُ عليهن، قلت لهنّ إنّ بإمكانهن أن يتناولن أي شيء يردنه من خزانة المطبخ، وكنتُ أرجو أن تكون هناك حلويات لذيذة في الخزانة. ثم أغلقت موضوع البطاطس حين قلتُ لهنّ إنّ الأخ الثالث وأخت فتاة الأقراص، نوعًا ما، بشكلٍ ما، قد عادا إلى بعضهما من جديد.

كانت هذه مناورة صائبة، ضربة موفقة لتغيير المسار. كانت الأخوات الصغيرات يحببن أخت فتاة الأقراص. ولفرط ما أحببنها كنّ يركضن دائمًا إليها ويتقافزن حولها، ويلقين بأنفسهن عليها، يتدلّين من ذراعيها ورقبتها، يغمرنها بالأحضان والضحكات، ويستقبلن منها الأحضان. كان ذلك يحدث في كل مرة يلتقينها حين كانت ما تزال حبيبة الأخ الثالث. كان من المنطقي إذن أن تتحطم أفئدتهن هنّ أيضًا حين هجرها الأخ الثالث، لدرجة أنهنّ شطبن الأخ الثالث من قائمة هدايا عيد الميلاد لسنة تقريبًا. ظلّ مشطوبًا تسعة أشهر، وثلاثة أسابيع ونصف يوم قبل ليلة عيد الميلاد، ثم تراجعن ووضعن اسمه مجددًا. كان اسمه مشطوبًا حتى في تلك الفترة التي كان يأخذهنّ فيها مع ماما في أيام الثلاثاء لتلك النزهات القصيرة ودوّارات الخيل الخشبية، للترفيه عنهن، دون أن يدرك على ما يبدو فداحة نقمتهن عليه، ولا مبلغ السلوك الإجرامي الذي تصوّرنه فيه، أو بأي قدر

كان موشكًا على أن يُحرم من بطاقة معايدة الرنّة والجوارب وأربطة الحذاء الرجاليّة، بالإضافة إلى الصابون المعلّق في حبل، تلك الأشياء التي خططت الأخوات الصغيرات لإهدائه إياها. والآن جاء خبر رجوع الحبيبين إلى بعضهما البعض فأدّى المطلوب منه. كان أسعد خبر بالنسبة إليهن، بالذات لأنّ أخت فتاة الأقراص كانت تبادلهنّ الحب. هذا ولم أر في حياتي شخصًا حليمًا مثلها مع ثلاث فتيات صغيرات يسهبن بحماس في الثرثرة عن اختراع دائرة المعارف، وعن دوامة جزر الفارو، والمقياس ثنائيّ النغمة، ومقاطعات الصين، ونظرية الكون غير المحلي، ونظريات وحقائق العلوم المادية، والتدمير الثقافي لريف كادورو. كانت أخت فتاة الأقراص تتفاعل معهن كثيرًا. كانت تُسرّ بالأخوات الصغيرات، وتنصت إليهنّ، وتشجعهن، وتأخذهن على محمل الجد، تقرأ ملاحظاتهن الطويلة وتسألهن أسئلة جادة، فيسعدن بذلك. لذلك بعد أن سمعن عن عودة الحبيبين ابتهجن كثيرًا ولم تعد أسئلتهن مركّزة على البطاطس، بل على أخت فتاة الأقراص والأخ الثالث. غير أنّ الأخوات الصغيرات لم يعرفن، مثلما لم نعرف أنا ولا الأخ الثالث في بادئ الأمر، مدى تأثير السمّ على تلك الفتاة الجميلة التي يحببنها. لذلك تجنّبت الدقّة في هذا الأمر، فلم أخبرهن أنها الآن عند بوابة الموت وهي في طريقها إلى المستشفى مع الأخ الثالث لتلقي العلاج من أثر السم. قلتُ لهنّ ربما يستطعن رؤيتها مجددًا بعد فترة قصيرة. أما الآن، فبإمكانهن تناول أي شيء يردنه على العشاء ما دام موجودًا في المطبخ، وبعد ذلك يمكنهن الخروج واللعب حتى وقت متأخر للغاية، وبعد ذلك سأقرأ لهنّ من هاردي القرن العشرين. رضينَ بذلك، فاخترن الأخوات الصغيرات الاستمتاع بحلويات سمارتيز وبسكويت فارليز والبيض المسلوق وحلوى الشوكولاته بالنعناع وغيرها من الأكلات الخفيفة، في حين اتصل شبه الحبيب للمرة الثالثة في ذلك المساء، والمرة الرابعة في حياته.

صحتُ فيهن: «اذهبن الآن وتناولن ما شئتن»، فحين رنّ الهاتف وأجبت كانت الأخوات الصغيرات على وشك الانطلاق إلى المطبخ. وحين قال شبه الحبيب: «أهذه أنتِ؟»، حجبت بيدي ناقل الصوت كي أصرخ بأعلى صوت: «وأغلقن الباب خلفكنّ، ولا تتنصتن على هذه المهاتفة». فقد كانت أول مرة أتحدث فيها على الهاتف مع شبه الحبيب، ومع أي شبه حبيب. شعرت بحرجٍ شديد، لذلك لم أرغب في أن يستمع أحد إلى محادثتنا، وأعني هنا الأخوات الصغيرات. بطبيعة الحال كان هناك أيضًا قوات الأمن بأجهزة تنصّتهم، ولكن في حالتهم - إن كانوا يستمعون، فربما لا أحد كان يستمع - لا يمكنني أن أفعل شيئًا سوى أن أمتنع عن الحديث مع شبه الحبيب. صرختُ للأخوات الصغيرات أن يتناولن طعامهن هناك ثم يخرجن من الباب الخلفي. جلستُ بعدها على الدرج، وأعدت السماعة إلى أذني وقلت: «شبه الحبيب». كنتُ مسرورة لأنه المتصل، مسرورة للغاية على الرغم من غرابة أن نتحدث في الهاتف. فلم أتحدث في الهاتف في حياتي سوى ثماني مرات أو سبع أو ست. قال شبه الحبيب: «استغرقتِ وقتًا طويلًا لجلب البطاطس يا شبه الحبيبة». بدا صوته مثله، أي محبوبًا، رجوليًا، مرحّبًا، كان يمازحني في موضوع البطاطس، وقد أخذتها على محمل المزاح في أول الأمر. هكذا إذن ابتدأت المهاتفة بداية حسنة، لكنها عند النهاية، حين تحدثنا عن وصف ماما إياه بالإرهابي، وأنه تحت حصار متزايد، ليس بسبب الشاحن الفائق وشائعة العلم فقط، بل بسبب شائعة جديدة عنه هناك في حيّه، ويظنّ أنني المسؤولة عنها وأنا هنا في حيّنا. كنتُ أعيد وأدقق في جملته «استغرقتِ وقتًا طويلًا»، فرأيتُ أنها لم تعد ممازحة ودودة. وما لبثتُ أن تأكدت من أنها لم تكن سوى هجوم عليّ.

سألني عما حدث. ولماذا لم أعد أذهب إليه في أيام الثلاثاء والجمعة الممتدة إلى السبت وصولًا إلى يوم الأحد، ذلك أنه باستثناء توقفي عن ليالي الخميس

التي كنت أذهب فيها إليه أحيانا، لم يفوّت أي منا موعدًا من قبل خلال شبه مواعدتنا التي أوشكت على السنة. قلتُ له استجدّ أمرٌ ما، فاضطررت على إثره إلى البقاء في البيت والاعتناء بالمنزل والأخوات الصغيرات. لم أقل له شيئًا عن إصابة الحلّاب الحقيقي بالرصاص، أو عودة ماما إلى ذاتها الحقيقية بسبب إصابته، ولا قلتُ له شيئًا عن إصابتي بالتسمم، ولا مقتل فتاة الأقراص، ولا عن مطاردة مِلْكْمَن المتزايدة، وحتمًا لم أخبره شيئًا عن مِلْكْمَن. لم أقل له شيئًا عن الجماعة وتلفيقاتها، أو تفاصيل تفخيخ السيارة التي ما تزال قضية قائمة بيننا حتى مع إصراره على الاستهتار بها. هناك أيضًا حادثة متجر المقليات، ولم أخبره بها، ولم أقل له عن سلوكهم الجديد القائم على **«تفضلي، خذي هذه البطاطس، ولكن لا تظني أنكِ ستنجين بفعلتكِ هذه، يا فاجرة!»**. لم يكن عنادي هو الذي يمنعني من إخباره. مع ذلك بدأتُ أقول في نفسي ربما بمقدوري أن أخبره، ربما يمكن لشؤوني أن تصبح - إذا أراد شبه الحبيب لهذا أن يحدث - شؤونه أيضًا. لكنني تراجعت، وقلت في نفسي ماذا لو أنني أخبرته؟ ماذا لو أخبره الآن؟ ماذا لو استطعت أن أفصح له ثم تجاهل الأمر واستهتر به كما فعل في موضوع السيارة المفخخة؟ في تلك الفترة من حياتي، لأنني كنت مشوّشة ومشلولة بسبب مِلْكْمَن، وبسبب الجماعة، وبسبب العلاقة غير الملتزمة بيني وبين شبه الحبيب، ولأنني كنتُ قد أفرطت في حماية ظهري إلى الحد الذي لم أعد أدرك فيه بأنني أفوّت على نفسي فرصًا جيدة، بسبب هذا كله إذن قدّرتُ أنّ أثر تجاهله واستهتاره الموجع سيكون أفدح من عدم مكاشفته على الإطلاق. لذلك تركت الأمر، وكنتُ أرى في تلك اللحظة أنّ هذه هي الطريقة الأنسب للتعاطي معه، إلا أنّ شبه الحبيب قال: «ولكن ما الذي حدث؟ ما هو الشيء الذي طرأ يا شبه الحبيبة؟». بعد دقيقة حَيرة، انفرجت شفتاي، ورغم جميع أسبابي التي احتفظتُ بها كي لا أقول شيئًا، إلا أنّ الكلمات انهمرت من لساني دون إرادة مني. سمعتُ نفسي

أتحدث عن إصابة صديق ماما، وعن وجودها لفترات طويلة في المستشفى، وحينها قاطعني شبه الحبيب فقال إنه سيأتي إليّ. فهل كنتُ أريده أن يأتي؟ كنتُ أرجو أن تستمر عفويتي كي أستطيع قول ما أردت قوله، أي أن أقول نعم. يمكنه المجيء. يمكنه أن يكون هنا. من دون محاضرات ماما وأسئلتها عن الزواج والأطفال أو اتهامها إياه بأنه هو مِلْكْمَن. وحتى لو كانت ماما هنا، فهي في غمرة انشغالها بشؤون قلبها الآن، من المستبعد أن تدرك وجود شبه الحبيب. لم تكن هي التي جعلتني أتردد إذن، وأحرم نفسي من شبه الحبيب. كانت فكرةً أخرى هي التي تفزعني: **ماذا لو جاء، وسَمِع ذاك بمجيئه؟** ألفيتُ نفسي أعود بالذاكرة إلى الأخت الكبرى وهي جالسة في الصالة في يوم جنازة حبيبها السابق المقتول. كنتُ أدرك أنه من غير المعقول أن أترك نفسي لتصبح ما تقوله الشائعات عني، لكنّ أحدث تلك الشائعات في الحيّ تقول إنني على علاقة بمِلْكْمَن منذ شهرين. وهذا يعني أنّ الأوان قد حان لخيانته، حسب قولهم، وهكذا كنت أخونه وأعيش نزوة من وراء ظهره مع شاب تافه مدّعٍ يعمل ميكانيكيّ سيارات من طرف البلدة الآخر. بسبب هذه الشائعة الجديدة ترددتُ لكي أستجمع أفكاري قبل أن أردّ. فبعد أن أخبرتُ شبه الحبيب ببعض الأمور - الجزء الأسهل من الموضوع، الجزء الذي لا يتعلق بي بل بماما والحلّاب الحقيقي - قررتُ أنّ الوقت قد حان لكي أفصح له عن بقية الأشياء. لكنني قبل أن أتكلم أساء شبه الحبيب تفسير ترددي، فانقضّ عليّ يقول إنني لا أريده أن يزورني، وإنني دائما ما كنتُ أرفض قدومه ليأخذني أو يوصلني إلى البيت أو يقضي معي بعض الوقت في حيّنا. في البدء قال إنه ظنّ أنّ السبب كان الشائعة المتعلقة بالشاحن الفائق، وأنني أصبحت أخجل من أن يراني أحد معه. وأنني بعد ذلك أصبحت أصدّق أنه مُخبر. لكنّ هذا كان قبل الشائعة الأخرى التي سمعها في منطقته أيضًا، تلك الشائعة التي تتحدث عن جرأته إذ يسعى كي يولّع حبيبة مناوئ به. ثم قال: «**ذلك**

المناوئ. الحلّاب. ما رأيكِ في هذا الكلام يا شبه الحبيبة؟».

وفورًا عاد التوتر بيننا، ذلك التوتر الذي ظلّ يتراكم بسبب الشائعات في منطقتينا. وقد بدا الآن أنّ الشائعات تتقاطع، فيتبدّل رأيه من «عدم رغبتي في مجيئه لأنني أخجل منه» إلى «عدم رغبتي في مجيئه لأنني على علاقة بمِلْكْمَن»، ويتبدّل رأيي أنا من «عدم رغبتي في مجيئه لأنّ ماما ستظل تطالب بالزواج والأطفال» إلى «عدم رغبتي في مجيئه خشية أن يأخذ مِلْكْمَن حياته». وفيما يخصّ الإفصاح عن الأمر فلن يسفر عن خير، وهذا ما توصّلت إليه. أولم أبدأ في الكلام فسارع إلى الشجار؟ لذلك لم أجب، ولماذا أجيب ما دام قد طفق يُلقي الاتهامات جزافًا مثله مثل الآخرين؟ فتراجعت وعدت إلى تحفظي، بغضب وكبرياء جريح، وعندها عاد النفور وسيطر عليّ مجددًا. قلتُ في نفسي أوه لا، لا أريد ذاك النفور ثانية، وليس تجاه شبه الحبيب. ولكن نعم، فما هي إلا ثوان معدودات حتى تغيّر شبه الحبيب مرة أخرى. فجأة أصبح أقل جاذبية وقل تمثيله لنفسه كما كنت أراه. ثم لم يعد جذابًا ولا هو يمثّل نفسه. عوضًا عن ذلك بات أقرب إلى مِلْكْمَن أكثر فأكثر. عاودتني الرعدة، وهي تصيبني لأول مرة مع شبه الحبيب. قلتُ لنفسي مهلًا. كيف حصل على رقم هاتفي؟ كيف بلغ به التسلّل والتجسّس والترصّد إلى حد الحصول على رقم هاتفي؟ سألتُه: «كيف حصلت على رقم هاتفي؟»، وبمجرد أن هاجمتُه بهذا السؤال تنحّى النفور جانبًا وتذكّرت مرةً أخرى من يكون. قلتُ لنفسي أنتِ سخيفة. وماذا يهمّ في طريقة حصوله عليه؟ حتى أنني لم أكن غير راغبة في أن يعرف رقم هاتفي. بل إن شئنا الدقة فقد كنتُ أريده أن يعرفه. لا لكي يتصل بي، بل لأنّ مجرد معرفته، ورغبته في معرفته، دلالة في ذهني على شيء من الحميمية، دلالة على تنامي الثقة بيننا. لكنّه أخذ سؤالي على ظاهره الهجوميّ، والذي كان للأسف صحيحًا في لحظة السؤال. قال بحدّة، ولم يكن من عادته أن يرد بحدّة: «من دليل الهاتف يا شبه الحبيبة». قلتُ له:

«أي دليل هاتف؟». فقال: «يا إلهي، شبه الحبيبة! هل أصبحتْ أدلة هاتف القرن العشرين ممنوعة أيضًا؟». ها هو إذن يقدح في ذوقي القرائي للمرة الأولى. قلتُ في نفسي هو أيضًا هكذا، حتى هو. حتى شبه حبيبي لا يؤتمن. هو أيضًا يطعنني. فتابع كلامه: «اتصلتُ بعدة أرقام تحمل اسم عائلتكِ في منطقتكم، فأنتِ لم تعطني عنوانك قط يا شبه الحبيبة». وهنا أدركتُ المرارة، مرارة واضحة. «أخيرًا، وبعد بضعة أرقام خاطئة اتصلتُ برقم آخر وردّت عليّ امرأة تبيّن أنها والدتك».

كانت نبرته باردة، بل يمكن وصفها بأنها باردة غاضبة مطعّمة بامتعاض. لم يقل المزيد عن مجيئه، لكنه ظلّ في موضوع مِلْكَمَن. قال: «شبه الحبيبة، ما الذي قلتِه لوالدتكِ عني وعن ذلك المناوئ؟». فقلت: «لا شيء. هكذا هي ماما. تختلق الأمور». قال: «قالت إنّ لديّ قنابل. وإنني متزوج ألوّث الفتيات، ثم أغلقتْ الخط دون أن تمهلني كي أردّ. أخبريني، ما الذي قلتِه لها؟». فقلت: «قلتُ لك، لم أقل شيئًا. هذا طبعها. ولستُ مسؤولة عنها. هذا ما تفعله». قال: «لا بدّ أنكِ قلتِ لها شيئًا». سألته: «ولماذا لا بدّ أنني قلت شيئًا؟». وهنا عاد التوبيخ مجددًا، فأصبح لزامًا عليّ أن أنفي، وأفسّر، وأتحمّل المسؤولية عن سوء افتراضات الآخرين. ثم تابع ما كان يقوله، وقال إنه سمع أنّ ذلك الرجل منتصِف العمر في منتصف العمر فعلًا. شدّد أيضًا على أن الرجل منتصِف العمر، الرجل الكبير، قد يكون منتصِف العمر لكن بالتأكيد وزنه في الحركة ليس خفيفًا. وهل أعرف ما يدور في رأس هذا المتقاعد المتشدّد في —، فقاطعته «كفّ عن هذا الكلام. فأنا لا ألتقيه، ولست علَى علاقة به». فسألني: «هل يعلم يا شبه الحبيبة، بأمري؟». لم أكد أصدّق أنه قال ذلك. لقد بدا أنه يستوعب الأمور على عجلة، فيلتقط أهمّ الشائعات التي تدور في حيّه وحيّنا. قال: «أعلم أننا لم نتحدث في هذا الأمر من قبل،

أقصد كوننا مجرد شبه حبيب وشبه حبيبة في شبه علاقة شارفت على العام حتى الآن، ما يعني ربما أنه لا ضير في أن نواعد أشخاصًا آخرين، ولكن أن تواعدي مناوئًا يا شبه الحبيبة، ذلك المناوئ تحديدًا؟ هل أنتِ واثقة مما تفعلين؟». جرحني كلامه، إذ يبدو أنه لا يكترث ما إذا كنا نواعد آخرين بينما نحن نشارف على العام في شبه علاقتنا. في بدايتي معه قابلتُ بضعة فتية على أساس أنّ واحدًا منهم قد يصبح شبه الحبيب، لكنني توقفت حين أصبح هو شبه الحبيب، وكنا نقضي الأيام والليالي معًا، إلى جانب أنّ الآخرين لم يعجبوني. كانوا يسألون أسئلة كثيرة، أسئلة اختبارية تحليليّة، من الواضح أنها تقييمية أيضًا، ليروا هل أنجح في هذا التحكيم، ليروا هل أنا جيدة بما يكفي، أي ليست أسئلة نابعة من فضول لمعرفة من أكون. وهكذا استخدمتُ حقي أنا أيضًا في تقييمهم، واعتبرتهم غير جيّدين بما يكفي، أي أنني وضعتُ حدًا لأية شبه علاقة ممكنة قبل أن تبدأ. أما عن إشارة شبه الحبيب، إلى المواعدة المزدوجة، أو الثلاثية، فهل يعني ذلك أنّ لديه مواعدات متعددة؟ هل كان يلتقي فتاة أو فتيات طيلة هذه الفترة من شبه علاقتنا؟ هل ضاجعهن مثلما ضاجعني لأن هذا ببساطة مقدار عدم فرادتي عنده؟ هل ما يزال على علاقة بهن، أولئك الفتيات العديدات اللائي لا حصر لهن، حتى بعد أن طلب مني أن أنتقل معه إلى شارع المصابيح الحمراء؟

«—ثم اتهمتْني بحيازة القنابل وأغلقتْ الهاتف».

هذا ما قاله وهو يواصل حديثه عن ماما، وقد أخرجني عن تصوّري المؤلم لوجوده مع نساء أخريات. «ولكن ليس قبل أن تخبرني بأنّني لستُ واحدًا من أولئك الفتيان الرائعين في تقديرها». قلتُ له: «تظنّك شخصًا آخر»، فقال: «أعلم. وهذا ما أحاول أن أقوله لك». وهنا بدت نبرته ساخرة متعالية. قلتُ له: «من الأفضل أن لا تتمادى في الأمر يا شبه الحبيب. لستُ

مسؤولة عن موسوعة الشائعات التي تصدّقها ماما، ولستُ مسؤولة عن موسوعة الشائعات التي يصدّقها الجميع. لا يوجد حلّاب... نعم يوجد حلّاب، ولكن ليس بيني وبين—» فقال: «لا داعي للتبرير. فأنا أعرف». تلك الجملة المتململة البليدة المستهترة التي قالها «لا داعي للتبرير» هي التي قصمت ظهري. كيف يجرؤ على قول «لا داعي للتبرير»، كما لو أنني أبليه للعظم باستمرار وأنهكه بمحاولات التبرير، كما لو لم يكن هو من يتهمني ليسحب التوضيحات شدفةً شدفة من حلقي هذه المرة. بسبب ذلك التعليق انطلقتُ في انتقامي. قلتُ له: «اسمع، لا تفرّغ غضبك من مسألة الشاحن الفائق ومريلة الجزّار[1] فيّ». كان ذلك تعليقًا خسيسًا، بالغ الخسّة، تحت الحزام، مقرفًا، ولم تكن من عادتي أن أقول شيئًا كهذا لأحد، لن أقوله حتى وإن كان شخصًا أكرهه اقتنى شاحن بنتلي بلاور من بلد «ما وراء البحر» وأخفاه في منزل بيت المخبرين الذي ليس فيه علم واحد من بلد «ما وراء البحر» بل ربما لو أن أكوام من أعلام بلد «ما وراء البحر» البغيضة تلك عنده، وكنتُ أعرف أنّ شبه الحبيب بريء من ذلك. لم يكن واحدًا من أفضل أيامي، لكنه استفزّني بطريقته في الحديث معي حين اتهمني بمواعدة رجل الجماعة ذاك. لذلك أثخنتُ في طعنه، رغم أني ندمتُ بعد ذلك، لكنني لم أشعر بالندم إلى الدرجة التي تمنعني من تكرار الأمر، وقد فعلت ذلك بأن تبعت تعليقي ذاك بتعليق انتقامي آخر ندمتُ عليه أيضًا. قلت له: «أنت تطبخ. ولديك أباريق قهوة إضافة إلى مشاهدتك لغروب الشمس، حتى النساء لا يقتنين أباريق قهوة ويشاهدن الغروب. تستبدل السيارات بالناس.

---

(1) مريلة الجزّار (butcher's apron): تعبير يستخدمه المعارضون الأيرلنديون إشارة إلى علم المملكة المتحدة، إذ يشبّهون الخطوط الحمراء الموجودة في العلم بالدماء على مريلة الجزّار، ويقصدون بذلك أن يشيروا إلى الجرائم التي ارتكبتها المملكة المتحدة في أيرلندا وغيرها من الدول. (المحرر)

تحتفظ بمنزل يغصّ بالتكديس وتتحدث عن الأفلام الليتوانية». فقال لي: «وأنتِ تقرأين أثناء المشي». فقلت له: «أخيرًا قلتَها، أرأيت؟». فقال: «لم أنته من كلامي بعد. يروقني أنكِ تقرأين أثناء المشي، فهو نوع من الأفعال الهادئة غير الاعتيادية التي قد يفعلها المرء ولا يرى أنّها غريبة أو أنّ أحدًا يلاحظها. لكنه تصرّف غريب يا شبه الحبيبة. ليس طبيعيًا. ليس تصرفًا ينمّ عن الحفاظ على النفس. بل إنه تصرف متعنّت ومُربك، وفي بيئة مثل بيئتنا يُظهرك بمظهر الشخصية العنيدة الحمقاء. لم أكن أودّ أن أقول هذا، ولكن ما دمتِ قلتِ ما قلتِه قبل قليل فسوف أقوله. يبدو عليكِ أنكِ لم تعودي حيّة. حين أنظر إلى وجهك يتراءى لي أنّ حواسك تختفي أو ربما اختفت أصلًا فلا يمكن لأحد أن يتواصل معكِ. لطالما كان من الصعب التنبؤ بأفعالكِ، لكنه بات الآن مستحيلًا. وربما يجدر بنا التوقف الآن، قبل أن يسوء الأمر أكثر من ذلك».

هكذا إذن عدّدنا مثالب بعضنا البعض، وصفّينا حساباتنا - وكانت واحدة من تلك الشجارات - لكنني وافقته في أن علينا التوقف. كنتُ منزعجة طوال تلك المشاجرة الهاتفية من احتمال أن يكون هناك شخص يتنصّت علينا، وقد لا يكون لشعوري هذا أساس لأنني ظللت أشعر طوال الشهرين السابقين بأنّ أحدًا يتنصت عليّ أو يراقبني أو يترصدني، أين ما كنت وأيًا ما كنت أفعله وأيًا من كان معي. كان القلق قد أخذ مني كل مأخذ، وبتّ مقتنعة أكثر فأكثر أنّ بعض الناس كل همّهم في الحياة هو أن يتنصّتوا على الآخرين، لكنّ هذا ربما كان نتاج خيالي المضطرب، ولم يكن هناك في واقع الأمر أحد يتنصّت. هكذا أنهينا مكالمتنا بطريقة رسمية متكلفة، فقلت له إنني سأزوره حالما أستطيع، فيما بدا أنه غير مكترث، كما لو أنه لم يصدّقني، كما لو أنه لم يرغب في رؤيتي. بعد ذلك قال كلّ منا للآخر وداعًا وحيدة، وأغلقنا الخط. بعد أن أغلقت الخطُ ظللت جالسة على الدرج، وبدأت

تلقائيتي الجديدة تعتمل داخلي مرة أخرى وإن كانت متأخرة. فقالت لي أن أكفّ عن الإشفاق على نفسي وأن أذهب إلى شبه الحبيب، وذكّرتني بأنني أحبّه، وأنّ شبه الحبيب كان رفيقي الأول في الغروب، وأنه الوحيد الذي ضاجعته، والوحيد الذي قضيت معه ثلاث ليال كل أسبوع على الأقل إلى أن هدّد مِلْكْمَن بقتله، فقلّصتُ الليالي إلى ليلتين، ولم أكن أبيت عند أحد قبل شبه الحبيب. فلا يهم ما إذا كنا في شبه علاقة، لا علاقة حبيبين طبيعية معتادة، ولا يهم ما إذا كنا نصاب بفقدان ذاكرة في كل مرة يثير أحدنا مسألة تجاوز مرحلة «الشبه»، ينبغي أن أذهب إليه، والآن، هكذا قالت لي تلقائيتي، كي أوضح له وجهًا لوجه كل سوء الفهم الذي حدث بيننا وأصلح الأمر. وبعد أن أنتهي - إن تركني شبه الحبيب أفعل ذلك دون أن يقفز إلى الدفاع عن نفسه - يمكنه أن يحدثني عن موضوع الشاحن الفائق ومسألة اتهامه بأنه مخبر والقيل والقال فيما يتعلق بموضوع حبيبة المناوئ، أي كلّ ما يمر به. وبناء على الكيفية التي يجري بها الأمر، ربما يوصلني إلى بيتي، فلا بد أنّ أعود للأخوات الصغيرات. يمكنه أن يوصلني، دون اعتبار لماما، ودون اعتبار لِمِلْكْمَن، ليس إلى نقطة الحدود المعتادة في أرجاء الحي القصيّة، بل إلى داخل الحيّ عند باب بيتنا. بل يمكنه أن يدخل ويجلس معي، بل يبيت معي، إن كان لا يبالي بمحاولة مِلْكْمَن أن يقتله بعد ذلك. كان رجلًا بالغًا كبيرًا. وبمقدوره أن يتخذ قراره. هكذا قالت لي تلقائيتي إنّ شبه الحبيب كان شبه حبيبي، وإنّ مِلْكْمَن ليس عشيقي. وأثناء الإقرار بهذا الأمر، أشعرتْني سطوة الحقيقة بالصفاء والتسامي. لكنني في غمرة حماسي المحموم لم أكن أدرك أنني بدَلًا من الصفاء والتسامي ربما كنتُ أتأرجح من أقصى القنوط والعجز إلى أقصى المرح المباغت الناشز، فشخبطتُ رسالة للأخوات الصغيرات قلت فيها: «البسن مناماتكن. سأعود لاحقًا لأقرأ لكنّ هاردي كما وعدتكن». وهكذا ألقيت معطفي فوق كتفي وهرعت إلى محطة الحافلات.

ثمة أسباب ثلاثة منعتني من المشي. أولها أنني كنت في حالة من الضغط والانتشاء الزائف ظننتُه عزيمة واقتناع. لذلك كنت توّاقة للذهاب إلى منزل شبه الحبيب بأسرع ما يمكن. ثانيها أنني رغم ما كان بي من حماس إلا أنّ ساقيّ لم تكونا في أفضل حالاتهما، لا للجري وحسب بل ولمجرد المشي. وثالثها أنني قررت توضيح الأمور لشبه الحبيب لكنني كنتُ ما أزال قلقة من مواجهة مِلْكْمَن حال خروجي من البيت. لقد بدا الأمر - ولم أتأكد من ذلك - كأنني لم أرغب في امتحان حالة الازدهار الجديدة التي شعرتُ بها، لم أرغب في أن تنهزم بمجرد ظهور مِلْكْمَن في المشهد مرة أخرى.

ترجّلتُ من الحافلة في منطقة شبه الحبيب، واخترت الطريق المختصرة التي تقود إلى شارعه فوجدتُ بابه الأمامي الكبير مكسورًا. كان الباب مواربًا، لكنه مكسور. ما معنى ذلك؟ دفعته بحذر وتسللت إلى الردهة الصغيرة. من هناك توجهت إلى الصالة الخالية من الناس فيها أجزاء السيارات مبعثرة في أرجائها تغطي المكان، مكوّمة هنا وهناك، تنبئ بأن التكديس وصل إلى مرحلة فوضوية خطرة وعنيفة أكثر من المعتاد، أو ربما حدث شيء ما كدّر تكديسه المعتاد. كنت على وشك أن أنادي شبه الحبيب لكنني سمعت صوت الطاهي قادمًا من المطبخ. كان يغمغم بإرشادات الطهو المعتادة لتلميذه المتخيّل. «هكذا. ضعها هكذا. لا. دع هذا. هكذا، هكذا. نعم، هذا أفضل. ضع منشفة الأطباق بينما أوضّب هذا، ثم سأشطف—». توجهتُ إلى المطبخ كي أقاطع الطاهي وأسأله ما الذي حل بالباب الأمامي وأستفسر عن مكان شبه الحبيب، لكنني توقفتُ حين أدركتُ أنّ رفيق الطاهي كان يغمغم بشيء وهو يجيب. كان يقول شيئًا، لم أستوعبه في البدء، لكنني تبيّنت الصوت وكان صوت شبه الحبيب. تحرّكتُ كي أهرع إليه لكن شيئًا في صوته وخز جلدي وردعني. ألفيتُ نفسي أتراجع لا إراديًا، لم أبرح جانب الصالة من باب المطبخ. ثم قال شبه الحبيب شيئًا آخر: «اللعنة. يا لي من أحمق. بالغ الحماقة!

أبله! لم أتوقع حدوث هذا، لا أدري بم كنت أفكر، أيها الطاهي، ما الذي كنت أفعله... غبي... كان يفترض بي أن أدرك...»، فيما كان الطاهي يغمغم بشيء يقول فيه لشبه الحبيب أن يغلق فمه ويدير رأسه نحو اليمين. دفعتُ الباب الموارب برقّة وأخذتُ أتلصص عبر الفرجة فرأيت شبه الحبيب جالسًا إلى طاولة المطبخ. كان ظهره تقريبًا في مواجهتي، غير أنّه كان يضع منشفة أطباق مبللة على عينيه. كان يغطي كلتا عينيه بالمنشفة فيما يقف الطاهي بقربه يحمل رزمًا من الشاش والضمادات، يتأبط مناشف أخرى ويصب سائلًا طبيًا من قنينة في طاسة ماء على الطاولة. على الطاولة أيضًا، أو بالأحرى مغروسة في الطاولة، إحدى سكاكين الطاهي الطويلة. كان عليها دم. منعني حدسي مجددًا من الدخول. لم أصدّق لحظةً أنه ليس دمًا بشريًا، وأنه قد يكون بقعًا من شمندر محمّر وطماطم روما أو خليطًا من الملفوف البنفسجي مع نبيذ أحمر ونبيذ البورت، أو طبقًا من صبغ أحمر صالح للأكل مع المزيد من طعامٍ أحمر ورشّة مسحوق أحمر مع المزيد من اللون الأحمر. لا. هذا دم. وهناك المزيد من الدم أيضًا، بل الكثير منه، على قميص الطاهي. خيوط من الدم على الأرضية وبقع بنية محمرّة على الطاولة. لاحظتُ أيضًا بضع قطرات من الدماء تقطر من شبه الحبيب نفسه. الغريب أني ظللت في مكاني، كما لو أنّ شيئًا قويًا قد وضع يدًا خفية على ذراعي ليمسكني، ويأمرني، ويحذّرني. لم يصدر مني أي سلوك متوقع من شبه حبيبة، يفترض أنها قبل لحظات كانت ممتلئة بالحماس والانتعاش، تهرع إلى منزل شبه حبيبها، عازمة على رؤيته ومصارحته، كي تشرح له تحرّرها الجديد من القيود. لا شهقة خوف، ولا صرخة، ولا اندفاعة لحضن شبه الحبيب وقول «ماذا حدث؟ ربّاه! ما الذي حدث؟». لكنني بقيت في مكاني، دون أن يعي الطاهي ولا شبه الحبيب أنّ نصفي داخل المطبخ ونصفي خارجه.

طفق شبه الحبيب يتحدث مجددًا، قال شيئًا فيه: «ناكح... النغل الحقير الوضيع. النغل ابن الحرام النغل!». استوعبتُ الآن، فقد استخدم شبه الحبيب هذه المصطلحات من قبل أثناء هجومه على جاره الذي قال **«لا أقصد إهانةً لكن»**، ذاك الذي أطلق شائعة العلم على الشاحن الفائق التي قادت بعدها إلى شائعة المخبر. قال الطاهي: «سنذهب إلى المستشفى، يا صاحبي الأقدم»، فيما أجابه شبه الحبيب: «مستحيل. لديّ ما يكفي من المشكلات جرّاء إشاعة العلم، كما يفترض الآن أيضًا أنّني مغرور معتدّ بنفسي لأنني أسعى وراء حبيبة ذلك المناوئ». كان يقصدني بقوله «حبيبة ذلك المناوئ»، وقد كان صادمًا إذ لم يقلها بلطف، بل قالها بفجاجة، قالها بازدراء. فهل تفاقمت الأمور بيننا إلى هذا الحد، هل هذا الذي أمامي شبه الحبيب حقًا؟ لكنني قلت في نفسي تمهّلي. لقد تعرّض للطعن أو أصيب، وثمة شيء أصاب عينيه، كما قلت في نفسي أنا أيضًا تسمّمتُ، وقبل ساعة لا أكثر اتهموني في متجر المقليات بأنني شريكة في جريمة قتل، وعلى الهاتف هو نفسه اتهمني بأنني عشيقة، وها هو الآن، من ورائي، ما يزال يتهمني بكوني عشيقة، لكنني مع هذا لم أجلس مع صديقتي الأقدم من المدرسة الابتدائية أنتقده وأهاجمه ثم قلت لنفسي مجددًا، متلمسة العذر له، قد أصيب لتوه. وما زلت أيضًا أهجس بأنه لم يقلها بلطف. هذا هو الدرس الأمثل الذي تعلمته مباشرة عن ضرورة تجنّب التنصّت من خلف الأبواب. قال شبه الحبيب للطاهي بعد أن عاود ذكر المستشفى: «لا، أيها الطاهي، سيعتبرونني بالتأكيد مخبرًا إذا اكتشفوا أنني ذهبت إلى المستشفى». ثم أضاف بأنّ عينيه ستكونا على ما يرام، ولا داعي للقلق، سيزول ما بهما عما قريب وتعودان كما كانتا من قبل. فقال الطاهي: «وكيف لنا أن نعرف؟ لا نعلم ماذا ألقوا عليك، ماذا ألقى هو عليك، وأنت تقول إنه لا يؤلم لكنك ما تزال غير قادر على فتحهما، لذلك سنذهب إلى المستشفى. ومن يدري، ربما نصادف صاحب **«لا أقصد**

إهانةً لكن هناك أيضًا». قال شبه الحبيب: «أتصوّر أنهم لم يكونوا يتوقعون أن نتشاجر معهم». لم يكن يردّ على كلام الطاهي بل يتابع قطار أفكاره بانهماك. أما أنا فقد بدا واضحًا لي وأنا أستمع إليهما أنّ شجارًا آخر وقع، وكالعادة كان بسبب طراوة الطاهي. لكنّ ما قاله شبه الحبيب بعد ذلك جعلني أدرك أنّ الأمر لم يكن كذلك. قال: «أعني نظرتُ فإذا هم يفوقونني عددًا، ثم قذفوا تلك الأشياء فلم أعد أرى، وحتى بعد أن سمعتك تركض قادمًا، أيها الطاهي، كانوا ما يزالون يفوقوننا عددًا. فكيف فعلتَها؟ كيف تمكّنتَ أنت... ربّاه، أيّها الناعم المتغنج، الذي لا يحفل بك أحد، كيف استطعتَ بمفردك أن تخيف العديد منهم؟». هزّ الطاهي كتفيه - ولم ير شبه الحبيب ذلك - ثم قال، «أخخ»، وقد كانت «أخخ» متحفظةً أو ربما «أخخ» لا مبالية، يقصد بها أنّ هذا الموضوع بات مرهقًا. لكنّ تحديقته، التي لم يستطع شبه الحبيب أن يراها أيضًا، كانت تطوف حول سكّينه. كانت ما تزال ملطخة بالدم، ما تزال منتصبة، ما تزال عالقة في الطاولة، غير أنّ الطاهي رفعها بهدوء من على الطاولة ووضعها، بهدوء أيضًا، في المجلى. ثم همّ برفع المنشفة المبللة عن عيني شبه الحبيب، لكنّ هذا لم يسمح له. دفع مقعده إلى الخلف، وأبعد الطاهي بمرفقه. «ابتعد يا طاهي. عيناي بخير. لا أشعر بألم». لكنّ الطاهي أصر على أن ينظر بنفسه. كنتُ أريد أن أنظر أيضًا، لأعرف ما إذا كان في حاجة إلى المستشفى أم لا. هل كان شبه حبيبي أم ليس شبه حبيبي؟ لكنّ كيانًا غير مرئي، حتى الآن ظلّ يبقيني في مكاني.

طوال حديثهما كان تركيزي منصبًا على شبه الحبيب، وكيف لا يكون منصبًا على شبه الحبيب؟ لكنني الآن ألقيت نظرة عارضة إلى الطاهي فصدُمت. كانت نظرته - وهي نظرة كثيفة صارخة لم يحاول أن يخفيها لأنه لم يكن يدري بوجود أحد يراه - نظرة حب. لم تكن نظرة حب «صديق مقرّب»، ولا نظرة

حب «المهتم بكل الناس» تلك التي تخلو من افتتان. لم يكن هناك «احتمال» في تصنيف هذه النظرة. لم أر قط - بالأخص تجاه شبه حبيبي - مثل هذه النظرة على وجه الطاهي. لكنني لم أكن أنظر كثيرًا إلى الطاهي، لم أكن أنظر إلى وجهه. أولم يكن الطاهي وحسب؟ الشاب الشاذ غير المؤذي الذي يحميه الشباب الآخرون، الذي يتعالون عليه ويسخرون منه لا سيما حين ينهمك في واحدة من نوباته المتعلقة بالطعام. في أعماقي كنت أقول إنّ الطاهي يستحق الشفقة، ولكن ليس شفقة حقيقيةً بل شفقة من يقول «مُريعٌ أن يكون المرء هذا الشخص، لذلك أنا سعيد لأنني لست هو». لم يكن شخصًا يستحق أن يولى أي اعتبار، ولم يكن يُنظر إليه بوصفه شخصًا مساويًا للآخرين في المستوى. أما الآن فقد بدا لي أنني أرى هذا الشخص للمرة الأولى. وأدركتُ حينها أنّ حدسي أوقفني في مكاني لهذا السبب تحديدًا، لهذا السبب منعني من الكشف عن وجودي. أصابتني الرعدة، وهذه هي المرة الثانية التي تصيبني فيها دون أن تكون مرتبطة بمِلْكْمَن. في ذلك الوقت أزال الطاهي منشفة الأطباق، فتكثّفت تلك النظرة على وجهه فزادتني صدمة على صدمة. مدّ كفه إلى وجه شبه الحبيب، فسمح له أن يفعل ذلك. لم تكن لمسة رجولية جافة من نوع «دعني أرى». بل إنه لم يمدّ كفّه لعيني شبه الحبيب أصلًا. بل أراحها على وجنته. مسّد الوجنة مرّة، وهو ينزل يده، ثم ينقلها برقّة وبطء إلى الوجنة الأخرى. تركه شبه الحبيب يفعل ذلك، فيما عيناه مغمضتان طوال الوقت. رأيتُ عندئذ أنّ بقع الدم التي لاحظتها سابقًا لم تكن من عيني شبه الحبيب، بل كانت تتدفق من أنفه. نحّى كفّ الطاهي برقّة كي يمسح أنفه، ثم أبعد كفّه مرة أخرى، وأخرى، وهذا ما كنت أتوقع منه أن يفعله منذ البداية. لم يكن هناك كلام، مجرّد إبعاد رقيق، ولمس رقيق، عينان مغلقتان وعينان مفتوحتان، شبه الحبيب على المقعد، والطاهي واقف إلى جانبه يميل عليه.

عندها قال شبه الحبيب: «كفى. كفى يا طاهي. لا يمكننا أن نفعل هذا. لا يمكننا الاستمرار في ذلك». تأكيدًا لكلامه ارتفعت كفّه وأبعدت يد الطاهي. كان يدفعه، ثم يعود هذا، فيدفعه شبه الحبيب ثانية، ولكن بوهن. ثم توقف. لم تكن هناك شتائم، فلم يقل: «**اغرب عني يا طاهي، ما الذي تفعله؟ أنا لستُ هكذا**». ولم يكن هناك حسّ بالغرابة والمفاجأة بينهما، **فقد** كانت المفاجأة والصدمة مما حدث في المطبخ بين هذين الرجلين من نصيبي أنا وحدي. وبعد أن دفع شبه الحبيب الطاهي توقّف وأمسك بذراعي هذا الرجل، وظلّ يحتضنهما فيما هو مغمض عينيه. انحنى عليهما، في وسط صدر الطاهي، فيما انحنى الطاهي حتى صار وجهه في شعر شبه الحبيب. تأوّه أحدهما، ثم سمعتُ «دعك من هذا. لقد انتهى الأمر يا طاهي. دعك من هذا»، غير أنّ الطاهي حين أفلت قبضته كي يبتعد، ربما كي يدع الأمر، رفع شبه الحبيب وجهه وجذبه إليه ثانية.

وهنا تراجعت إلى الصالة، فلا يمكن أن أستمر. كنت أعرف ما سيحدث ولم يكن يصحّ أن تراه عيناي أو تسمعه أذناي. ثم قلت لنفسي لحظة. ماذا تقصدين بقولك لا يصحّ أن تراه عيناك أو تسمعه أذناك؟ أوليس هذا شبه حبيبك الذي قال لكِ «**أنت تربكينني يا شبه الحبيبة، ويصعب التنبؤ دائمًا بأفعالك، ومن المستحيل التواصل معك**»؟ ولكن منذ متى؟ منذ متى وهما...؟ خطر لي أنني سأهوي في حالة من صعوبة الفهم لكنني أفهم الوضع تمامًا في الوقت نفسه. والآن وقد توقفا عن الغمغمة خمّنتُ أنّ هذا يعني، رغم أني لم أجرؤ على النظر، قبلة غوتييه الثانية في هذه الليلة. بعد ذلك عادت الغمغمة. قال شبه الحبيب: «الشخص الخطأ»، وكان يقصدني، فردّ الطاهي: «... من أجلك، كله من أجلك، فعلت ذلك من أجلك لأنني...». «فزعتُ. كان هذا خطرًا. شديد الخطورة... يا لي من أبله!... أبله جبان!...

ماذا لو قتلوك!... لو أنهم كلهم... كان يمكن أن تموت ولن أستطيع أبدًا أن—». لا أدري أيهما قال هذه الجملة الأخيرة. ولم أكن أدري هل تستطيع ساقاي أن تحملاني إلى الباب الأمامي. في أثناء ذلك ظللت في مكاني مستندة على الجدار إلى جانب المطبخ في صالة شبه الحبيب، والباب الأمامي مكسور. ولم أعرف أو حتى أهتم بالسبب الذي أدى إلى كسر الباب وبعثرة الأغراض. أما بالنسبة إلى المشاجرة الهاتفية، أقصد مشاجرتنا الأخيرة **بالأخذ في الاعتبار أنه هو والطاهي... ما داما هو والطاهي...**، تُرى لأي سبب كانت المشاجرة حقًا؟ لقد بالغت في اعتقادي بأنّ شبه الحبيب شفّاف بسيط يخلو من الخداع، لا يهتم بحماية قلبه، لكنه الآن هنا يؤكد للطاهي ولي أنه هو أيضًا «قبل بالأقل» واختار الشخص الخطأ إيثارًا للسلامة بدلًا من أن يختار الشخص الصحيح. قلتُ في نفسي كم كنت بلهاء، إذ كنت أظنّ أنّ بمقدوري حماية نفسي، وأظنّ أنني كنتُ آمنة من الوقوع في تصنيف الزوجة الخطأ حين آثرت البقاء في تصنيف «الشبه»، وقد تبيّن الآن أنّ الإنسان قد يُصبح مستهلكًا للغاية وهو ما يزال في هذا التصنيف. أشرقت عليّ حقيقة فظاعة ألّا يكون المرء خدِرًا، أي حين يدرك، حين يمتلك الحقائق، حين يقاسي الحقائق، فظاعة أن يكون حاضرًا، وأن يكون بالغًا مسؤولًا. وبينما كان شبه الحبيب يكرّر أنه كان أبله، وبينما كنت أنا أقرّع نفسي أيضًا على بلاهتي، أعادنا الطاهي إلى أرض الواقع حين ألحّ في أمر المستشفى مرة أخرى.

لقد تغيّرتْ نبرته. باتت حادة، جادّة، آمرة. حتى عندما قال شبه الحبيب: «لقد عادت تقريبًا، أصبحت تقريبًا طبيعية. انظر، عيناي تتعافيان. حتى أنني أستطيع أن أرى القليل». إلا أنّ الطاهي قال: «سنذهب. دقيقة فقط حتى أرتدي قميصًا آخر». فزعتُ، إذ إنّ الطاهي كان على وشك الدخول إلى الصالة كي يصعد إلى الطابق الأعلى - **وهل يحتفظ بقمصانه هنا؟ بالطبع يحتفظ بها**

هنا! - سيكتشف وجودي، وقد أرعبني هذا لأنّ الطاهي صار يخيفني، إذ لم يعد الرجل الذي كنت أعرفه. ولكن، كيف كنت أعرفه؟ فلم أوله أي اهتمام من قبل. لم يكن في نظري شخصًا ودودًا، لكنّ ذلك لم يزعجني لأنه لم يكن على قائمة الأشياء المهمة أصلًا. لكنه لم يكن غير مؤذٍ. أصبحت أدرك الآن أنّ هذا الرجل يمكن أن يكون مؤذيًا. فبالنظر إلى ولعه فيما يخص الطعام، كيف تُراه يكون فيما يتعلق بالرجل الذي يريده؟ ثم خطرت لي السكّين، سكينه، المدمّاة، في المجلى، ما تزال مدمّاة. خطر لي أيضًا أنني قد أفقد وعيي رغم أني لم أفقد وعيي قط. لكنني كنت دائخة، وارتفعتْ حرارتي، ووكف مني العرق. ثمة طنين أيضًا، يشبه سرب الحشرات، من حولي أو في داخلي، إضافة بالطبع إلى تلك الرعدات التي باتت مألوفة الآن، وأصبحت تتمدّد أعلى عمودي الفقري وأسفله وفي ساقيّ. ثمّ نَمت إلى سمعي أصوات أكثر، أصوات حميميّة، من داخل المطبخ، تأوّهات تشي بالمزيد من قبلة غوتييه على أقل تقدير. قال أحدهما حينها: «يا زوجي»، تلاها قول: «ما رأيك أن ننهي الأمر؟ ولماذا نبقى هنا أصلًا؟ دعنا نذهب إلى أميركا الجنوبيّة. لنذهب إلى بيونس آيرس، أو كوبا! لنذهب إلى كوبا. أنا أحب كوبا. ستعجبك كوبا». فرحتُ أفكر: **زوجي! كوبا! هيا نذهب!** بينما لم نستطع أنا وهو أن نتجاوز شبه العلاقة أو نصل حتى إلى الطريق المؤدية إلى شارع المصابيح الحمراء.

مضيتُ دون أن يراني أحد، عبر تلك الصالة المبعثرة إلى الباب المكسور، مشيت ثم انعطفت مع المنعطف. لم يعرفا قطّ أنني كنت هناك، لكنني فيما كنت أمشي تصوّرت في ذهني بعض الاحتمالات. ماذا لو عدت. ماذا لو حَدث كالمعتاد، كما لو أن الأمر طبيعي، فأعطّلهما، إذ أدخل مع الباب الأمامي وأصدر صوتًا ينبئ بمجيئي حين عودتي مجددًا؟ سيظنّان أنني أتيت الآن فقط. سألاحظ الباب المكسور وأصرخ فورًا لشبه الحبيب السابق.

سيكون لدى شبه الحبيب السابق والطاهي متسع من الوقت كي يتباعدا جسديًا. سيرتّبان وضعهما على عجل قبل أن أدخل. وسوف يصرخ شبه الحبيب السابق: «أنا هنا في المطبخ يا شبه الحبيبة». سأدخل ولن يكون هناك ما يستدعي الشرح. صديقان في المطبخ، والسكين في المجلى لا تُرى. لكنّ عيني شبه الحبيب السابق ستبقيان وكذلك الدم مثلما رأيتها في المرة السابقة. سيلحّ الطاهي على الذهاب إلى المستشفى، ويرفض شبه الحبيب السابق. لن يحدث بينهما شيء حميمي، أو لمسة حانية، ولن تحضر تلك الحدّة في النظرة، لن يتلامسا. سأشهق، ربما أصرخ، وأجري نحو شبه الحبيب السابق كي أحتضنه. «ما الذي حدث، يا شبه الحبيب؟ ربّاه! ماذا حدث؟» ثم سيخبراني، أو سأستشف، أنّ كارهي المثليين في المنطقة هاجموا الطاهي مجددًا، أي أننا سنغضي عن هذا الأمر، سنرتجل التعامل مع الموقف، وسنبقي الأمر مبهمًا وخادعًا. لن تكون هناك أقوال متضاربة، ولن يكون في الأمر ما يريب. فلم يحدث شيء سوى مهاجمة الطاهي والدفاع عنه، كالعادة. أما الذي لن يقولاه، ولن أقوله أنا، ولم أقله قط فهو: «ربما حان الوقت لكي نتحدث بصراحة نحن الثلاثة».

إذن لم تحدث مشاجرة، ولا تصفية حسابات، ولا استعراض مثالب، ولا اتهامات متبادلة. لا صراخ، ولا عبوس. لكنني كنتُ أعرف أنني لن أرى شبه الحبيب السابق أو أدخل بيته مرة أخرى. وفيما كنت أسير في الظلام متجهة على ما يبدو إلى موقف سيارات الأجرة، لم أعد أشعر بساقيّ، تمامًا كما حدث حين غادرت متجر المقليات. كنتُ أرى ساقيّ، وأرى الأرض، لكني لا أشعر بأي صلة بها. مددتُ يديّ إلى فخذيّ، تلمّستهما، ضغطت عليهما، وكنتُ أفعل ذلك خلسة لأنني كنتُ أشعر دائمًا أنني مُراقَبة.

ولكن لم يكن ثمة غضب داخلي. لم أشعر بالغضب. رغم أنني قلت لا

بد أنّ الغضب جاثم، تحت هذا الخدر. غضبٌ تجاه شبه الحبيب السابق. غضبٌ تجاه الطاهي. غضبٌ تجاه الصهر الأول على اختلاق تلك القصص، ثم إشاعتها، بما فيها الإشاعة الأخيرة عن حماقتي في خيانة مِلْكْمَن في وضح النهار مع الشاب الذي يسكن في الطرف الآخر من البلدة. غضبٌ من الأقاويل، ومن صَقل الناس لقصص الصهر الأول، ومن اختلاقهم قصصًا أخرى. غضب من المذلّين المتعضين مني وباعة متجر المقليات وكل باعة المتاجر الذين سيشعرون مع الوقت بضغط كي يقدموا لي ما يعتقدون أنني أرغب في اقتنائه من أغراضهم دون مقابل. لم يعد موجودًا، فقد اختفى ذلك الغضب، ومثلما كنت أرى ساقيّ ولا أشعر بهما، وأرى الأرض ولا أشعر بأني أمشي عليها، بدا كما لو أنه لا يحقّ لي أن أغضب لأنني لو تدبرت الأمر على نحو مختلف لما بات هذا خطئي الآن. لو أنني فعلت كيت وكيت بدلًا من كذا وكذا، لو أنني ذهبت إلى هناك بدلًا من هناك، ولو قلت كذا بدلًا من كذا، لو بدوتُ بشكل مختلف، لو لم أخرج من المنزل ومعي «**آيفانهو**» ذلك اليوم أو تلك الليلة أو ذاك الأسبوع أو تلك الساعة خلال الشهرين الأخيرين، لما جعلته يلمحني ويرغب في امتلاكي. حينها تعثّرت، فإذا الفان الأبيض ذاك يقف بمحاذاتي. فُتح باب الراكب فسيطر عليّ مرة أخرى شعور «**لن أذهب إلى ذلك المكان المرعب**».

ركبتُ السيارة كما لو كان أمرًا طبيعيًا، كما لو أنها ليست المرة الأولى التي أركب فيها هذا الفان العادي المهمل، وهو المركبة الأهم في المنطقة. وقبل أن أغلق الباب، مال على بعد مليمترات مني، دون ملامسة، دون نظرة، فَسحب الباب من جهتي كي يغلقه. أخذ كاميرا طويلة من مقعد الراكب، ووضعها في تلك المساحة الفارغة بيننا. في ذلك المكان أيضًا بضع علب أدوية صغيرة تحوي العديد من تلك الأقراص السوداء اللامعة ذات النقط

البيضاء، وإحداها ما تزال في حقيبة يدي. بعد إغلاق الباب، عاد إلى مقعده وشغّل المحرّك. ثم مضينا، معًا، مثل حبيبين عاديين. الغريب أنني بعد كل ما حدث، بعد تأكيدي على قول «**يجب ألّا أركب سيارته**»، بعد التحذيرات، لا من نفسي فحسب بل كذلك من الصديقة الأقدم من المدرسة الابتدائية «**مهما حدث، يا صديقة، لا تركبي سيّاراته**»، كنت أتخيّل أنني بمجرد أن أضع قدمي على تلك السدّة - وكنتُ قد تخيّلت قبل شهرين - سوف تهتاج مشاعري وأنفعل. لكنني كنتُ هناك الآن، بلا اهتياج، ولا عواطف. حدث هذا الشيء، فطالما كنت أعرف أنه سيحدث، وطالما أخبرني أنه قادم وسوف يحدث. هذه البداية الآن. فما الذي يدعو إذن إلى الهياج والانفعال؟ لم يتبق سوى أن أدخل، وأنتهي من الأمر. لم أكن أقول لنفسي بوعي **فليأخذ جسدي إذن، إذ كان يعرف طوال الوقت أنه سوف يأخذه ولا يمكنني أن أمنع ذلك، لا يمكنني أن أمنعه من أخذ جسدي**. ولا كنتُ أقول أنني هنا الآن فليحدث لي ما كان ينبغي أن أقبل حدوثه منذ وقت طويل. بل كنتُ في تلك المرة كما لو أني تحت تأثير نوع من التنويم المغناطيسي، في حالة من الوهن. كان شبه الحبيب السابق قد قال: «لا أعرف يا شبه الحبيبة... لكني حين أنظر إلى وجهك يتراءى لي أنّ حواسك تختفي أو ربما اختفت أصلًا». تعلق بعض الأشياء في الذهن، وقد علق في ذهني كلامه هذا. ليته لم يتحدث عن هذا الانحسار الذي حلّ بوجهي.

قال مِلْكمَن وهو ينظر إلى الأمام كعادته: «انتهى الموضوع. تولّيت أمره». كان صوته هادئًا، متأنيًا، غير مريح. ثم بدا في ما قاله بعد ذلك ممتنًا، بل متفاجئًا. «لم يكن مُتوقعًا. لا بدّ أنهم لم يتوقعوا مجيء صاحب الأسلحة ذاك بسكاكينه. لكن الأمر سينتهي عند ذلك. سيدعون الأمر الآن، سيدعونه وشأنه. أما الآخر صاحب السيارات - رفيقكِ السابق - فسيكون بخير. لن

يتحمل عواقب وخيمة من مسألة العلم أو الوشاية بعد الآن. لقد استخففتِ به، أليس كذلك؟ ألم يكن شبه حبيب؟ لا داعي للقلق الآن أيتها الأميرة. لم يعد علينا أن نشغل بالنا بأمره بعد الآن».

أوصلني إلى البيت دون أن يقوَل شيئًا آخر، ودون أن ينظر إليّ، إلى أن وصلنا إلى باب بيتنا. كان من الذكاء أن لا يتكلم خلال هذا المشوار، ومِلْكْمَن كان ذكيًا دائمًا. تلك هي أفضل تهيئة، فقد خلق الجوّ الأمثل كي أتلقى كلماته الأخيرة. لقد قاد السيارة من منطقة شبه الحبيب السابق، مرورًا بوسط البلدة، ثم إلى منطقتنا، محافظًا على الجغرافية الصحيحة، إذ عبر من كلّ معالمي. بعد ذلك مرّ من الطرق المحايدة ثم دخل منطقتي ووقف عند باب منزلنا وكأننا حبيبان. أدركتُ أنّ المفترض بي أن أشعر بالصدمة، بالغضب، بالذهول على أقل تقدير، عوضًا عن ألا أكون متفاجئة حتى من كوني في سيارة سيئة السمعة كهذه، أجلس على بعد بوصات من رجل سيئ السمعة كهذا. ولكن لم يكن لديّ أدنى خيار. لا بدائل أخرى. فأنا عزلاء حدّ تشرّب ما تشرّبه الآخرون من البداية بسهولة: أصبحَ اعتباري ملكًا لِمِلْكْمَن أمر لا مفر منه.

أطفأ المحرك، في ذلك الظلام، ونحن ما نزال في فانه، واستدار ناحيتي. أخيرًا شعرت بتحديقته، تلك التحديقة البطيئة الطويلة وقد صُوبت نحوي، فقد أصبح بمقدوره الآن أن ينظر، بمقدوره السماح لنفسه بالنظر. كان ينظر إلى نجاحه، إلى إنجازه، إلى ملكيّته. أما أنا فكنتُ التي تنظر إلى الأمام هذه المرة. خلع قفازيه وقال: «جيد جدًا. ممتاز»، لكنه ربما كان يتحدث إلى نفسه لا إليّ. ثم مال ورفع أصابعه صوب وجهي. توقف في وسط الفراغ بيننا، باتت أصابعه ساكنة تمامًا، وقريبة جدًا. ثم غيّر رأيه وتراجع. عاد إلى مقعده، ثم تفوّه بكلماته الأخيرة. قال إنني جميلة، وهل أعرف أنني جميلة، وينبغي

أن أثق تمام الثقة بأني جميلة. قال إنه أعدّ بعض الترتيبات، وإننا سنذهب إلى مكانٍ جميل، ونفعل شيئًا جميلًا، وإنه سيأخذني إلى مكان رائع بمثابة مفاجأة في موعدنا الأول. قال إنّ درس الإغريق والرومان سيفوتني بسبب موعدنا لكنه واثق من أنني لن أبالي بتفويت درسي هذه المرة. وهل أحتاج حقًا إلى كل دروس الإغريق والرومان تلك؟ هذا شيء سنقرر فيه لاحقًا كما قال. قال بعدها إنني ما دمت أعيش في بيت أسرتي، فسوف يأتي إلى بابي لكنه سينتظر في الخارج كي أخرج إليه. قال إنه سيأتي عند السابعة في الليلة التالية في واحدة من سياراته. «ليست هذه»، وذكر بدلًا منها واحدة من سياراته ذات الأسماء الألفبائية العددية. أما أنا - وهنا كان يقصد ما يمكنني فعله من أجله، من أجل أن أسعده - فيمكنني أن أخرج في الوقت المحدد ولا أتركه ينتظر. كما يمكنني أن أرتدي شيئًا جميلًا. «ليس بنطالًا. بل شيئًا فاتنًا. فستانًا رقيقًا، أنثويًا، أنيقًا، جميلًا».

الفصل السابع

في حياتي كلها لم أرغب أن أصفع شخصًا في وجهه إلا ثلاث مرات، ومرة واحدة هي التي أردت فيها أن أضرب شخصًا بمسدس في وجهه. حقّقتُ رغبة المسدس لكنني لم أصفع أحدًا قط. من بين الوجوه الثلاثة التي أردت صفعها وجه الأخت الكبرى، يوم هرعت إليّ في اليوم المعلوم لتخبرني بأنّ قوات الدولة قد أطلقت النار على مِلْكْمَن فأردته قتيلًا. كانت تبدو جذلة، متحمسة لموت هذا الرجل الذي ظنّته عشيقي، هذا الرجل الذي ظنت أنّ أمره يعنيني. تفحّصتْ وجهي لترى كيف سأتلقى الخبر، لكنني حتى في تعنّتي -الذي عزلني، في مواجهة مِلْكْمَن والشائعات عنّي وعنه، في مكانٍ سحيق محصور لا يشبه أي مكان آخر كنت فيه من قبل - كنتُ أدرك أنها غير واعية بنفسها في تلك اللحظة. قلت في نفسي ربما ظنّت أنّ هذا سيلقنني درسًا. ليس على إثر المشهد السياسي وما يمثّله هو في هذا المشهد. ولا بسبب ما يمثله قَتَلته الأعداء. لم يكن ذلك يعنيها. بل كل ما في الأمر أنها لا تريد أن أحظى بما حرمت نفسها منه منذ وقتٍ طويل. إذ لا بد أن أكون مثلها راضية، أتدبر أمري، ليس مع الرجل الذي أتوق إليه كما تظن، ليس مع الرجل الذي أحببته وفقدته كما أحبّت وفقدتْ، بل مع أي بديل غير مرغوب فيه قد يأتي الآن، بعد مِلْكْمَن بالطبع. كانت تبدو في حالة انتقال من حالة الأسى الذي سارت فيه دهرًا. لكنني لن أدعها تنتقل على حسابي. كفّي عن سعادتك، ليس في الأمر ما يسعدكِ... صفعة! هكذا كان ردّي عليها في عقلي. أما الرد الواقعي، حتى وهي تتحرّق إلى ردة فعلي، فكان أن أبقيت

تعابير وجهي بعيدة، تكاد تكون منيعة، وقد أصبحتْ هذه عادتي. بعد ذلك، قلتُ لها بعاطفةٍ مزيّفة تكفي للإيحاء بذلك الشعور لحظةً واحدة، مجرد لحظة أشير فيها إلى فضول خاطف: «تبدين كما لو أنكِ في حالة من النشوة الجنسية الآن».

جذلها - ولم يكن جذل المنتصر المقزّز الذي قد يشعر به البعض ممن يستحقون الصفع على وجوههم، بل جذل امرأة وجدت نفسها أخيرًا وفجأة حية في غمرة هذه الفظاعة، في حين أنها في الوضع الاعتيادي تشعر بأنها ميتة تمامًا - حسنًا، تلاشى ذاك الجذل، وكنتُ أعرف أنه سوف يتلاشى، فقد أصبتُها في المكان الذي أردتَه، حيث تعمّدتُ أن أصيبها، في قلبها. كنتُ سأصاب في المكان نفسه أيضًا لو أنها أو أي أحد آخر قال لي تلك الكلمات. عندها صَفَعَتني، وكانت ضربة مرتدّة لأنني دخلتُ مكانًا لم يكن من حقي أن أدخله، ورغم أني كنتُ أرى لنفسي الحق في أن أردّ الصفعة، إلا أنني لم أفعل، لم أستطع. بعد ذلك الشعور الأوليّ بالرضا الذي انتابني حين صدمتُها، وحين أشعرتُها بالخزي من انتصارها، ندمتُ على ما قلته. يكفي إذن. كنتُ أريدها أن تذهب، أن تحمل نفسها وزوجها الذي رضيتْ به وافتراءاته القذرة التي تسببت في كل شيء، وتغادر. لم تكن الأمور على ما يرام بيننا، إطلاقًا.

ذهبت، محمّلة بالأسى مرة أخرى، تقف عند أقدام الصليب كما كانت، أما الجذل فلم أشعر بشيء منه. لم أكن سعيدة لموته، لم أكن مسرورة، أو ربما كنتُ مسرورة، ولماذا لا أكون مسرورة؟ ما أعرفه هو أنّ شعورًا بالارتياح تدفّق في داخلي بغزارة لم أشهد لها مثيلًا في حياتي. كان جسدي يصيح: **مرحى! لقد مات. مرحى مرحى!** رغم أنّها لم تكن الكلمات الفعلية في عقلي. الحقيقة أنّ ما كان في عقلي حينها هو ربما سأنعم بالهدوء الآن، ربما سأتحسّن، ربما سيضع هذا حدًا لكل ذلك القلق من قبيل **عسى ألا يكون مِلْكَمَن، أرجو**

ألا يكون مِلْكْمَن. لم أعد مضطرة إلى مراقبة ما حولي وأنا أتوقع أن أستدير فأراه إلى جانبي، لا مزيد من التعقّب، لا مزيد من التجسس، والتصوير، وإساءة التصوّر، لا مزيد من الشعور بأني محاصَرة، مُترقَّبة. لا مزيد من تلقي الأوامر. لا مزيد من الاستسلام كما حدث في الليلة الماضية عندما انهزمتُ بما يكفي، حين بتّ لا مبالية بقَدَري إلى حدّ أنني ركبت سيارته. والأهم من ذلك كله أنه لم يعد ثمة قلق من مقتل شبه الحبيب السابق في سيارة مفخّخة. كنت واقفة في مطبخنا أهضم هذه النتائج، حين استوعبت كيف شلّني هذا الرجل وألقاني في عَدَمٍ شيّده بحرص شديد. وقد ساهمت الجماعة أيضًا في هذا، إضافة إلى المحيط النفسي، وكل تفاصيل ذلك الغزو. فيما يتعلق بموته، فقد نصبوا له كمينًا في الصباح فيما كان يقود ذاك الفان الأبيض خارج منطقة الحدائق والسدود، ما يعني أنهم بعد ست محاولات فاشلة، نالوا أخيرًا من هدفهم. فقد أصابوا قبله زبّالًا، وسائقَي حافلات، وكنّاسًا، وحلّابًا حقيقيًا، الذي كان حلّابنا، ثم شخصًا آخر لا علاقة له بالمهن أو الخدمات. وكلّ هؤلاء أصيبوا عن طريق الخطأ، إلى أن أصابوا مِلْكْمَن أخيرًا. بعد ذلك تجاهلوا الإصابات الخاطئة وضخّموا الإصابة الناجحة، كأنهم لم يطلقوا النار إلا على مِلْكْمَن وحده كل ذلك الوقت.

غير أنّ بعض وسائل الإعلام التي تنتقد الدولة لم تكن على استعداد للتغاضي عن الأمر. فكتبتْ بعض العناوين مثل: «**إطلاق نار على حلّاب خطأ**»، و«**أيها الجزّار والخبّاز والشمّاع**[1]، **انتبهوا**». تلت ذلك تقارير ومِنشورات تذكّر الدولة بإخفاقاتها الأخرى، تذكّرها بفسادها، بقدرات جيشها السري، بإطلاقها العشوائي، بحالتها الشعثاء المتجاوزة للأعراف

---

(1) إشارة إلى عبارة مقتطفة من أهزوجة الأطفال «Rub-a-dub-dub» يعود أقدم توثيق نصّي لها إلى عام 1798م، في كتاب لجيمس هوك، يكنّى بها عن أي مهنة.

تجاوزًا بيّنًا. أخيرًا ردت الدولة بإقرار أنْ نعم، استهدفتْ بعض الأشخاص بالخطأ بغية الأشخاص المطلوبين، وأنّ هذا خطأ مؤسف قد ارتكبوه، ولكن ينبغي أن نضع الماضي وراءنا إذ لا فائدة من الخوض فيه. والأهمّ، رغم الأخطاء والخسائر البشرية غير المقصودة، تودّ الدولة أن تقول لكل شخص سليم التفكير أنّ في وسعه أن يطمئنّ الآن، فقد قُضي على قائد مناوئ إرهابي. قال المتحدث باسم الدولة: «لن نلجأ إلى لغةٍ مواربة أو حيل لغوية مخادعة أو سعادة وحشيّة، لكننا نعتبر أنّ هذه المهمة قد تمّت على أكمل وجه». لم تكن شماتةً أو غطرسة بالنصر لأنّ الغطرسة لم تكن الدرب الذي تقرّه باقة التصريحات العامة. والأمر لا يقتصر على التصريحات العامة، فحتى أنا حين كنت أسمع الأخبار، وفي ذهني حيث لا يمكن لأحدٍ أن يراني كما أنا، وخوفًا كذلك من اعتباري خائنة أو متحجرة القلب، حاولتُ ألا أكون سعيدة. لكنني ظللتُ أفكر في نجاتي مما كان يخطّط له وكنتُ سعيدة، وسعيدة أيضًا لأنّه لا توجد أضواء إعلامية مسلّطة عليّ في تلك اللحظة.

تصدّر خبر موته العناوين، لكنّه لم يكن الخبر الوحيد. فبعد أن أصابوه، وأصابوا الأشخاص الستة الذين استُهدفوا خطأً، أعلنوا، بالإضافة إلى سنّه ومحلّ إقامته وكونه زوجًا لفلانة وأبًا لكذا وكذا، أنّ الاسم الحقيقي لِلْكْمَن [حلّاب] كان مِلْكْمَن [حلّاب] فعلًا. كان هذا صادمًا. صاح بعضهم: «مستحيل أن يكون هذا صحيحًا. غير ممكن. غريب. بل سخيف أن يكون اسمه مِلْكْمَن». لكنّكَ إن فكّرت في الأمر فلن تجد شيئًا غريبًا. فهناك اسم بُتشر [قصّاب] وويفر [حايك] وهَنتر [صيّاد] وبلييَر [لاعب] وروبر [حبّال] وكليفر [ساطور] وميسن [بنّاء] وثاتشر [سقّاف] وكارفر [نحّات] وبلانتر [زارع] وترابر [فخّاخ] وتيلر [صرّاف] ودولِتل [هامل] ونَن [راهبة]. وبعد سنوات صادفتُ شخصًا يُدعى السيد بوستمن [بوسطجي] رغم أنه

كان يعمل مكتباتيًا. إذن فقد كانت هذه الأسماء منتشرة للغاية. ولكن تُرى ما رأي جيسن ونايجل، القيِّمَين على أسمائنا، في مسألة قبول اسم مِلْكْمَن؟ والأمر لا يقتصر على جيسننا ونايجلنا، فماذا عن القيّمين والقيّمات على الأسماء في المناطق المناوئة الأخرى؟ بل حتى روشين وميري القيّمَين ربما على الأسماء المحظورة في مناطق المناوئين في «ما وراء الطريق»؟ واصل القَلِقون في تلك الأثناء نقاشهم في أصل اسم مِلْكْمَن. هل هو منّا؟ أم منهم؟ من وراء الطريق؟ أم من وراء البحر؟ أم من وراء الحدود؟ هل ينبغي أن يُسمح به؟ هل يُمنع؟ يُهمل؟ يُسخر منه؟ ما الرأي؟ قال الجميع بحذر وتوجّس بعد تفكير مليّ: «**هذا اسم غير مسبوق**». قالت نشرات الأخبار إنه يتجاوز حدود المصداقية، ولكن هناك الكثير من الأشياء في حياتنا تتجاوز حدود المصداقية. وفهمتُ لاحقًا أنّ الحياة إنما تقوم على تجاوز المصداقية. مع ذلك، فقد عملت هذه الأخبار عن اسم مِلْكْمَن على تشويش الناس وخداعهم وإفزاعهم، دون أدنى مفرٍّ من إشعارهم بالخجل. حين كان «الحلّاب [ذا مِلْكْمَن]» اسمًا مستعارًا، حركيًا، كان ينطوي على إمكانية مسرحيّة، غامضة، مثيرة. فلما نُزعت عنه الرمزية وبات اسمًا عاديًا يوميًا رتيبًا كبقية الأسماء ذهب كلّ ما فيه من احترام جناه حين كان اسمًا حركيًا لعضو رفيع في الجماعة شبه العسكريّة. لجأ الناس إلى أدلّة الهواتف والموسوعات وقواميس الأسماء ليتأكدوا ما إذا كان هناك أحد في العالم كله اتخذ اسم مِلْكْمَن من قبل. وظلّ العديد منهم عالقين، حائرين، دون شيء يساعدهم عدا التخمين في وسائل الإعلام والأحياء، يحاولون أن يعرفوا من يكون مِلْكْمَن هذا. هل هو الفرد المَناوئ المخيف كما كان يره الجميع؟ أم أنّ السيد مِلْكْمَن المسكين هذا لم يكن سوى ضحية بريئة أخرى من ضحايا الدولة دون أدنى علاقة له بالمناوئين؟

أيًا ما كان وأيا ما كان اسمه، فقد رحل، فرحتُ أفعل ما أفعله في حالات

الموت: أن أنساه. أما كافة أنواع الفوضى - حتى بمعنى المفردة القديم، أي مسلخ [قبل أن تكتسب لاحقًا معنى الفوضى][1]، أي المجزَر، أي منزل الدم، أي الملحمة، أي تجارة الموت المعتادة - فقد اندلعت ثانيةً كما كانت. قرّرتُ أن أفوّت درس الفرنسية هذا المساء، فتجمّلت وتأنقت بغية الذهاب إلى النادي. أقصد النادي الألمع، النادي المكتظّ، الأشهر بين النوادي الأحد عشر الموجودة في منطقتنا الصغيرة، فحين يتعلق الأمر بالخروج تكون نوادي الشرب هي المكان المرغوب طبعًا، الأماكن التي تودّ الذهاب إليها حين تشعر بدفقة نشاط وخمول في الوقت نفسه، وحين تشعر بحاجة إلى الكحول أيضًا.

لم يمض وقت طويل على وصولي حتى تركت رفقاء الشرب كي أذهب إلى المراحيض. لم أتحدث عن حادثة القتل مع هؤلاء الأصدقاء وهم بدورهم لم يقولوا شيئًا عنها. كان هذا أمرًا طبيعيًا؛ فثمة أصدقاء تشرب معهم وأصدقاء تكاشفهم. وكانت لديّ صديقة واحدة أكاشفها، لكنّ جلسات الشرب لم تكن من أجواء الصديقة الأقدم منذ المدرسة الابتدائية. دفعتُ باب المراحيض، وبينما كنتُ أدخل، دفعه من خلفي ذاك الرجل الذي كان في واقع الأمر صبيًا، فلان الفلاني. فبعد أن تخلّى في علاقة اللاعلاقة بيننا عن ترصّده الساذج انتقل، مثله مثل بقية لاعقي البصاق في المنطقة الذين صدّقوا أنّي عشيقته، إلى الركوع والتظاهر بمحبّتي. لكنّ ماما ظلّت تخطئ في تصوّرها عنه. تقول إنه «فتى صغير لطيف. قوي. يُعتمد عليه. يعتنق الدين الصحيح - ولا تنسي رسائل الحب الرقيقة التي يرسلها إليكِ عبر البريد،

---

(1) «Shambles» عنت المفردة في القرن الخامس عشر «ملحمة: سوق لحم»، ثم اشتملت دلالتها في القرن السادس عشر على معنى إضافيًا لتصبح «مسلخ أو مجزر»، هذا المعنى الذي أتاح استخدامها مجازًا للدلالة على «المذابح وسفك الدماء». ثم توسّعت دلالتها لتعني «فوضى» أيضًا في القرن العشرين.

فلماذا لا تواعديه؟ لماذا لا تفكري في الزواج منه؟». لكنّ والدتي التي تتوق إلى تزويجي به، أو تزويجي من أي أحد، قبل أن أصل إلى شيخوخة العشرين، لا تعرف شيئًا عن عصرنا لأنها ما تزال تعيش في عصرها وأهل عصرها، لا تدرك أنه الآن عصري أنا مع أشخاص مختلفين، لكنّ الفتى اللطيف الصغير، فلان الفلاني، اندفع إلى المراحيض خلفي، ودفعني إلى المغسلة. كان يحمل مسدّسًا غرزه في نهدي، فأدركتُ حينها - وكان يخامرني الظنّ في ذلك مسبقًا - أنّ موت مِلْكْمَن لا يعني بالضرورة نهايته. وذلك بسبب حكاياتهم، بسبب اعتقادهم أنّ مِلْكْمَن تملّكني، بسبب غطرستي، ولأنّني فقدتُ الحماية بموته، ولقولهم آنذاك إنني حاولتُ الفكاك من العقاب بسبب خيانتي إياه مع ميكانيكيّ سيارات، ولأنه بعد أي وفاة عامة لا شخصية ثمة مكان دائمًا لشيءٍ من الفوضى. لكلّ هذه الأسباب إذن يبدو أنّ المتطرفين في المنطقة استمرؤوا أخذ الشائعة إلى مساحة أخرى تمامًا، فأصبحتُ أنا، لا فرقة اغتيالات الدولة، من رتّب لقتل مِلْكْمَن. يختلق الناس أي شيءٍ حتى لو كان في أقصى حدود العبثيّة والتناقض. ثم يصدّقون ما اختلقوه ويبنون عليه. بالنظر إلى ذلك الزمان والمكان، ربما كنت حقًا مخيفة وأنا أتمشّى مرهبة الجيرة بقصة «كيف تشاجر إيفان إيفانوفيتش وإيفان نيكيفوروفيتش»[1]، لكنّ الأمر لم يقتصر عليّ وحدي. فغيري الكثير أيضًا ممن لديهم سلوكيات غريبة الأطوار، العديد من الآخرين، كانوا قطعًا مخيفين هنا.

والآن وقد عاد فلان الفلاني إلى شخصيته الترصّدية السابقة، فقد بدا أنه يستغلّ موت مِلْكْمَن ليضرب ضربته ويستعيد ما فقده. وقد فوجئت بأنه

(1) عنوان قصة من قصص نيكولاي غوغول نشرها عام 1835م، وكانت آخر قصة في السلسلة القصصية «ميرغورَد» التي بدأها في عام 1832م، وتعني مدينة السلام، وهي مسرح أحداث هذه القصة.

أخذ يخلط كلام الترصّد بشيء من الكلام المضاد للترصّد، ربما لينتزع كبرياءه وسيطرته بعد أن صددتُه مرتين إضافة إلى شعوره السابق بأنه مضطر للركوع وقول: «تفضلي يا صاحبة الجلالة» في كل مرة كنتُ أمر من جانبه بوصفي من ممتلكات مِلْكْمَن. ربما من اليسير عليه الآن أن يعتبرني أنا المتجاوزة والمصرّة على ملاحقته. صاح يقول: «دعينا وشأننا! كلّ ما أردناه منكِ هو أن تدعينا وشأننا. كفي عن ملاحقتنا. كفي عن نصب الفخاخ لنا. ما الذي تخططين له ضدّنا؟ اغربي عنّا. لم لا تفهمي أنك مرفوضة، وأنّ تحركاتك نحونا غير مقبولة، أي أننا نقول لكِ شكرًا لا نريد شيئًا منكِ؟ فأنتِ لا تعنين شيئًا لنا، ولا نفكّر فيكِ حتى، هذا ولا يمكنكِ أن تتصرفي كما لو أنّ لديكِ حصانة، فتواصلين ما تفعلين كما لو أنه لم يحدث شيء، كما لو أنكِ لست من بدأ هذا الأمر، كما لو أنكِ لم تكوني السبب. أنتِ قطّة، نعم، قطة، بل «دوبلير» قطّة! فأنتِ لا ترقين حتى إلى مستوى القطة. ولكن لا تتمادي معنا فهذه مضايقة مشدّدة». كان على حق. تلك مضايقة مشدّدة. قبل ظهور مِلْكْمَن كان قد أرسل رسالة - واحدة من رسائل الحب التي قالت ماما جاهلةً إنه وضعها في صندوق بريدنا - يهدّد فيها بأنه سوف ينتحر في حديقة منزلنا الأمامية، غير أن لا حديقة لمنزلنا. وفي الرسالة الثانية صحّح المكان إلى «عند باب بيتك». والآن في هذه المواجهة في دورة المياه بدا أنّ تهديده المكتوب بالانتحار أصبح تهديدي أنا بالانتحار. فيبدو أنني في رسالتي المسلّمة باليد إليه هدّدتُ بأني سأزهق روحي عند باب بيته كي يشعر بالذنب لرفضه إياي. رحتُ أتساءل في نفسي ما إذا كان كلامه هذا إشارة خفيّة لمخطّطه أن يقتلني في هذه المراحيض. من الواضح إذن أنه كان ما يزال منجذبًا إليّ، ومن الواضح أيضًا أنّ هذا كان يغضبه. لئن كان هناك شيء واحد لا يمكن اتهام فلان الفلاني به، من بين كل الأشياء التي قد يُتهم بها، فهو أنّه يفكّر تفكيرًا بسيطًا. في أثناء ذلك كنت حائرة كيف أردّ على كلامه.

قال: «ليس هذا المكان المناسب يا بديلة القطة»، ثم لم يعرف ماذا يقول وقد تملّكه الغضب كما أظن، فحال بينه وبين أن يكمل ما يريد قوله. لكنّ هذا لم يكن ضروريًا، فمن السهل قراءة ما بين السطور. كان يقصد أنّ نادي الشرب هذا، والحيّ هذا، ليسا مكانًا مناسبًا للمرء كي يجول فيها دون نبذة تعريفية، ودون شهادات قبول، كما أنهما ليسا من الأماكن التي تحدث فيها الأشياء الملائمة. ففي أوقات الصراع الدموي غالبًا ما تسود النزعة إلى الحيوانية والبدائية. قال لا بدّ أن أعرف أنّ كل شيء ممكن الحدوث هنا، وينبغي عليّ أن أعرف أنّ كل شيء ممكن الحدوث هنا ما دمتُ أنا من هنا. كانت أفكاري تضجّ وهو يتحدث، فهذا الصبيّ أحمق لكنه أحمق خطر، يريد أن ينكحني ويريد أن يضربني ويبدو أنه يريد أن يطلق عليّ الرصاص. كما يبدو أنه قد حسم أمره. كنتُ أعرف أنه يريد الانتقام، أنه ظلّ فترةً يربّي تلك الرغبة في نفسه، حتى من قبل أن يظهر مِلْكِمَن. كان قد قرّر أنّ من المفترض أن أكون فتاة لطيفة، بل فتاته هو اللطيفة، لكنّ خطأً ما حدث شتّته وأهانه، ولأنّ مِلْكِمَن وضع عينه عليّ كان لزامًا على فلان الفلاني أن ينسحب ويخفي امتعاضه. لم يكن بإمكانه آنذاك أن يسعى للعدالة. الآن بإمكانه أن يطالب بها. وبالتأكيد، يمكنه حتى أن يحقق هو بنفسه تلك العدالة. أما وقد رحل مِلْكِمَن، وقرر الناس أن يتعايشوا مع هذا الأمر، فما الذي ومن الذي يمكنه أن يقف في وجهه الآن؟

«هل تظنّين أنّ أحدًا هنا يهتمّ بكِ قدر ذرّة لو لقنّاكِ—».

لست متأكدة، بل متشككة مما كان سيقوله بعد ذلك، لأنه لم يستطع أن يتمّ جملته. خطفتُ المسدس منه، أمسكته من ماسورته، من فوهته، من نهايته أيًا ما كان اسم ذلك الجزء لكنني أمسكت به. لم يكن يتوقع ذلك، ولا أنا توقعتُه. عادت إليّ تلك العبارة القديمة «تهوّر. هَجر، نبذٌ لنفسي من نفسي»

كنتُ سأموت على كل حال، لن أعيش طويلًا على كل حال، سأموت في أي لحظة، سأُقتل بوحشيّة، وأدركُ الآن أنّ هذا مدّني بالدافع. منحني منظورًا مختلفًا، وحرّرني من سطوة الخوف. ولهذا السبب لم أكن في خانة الخوف التي ظنّ أنه أدخلني إليها بمسدّسه. هكذا إذن أمسكتُ بالمسدّس ولطمته به في وجهه، أقصد في قناعه، بالمقبض، أو العَقِب أو أيًا ما كان اسم ذلك الجزء. لكنها لم تكن ضربة مُرضية من ضربات المعادن على العظام، كضربة من يُشجّ رأسه، ولم أكن حتى ذلك الحين أدرك أنني متعطشة جدًا إلى ضربة كهذه. كانت ضربة ضعيفة خرقاء، وقبل أن أستجمع نفسي لأضربه ضربة أخرى لكَمَني وخطف المسدّس مني. ثم ضربني به على وجهي، فلم أكن أرتدي قناعًا مثله. بعد ذلك شدّني إلى الجدار وغرس مسدّسه في نهدي.

كان ذلك أقصى ما استطاع أن يفعله، إذ حدث أمر آخر لم يحسب حسابه، لم يضعه في مخططه، وأعني النساء، أي وجود النساء في المراحيض، أي هؤلاء النساء تحديدًا، في هذه المراحيض. أخذت تلك النساء على عاتقهنّ أن يثبن فوق فلان الفلاني، وهذا ما فعله معظمهنّ. سقط المسدس وسط الحشد، ثم سقط مسدس آخر أيضًا. لم يبدُ أنّ أحدًا رفّ له جفن من منظر المسدسين، ولا حتى أنا حين حدّقتُ فيهما. بدا المسدسان مثل أداتين مزعجتين لا أهمية لهما فيما يحدث، أو ربما لا أهمية لهما وحسب. كان وقت الشجار بالأيدي العارية، والكعوب المستدقة، والأحذية الطويلة، وضرب اللحم على اللحم، والعظم على العظم، ضرب حتى تسمع الكسور، وتُسبّب الكسور، كي تفرّغ كل ما فيك من غضب مكبوت. وهكذا أُهمل المسدسان، ولم يرغب أحد فيهما، بل ركَلَتْهما الأقدام مع ركل فلان الفلاني. كنتُ في أثناء ذلك أراقب ما حدث وأنا إلى جانب المغسلة حيث دفعني فلان الفلاني. كنتُ مضطرة إلى ذلك. فكومةُ النساء، وهو في مكانٍ ما وسطهنّ، كانت تحجب الباب الوحيد إلى الخارج.

أوسعتْه النسوة ضربًا، عقابًا على سلوكه، وليس من أجل المسدّس الذي أشهره أو قناع البالاكلافا الذي يرتديه، فالجميع كان يعرف من يكون على أية حال، ولا حتى لأنه هدّدني، أنا المرأة، الواحدة منهنّ. لقد ضربنه لأنه كان رجلًا دخل مراحيض النساء دون استئذان. لم يحترم خصوصية النساء، وتجاهل حساسيتهنّ ورهافتهن، ولم يبدِ ما ينبغي من لباقة في التعامل معهنّ، ولا نبلٍ أو شرف أو فروسية. لقد ضربنه لأنه عديم التهذيب والأدب. وإن قرّر أنْ يدخل عليهنّ وهنّ يضعن حمرة الشفاه أو يسرّحن شعورهن أو يتبادلن الأسرار، أو يغيّرن فوطهن الصحّية، فعليه أن يتحمّل تبعات القرار. وها هي التبعات تتوالى عليه. بعد هذه التبعات، وبعد أن يخبرن رجالهن بما حدث وهو ما سيفعلنه فورًا، سوف تكون هناك تبعات أخرى. ومثلما أنّ فرقة اغتيالات الدولة لم تقتل مِلْكْمَن كي تسدي لي معروفًا بل لأجل مصالحها، فهذه النجدة أيضًا لم تكن لأجلي. مع ذلك فالنجدة تبقى نجدة، أيًا كان الطرف الذي يقدّمها. وهذا يعني أنّ أحدهم أسدى لي معروفًا مرة أخرى، بل مرتين في يوم واحد، فحصلت على امتياز، ونتيجة ثانوية غير محسوبة لكنّها مُقدّرة للغاية. ومن حسن حظي أنني تلقّيتُ هذا المعروف في اللحظة المناسبة تمامًا.

هكذا إذن أوسعنه ضربًا، ثم أنجز عليه رجالهنّ. بعد ذلك سمعتُ، دون أن أسأل، فأنا لا أسأل أبدًا، إذ تأتيني الأخبار وأنا منشغلة بشؤوني، أنه اقتيد إلى محاكمة من تلك المحاكمات الهزلية. كانت هذه المحاكمات تُعقد، هكذا، غير أنّهم حاروا في أمرهم في محاكمته كيف يبدؤون وأي تهمة يوجّهون إليه. ثم تفتّق ذهن أحدهم عن اتهامه بجريمة ربع اغتصاب.

هكذا يفعلون. كان المناوئون في حيّنا يصنّفون كل شيء وفق تراتبية مهووسة موسوعية دقيقة لافتة للنظر، إذ قسّموا كلّ أنواع الجرائم والجنح

الممكنة، وكل السلوكيات المعادية للمجتمع مما قد يقترفه أحد منا نحن أوغاد المنطقة المنحطّين وفسّاقها الآثمين، إلى أن وصلوا في نهاية الأمر إلى ما يمكن وصفه بدليل المالك والمستخدم. فقد أصبحوا بحذلقاتهم وتمييزهم المتطرف كناظر المدرسة المهووس بتوافه الأمور، إلا ما يتعلق بقضايا النساء طبعًا. فقضايا النساء محيّرة، متطلِّبة، مزعجة ونكِدة، إذ إنّ أي شخص يملك ذرة من الفهم يدرك أنّ النساء ذوات القضايا - مثل النساء اللائي كنّ يلتقين أسبوعيًا في السقيفة الخلفية - غريبات الأطوار تمامًا. ولكن في تلك الأيام، مع اقتراب الثمانينيات، كان ينبغي مداهنة النساء ومجاراتهن. فمع دعوات التمركز حول الأنثى وإدماج الإناث، في زمن المرأة هذا والمرأة ذاك وما إلى ذلك، وكلّ ما قيل عن تحقيق المساواة بين الجنسين آنذاك، بدا أنّه يمكن للمرء أن يحدث فضيحةً عالمية لو أنه لم يخرج من بيته ويشير إشارة لطيفة على الأقل إلى أفكارهنّ الرعناء المخبولة. لهذا السبب تحمّل المناوئون ورضخوا وهم يسعون لمجاراة ما تدعو إليه النساء المتجاوزات للأعراف. وأخيرًا ظنّوا أنهم فعلوا ذلك حين اخترعوا تقسيمًا لجريمة الاغتصاب، ما يعني أنه في حيّنا يمكن أن تكون هناك جريمة اغتصاب كاملة، أو ثلاثة أرباع اغتصاب، أو نصف اغتصاب، أو ربع اغتصاب، وهذا أفضل من أن يُقسَم الأمر فيما يتعلق بالاغتصاب إلى قسمين على حدّ قولهم، أي أن يكون هناك «اغتصاب» و«لا اغتصاب»، ذلك أنّ هذين التصنيفين كان معمول بهما في معظم المقاطعات ومحاكم بلد الاحتلال المضحكة. قالوا: «نحن متقدّمون بأشواط عليهم»، وكانوا يعنون باعتبارات حداثيّة، ضمن توليهم للصراع ومواكبة التقدمية الجندريّة. «نحن نأخذ الأمور على محمل الجد». قالوا، وقد كانوا يشيرون إلى هذا تحديدًا بقول «الاغتصاب وما شابهه من هراء». لستُ أختلق هذا. هم الذين اختلقوه. قالوا هذا ممتاز، سيكون كافيًا، أي للنساء، أي لتحقيق العدالة للنساء ذوات القضيّة، والنساء عديمات القضايا،

فلم تكن لكلّ النساء قضايا. وبهذا أصبحت جريمة ربع الاغتصاب الاتهام الجنسي التلقائي في حيّنا.

وهكذا أُدين فلان الفلاني بتهمة ربع الاغتصاب لأنه اختلس النظر في مرحاض النساء، رغم أنّ أولئك النساء لم يشرن إلى الاغتصاب ولم يطالبن بأن يعترف المذنب بهذا الجرم. وقال المناوئون إنّ الأمر جدّ، وأنهم يريدون أن يسمعوا دفاع فلان الفلاني عن نفسه. غير أنها كانت مجرد لعبة، وضعوا مزيدًا من دمى الجنود في ميدان المعركة، رفعوا المزيد من لُعب القطارات في العلّية، ثمة شبّان أشدّاء في فتوّتهم، شبّان أشدّاء في عشرينياتهم، ورجال أشدّاء في ثلاثينياتهم، في أربعينياتهم، حضروا على أنهم دمى، رغم أنّهم كانوا أبعد ما يكونون عن الدمى. انغمسوا إذن في منظور الدمى هذا، وانغمس الجميع في الشائعات المعتادة، أما أنا فلم أعبأ بإدانته. لم أعبأ بما فعلوا به، وما فعلوه ببعضهم البعض. لم أسع إلى شيء من هذا، ولم أرغب فيه، لم أسأل عن أي معلومة أو أرغب في معرفة أي معلومة على الإطلاق. في نهاية الأمر لم يكن مطلوبًا مني أن أقدّم شهادتي، وقد أسعدني ذلك، فلم أكن أرغب في تقديم الشهادة، ولم أكن لأذهب على أية حال، لم أكن - طوعًا على الأقل - لأشارك في ذلك. سمعتُ أخيرًا أنه لمّا لم تكن أي امرأة من اللائي ضربن فلان الفلاني قد أبدت أي اهتمام بالأمر، فقد أسقطتْ زمرة المحكمة تهمة ربع الاغتصاب، تلك التهمة الاعتباطية التي جاءت على نحو: «**أوه، ما رأيكم لو اتهمناه بكذا**». غير أنهم أدانوه بحيازة أسلحة غير مرخّصة من العهدة لاستخدامها في إغواء الفتيات، وهو ما لم يكن، وقد شدّدوا، من أغَراض استخدام الأسلحة المسموحة.

***

بعد تلك المحكمة الكنغريّة لم أسمع شيئًا قطّ عما حدث لفلان الفلاني، سوى أنه على الأرجح أعاد النظر في سلوكه المتعلق بدخول الأماكن الخاصة بالنساء، وفي النساء عمومًا. أما أنا فقد عدتُ إلى المشي. ولكن ليس القراءة أثناء المشي. عدتُ إلى الجري أيضًا. ففي اليوم التالي لمقتل مِلْكُمَن عدتُ من عملي إلى البيت وارتديتُ لباس الجري كي أذهب إلى الصهر الثالث. وحالما فتحتُ باب البيت وجدتُ الأخوات الصغيرات يقفن على الدرج متأنّقات. كنّ يرتدين ملابسي، وأحذيتي، ومجوهراتي، وحليتي، وتجمّلن بمستحضرات زينتي، إلى جانب أقمشة مصنوعة من ستائر الغرفة الخلفية. وأضفن أكاكيل وسلاسل من الأقحوان وبعض الكشكشات المرتجلة وخيوط لامعة من صندوق زينة أعياد الميلاد، كانت جميعها حسب ظنّي من صنعهن. كدتُ أبدأ في توبيخهنّ، فقد حذّرتهن من قبل من العبث بأشيائي. لكنهنّ في تلك اللحظة وهنّ في كامل زينتهن - بل زينتي - كنّ مشغولات بالهاتف. جاثمات على الدرج يمسكن بالسماعة ويتحدّثن في وقتٍ واحد. يُجبن: «نعم. نعم. نعم»، ثم بعد برهة صمتٍ يقلن: «هي هنا الآن. سنخبرها». ثم قلن أخيرًا: «وداعًا»، «وداعًا»، «إلى اللقاء»، «إلى اللقاء»، كالمعتاد، مع قبلات هاتفية أيضًا، إلى أن انتهت المهاتفة وقد أغلق الجميع السماعة. قلن لي: «هذه مامي. تقول لا تخرجي للتسكّع قبل أن تعدّي لنا العشاء. فهي لا تستطيع لأنها مشغولة مع الحلّاب». كنّ يقصدن الحلّاب الحقيقي، ولا يقصدن أي تلميح لِمِلْكُمَن، رغم أنه من الواضح أنّ شيئًا غير أفلاطونيّ كان يجري بين ذينك الاثنين في منزل الحلّاب الحقيقي. كانت ماما تقضي معظم وقتها في المستشفى قبل أن يخرج بنفسه ضاربًا بعرض الحائط أوامر المستشفى، كعادته في معارضة الإرشادات. والآن بعد أن خرج صارت تقيم في منزله، تجلب له الكعك، وتسقيه الحساء، وتضمّد جروحه، وتتفحّص شكلها في المرآة، وتقرأ له الكتب والصحف سحابة النهار، وسحابة الليل أيضًا.

قالت الأخت الأصغر كأنها تغنّي: «وداعًا»، فرفعتها عاليًا وقلتُ لها: «يكفي، انتهت المهاتفة». فقالت: «أعلم. أتأكد فقط». ثم طوّقت خصري بساقيها ولمست السواد الذي تحت عيني وقالت: «هل هذا بسبب رقص الفالس؟ لقد أصبنا بهذه من أثر الفالس»، وكشفت الأخوات الصغيرات أطرافهنّ كي أرى الخدوش والكدمات، كانت متطابقة تمامًا بينهنّ، ومصفوفة في استقامة على أجسادهن، تكاد تكون في الموضع نفسه. قالت الأخوات: «جاءت الكدمات ونحن نقلّد الثنائي العالمي». فقلتُ في نفسي آها، إذن هذا سبب تلك الجعجعة في الشارع. كان هذا جواب لغزٍ اشتعل في هوامش ذهني، إذ كنتُ أرى الصغيرات يتأنقن ويرقصن، لا في شارعنا فحسب بل في كل شوارع المنطقة، حتى في الطريق المحايد عند مناطق المناصرين، فقد استرقتُ النظر ورأيتهنّ ذات يوم حين كنت أمشي وأقرأ في طريقي إلى وسط البلدة. كانت الفتيات الصغيرات كلّهن، «من جانبنا» و «من جانبهم»، يرتدين ملابس طويلة وأحذية عالية الكعب ويقعن على الأرض وهنّ يقلدن الثنائي العالمي، وهذا يثبت أنّ للثنائي - أي والدَي شبه الحبيب السابق - معنى أكبر بكثير لدينا هنا من مجرد أبطال العالم في الرقص الثنائي. لقد بلغا تلك المكانة الاستثنائية التي تجعل لهما موطئ قدمٍ في كل قسمٍ من القسمين الطائفيين، وهو إنجاز قد لا يعني شيئًا خارج المناطق الطائفية، لكنه يمثّل في داخلها واحدًا من أكثر الأحداث ندرة وأملًا في العالم. في بادئ الأمر لم أعر الأمر اهتمامًا، لأنهنّ طفلات صغيرات يلعبن ألعاب الصغار، غير أنّ الأمر وصل إلى مرحلة تكاثرت فيها أعدادهنّ، وهنّ متأنقات يتّخذن رفقاء رقص، يرقصن الفالس في كل مكان ويعترضن طريق الجميع، ويضغطن على أعصاب الجميع، يسقطن ثم ينهضن وينفضن الغبار كي يواصلن الفالس، إلى درجة أنّ هذه الظاهرة أصبحت قادرة على النفاذ إلى أقلّ الذهنيات تشدّدًا وحساسية. وها هنّ الأخوات الصغيرات الآن

يشرحن لي مقدار البهجة التي يحصلن عليها من تقليد الثنائي العالمي. أسررنَ لي: «إنه رائع، غير أنّ ما يكاد يفسد علينا بهجتنا أولئك الفتيان الصغار». كنّ يقصدن صبية المنطقة الصغار، فقد كانت صبيّات المنطقة يحاولن أن يُكملن اللوحة الجمالية باستدراج الصبية الصغار كي يقلّدوا والد شبه الحبيب السابق، راقص الفالس العالمي، فيما يؤدين دور نجمة العرض، والدة شبه الحبيب السابق، لكنّ ذلك لم يحدث لأنّ الصبية لم يرغبوا في اللعب. كانوا يفضّلون أن يلقوا دُمى المتفجرات على الجنود المحتلّين من بلد «ما وراء البحر» حين يظهرون في شوارعنا. لم ينفع التأنيب ولا المداهنة ولا دموع الصبيّات، فقد أصرّ الصبية على رفض المشاركة. وهكذا لم يبق للفتيات خيار سوى أن يتشاركن في تأدية دور والدة شبه الحبيب السابق، الفاتنة باهرة الحسن، ودور والده الشهير غير الفاتن ولا المثير - من وجهة الفتيات الصغيرات على الأقل - بملابسه السخيفة، وظلّ الأمر هكذا إلى أن تبيّن أنه ولا واحدة من الفتيات كانت ترغب في تأدية دوره. جميعهنّ كنّ يردن أن يكنّ البطلة المذهلة والدة شبه الحبيب السابق، فاستغنين عن والده. ومن ذلك الحين كنّ يرقصن اثنتين اثنتين بملابس باهرة، أو يتظاهرن بوجود رفيق خفيّ، «وبذلك يمكن للواحدة منا أن تصبح هي في كل مرة». وهذا ما يفسّر كثرة الألوان، فقد كان هناك انفجار لوني، إضافة إلى القماش والحلي والزينة والريش والزّف والتيجان والخرز والبريق والشُّرَابات والدانتيل والشرائط والكشكش، وطبقات التنانير وأحمر الشفاه وظلال العيون، بل حتى الفرو - فقد لمحتُ فروًا مهدّبًا - والكعوب العالية التي كانت كعوب الأخوات الكبيرات، ولذلك كانت الأخوات الصغيرات يسقطن مرة تلو الأخرى، ويصبن بتلك الإصابات. «المهمّ في الأمر، ولا يبدو أنكِ مبتهجة بهذا أختنا الوسطى، هو أن نكون هي في كلّ مرة». شدّدت الأخوات الصغيرات على هذه النقطة، فشدّدن أيضًا دون وعيٍ منهنّ على حقيقة أنّ نسيان شبه الحبيب

السابق سوف يستغرق وقتًا طويلًا. فبدا أنني سأُذكَّر به حتى قبل أن أخرج من البيت. وبعد الخروج تظلّ هناك تذكيرات أخرى: ملصقات والديه على اللوحات الإعلانية، والإشارة إلى والديه في كلّ خبر، والإشادة بهما في كلّ مجلة، والإطراء عليهما في كلّ صحيفة، واستضافتهما في كل محطة إذاعية، إلى جانب الصغيرات اللائي يقلّدنهما في كل مكان في العالم، علاوة على رقصهما وطلّتهما البهية في كل جداريّة وكل قناة تلفزيونية.

قالت الأخوات الصغيرات لهذا السبب لا يستطعن أن يخلعن ملابسي، أي ليس قبل أن يؤدين دور الثنائي العالمي. كُنّ جاهزات، وسوف يذهبن للرقص والتقليد بعد أن أجهّز لهن شيئًا يأكلنه. قلتُ حسنًا ولكن لا بدّ أن أجدكنّ في البيت بعد عودتي من الجري وقد خلعتنّ كلّ أشيائي. وقلتُ لهنّ إنّ كعوبي العالية ممنوعة عليهنّ. «هاتينها. ستكسرنها»، فأخذتها منهنّ رغم يقيني بأنهنّ سيعدن لأخذها حالما أغادر البيت. «وحذارِ أن تكنّ قد اقتربتنّ من جارور ملابسي الداخلية». فقلن: «لسنا نحن. إنها مامي. هي التي تذهب وتفتّش فيه حالما تخرجين إلى العمل كل يوم».

نعم، كانت ماما تفعل هذا. تحدّثتُ معها سابقًا في الأمر وحذّرتها من العبث بأشيائي، لا سيما ملابسي الداخلية، بل أنذرتها ألا تدخل غرفتي. فمنذ تبدّل أحوالها، منذ وقوعها في غرام الحلّاب الحقيقي، أو بالأحرى منذ الكفّ عن التظاهر بأنها لم تكن تحبه، كانت تنظر في المرآة دائمًا دون أن يسرّها ما تراه. كانت تعبس، وتكتم أنفاسها، وتشفط بطنها، ثم تطلقه بعد ذلك مضطرة كي تتنفّس. بعد ذلك تتنهّد وتتفحّص كل تفصيلة من تفاصيل جسدها، فأقول في نفسي إنها في الخمسين. لقد كبرت كثيرًا على هذه التصرفات. وهناك أيضًا موضوع ملابسي. كانت تحاول أن تحشر نفسها فيها، رغم أنها - كما قالت الأخوات الصغيرات - كانت في البدء تحشر نفسها في ملابسها، فقلّبت كلّ

ما تملكه من ملابس. بدت ماما في غاية الحزن، وفقًا للأخوات الصغيرات، لأنّ ملابسها كلّها وحليّها كانت رثّة قديمة، ليست عصريّة، ولهذا السبب كانت تنتظر حتى أخرج إلى العمل. من هنا بدأت غاراتها. وقد ضبطتُها ذات يوم بعد خروج الحلّاب الحقيقي من المستشفى. عدتُ إلى البيت قبل موعدي وإذا بها في غرفتي تجرّب الملابس. وجدتُ خزانة ملابسي مفتوحة، والجوارير مفتوحة، وصناديق أحذيتي مفتوحة، وصندوق مجوهراتي مفتوحًا، إضافة إلى جراب مستحضرات تجميلي الفارغ فيما كل محتوياته إما على وجهها أو ملقاة على سريري. علاوة على ذلك فقد نقلت معظم أغراضي إلى حجرتها، وليس أغراضي وحسب بل حتى بعض أغراض الأخت الثانية، إذ جرّاء إبعادها واضطرارها إلى الرحيل على عجل، لم يكن لديها ما يكفي من الوقت لتأخذ ملابسها. ولم يقف الأمر عندي وعند الأخت الثانية وحسب. ذهبت ماما لزيارة الأخت الأولى والثالثة، في الوقت الذي تعرف فيه عدم وجودهن في البيت. أما الأخت الأولى فقد زارت بيتها بذريعة رؤية الأحفاد، وأما الأخت الثالثة فبذريعة الحديث في مسألة عدم وجود أحفاد بعد. على أنّ السبب الحقيقي كان الإغارة على أشيائهنّ أيضًا. كان زوج ابنتها يدخلها إلى البيت ولا يعبأ بالأمر، حتى عندما تتركه وتصعد إلى الطابق الأعلى، ثم تهبط وهي تترنّح محمّلة بأكداس من أغراض زوجته. قالت الأخوات الصغيرات إنها عادت إلى البيت مثقلة، فأدركنا نحن الأخوات أنّ علاقتها بالحلّاب الحقيقي بدأت تتخذ منحى جارفًا. أما صلوات السلام الطويلة، والصلوات الموقوتة، وكل ذاك السباق المحموم في الصلوات من أجل الفضيلة، فقد «حلّ بدلًا منها في جهاز التسجيل ليو سير[1] وأغنياته «عندما أحتاجك»،

(1) مغنّ وكاتب أغانٍ أسترالي من مواليد 1948م، بدأ مسيرته في المملكة المتحدة في مطلع السبعينيات وتصدرت أغانيه القوائم وحققت انتشارًا واسعًا.

و«لا أستطيع الكف عن حبك»، و«كم ترغّبني في الرقص». حين عدتُ إلى البيت ووجدتُها في غرفتي ساخطة من الأحزمة والحقائب والأوشحة، وساخطة أكثر من ذلك كله على خذلان جسدها لها. ودون أن تتورّد خجلًا، ودون محاولة الظهور بمظهر من يشعر بالذنب وقد ضُبط أحمر اليدين[1]، قالت: «ألم تفكري قط يا بنيّتي أن تبتاعي كعوبًا أقصر قليلًا مما لديكِ؟». قرّرت أن أغضب فورًا، أن أشير إلى تعدّيها السافر بتفتيش ما ليس لها. فكيف ستشعر لو قلت لها إنّ الأخوات الصغيرات يندفعن فورًا إلى غرفتها حين تخرج إلى الكنيسة من أجل الصلاة أو إلى جارات النميمة؟ ماذا لو أخبرتها أنهنّ يجلسن على سريرها، ويرتدين مناماتها، ويقرأن كتبها، ويُقمن صلواتها، ويؤدين دورها في النميمة ويتظاهرن بصنع مزيج من الخلطات الشعبية، ثم يتبادلن الدور في تمثيلها. غير أني بسببٍ من توتّرها، ولأنها بدت لي في مرحلة تحوّل هشة غريبة، وجدتُ نفسي أناولها كعبًا قصيرًا مكشوف العقب بحزام على الكاحل وأقول: «جربي هذا، ماما».

ويبدو أنّ الأمور تطوّرت في المنطقة برمّتها فيما يتعلق بالحلّاب الحقيقي. فحتى أنا أثار انتباهي آخر حديثٍ للنسوة التقيّات - وقد أصبحن الآن في نظري تقيات سابقات - وأثارت انتباهي كذلك منافسة العشق القديمة بينهنّ إذ تأجّجت مجددًا. فبعد أن كان بعضهنّ يتضرّعن إلى الرب كي يحفظ الحلّاب الحقيقي، وبعد أن استجاب الربّ لهنّ ثم استجدينَه كي يتمّ عليه عافيته، اكتشفن أنهنّ حين كنّ في الكنيسة يصلين له خاشعات مطرقات الطرف بأكفّ متلاصقة، وقد أبلين مقاعد المعبد ورضفات

(1) أي متلبّسة بجريمة أو بفعل مخجل. نشأت العبارة وشاعت في أسكتلندا في القرن الخامس عشر، والحمرة كناية عن جريمة القتل، ظل تداولها محصورًا في أسكتلندا إلى القرن التاسع عشر، قبل أن يشيعها والتر سكوت حين استخدمها في رواية «آيفنهو».

ركبهن، استغلت أخريات اندفاع التقيّات وغرامهن العريق الذي ألزمهن البقاء في المعبد بعيدات عن منافسة الوصول إليه، وقلّلن منهن أمام الحلّاب الحقيقي إذ هرعن إلى المستشفى كي يسبقنهن لرؤيته أولًا. وهكذا أصبحنَ كلّهن في عجلة من أمرهن، يرتجلنَ الصلاة كيفما اتفق. وقد اعتذرن إلى الربّ مقدمًا وأكّدن بأنّ هذا الوضع مؤقت بالتأكيد، وأنهن سوف يعدن إلى صلواتهن الرسمية المعتادة، أما الآن فسوف يختصرن الصلوات، لا لكي يضفن صلوات أكثر هذه المرة، بل لتقليل وقت الصلاة بحذف أغلبها مؤقتًا. لم ينسين وجود المسيح، لكنهنّ كنّ، مثل ماما، يخبزن الفطائر، ويزينّ الكعك، ويقدّمن الحساء، ويجرّبن ملابس بناتهن، ومستحضرات زينتهن، ومجوهراتهن، ويرتدين الكعوب العالية حين يهرعن إلى المستشفى ويعدن منه. وحين خرج الحلّاب الحقيقي من المستشفى، ظللن مشغولات به يهرعن إليه في منزله للاطمئنان عليه.

كان لماما السبق في الذهاب إليه بعد أن تلقّت الخبر من جيسن، فهذه كانت تحب زوجها نايجل، ولم تكن مهتمة بالحلّاب الحقيقي كالأخريات. فلما سمعتْ ماما خبر إطلاق النار عليه قبلهن، استطاعت الوصول إلى المستشفى قبلهن. رصدتْها الشرطة فورًا وأخذتها إلى أحد مخازن المستشفى لاستجوابها. سألوها عن سبب رغبتها في رؤية هذا الرجل، هذا الإرهابي الذي أطلقوا عليه النار بوصفه عدوًّا للدولة. بطبيعة الحال كان أفراد الشرطة هؤلاء يجرّبون حظهم، فربما يستطيعون تحويل هذه المرأة منتصِفة العمر حبيبة المقاتل منتصِف العمر إلى عميلة تخدمهم. ربما تكشف لهم هويات بعض المناوئين، أو مخططاتهم. ربما تساعد في اجتثاث هذا العدو الشيطاني. غير أنّ ثلاث حبيبات محتملات أخريات جئن على إثرها، ثم أربع. نفدت مخازن المستشفى الصغيرة الملائمة لديموغرافية المخبرين المعتادة وظلت الشرطة دون المزيد من حجرات الاستجواب. وهكذا اضطروا إلى نقلهنّ إلى ثكنة

الشرطة، ما يعني أنّ الأمر لن يبقى طيّ الكتمان كما تودّ الشرطة، بالنظر إلى ارتفاع عدد الحبيبات. وقد رصدت قوات الشرطة هذه حبيبتين إضافيّتين في منتصف العمر كالأخريات فأخذتهن للاستجواب. لا بدّ أنّ قوات الأمن في ذلك الوقت كانت حائرة. «كم حبيبة لديه؟ أي زير نساء هذا؟ ومتى يستطيع هذا الفالانتينو أن يقوم بنشاطه الإرهابي وسط غرامياته هذه؟». وقبل أن يستطيعوا التوصل إلى جواب تكرر الأمر مرة أخرى، فقيل إنّ عدد النساء المخبرات المحتملات زاد من عشرة إلى ثماني عشرة امرأة منتصِفة العمر. والحقيقة أنّه لم يكن من العمليّ التعامل مع هذا العدد، وليس للشرطة فحسب، بل كذلك للمناوئين في منطقتنا، إذ سينبغي عليهم تقييم ثماني عشرة امرأة من النساء التقيّات سابقًا كي يحددوا ما إذا استطاعت الشرطة تجنيد واحدة منهن. وهكذا لن يكون الأمر غير عمليّ فقط، بل عبثي، ولن يبقى عبثيًا فقط، بل سيصبح مربكًا. ولن يكون عبثيًا ومربكًا بمعايير الوضع السياسي فقط، بل كذلك من حيث منزلة هؤلاء النساء، فهنّ زوجات وأمهات تقليديات كذلك.

قيل إنّ مناوئًا سأل زميله: «ثمة شيء مفقود. ألا تعتقد أنّ هناك شيئًا مفقودًا؟». باتت المنطقة هادئة على نحو غريب، مشبّعة بالهدوء. شبحيّة، ساكنة يشوبها الشحوب، وكأن أحدًا لم يلاحظ كم كانت صاخبة قبل أن تتوقف نقرات المسابح الورديّة وهَنْمَلة الصلوات. فقال آخر: «بلى، النسوة التقيّات سابقًا. لقد أقلعن عن غمغماتهنّ المريعة، وتلك الصلوات المتواصلة الخفيضة، الصلوات الموقوتة التي تثير الأعصاب، فتندفع لتكوّن ترنيمة لا داعي لها، كل هذا توقف أيضًا حين أُطلق الرصاص على ناكح نفسه، ذاك الرجل الذي لا يحب أحدًا، الرجل الذي يصرخ على الأطفال، الرجل الذي عاد إلى بيته من بلد «ما وراء البحر» بعد موت أخيه وألقى أسلحتنا في الشارع تلك المرة». وقال آخر: «ما كان ينبغي أن نقطرنه ونرميه بالريش.

كان الأجدر أن نختطفه إلى قبر صغير مرتجل، ونطلق النار عليه». أجابه آخر «نعم». وقال غيره: «ولكن لا يجب أن نقسو على أنفسنا». ذكّرهم هذا المناوئ بأيام غضاضتهم، كما ذكّرهم بأن هؤلاء هن النسوة عينهن اللاتي قاطعن مجريات محاكمتهم قبل اثنتي عشرة سنة بتخييمهن عند باب مخبأهم. حدث هذا بعد أن بعثر الرجل الذي لا يحب أحدًا أسلحتهم، وصرخ على الأطفال، وصرخ على جيرانه، حيث ظهر المناوئون حينها واعتقلوه مع أسلحتهم التي جمعوها على عجل فأخذوه إلى المخبأ مباشرةً. في الأوضاع العادية كان اعتقاله سيؤدي إلى قتله مباشرة، ليس لأنه عبث بممتلكاتهم وحسب، بل لأنه فعل ذلك في وضح النهار. لولا أنّ الراصد الشاب تصرّف بسرعة وهرع لإنذارهم بما حدث، لكانت أي مروحية عسكرية - يصدف أنها تحوم فوق المنطقة كما تحوم دائمًا - ستلمح أسلحتهم مباشرةً. هكذا عزموا على قتل الرجل الذي لا يحب أحدًا إلا أنهم لم يستطيعوا بسبب النسوة المغرمات به. بحكم العادة، فهؤلاء النسوة معوانات وداعمات لجهود المناوئين. إذ طالما خرجن في أعداد كبيرة بأغطية صناديق القمامة[1]، وبصافراتهن لينذرن الجميع، بمن فيهم المناوئين، بإقبال العدو. كل هذا من أجل إيواء المناوئين، وتنبيههم، وإيقاف حظر التجوال، ونقل الأسلحة. وهذا علاوة على الخبرة الطبّية المنزلية التي يمتلكنها. فالمناوئون الجديرون بملحهم[2] يدركون أنه

---

(1) كانت الأيرلنديّات الكاثوليكيّات في بلفاست أثناء صراع كاثوليكيّي أيرلندا الشماليّة مع بريطانيا وأيرلندا الشماليّة أثناء الفترة المعروفة بالاضطرابات يخرجن إلى الشارع إذا ما جاءت القوات البريطانيّة وأعوانها ويخبطن بأغطية صناديق القمامة المعدنية ليحدثن ضجيجًا ينبئ المعارضين بقدومهم.

(2) أي الأكفاء، يرجح أن العبارة تعود لاعطاء الرومان الملحَ لجنودهم لقاء قيامهم بأعمالهم ضمن معطيات ضرورية أخرى، ورد في مجلة «Good Words» التي صدرت من عام 1860 حتى 1910م. أن أساس العبارة من بيع التراقيّون العبيدَ لقاء الملح.

لا يوجد شيء يضاهي شرف الإصابة في المعركة سوى الاحتفاظ برغبة في الحياة تجعلهم يجرون في الشوارع الفرعية والمداخل الخلفية كي يصلوا إلى منزل من منازل تلك النسوة، كي يخرجن رصاصاتهم، ويطبّبن إصاباتهم، ويخطن لهم الجروح المفتوحة، فإن لم يكن هناك وقت للخياطة يبقين الجلود في مكانها بما يكفي من المشابك ليمنحنهم وقتًا للفرار من التفتيش العسكري الذي سيجري في تلك الأثناء داخل البيوت. ذاك ولاءٌ لا يمكن اختراعه، ولا إضاعته. لكنه بعثر مسدساتهم، ولهذا السبب أخذوه إلى البيت الآمن، الذي لم يكن في واقع الأمر بيتًا بل واحدًا من مخيمات الكنيسة، وقد أخذوه إلى هناك لا لإجراء محاكمة كنغريّة تستغرق وقتًا، بل لإعدامه فورًا. بالكاد تجاوزوا به سدّة الباب حتى ظهرت هؤلاء النسوة، دون ضجيج خلافًا للعادة. نصبت النساء خيمة في الشارع بجوار المخيّم في صمت. أخذن ينظرن إلى المخيّم، بل إنّ عددًا غير قليل منهنّ - معاذ الرب - أخذن يشرن إلى المخيّم. ولم يمض وقت طويل حتى أدرك المناوئون سبب مجيئهن. كانوا يعرفون، ويعرفون أنّ النساء يعرفن أنهم يعرفون، أنّ كلّ ما يتطلبه الأمر مجرد مروحية واحدة كي تلمح هؤلاء النسوة وهنّ يشرن إلى مخيّم المناوئين، وبذلك ترصده ثم تهاجمه على الفور. إذن فالأمر برمّته ابتزاز، بل تجليًا واضحًا للتناقض البشري في الوقت نفسه. لا جدال في أنّ المناوئين كانوا مطمئنين إلى ولاء تلك النساء وصدقهن في حمل أغطية القمامة والصافرات، كإخلاصهنّ في خياطة الجروح. ولكن في الوقت نفسه لا جدال في أنّ تهديدهن كان صادقًا جادًا إن لم يطلق المناوئون سراح الرجل الذي لا يحبّ أحدًا. كانت هذه رسائل مفهومة غير منطوقة، لكنّ الذي نطق هو أنّ المتحدثة باسم النسوة ذهبت إلى باب المخيّم وقرعته فصاحت فيهم بضرورة إطلاق سراح الرجل الذي لا يحب أحدًا وهو حيّ معافى. صاحت فيهم أنه من غير المقبول خروج جثة هذه المرة، بل

يردن أن يخرج صديقهنّ سليمًا. لكنهنّ لم يحققن كل ما سعين من أجله، إذ لحفظ ماء الوجه كان حكم المناوئين النهائي أن حلّاب المنطقة هذا متمرد آخر في الحي بنزعات سلوكية معايدة للمجتمع وغير متسقة مع التوافق المعتاد في محيطنا، فاستحق بذلك أن يكون واحدًا من متجاوزي الأعراف المكروبين. معنى ذلك أنه لم يكن واعيًا بما يفعله، فاسترضى المناوئون أنفسهم بذلك واستبعدوا الحكم بالإعدام لدواعٍ تخص انتمائه لضعفاء العقل في الحي. مع ذلك فلن يخرج الرجل الذي لا يحب أحدًا هكذا دون عقاب. فتلقى ضربًا خفيفًا إلى متوسط، أتبعوه بالقطرنة والتربيش، مع إنذار أخير له بأنه لو عرّضهم للخطر مرة أخرى فلن يعبئوا بحبيباته أيًا كان عددهنّ، ولن يرحموه. أما الآن فكانوا يقولون بعد مرور اثنتي عشرة سنة: «لقد أسرفنا في تساهلنا معه». وها هم يواجهون في حدث مشابه، هؤلاء النسوة ذاتهن، أو ربما تقريبًا هن ذاتهن، إذ يعارضنهم مجددًا. قالوا: «أولم يُنهَين عن الذهاب إلى المستشفى؟ لقد حُذِّرنَ، وأُمرن، ولكن كما ترى ها هنّ يتبعنه إلى معقل دارهم ويعرّضن أنفسهنّ للاعتقال». «ولكن ما الذي يرينه فيه؟». «وفي هذه السنّ أيضًا. فبعضهنّ لسن شابات». «البعض؟ بل ولا واحدة منهن شابة. فأمّ فلان ليست شابة أبدًا، وقد أخبرنا المستطلعون أنها اختُطفت من مخزن المستشفى وأُخذت إلى ثكنة الشرطة». «وكذلك أم فلان». «وأم فلان أيضًا». ثم اعترف مناوئ آخر: «وأمي أيضًا. آسف، لم أكن أعلم، ولا والدي كان يعلم حتى هرعت إلى المستشفى فاعتُقلت». وبعد برهة صمت أقرّ آخرون بافتتان أمهاتهم المؤسف أيضًا بذلك الرجل الذي لا يحب أحدًا.

أما عن محاولة الشرطة تجنيد النساء التقيّات سابقًا ومطاردة المناوئين لهنّ لمعرفة ما إذا أصبحن مُخبرات، فلم يظهر منها شيء. فقد تزايدت أعداد النساء في تلك الأثناء. ظهرت ذوات القضيّة - صاح الجيش ورجال الجماعات

شبه العسكريّة على حدٍ سواء **لا! كلّ شيء إلا هؤلاء!** - وهرعن أيضًا إلى المستشفى لدعم الحلّاب الحقيقي. قلن إنه كان الوحيد الذي يفهمهنّ ويحترم قضيّتهن. بعدهنّ جاءت وسائل الإعلام، بما فيها تلك الشريحة الصغيرة المزعجة التي نشرتِ دون دليل خبرًا يقول «الحلّاب هو بائع حليب فعلًا» وأنّ الدولة أخطأت من جديد. لذلك حين اكتشفت الدولة صحة الخبر، أي أنهم أخطأوا ثانية، قررت أن تغلق ملف هذه العملية، وهذا ما أعلنته في النشرة الإخبارية التالية. في أثناء ذلك شاهد المناوئون، الذين كانوا قلقين من اضطرارهم إلى عقد محاكمة والحكم على مخبرات محتملات من المرجّح أن يكنّ أمهاتهم، تلك النشرة الإخبارية وهي تدعو لطيّ صفحة العملية، فاتفقوا مع أعدائهم للمرة الأولى وأعلنوا أنهم يريدون ذلك أيضًا.

أطلقت الشرطة سراح ماما وسبع عشرة امرأة، كما تركهنّ المناوئون وشأنهن. هرعن من فورهن إلى المستشفى وقصدن وحدة العناية المركزة. هناك، قيل لهنّ إنّ حالة الحلّاب الحقيقي «مستقرة» ولكن لن يُسمح لأيٍ منهن بالدخول لرؤيته. قال لهم المسؤولون في المستشفى: «المعذرة، لستنّ من عائلته»، ومن الجلي أن قولهم «يُسمح للأزواج بالدخول» لم يخوّلهن بالدخول إليه في هذه الحالة. هكذا عادت بعض الزوجات إلى بيوتهن، ليستجمعن قواهن، ويخطّطن للخطوة القادمة. كان هذا عندما عادت ماما إلى البيت في تلك الليلة وكشفت لي عن قصتها المأساوية، وقصة بيغي والحلّاب الحقيقي والنساء الأخريات. وأخبرتني كذلك عن المسألة الأخرى، مسألة الزوج الخِطأ التي لم تتحدث فيها قط طيلة زواجها من بابا.

***

ها هي الآن هنا، بعد أسبوعين تقريبًا من تسمّمي، ولكن قبل ذهابي إلى متجر المقليات، تجرّب كعبي كاحليّ الحزام، وقد هدأتْ لوهلة حين رأت أنه لاءمها. رغم هذا ظلّ شعورها بالنقص محتدًّا، يستعد للانقضاض على الموضوع التالي. وقد تبيّن أنّ التالي كان «خلفيّتها» كما سمّتها، إذ كبرت هذه الخلفيّة منذ آخر مرة رأتها في المرآة. حدث هذا قبل سنوات، دون رغبة منها في الكشف عن عدد السنوات. لكنّها نظرت إليها، هكذا قالت، فإذ بها قد كبرت، وهي تعلم هذا ليس لأنها نظرت إلى نفسها من الأمام فوجدت جانبها قد تضخّم، وقياسًا على ذلك لا بدّ أنّ خلفيّتها قد كَبرت أيضًا، بل عرفته لاضطرارها إلى زيادة مقاس فساتينها، إلى جانب ما حدث لها مع المقعد في الصالون الأمامي ذات مرة. لا بدّ أنّ وجهي قد بدا عليه عدم الفهم، فقالت: «بالحديث عن الخلفيّة، يا بنيّتي. تعرفين ذاك المقعد الذي لم أعد أجلس عليه الآن؟ حسنًا، خلفيّتي هي السبب. لعلكِ تساءلتِ—»، «لا يا ماما. لم أتساءل - وأي مقعد؟ لم ألاحظ أي مقعد». فقالت: «بل من المؤكد أنكِ تساءلت. المقعد الخشبي ذو الذراعان في الصالون الأمامي ذاك الذي كان من مقاعد جدة جدتكِ ونِفرِد. كنتُ أجلس عليه، من وقتٍ لآخر، وأغزل بالصوف، أو أتحدث إلى جيسن، أو مع إحدى النسوة الأخريات، أو أشرب كوب شاي بمفردي مع الرجل الحلّاب الحقيقي» ونظرتْ إليّ حينها لكنني لم أستجب. «كنتُ أحيانًا أجلس وحسب، أفكر، أو أستمع إلى اللاسلكي، وقد كان كل هذا حسنًا. كنت أجلس في هذا المقعد دون مشكلة، دون شعور بالحرج ودون تحسّس حتى، هكذا براحة. مجرّد مقعد؛ ليس به ما يؤهله لأن يكون مصدر تعذيب نفسي. أُنزل نفسي فيه، حينها، بيسر، وحالما أنتهي، أرفع نفسي خارجه. كل شيء طبيعي. أما الآن، بنيّتي، فثمة ألم ذهني حادّ ينتابني كلما تعاملت مع المقعد لأنّ خلفيّتي تنحشر وتلمس أحد الذراعين لمسًا طفيفًا فيما أخفض نفسي فيه أو أرفعها خارجه. والذراعان لا يمكن فصلهما. يلتصقان

فورًا بالجسد، فالمقعد قطعة واحدة وبالطبع المقعد نفسه لا يمكن أن يصغر، أي أنّ خلفيّتي هي التي تغيّرت وكبرت لكنها كبرت دون تعديل مصاحب لآلية تعاملها مع الأثاث، وما تزال تتصرف من اعتياد ذاكرتها عندما كانت صغيرة في الأزمان السالفة». فتحتُ فمي، ولا أدري هل فتحته كي أقول شيئًا أم لأبقيه هكذا معلّقًا. ثم أكملتْ ماما: «بنيّتي، لا أقول إنّ المقعد لا يتسع الآن لمؤخرتي، فما يزال يتسع لها. لكنها الآن تشغل بوصات أو بضع أجزاء من البوصة زائدة، لم تكن تشغلها فيما مضى».

أدركتُ طبعًا ما ترمي إليه، لكنني ظللتُ مترددة كيف أرد. إذ ما سمعتُه كان تصويرًا ميكروسكوبيًا حساسًا مؤلمًا لرأي ماما في مسألة نمو مؤخرتها، دون أن يتضمّن هذا شيئًا أرعن أو جافًا أو بسيطًا أو منتميًا حتى إلى الثقافة الشعبية في الوصف. وعليه كان لا بدّ أن يتّسق ردّي مع كلماتها، يجب أن يكون من ذات النبرة والوزن، يقدّر ويحترم منزلتها، بل حتى أصالة توصيفها لعمق مأساة خلفيّتها وعلاقتها بالمقعد الذي تتحدث عنه. أدركتُ أيضًا من تفاصيل حديثها عن المقعد، نظرًا للتحوّل الذي كانت تمرّ به في شأنها مع الحلّاب الحقيقي، والمنافسة بينها وبين النساء التقيّات سابقًا على الحلّاب الحقيقي، أنّ ماما قد تكون على شفا انهيار عصبي. وفيما يخصّ المقعد فقد جنّبتني الأخوات الصغيرات الاضطرار إلى الردّ على ماما حين نادينني من الأسفل. إذ هرعن مع بداية حديثنا إلى الصالون كي يسحبن المقعد إلى الممر. «الأخت الوسطى! الأخت الوسطى!»، فخرجنا أنا وماما عند بسطة الدرج ونظرنا من فوق السياج وإذا بالمقعد في الممر في الأسفل. لم يكن سوى المقعد القديم الذي كان في الغرفة الأمامية، بطرزه القديم وظهره الخشبي الطويل وذراعيه اللتين تبدوان بريئتين، لكنهما من حيث معاناة ماما النفسية لا يمكن أن تكونا بريئتين. صاحت الأخوات الصغيرات: «ها هو ذا أختنا الوسطى!

هذا المقعد! هذا المقعد هنا!»، في حين صرفت ماما عينيها وغطّتهما بذراعها. بكت وهي تقول: «أوه، لا تذكرنني! أبعدنه عني بنيّاتي الصغيرات». جاهدن في سحب مقعد جدّة جدّتي ونفرد ثم ألقين به في الصالون الأمامي وهرعن إلينا.

ثم جاء دور وجهها. لقد «تردّى»، قالت. ثمة خطوط ونمش شيخوخة وتجاعيد. اقتربت مني كي أرى تجعيدة في وجهها: «انظري هنا». كانت تجعيدة بين تجاعيد أخرى. أعلى وجنتها. في وجهها. «ظهرت هذه أولًا. كانت طفيفة، خفيّة، لقد أجهدتُ كثيرًا، تقريبًا آذيت عيني ذلك اليوم لأميزها في المراحيض العامة الواقعة وسط البلدة حين كنت في بداية ثلاثينيّاتي. أدركتُ معنى ذلك، لكنني بعد قلقٍ مبدئي تجاهلتُها يا بنيّتي، إذ كما ترين، ما باليد حيلة، فثمة سنوات أخرى وتجاعيد قادمة». ثم جاء دور فخذيها. «لقد همدا. شعرت كما لو أنهما ماتا. بل يبدوان كما لو أنهما ميتان. وهكذا ما يزالان، لا غضاضة فيهما». بعد ذلك تحدثت عن نتوءات ركبتيها، وأصوات غضاريفها، والخصر المثخن، وتلك الخلفيّة أيضًا التي ارتخت علاوة على أجزاء البوصات أو البوصات الإضافية التي كدّستها عبر السنوات. ثم تحدثت عن انحناءة أسفل ظهرها، فبعد كل تلك الارتخاءات لم تعد كما كانت. «كنتُ في خطوتي بخفة غزال، مثل أختكِ الثالثة. لديّ صور وأنا في تلك الرشاقة. وهذه أيضًا، أترين هذه؟ هذا التصبّغ الأحمر هنا؟ أترينه؟ لم يكن موجودًا». تهامستْ الأخوات الصغيرات أنّ ماما أمضت ساعات على هذه الحال فبدأن يقلقن عليها. أردن مني أن أخبرهن ما خطبها وأن أعالج الوضع، أردن أن أفعل شيئًا، لذا حاولت أن أقاطعها بضع مرات، دون جدوى. حاولت أن أطمئن ماما، لأنني قد لاحظت، حتى لو لم تلاحظ هي، أن إحدى الإيجابيات التي تأتت من إصابة الحلّاب الحقيقي دون أن يموت، هي أنّ ماما ألقت ببضع

سنوات خلفها، رغم أن هذا أفقدها كثيرًا من ثقتها بنفسها، فباتت مراهقة، وتوصلت إلى قناعة بأنها لا تحظى بفرصة في منافستها مع النسوة التقيّات سابقًا اللاتي يبدو أنهنّ ألقين بضع سنوات خلفهنّ كذلك، ويعانين من مشاكل الثقة. غير أنّ ماما لم تسمح لي بأن أطمئنها. كانت تقاطعني كثيرًا بـ «نعم، ولكن» مهما قلتُ لكي أعزّز ثقتها بنفسها. هذه «النعم ولكن» كانت تصدر حتى قبل أن أتمكن من التلفظ بعبارتي الأولى لطمأنتها. وهكذا أخذت تنتقل إلى الحديث عن إبطيها، وذراعيها، ورعشة ذراعيها، وعضديها من الخلف اللذين لا ينبغي للنسوة في عمرها أن يلتفتن إليها إلا إذا أردن تعذيب أنفسهن. بعد ذلك تحدثت عن الفلجات بين أسنانها، وارتخاء النهدين، وطقطقة المفاصل وخشونتها، وقرقرات الجهاز الهضمي، ومشاكل الأمعاء، وبصرها الذي بدأ يتغبّش، إضافة إلى تحوّل عينيها إلى عيون العجائز. قالت أيضًا إنّ شعرها بدأ يشيب، وشَعرًا جديدًا بدأ ينمو في جسدها، وبالذات - قالت هذا همسًا - **ذاك الشعر الذكوريّ** في وجهها. وأضافت: «بإمكاني أن أعدّد لكِ أشياء كثيرة غيرها»، وهكذا فَعَلت. ظلّت تعاني من نقص الثقة في أشياء كانت حتى وقت قريب، وبالنظر إلى عمرها، لا تحمل أي وزنٍ عندها، فكيف إذن أصبحت تعيرها كل هذا الاهتمام؟ كنتُ أشعر بأنها تصغر في العمر رغم أنها لم تكن مقتنعة. أعتقد أنّ هذا نابع من حدوث الأشياء بطريقة عكسية في هذه الحياة، فهذه إنما هي مخاوف الكبر التي تهاجمها الآن وهي في سنّ السادسة عشرة من الناحية النفسية. في تلك اللحظة، كأنها كانت تخبرني بأنّني إن كنتُ أظنّ أنني مررتُ بهزيمة وتعاسة، فما سيأتي سيكون هزيمة وتعاسة تامّتين. حدّقت في المرآة مجددًا، وهذه المرة لاعتقادها بأنّ طولها انكمش لأنّ عظامها انحنت، فأطلقت تنهيدة أقوى من كل تنهيداتها السابقة. كانت موجّهة إلى نفسها أكثر من كونها موجهة إليّ أو إلى الأخوات الصغيرات. قالت، «ما الفائدة؟ لا شيء من هذا مهم. ليس

الآن، إذ ثمة امرأة مسكينة عليّ أن أفكر فيها، تلك التي فقدت أربعة أبناء وبنتًا وزوجًا». وحينها انتقلت للحديث عن أمّ الفتى النووي.

والدة الفتى النووي هي نفسها والدة فلان الفلاني، وهي أيضا والدة الأخ المفضّل الذي قضى في تفجير القنبلة، وهي كذلك والدة الصغير الذي سقط من النافذة. غير أنها عُرفت غالبًا باسم والدة الفتى النووي، ذلك أنّ الفتى النووي خلّف أثرًا راسخًا في وعي الناس بسبب الفوبيا النووية الغريبة التي تملّكته، هذا إلى جانب رسالة انتحاره. فلا يوجد أحد في هذه العائلة، حيًا كان أو ميتًا، استطاع أن يجذب اهتمام الآخرين كما فعل الفتى النووي. فجميع أفراد العائلة إنما يُعرفون بسبب ارتباطهم به، باستثناء فلان الفلاني طبعًا. فهناك أخوات الفتى النووي الستّة، وأبناء وبنات عمومة الفتى النووي، وأبناء بنات خؤولته، وأعمامه وأخواله وما إلى ذلك، والآن كانت ماما تتحدث عن أم الفتى النووي. حين بدأت كلامها لم أملك سوى التحديق، فلم أعرف ما ترمي إليه من ذلك. قالت ماما، وكأنّ ما تقوله خلاصة إذ بدا أنها قد أفاضت في التفكير فيه سلفًا: «أظن أنني سأتركه لها»، فطلبتُ منها أن توضح. قالت إنّ النساء التقيّات سابقًا، جئن على قلب امرأة واحدة لبيتنا بالأمس يناشدن ضميرها ويستعطفنها على والدة الفتى النووي المسكينة. قالت إنهنّ أوضحن الأمر لها على نحو معقول، إذ إنّ والدة الفتى النووي المسكينة المسكينة المسكينة (كما شدّدن عليها) قد مرّت بمآسٍ شخصية سياسية عديدة في حياتها أكثر مما عاناه غيرها في المنطقة، من حيث العدد. أفلا يكون نبلًا روحيًا وإيثارًا أن تتنحّى وتترك لها الحلّاب الحقيقي؟ أدركتُ ما يرمين إليه وشرعتُ أقول «يا ماما، ألا ترين خدعتهن؟ والأمور لا تسير على هذا النحو على أية حال»، إلا أنها سبقتني بترسيم الحقائق. بدأت تعدّ على أصابعها المآسي التي قاستها مقارنة بالمآسي التي قاستها والدة الفتى النووي، من حيث الكم. قالت: «تلك المرأة المسكينة المسكينة

المسكينة المسكينة مات لها زوج وأربعة أبناء وابنة، وكلها ميتات سياسية، أما أنا فمات لي زوج وابن ولم تمت لي بنات» ثم رفعت يدها لإيقافي عن الكلام وواصلت: «نعم، صحيح أنّ الابن الثاني مات ميتة سياسية لكنّ والدك، **نعم الرجل، يا له من رجل! يا له من أب وزوج خيّر**». ها هي تطري على بابا على غير عادتها، فافترضتُ أنّ ذلك ناجم عن شعور بالذنب تملّكها لأنها كبتت عشقها للحلّاب الحقيقي مدة طويلة، وكان عشقًا من نوع «**لستُ عاشقة، لأنني متزوجة، فكيف أعشق!**»، فأصبحت تعوّض عن ذلك بالأسف على زواجها من الشخص الخطأ. قالت: «والدكِ مات ميتة عادية من المرض، عليه محبّات الرب، أي أنه لم يمت لأسباب سياسية. لذلك أعتقد أنهنّ محقّات وأنّ عليّ أن أنسحب وأتصرف بنبلٍ فأسلّمها الحلّاب الحقيقي».

في أثناء ذلك كنتُ أحدّق وقد انعقد لساني، ثم رحت أتقافز غيظًا إثر بلادة ماما في هذا الأمر. أولا تفقه ما تقوله؟ أولا ترى ما تسعى إليه تلك النسوة المتسلقات التقيّات سابقًا؟ لو أنّ الأمر كان صحيحًا، أي لو كنّ صادقات في مبادئهن السامية ومنطقهنّ الذي يقول «**مات لها زوج وابن واحد ولا بنات، لذلك هي غير مؤهلة**»، لو أنّ الأمور تسير على هذا النحو حقيقة، فكم ينبغي أن يُقتل منا ويودع في القبور لأسباب سياسيّة قبل أن تفكّر في الخروج مع رجل؟ وحتى لو امتثلت لذلك التقييم المبنيّ على هرميّة المعاناة، ومعايير الأسى والحداد، فهي في واقع الأمر تسيء فهم ما تسميه «حقائق». فأصبح واجبي أنّ أبسّط لها الأمور وأوضح لها ما وقعت فيه من سوء فهم. قلتُ لها أولًا والدة الفتى النووي المسكينة فقدت اثنين من أبنائها فقط جراء المشكلات السياسية، وليس ثلاثة أبناء، حتى وإنّ أصرّ الآخرون على اعتبار وفاة الفتى النووي - بصرف النظر عن أميركا وروسيا - وفاة سياسية. لم يكن بإمكاني أن أوافق على ذلك فيما ماما قد وصلت إلى مرحلة حرجة من تدمير نفسها. ولذلك تحدثتُ عن الابن الوحيد، المفضّل، ذاك

الذي مات لسبب سياسي وهو يعبر الطريق بسبب انفجار قنبلة في الشارع. ثم تحدثت عن الابن الأكبر المناوئ والابنة المناوئة وبالطبع الزوج الذي مات أيضًا لأسباب سياسية. وأشرتُ إلى كلبهم المسكين أيضًا الذي قطع الجنود حنجرته على المدخل في تلك الحادثة. ثانيًا قلت لها يمكن القول، حتى وإن كان موقفنا ضعيفًا، إنّ ماما نفسها فقدت إحدى بناتها نفيًا، أي بسبب مشكلة سياسية. ويمكننا أن نقول أيضًا، وإن كانت حجّتنا ضعيفة، إنّها تعاني من فقدان ابنٍ آخر، أعني الابن الرابع، الابن الهارب، حتى لو لم يكن ابنها حقًا فقد كانت تحبّه حبًا جمًا، وحتى وإن كان ما يزال على قيد الحياة يعيش في مكانٍ ما وراء الحدود. أشرتُ أيضًا إلى أنّ من غير المرجح - بالنظر إلى حالة والدة الفتى النووي المنكوبة - أن تسعى تلك المرأة إلى أي مغامرة رومنسيّة جنسيّة. قلتُ لها: «اسمعيني يا ماما. أنتِ رأيتِها بنفسك. أنتِ على الأقل رأيتِها بنفسك قبل أن تكف عن الخروج من بيتها كيف كانت تنحدر يومًا بعد يوم، رأيتِ مدى عجز الآخرين عن فعل شيء يساعدها، ورأيتِ مدى فزع الناس منها بل وتفكيرهم، جرّاء خوفهم منها، في وضعها في طابور الإعدام من بين متجاوزي الأعراف في حيّنا. سألتُها: «متى رأيتِها آخر مرة؟ متى رآها أيّ أحد آخر مرة؟ يقولون إنها لا تستحم، ولا تأكل، ولا تنهض من سريرها، وقد هجرت أفراد عائلتها. دعكِ من أمر أم الفتى النووي يا ماما وسعيها خلف الغراميات مع الرجال في أماكن «نقط نقط نقط». نكَصت ماما وغطت أذنيها بيديها. «أنتِ فظّة يا طفلتي. قاسية. باردة المشاعر. لطالما كان هناك شيء بارد جدًا فيك يا بنيّتي». كنتُ على وشك أن أقول لها وأنتِ متلكئة يا ماما، لكنني لم أقله خشية أن يتكرر ما حدث حين قلت لها «رحماك يا رب»، فنعود حينها لغضبنا القديم تجاه بعضنا. كما أنني لم أقل، على الأقل ليس مباشرةً، «هل كل صديقاتكِ أهل للثقة؟» تكرارًا لما قالته لي وهي مستنكرة في تلك الليلة حين كانت تطهّرني من السم. لكنني

أوصلتُ لها المعنى المراد بذكر الأعمال الماكرة التي اقترفتها صديقاتها.

«رفيقاتك يا ماما. رفيقات الصلاة، النسوة التقيات سابقًا. أتظنّين أنهنّ قلن لأنفسهنّ «أوه، ينبغي أن نتنحّى ونتركه لها» أي والدة الفتى النووي؟ أتظنّين أنهن ينوين التخلي عن الحلّاب الحقيقي، أنهن يعزمن على مناولتها إيّاه، أتظنّين أنهن سيطوين فرصتهنّ معه من أجلها؟ حالما تخلين لهنّ الطريق يا ماما، حالما تخرجين بسبب ابتزازهنّ العاطفي هذا، ستُسحق تلك المرأة المسكينة تحت أول حصان وعربة تحملهنّ إليه. وسوف يجتمعن بعد ذلك، يخطّطن مرة أخرى، كي يقصين المرأة التالية، بعدكِ. أنتِ الأولى يا ماما. أنتِ صاحبة الفرصة الأعلى في الفوز بقلب الحلّاب الحقيقي، ولهذا السبب استخدمن معكِ حجّة والدة الفتى النووي ببراعة، وكدن ينجحن». فقالت ماما: «مهلًا يا بنيّتي، لا يمكن أن أكون صاحبة الفرصة الأعلى—» ولوّحت بيدها استنكارًا. قلتُ لها: «بل أنتِ يا ماما. أنتِ التي يهتمّ بأمرها، أنتِ من يزورها ليشرب الشاي معها، ويحضر لها علب الحليب الزائدة والألبان المميزة الأخرى التي أجزم أنه لا يقدّمها للبقية». ظلّت تصدر إيماءاتها المكذّبة، بحدّةٍ أقل، أقرب إلى نصف تصديق، مع جرعة أمل. قطعًا كانت ماما تفتقر إلى الخبرة، وتحتاج إلى دعم. وهذا ما دعاني إلى أن أكون كريمة معها، بل بالأحرى براغماتية، فلم أكن أعرف ما إذا كان الحلّاب الحقيقي معجبًا بماما أو بوالدة الفتى النووي أو غيرهن. جميعهنّ قد أصبحن في سنّ لا تجذب اهتمام الرجال. لكنني لم أرغب في أن تستسلم ماما هكذا فورًا. يبقى بالطبع احتمال أن يقرّر الحلّاب الحقيقي أنه لا يريد الارتباط بأيٍ منهنّ، رغم رغبته البادية في ذلك، أو ربما يعود إلى اعتبارهنّ من عائلته الكونية الممتدّة حالما يتماثل للشفاء. لم أقل هذا لأنه سيغمّ ماما غمًّا حالكًا، بل والنساء التقيّات سابقًا أيضًا، بل وغمّني أنا أيضًا فيما فكرت في هذا السيناريو آنذاك.

ساندتها بالأكاذيب إذن، على أنها قد لا تُعد أكاذيب حقًا إن أخذنا الحقائق كلها بعين الاعتبار. قلتُ لها: «أنتِ المنافسة الأقوى ماما. لطالما قال لي، أنه...، إنه معجب بكِ، وأن أوصل سلامه إليكِ». «هل قال ذلك حقًا؟ هل أنا فعلًا؟». قلت لها: «نعم»، رغم أنه لم يقل ذلك في واقع الأمر إلا بصورةٍ عابرة. ولكن في تلك المحادثة الحقيقية التي جرت بيننا في سيارته وهو يوصلني إلى المنزل ويتدبر أمر رأس القطة كان مهتمًا بأمر ماما بنسبة مئة في المئة. لذلك لم أكن أكذب، وقد أخبرتها هذا أيضًا، عن نسبة مئة في المئة كي أعطيها دفعة معنوية بمؤشرات تبدو عالية تعزّز ثقتها بنفسها. قلت لها: «اطمئني، ماما. فقط حافظي على هدوئكِ وهمّتكِ، وشدّي أزركِ، تمكني شيئًا فشيئًا ونالي ما تريدين بمناورات هادئة. وتذكّري دائمًا موقف أولئك النسوة مع بيغي. تذكري كيف تفجّرت رغبتهن وجشعهن بعد أن أصبحت الراهبة بيغي. لقد قلتِ بنفسكِ إنكِ ناقمة عليهن، وها هنّ يفعلن الأمر عينه مجددًا. نسوة مخادعات». قلتُ هذا وأنا أفكّر في احتيالهن على ماما، وغسيلهن لدماغها، في استغلال واضح لصراعها الداخلي. يبدو من الواضح أنه قد مضى زمن طويل منذ أن أدخلتْ ماما نفسها في مناورات ضبابيّة أو جانبية. «يا لهنّ من نسوة يجرؤن على كل شيء، مخادعات، متلاعبات، ماكرات——»، فصاحت ماما: «الابنة الوسطى! هؤلاء كبيراتكِ! لا تتحدثي عن ذوات القدسيّة سابقًا بصفات كهذه».

لكنني استطعتُ أن أؤثر فيها، فقد بدأت تستعيد اتزانها. تنامت نبرة «كيف يجرؤن على استغلال ضميري» في رأسها، وكان هذا مشجعًا لولا أنّ الأحداث كانت تمضي بسرعة نحو نتيجة عَرَضية أخرى، كما اكتشفت، لإصابة الحلّاب الحقيقي، وربما النتيجة العرضية الأساسية لإصابته كانت أنّ إصابته حفّزته على الخروج من عزلته الطويلة «لأنه لم يستطع نسيان بيغي».

هكذا انتهى منفاه الذي فرضه على نفسه بعيدًا عن الغراميات والهوى المحموم، وتفضيله للبقاء في حالةٍ من الحبّ الأغابي غير المشروط. فحتى قبل أن يغادر المستشفى ويتخلّص من فظاعة إصابته، وعلى الرغم أيضًا من جدّيته في محاولة أن يؤكّد جدّيته وزهده، إلا أنه ألفى نفسه مستمتعًا. قالت ماما إنه أخبرها بسيطرة حسٍ غريب عليه في البدء حين كان منوّمًا في المستشفى، إذ وجد نفسه راغبًا أن يُبذل المعروف من أجله هو نفسه هذه المرة بدلًا من كونه هو باذل المعروف دائمًا. وهذا على عكس ما كان عليه قبل اثنتي عشرة سنة، في أوج اكتفائه بنفسه عن الآخرين رغم احتياجه إلى المساعدة بعد ذلك الضرب والقطرنة والترييش. فقلبه حينها لم ينفتح مقدار ذرّة للرومنسية أو الغرام. هكذا إذن كان يخوض ثورة في داخله، منبعها كلّ ما فيه من خير وإيثار وتضحية بالنفس. هذه المرة كان يريد أن يتلقى الحبّ والجنس والافتتان. قالت ماما لقد بات منفتحًا لكلّ هذا، كما قالت إنه قال، كأنما في الوقت المناسب، كأنما حدثت بمعجزة، إنّ صنائع المعروف - مع احتمالية الافتتان الشخصي - طفقت تنصبّ عليه، فقد بدأت النساء تتوافد عليه تقريبًا دفعة واحدة. جاءت النساء في حشود إلى المستشفى، وغالبًا كُنّ نساء المنطقة التقيّات التقليديات. بعد ذلك جاءت ذوات القضيّة. وجاء بعض الرجال أيضًا، جيران لم يخافوا من تورّطهم مع شخص يرفع رأسه باستمرار فوق الحاجز. هذا بالإضافة إلى ماما طبعًا، صديقته الأقدم. قال إنهم جاءوا جميعًا، وكان هذا مفرحًا. وهنا أمسك بيد ماما. قال لحظتها إنّ صنائع المعروف الجديدة التي أُسديت إليه وقعت في قلبه مع بروز شَخصيته الجديدة. وحين خرج من المستشفى ظلّ الناس يأتون لزيارته، وظلّ للمعروف الذي يتلقاه وقع مريح في نفسه. إلا أن ماما شعرت بخليط من النشوة جراء احتضان الحلّاب الحقيقي لكفها وحديثه معها بحميميّة، والانزعاج في الوقت نفسه لأنها أدركت أخيرًا حينها، ما أحاول لفتها إليها

فيما يخص النسوة الأخريات.

إلى جانب شكوى ماما من شيخوختها، أخذت تتذمّر أيضًا من تطفّل النسوة التقيات سابقًا. كما كفّت ماما عن محاضراتها لي عن الزواج - وهذا في حدّ ذاته انفراجة حَسَنة جاءت من إصابة الحلّاب الحقيقي - ولم تعد تتحدث معي عن تولّعي بالرجال المتزوجين الخطرين. الأمر وما فيه أنها لم تعد تملك وقتًا لهذا. قالت: «ما يفتأن يَحمنَ حوله، فهن دائمًا عنده بمناوراتهن الماكرة، يجلبن له اللفت. رأيتهنّ محملات بهدايا الجزر والجزر الأبيض، يحملن حساءهن وكعكاتهن ومياه الزهر العطريّة ومغلّفاتهن الساحرة، تطلّ من جيوبهنّ بطاطس مغلّفة بورق الهدايا. يا للمخادعات! لا يُصدّق!». قلت لها: «أعلم يا ماما. فعلًا شيء لا يُعقل». فواصلتْ: «متهندمات أيضًا. يا ابنتي، ويعلم الربّ أنهنّ قد ودّعن الشباب—»، وهنا تذكّرت ما كانت تقوله لي من «نعم ولكن»، وأنها هي نفسها لم تعد شابة. فهرعتُ إلى مقاطعتها، وأكّدتُ على أنها بفضل طاقة الحياة العكسية بداخلها، كانت تزهر، وقد تخلّصت من فكرة العجائز التي تقول «**انتهت حياتي، فرغتُ من الحياة وعليّ أن أتدبّر أمري فيما تبقى وحسب**». كانت تحوم حول هذه الفكرة ولم ألحظ أنها كانت تراودها إلا حين كفّت. لكنّ ماما اندفعت إلى الحياة، تفجّرت براعمها الخضراء و— «حسّ المنافسة». هذه خلاصة «نعم ولكن»، وهي خلاصة لم أكن أنا لأصل إليها. قالت ماما: «لقد كبرتُ على الشعور بالغيرة. لم أعتد هذا الشعور. واعتقدتُ أني قد انتهيت منه. أتدرين يا بنيّتي، أظن من الأسهل عليّ آنذاك أن أدعو الرب لتحظى به بيغي أكثر من أن أدعو الرب لأحظى أنا به. أعني بسبب الغيرة، والغضب الذي ستصبّه الأخريات علي. أظنّ أيضًا أنّ الغيرة من إحداهنّ إذا ما حظيت به أسهل عليّ من أن أحظى أنا به وأُضطر إلى التعامل مع غيرتهنّ». ومثل مقعد جدة جدتي ونفرد، شعرتُ بأننا على وشك أن نخوض في ملاحظات ميكروسكوبيّة أخرى، وهذه المرة

عن الغيرة، وهو ليس مجرد موضوع لم أسمع ماما تتحدث عنه قط، بل لم أتحدث عنه أنا نفسي، ولا أود أن أقرّ به، على الأقل كي لا يحلّ عليّ طورُ «**نعم ولكن**» وطور «**الرعب من الآخرين وليس رعبًا مقتصرًا على الأيام الصعبة**».

هكذا إذن عادت «**نعم ولكن**» تطفو على السطح كي تواجه كلّ محاولاتي لرفع معنويات والدتي. فكّل ثناء أبدأ به على سبيل التشجيع تعترضه بـ «**نعم ولكن**» وترديه صريعًا. وحين تتوقف هذه الـ «**نعم ولكن**»، تنظر ماما إلى المرآة وتتنهّد. لا فرق، كانت مثل مصباح كهربائي، تُشعَل في دقيقة وتطفأ في التالية، ثم تُشعل، وتُطفأ، وهكذا ستمضي حتى الموت، ثم تنهض وتستجمع قواها. في تلك اللحظة ثمة فكرة خطرت لها فرأيتها تعبس على إثرها، وتنزعج.

«لا بأس بالنسبة إلى البعض في أن يتسكعوا حول العالم ويرقصوا ويظهروا متأنقين لامعين، دون أدنى حسّ بالضمير. أتعلمين يا ابنتي أنّ تلك المرأة التي ربحت منافسات الرقص الثنائي في التلفاز سَنينتي تقريبًا؟ بل إنها سنينتي! يمكننا جميعًا أن نبدو هكذا. أوه، من السهل أن نبدو هكذا، على قمة العالم، متطوّسات، بابتسامات خاطفة، وملابس برّاقة، وأجساد تتحرك مثل بطلات لامعات حتى قبل أن يطأن منصة الرقص. يمكننا كلنا أن نكون هكذا يا ابنتي مثلها، لو أننا فعلنا ما فعلته، أتعلمين ما فعلت؟ لقد هجرتْ صغارها الستة على الأريكة ليتدبروا أمرهم بأقصى ما يستطيعون ولا شيء عندهم سوى قطع من بسكويت فارليز. كل هذا من أجل أن تطارد متعتها وتحظى بأزخر مهن العالم شغفًا وأحداثًا. أيُّ سلوك هذا؟ أي أمٍّ تفعل هذا؟ حتى وإن كان من أجل المجد، وقمة المجد، أو حتى كي تكون واحدة من تلك الأرواح المؤثرة التي تدعم السلام والوحدة في مكان مثقل بتاريخ طويل من الكراهية والعنف. الرقص والثناء والصيت والمكانة الاجتماعية

والتقدير والشهرة ليست كلّ شيء في الحياة. ما كنتُ لأتخلى عن واجباتي، وأترك أطفالي ورائي». هذه العبارة تحديدًا أعادتها مرة أخرى إلى الدائرة العامة وعالم المهام اليوميّة.

ها هي الآن تتنهد وتسقط سقوطًا سحيقًا مع انطفاء مصباحها الكهربائي. ثم عادت إلى «لا أصدّق أنني أحاول فعل هذا، ألستُ كبيرة جدًا على هذه الأفعال! لا يمكن أن أرتدي ملابسكِ. ملابس فتيات صغيرات، ليست ملابس سيدات متقدمات في العمر»، ثم تقهقرت على حافة السرير جرّاء عجزها عن هذا، جرّاء غيرتها من والدة شبه الحبيب السابق التي تستطيع ارتداء مثل هذه الملابس. حينها تجلّى لي عجزي عن تدبّر أمر والدتي. لا يمكنني تولّي هذا من أجلها مهما حاولت. لا أملك ما يلزم لهذه المهمّة. لست من يقدر على إنهاضها، إذْ لا تستطيع أن تنتبه لي، فماما لا تقيم وزنًا لرأيي، وتهتمّ أكثر بـ«**نعم ولكن**». كما أنّ لديّ ما يكفي من مشكلات. كنت ما أزال آنذاك تحت ترصّد مِلْكْمَن. كان ما يزال على قيد الحياة، بل كان منغمسًا في التقدم والاقتراب في مداعباته المفترسة. أما ما يتعلق بماما فقد كنتُ في حاجة إلى تعزيزات، ولا يعني هذا سوى ضرورة استدعاء الأخت الأولى. قلتُ في نفسي ستعرف ما ينبغي فعله، ستعرف ما الذي تقترحه، وكيف تدعم ماما وتخرجها من هزيمتها وسلبيتها. والأخت الكبرى لن ترضخ لمقاطعات «نعم ولكن». **لا بدّ أن أحضر الأخت الأولى**، وبات **إحضار الأخت الأولى** أولويّة في تفكيري.

وهكذا فيما كانت ماما تصارع «النعم ولكن»، ورأسها بين كفيها على حافة السرير، في حالة بائسة تعود إلى رغبتها في الإيثار والتخلي عن الحلّاب الحقيقي لوالدة الفتى النووي، وبينما كانت الأخوات الصغيرات يبذلن جهدهنّ لإخراجها من هذه الحال، هبطتُ الدرج والتقطتُ الهاتف. كنتُ

متوجّسة من مهاتفة الأخت الأولى جرّاء كل ذاك التوتر الذي نشأ بيننا وتراكم آنذاك. كان قد وصل إلى مرحلة المقاطعة، وقد أدركت كلّ منا ذلك دون شك. كنا ندرك أيضًا أنني ما لم أصدّ مِلْكْمَن، وما لم أقلع عن فجوري وتورطي في سلوكيات شائنة مع مِلْكْمَن، وما لم تكفّ هي عن اتهامي زورًا بعلاقة مع مِلْكْمَن، فلا شكّ أنّ التوتر بيننا سوف يتطور عما قريب إما إلى عنف جسدي، أو إلى ما هو أسوأ، أي إلى عنف لفظي محمّل بكلمات بذيئة لا تُغتفر. لكن لا مناص من مجابهة هذه المهاتفة. لا بد أن أخبرها فورًا قبل أن تشرع في إهانتي أنني أتصل بها ليس من أجلي، ولا من أجلها، ولا من أجل مِلْكْمَن، ولا من أجل زوجها الكريه. بل لأنّ ماما في مشكلة، وتحتاج إلى مساعدة عاجلة، مساعدة الأخت الأولى. سأقول لها إنها تحتاج إليها الآن. فإن انطلقت الأخت في الحديث عن مِلْكْمَن، إذ يبدو أنّ هذا سلوكها القهري معي فلا تستطيع مقاومته، وإنْ رددتُ أنا بغضب، وهو ما سأفعله، بالنظر إلى كون هذا سلوكي القهري معها، فإحدانا على الأرجح ستغلق الخط في وجه الأخرى. لن يسعدني ذلك. أدرك أنه لن يسعدني، غير أنها كانت كما يبدو مخاطرة لا بدّ أن أخوضها. لذا التقطت السماعة، وكالعادة رحتُ أبحث عن أدوات التنصت، والتي كالعادة لا أعرف شكلها. ثم اتصلت بها. خطر لي وأنا أسمع رنّة الاتصال أنّ زوجها قد يجيب، ففكرتُ في مسألة إغلاق الخط، إلا أنه لم يجب. أجابت الأخت الأولى، وحينها تذكرت أنه لن يجيب، فالصهر الأول كان طريح السرير يومها، بعد أن جَلَده المناوئون.

وكي أتجنّب الشجار الفوري شرعتُ في مقدمتي كما خططتُ لها. «مرحبا أيتها الأخت الكبرى. أتصل بكِ بأمر يخصّ ماما»، وطفقتُ أشرح من فوري: «... ولهذا فهي في حاجة إلى المساعدة... نعم صحيح، صديقها، الرجل الذي لا يحب أحدًا... نعم... لا... يبدو يا أختي أنها لا تريد أن

تظلّ مجرد صديقة... تعتقد أنها لا يجب أن تحظى به بسبب النساء التقيّات سابقًا، فقد بذرن في نفسها شعورًا بالذنب — ماذا؟... نعم، أهاه... هذا صحيح. هذا ما كنتُ أقوله لها ولكن... نعم، قلتُ هذا أيضًا لكنها لا تستمع إليّ... أعلم هذا يا أخت، ولكن لا تنسي أنها فقدت أعصابها، ولا تنسي أنها لم تمرّ بهذه التجربة من قبل. فلم تنشغل بهذه الأمور منذ بابا». لم أتطرق لفكرة الزوج الخطأ، فقد تتحسّس الأخت الأولى وتكون هشّة في الأصل من هذا الموضوع. قلتُ بعجلة: «فالأرجح أنّ سنوّات كثيرة مرت... ماذا؟ أوه، لم أفكر في هذا لكنه لا يفيد، لأنني لا أستطيع أن أنفعها... هذا ما كنتُ أحاول أن أقوله لها غير أنها لا تقول سوى نعم ولكن، ونعم ولكن، ثم يصيبها الغمّ من ملابسها، وجسدها، ومقعد لا يتسع لها... نعم، مقعد. لا. مقعد! نعم قلتُ «مقعد»!... لا أصرخ! لا يا أختي لا أضخّم الأمور. ألا تسمعين انتحابها وتنهداتها بنفسك؟ اسمعي». وهنا رفعتُ السماعة للأعلى باتجاه الطابق الأعلى حيث كانت تندلع أشكال من التعبير الحاد عن العذاب الذهني في غرفة نومي. كما رافقتها محاولات الأخوات الصغيرات الشجاعة للتخفيف عنها، فكنّ يخبرنها بأنها تبدو تمامًا كما يفترض أن تبدو، والذي بالنظر لحالة ماما الذهنية، لا يجب أن يقال حينها. كانت الأخوات الصغيرات يتعاقبن على محاولات تهدئتها والركض إلى الأسفل ليستمعن إلى ما يحدث في هذا الطرف من المحادثة الهاتفية، ثم يعدن مجددًا لمحاولة التخفيف عن ماما ويشهدن على أحدث الشكوك وهي تولد هناك. قلت وقد أعدتُ السماعة إلى أذني: «أترين؟ هل ستأتين يا أختي؟ فهي بحاجة إلى المساعدة. تحتاج إليكِ. أنتِ الوحيدة التي يمكنها تغيير هذا والنفاذ إليها، أنتِ التي تعرفين كيف تتحدثين إليها، وتساعدينها، وأنتِ التي تستطيعين أن تفعلي شيئًا في مسألة ثقتها ومظهرها وثيابها. أنا لا أستطيع، بل أنتِ. فهل ستأتين؟ هل تستطيعين المجيء؟ ألا تستطيعين المجيء؟ الآن؟».

كان هذا تقريبًا ما قلته، كما تعمدت قول «الرجل الذي لا يحب أحدًا» بدلًا من «الحلّاب الحقيقي». فأيّ ذكر لكلمة حلّاب [مِلْكْمَن] - أي حلّاب كان - سيسبّب قشعريرة بالتأكيد. لم تتوقف الأخت. قالت إنها ستكون هنا خلال «خمس عشرة دقيقة وعشر دقائق» أي خمسًا وعشرين دقيقة وهو مفهوم، فمنطقة العشر دقائق كئيبة ومخيفة لدرجة أن لا أحد يرغب في احتساب وقتها مع الوقت الطبيعي. قلت: «سأخبرها. شكرًا أختي»، وتوادعنا. كان يمكن أن يكون وداعًا طويلًا مرهقًا كعادة الوداعات المعتادة لولا ذلك التوتّر القائم بيننا بسبب موضوع مِلْكْمَن. في الواقع قلنا بضعة وداعات وليس وداعًا واحدًا أو دون وداع، وتلك علامة على تحسّن مبدئي في العلاقة بيننا. انتهت المهاتفة إذن وكانت قادمة، دون شجار كبير، ودون صفعات متخيّلة، لم تقل إحدانا كلمات نندم عليها لاحقًا ولا نستطيع محوها. حمدًا للرب، ستكون هنا خلال خمس عشرة دقيقة وعشر دقائق لتصلح حال ماما. أعدتُ السماعة حينها غير عابئة بعدها ما إذا كانت أدوات التنصّت تستمع أم لا. تنهدت ارتياحًا، ثم جهّزتُ نفسي بحكم العادة لمواجهة ماما من جديد.

وصلت أختي فعلًا بعد خمس عشرة دقيقة وعشر دقائق كما وعدتني. أحضرت معها ملابس وحلية تلائم والدتي والغرض المطلوب، مع أطفالها الثلاثة التوائم الغرار وابنتها. أما زوجها فقد تركته في المنزل يداوي جروح العدالة وحده. اضطلعتْ بالمسؤولية فورًا، وكنتُ واثقة أنها ستفعل، ويليق بها أن تفعل، إذ إنها أكثر تواصلًا مع ماما، فطالما تطابقت آراؤهما، وتناغمن معًا، فهي أقدر مني على تعزيز طاقة ماما الروحية. ودونما خطأ، كانت محقّة تمامًا في تحديد ما ينبغي فعله، فطفقت توزّع المهام علينا. هكذا أصبحنا أنا والأخوات الصغيرات وصغارها سُعاةً نحضر لها المطلوب، فيما هي تعمل

على طمأنة ماما والتخفيف عنها. تلاشت النعم ولكن، من تلقاء نفسها دون أيّ معركة مع أختي. شارك بقيتنا، وقمنا ببعض المهام التي كنا سعداء بتنفيذها من أجل ماما. في تلك الأثناء انتعشت ماما وسَكنت، وازدادت ثقة بنفسها. انتعشتْ الأخت الأولى أيضًا، وبدت أقل حزنًا وأسى. فلما عمّ السرور ماما، والأخت الأولى، والأخوات الصغيرات، وصغار أختي، وأنا، قلتُ سأنزل إلى الطابق السفلي وأوقد على إبريق الشاي.

مرّ أسبوعان كاملان منذ أن سمّمتني فتاة الأقراص، ومنذ مقتلها أيضًا، ومنذ انتعاش غرام ماما وتزعزعها المتعلق بالحلّاب الحقيقي. مر يومان أيضًا على حادثة الطاهي وشبه الحبيب السابق وتخطيطهما للسفر إلى أميركا الجنوبية، ومنذ مقتل مِلْكْمَن، ومنذ أن ندم فلان الفلاني على أفعاله وانشغل بمداواة جروحه. ها أنذا، بحياة عادية روتينية تنطلق مجددًا. كنت في المطبخ، أعدّ العشاء للفتيات. قبل أن ينطلقن ليتحلن الثنائي العالمي وقبل أن أرتدي ملابسي الرياضيّة، وأذهب للمرة الأولى منذ أن تسمّمت إلى منزل الصهر الثالث. قالت الأخوات الصغيرات من الأفضل أن أسرع، فجميعهنّ متأهبات للذهاب، جميعهن مستعدات للّعب حالما يفرغن من الطعام، وكالعادة كان فري بنتوس ما يردنه للعشاء. ثم قلن: «مع بطاطس. أو كعك باريس. مع بطاطس» أو «موز مع بطاطس» أو «بيض نصف مسلوق مع بطاطس» أو «فطائر من المتجر وبطاطس». ظللن هكذا، وكل شيء يردنه مع البطاطس رغم أني أوضحت لهنّ أنّني لن أستطيع إعداد البطاطس لهنّ. سبب ذلك أنني لا أعرف كيف أقليها، وأنني سأحرق المنزل لو حاولت، رغم أنّ هذا لم يثبت بالتجربة، ولهذا لن أجرّب. ولا أستطيع أن أحضرها جاهزة، فلا يمكنني أن أواجه العودة إلى متجر المقليات حتى بعد موت مِلْكْمَن، بل الأحرى لأنه مات. فالباعةُ الذين رضخوا لي رغم أنّي لم أجبرهم

على الرضوخ قد يكشفون عن ضغينتهم، وقد تكون مسألة وقت لا أكثر حتى يرغبوا في استعادة نقودهم، والثأر مني. موضوعي مع مِلْكُمَن لم ينته بعد. كنتُ أعرف أنه لن ينتهي. ففي هذه الأشياء ينبغي أن تتعامل مع كل يوم وكل شخص وكل انتقام على حدة، واحدًا بعد الآخر. قلتُ للأخوات الصغيرات يمكنهنّ أن يتناولن ما يردنه مع فري بنتوس بدًلا من البطاطس، سواء أكان حلوى أوبال فروتس، أو العرقسوس، أو الكريمة المثلّجة، أو أي طبق من أطباق الويفر التي تقطر صلصة محلّاة في ورق يؤكل مع فوار يفرقع على اللسان، إذ كنتُ أعرف أنهنّ يتلذذن بتناوله، مع شمندر مسلوق. قلت: «أي شيء. يمكنكن طلب أي شيء ما لم يكن بطاطس مقلية»، وهي جملة نصفها سارّ ونصفها محبط، ولكن في النهاية رسين على تنويعات لوجبات الأطفال الخفيفة ذاتها التي حلمتُ بها أحلام يقظة فيما كنت أتعافى من التسمم. أعددتُ شايهنّ، أي أنني أخرجته من الخزانة. لكنهن كن يصحن طوال الوقت: «الأخت الوسطى! عجّلي أرجوكِ. ألا تسرعين؟ أعدّي لنا كميات بسيطة أرجوكِ. ألا يمكن أن تسرعي أكثر؟».

ناولتهن الطعام فتناولنه كله، ثم هرعن لتقليد الثنائي العالمي. نظرتُ عبر النافذة في طريقي إلى الطابق الأعلى لأبدّل ملابسي من أجل الجري، فرأيتُ أنّ تقليد الثنائي العالمي قد انطلق فعلًا. الفتيات الصغيرات يسقطن في كل مكان. بدا أنّ كل فتيات الحي قد خرجن ليرقصن، ويتخبّطن، ومن الوهلة الأولى بدين أشبه بالثُّريّات بزينة مضافة من التطريز الذهبي وورق الحائط المنقّش. فلما خرجتُ من البيت كانت الشوارع تضجّ بهن: بشرائطهن وحريرهن وقطائفهن وكعوبهن العالية، بتنانيرهن الواسعة، يمضين أزواجًا أو فرادى يتظاهرن بوجود رفيق، يرقصن الفالس ويسقطن من وقت لآخر. في ذلك الوقت كان الفتية الصغار، وهم غافلون عن الفتيات الصغيرات، ومتوقفين مؤقتًا عن عملياتهم ضدّ الجيش المحتل لأنه على الأرجح غير

موجود حاليًا، يتناوبون على دور الفتى الطيب في مسرحيتهم الجديدة عن آخر شهيد قتل في المشكلات السياسية: المناوئ البطل مِلْكُمَن، الذي لوحق، واستُهدف، ثم أُردي قتيلًا ضمن خطتهم الجبانة على طريقتهم دائمًا في كتيبة القتل التي تحرّكها الدولة الإرهابية.

***

«اللعنة. اللعنة».

كنتُ أعرف أنه شعر بوجودي، شعر بأني هناك، لكن لم يلتفت صوبي، هناك في حديقته، وهو يرتدي لباس الجري، يهتمل هتملاته المعتادة أثناء الإحماء. لم ينظر إليّ، لم يفعل شيئًا ينمّ عن اعترافه بمجيئي وانحنائي لأفتح بوابة منزله الصغيرة. خمّنتُ أنه ما يزال مستاء، أعني على إثر المهاتفة التي أجراها قبل فترة مع ماما بشأن تفويتي جولات جرينا. بسبب هذا، وبسبب شكّه في صدقي حين اشتكيتُ من وهنِ ساقيّ وجسدي، واختلال اتزاني، وتعثّري، ووقوعي، قلتُ في نفسي من الأفضل أن أشرع في تمارين المدّ بصمتٍ إلى جانبه دون محاولة للتبرير. وهذا ما فعلته. بعد برهة قال، دون أن ينظر إليّ: «ظننتكِ أقلعتِ عن الجري»، فقلت: «لا، كان مجرد سم». قال: «مضت أيام وأيام، ولم يبد لي أنكِ ستأتين للركض». «كانت محاولة قتل أيّها الصهر». «هذا ما يقوله الجميع يا صهرة. هناك فرق بين أن تقولي—» وهنا كان صوته محتدًا متوترًا جريحًا «لا، ليس اثني عشر ميلًا، ليس ثلاثين ميلًا»، فلو قلتِ ذلك لكان اعتراضًا مقبولًا. أما أن تقولي أو تجعلي والدتكِ تقول – «لا، إلا الجري، لن تعاود الجري مجددًا»، فهذا جارح».

لم ينظر إليّ بعد، وانتقل إلى عضلة وركه القابضة. أدركتُ أن عليّ إنقاذ الموقف، أن أقدّر مبعث استيائه، أن أهوّن على قلبه الموجوع. الطريقة المثلى

لتحقيق ذلك هي أن أستنهضه كي يحثني على أن أستأسد عليه، وهذا الذي يحاول في الوقت الحالي على الأقل أن يفعله. لذا فقد وقع على عاتقي حينها أن أقول: «حسنًا. هذا يكفي. سنجري عشرين ميلًا اليوم»، لكنني لم أكن واثقة من قدرتي بعد على الجري عشرين ميلًا. لم أكن متأكدة حتى من قدرتي على عشرة أميال، بل حتى خمسة أميال، لم أكن أعلم حقًا، رغم تعافي ساقيّ، ما إذا كنتُ مستعدةً للجري أساسًا. افترضتُ أنّ بمقدوري إلقاء بعض الأرقام المتضاربة من الأميال التي لن نجريها، لكنه قاطعني معلنًا أننا «سنجري اثني عشر ميلًا اليوم»، مفتتحًا المزاد قبل حتى أن أحظى بفرصة. «لن نجري اثني عشر ميلًا، ولا أحد عشر حتى»، وهكذا حققتْ الحيلةُ مرادها إذ بدا حينها - وكأنني قد ضغطتُ مفتاح التشغيل - هادئًا ومصدومًا في الوقت نفسه. صاح: «بالطبع لن أقبل **ولا أحد عشر**». فقلت: «بلى. لا أحد عشر، ولا تسعة ولا ثمانية». فقال: «إذن سنجري تسعة أميال». فقلت: «لا. لا تسعة ولا سبعة ولا ستة. ربما خمسة. سنقطع ستة أميال». فصاح: «ستة أميال لا تكفي! ستة أميال! ستة أميال لا أكثر؟ ماذا عن ستة مضاعفة يا صهرة، أو ستة أميال مضافة لثلاثة أخرى أو ...». بطبيعة الحال كان بإمكاني أن أجيبه: «اسمع يا صهر. يمكنك أن تجري أكثر إذا أردت. بل لم لا يفعل كل منا ما يحلو له على حدة؟»، إذ لم يعد يهمّ أن نجري معًا، بعد وفاة مِلْكْمَن. لم أعترف بهذا صراحةً، أعني لنفسي، إذ سيضح لي أنني أصبحت فتاة سيئة غادرة ميتة القلب. لكنّ الحقيقة هي أنّه بعد قول مِلْكْمَن «**أنا ذكر وأنتِ أنثى**» وقوله «**لستِ في حاجة إلى هذا الجري**»، إضافة إلى نواياه الخفيّة على نحو «**سأحدّ من حركتك وأعزلكِ وعما قريب لن تعودي قادرة على فعل شيء**»، وبعد أن خرجتُ من حالة التخبط والتعثر لشهرين، من حالة تعطل ساقيّ بغرابة وتحوّلها فورًا بعد مقتله إلى ساقين تعملان جيدًا، شعرتُ بالأمان مجددًا كي أجري بمفردي. لكنني قررتُ أن أواصل جريي مع الصهر الثالث مؤقتًا،

أو على الأقل إلى أن تعود إليه نوبة جنونه. قلت: «ستة أميال فقط»، فخضع في النهاية. قال: «حسنًا»، وأضاف أنه محتج على الستة أميال، ولكن ربّما بمقدوره تلافي النقص في الأميال بالقفز أو المزيد من القرفصة وثني الساقين لاحقًا في نادي الملاكمة. قال «أنا منزعج من هذا»، ولكن لم يبد أنه منزعج. بل على العكس بدا سعيدًا، ما يعني أننا عدنا صديقين مرة أخرى. في تلك اللحظة ظهرت زوجته، الأخت الثالثة، بجانب رفيقاتها الصاخبات، وكلّ واحدة تحمل كأسًا. معهن قناني إضافية، وأكياس تغصّ بها اشترينه من الأسواق والمتاجر والحانات التي كنّ فيها طوال اليوم.

قلنَ: «ربّاه، نحن سكارى»، ثم وقعنَ ومعهنّ أختي فوق الوشيعة. انفجرت أختي بكلمات يمكن تشفيرها إلى نجوم وعلامات مئوية وعلامات متقاطعة وعلامات عطف وعلامات حروف العلة ومربعات الوسوم وعلامة الدولار، أي كلّ تلك الشتائم البذيئة. قالت صديقاتها وهنّ يحملن أنفسهن عن العشب، مع القناني والمشتريات: «قلنا لكِ يا صديقة. حذّرناك. مزعج هذا السياج، مشؤوم. تخلصي منه». فقالت الأخت: «لا أستطيع. لديّ فضول أن أرى كيف ينمو ويتفرد». «باستطاعتكِ أن تري كيف ينمو ويتفرّد. لقد نما فصار كيوم التريفيدات[1]. سيتفرد بمحاولة قتلنا». قطعن بعدها هذا القدح في الوشيعة وحوّلن انتباههن إلينا.

بدأن بالصهر الثالث.

قالت إحداهن: «سمعتُ أنك تضرب النساء في منطقة الحدائق و—»، لكنها لم تستطع أن تكمل جملتها لأنّ الصهر الثالث فزّ من تمارين المدّ بمجرد أن سمع أولى كلماتها. «ماذا! من يشيع هذا عني؟»، فقالت الأخت الثالثة

(1) إحالة إلى رواية «يوم التريفيدات Day of the Triffids»، والتريفيد نبتة خيالية سامّة شريرة متحرّكة ابتكرها المؤلف جون وِندَم في روايته هذه المنشورة عام 1951م.

لصديقاتها «كفى». واستدارت نحوه: «اهدأ أيها الحمل الوديع. تجاهل الأمر. فلسن سوى حشائش سوداء شريرة بالنسبة إلى حساسيتك المضيئة». فهمتُ ما تعنيه رغم صعوبة الإمساك عن الضحك والإشارة إلى الصهر الثالث على أنه أثيريّ هشّ - وفقًا لرؤية صديقاتها الضاحكات -. لو اختير أحد من بيننا على أنه الأكثر تواضعًا وبراءة، لقلتُ، وقالت أختي، وقالت صديقاتها رغم ضحكاتهم: «إن كان لا بدّ من اختيار، فسيكون على الأرجح هو».

قالت الأخت الثالثة: «انطلتْ عليه!» ثم اندفعت إلى زوجها، فلاحظتُ، كما قالت ماما، رشاقتها وخفّة خطوتها، حين لا تقع على الوشيعة. قال الصهر وقد خفّت صدمته لكنه ما يزال مترنحًا من أثر التهمة: «تعنين أنّ ما قالته ليس صحيحًا؟». «بالطبع ليس صحيحًا. أن تضرب—». قاطعها: «لا أقصد هذا. أقصد افتراء أحدٍ عليّ». «لا أحد يفتري عليك». وهنا اشرأبّت الأخت الثالثة كي تقبّل زوجها قبلة مدوّية على شفتيه. فقال: «لا»، ثم نحّاها جانبًا. «لست في مزاج يسمح بتقبيلكِ». ثم استدار للأخريات اللاتي ضايقنه، وصدمنه، في قضية لا يجب أن يُمزح فيها ولا يمكن أن يُتهم هو نفسه بها، خاصة من الجنس الذي لا يتوقع منه السخرية من هذه المبادئ. قال: «توقّفنَ عن هذه الاتهامات وتشويه السمعة. اختلاق الأمور عن الآخرين ليس مضحكًا، وتشويه سمعة الرجال الخيّرين كذلك. لستنّ طفلات، فتصرفن بما يليق بأعماركن».

لم يتأثّرن البتّة. إذ انتقلن إليّ أنا بعد ذلك.

صرخت إحداهن: «أوه، انظرن هنا»، رغم أنّ جميعهن كنّ ينظرن سلفًا. فصرخت أخرى وهي تشير إلى الصهر الثالث: «متطابقان! هل أنتما ذاهبان إذن إلى الحفل السنوي لأصحاب الكدمات السود؟». عندها استدار الصهر الثالث ورأى كدمة عيني السوداء، ورأيتُ أنا كدمة عينه السوداء أيضًا.

لم يكن من العادة أن تظهر على الصهر الثالث هالات أو كدمات سود، لكنها كانت تظهر عنده أكثر مني. حين رأيت كدمتي في المرآة صباح ذلك اليوم كانت الطريقة الوحيدة للتخفيف عن نفسي أن تذكّرتُ أنّ فلان الفلاني لقي عقابه. لا بدّ أنه أصيب بعشرين كدمة مثلها على الأقل، من النسوة، ورجالهنّ، والمناوئين، ولا بدّ أنّ كدماته أشدّ سوادًا. قلتُ لصورتي في المرآة: «سيتأدّب»، ثم تساءلتُ هل أذهب إلى العمل أم لا. في نهاية الأمر ذهبت، بعد أن أخفيتُ الكدمة بِطَنٍ من مستحضرات التجميل. مع هذا - وقد اكتشفت حين خرجت - لم يكن ما فعلته ناجحًا تمامًا.

قال الصهر الثالث: «إذن فما سمعتُه صحيح. سمعتُ شائعة، لكنها صادرة عن صهركِ الأول فلم أعبأ بها. ولكن هل صحيح أنّ ذاك الخرائيّ خراء الفلانيّ هو من فعل هذا بك؟». هززتُ كتفيّ، بمعنى نعم، ولكنّ الأمر انتهى وقد لقي جزاءه. قلتُ: «آخ»[1]، والتي قد تعني أيّ شيء وفقًا للسياق. في هذه المرة كانت تعني انسَ الأمر أيّها الصهر، فقد تدبّروا أمره. علاوة على ذلك، فبالمقارنة مع كل ما كان يحدث - وبالأخص ما كاد أن يحدث في الليلة السابقة لو أنّ مِلْكْمَن لم يُقتل ودفعني إلى لقائه - فإنّ الضربة التي تلقيتها من فلان الفلاني لا تساوي شيئًا. قلت: «لا وزن للأمر». فقال: «بل له وزن بالنسبة إليّ أيّتها الصهرة. ماذا عن المبادئ؟ أنتِ امرأة. وهو رجل. أنتِ أنثى. وهو ذكر. أنتِ صهرتي، ولا يهمني عدد القتلى في أسرته. إنه نغل، وسيظلّ نغل حتى لو لم تُقتل عائلته». لم يُقتلوا. أربعة فقط. أما الاثنان الباقيان فأحدهما انتحر والآخر مات ميتة عرضيّة.

كان الصهر حانقًا للغاية، وقد لمسني حنقه. كان فلان الفلاني مخطئًا.

---

(1) «آخ ach» بالأيرلندية تعني حرفيًا «لكن»، وتُستخدم غالبًا بمعنى «أوه» غير أنها قد تؤدي دلالات أخرى كذلك. (المحرّر).

والناس في هذا المكان يعبؤون بمثل هذه الأخطاء. غير أنّ هناك أمرًا آخر في الصهر الثالث، أمرًا يتعلق بالاختلال الذهني الغريب الذي يصيبه مع النساء. فرغم كلّ تقديسه للمرأة، وإيمانه بقدسية الأنوثة، وأنّ النساء كائنات أسمى، ومسألة لغز الحياة وما إلى ذلك، إلا أنه لم يكن يفهم أيّ انتهاك يصيبهنّ إلا على نحو ما يسميه هو **اغتصابًا**. والاغتصاب بالنسبة إلى الصهر لا ينقسم إلى تصنيفات. الاغتصاب ليس شيئًا مواربًا، ولا لعبة لغويّة، ولا حججًا مخادعة، أو ربع شيء أو نصف شيء أو ثلاثة أرباع شيء. الاغتصاب ليس مجموعة أشياء تُقدّم في حُزمة. الاغتصاب هو الاغتصاب. وهو الكدمات السود أيضًا، والمسدسات المغروسة في الصدور. هو الأيادي والقبضات والأسلحة والأقدام إذا ما استخدمها البشر الذكور -عمدًا أو خطأً- ضدّ البشر النساء. لو كان هناك «تيشيرت» مكتوب عليه «**إيّاك أن ترفع إصبعًا على امرأة!**»، لارتداه الصهر الثالث وأحرج الجميع. ووفقًا لدستوره، ودستوري أيضًا، على الأقل قبل أن يفترسني مِلْكَمَن وتفترسني الجماعة معه، فإنّ الانتهاك الجسدي واللفظي هو الذي يُعتدّ به. هذا يعني أنّ ما لا يندرج تحت هذا الانتهاك - مثل الترصّد دون لمس، والمحاصرة، والسيطرة، والتحكم في شخصٍ ما دون أن يقع لحمٌ على لحم أو عظم على عظم - لا يدخل في الاعتبار. لذلك فإنه من بين كلّ الذين سمعوا بإغواء مِلْكَمَن إياي، يبدو أن الصهر الثالث هو الوحيد الذي اعتبر جازمًا أنّ شيئًا لم يحدث.

كان عجزه عن رؤية الانهيار النفسي واحدًا من مثالبه. أما الكدمة السوداء فقد رآها. قلتُ له: «فلننس الأمر يا أيّها الصهر. صدّقني لقد لقنّه مئات الآلاف من الأشخاص ما يستحق». ثم أضفتُ أنّ فيما حدث شيء من المصادفة، شيء من النعمة الإلهية، الماهرة، شيء من القصاص الكونيّ الذي يمكن أن يوصف بأنه عملية سحرية صرف. قلتُ وأنا أحاول أن

أصرفه عن الأمر: «لذلك، لا حاجة إلى فعل شيء آخر». كنتُ متعبة من كدمة العين، متعبة من فلان الفلاني، متعبة من قوانين الحيّ وأنظمته. أما المبادئ، فيمكنك القول أحيانًا «وفّر المبادئ لنفسك»، مثلما يحدث معي الآن حيث نفدت طاقتي في هذا الشأن. قلت: «ليس هناك داعي إذن»، وأضفتُ أنه إنما يحاول أن يؤخرني عن المضيّ إلى الأمر التالي، ألا وهو الجري. ثم قلت: «ولكن شكرًا أيّها الصهر. لا تعتقد أنني غير ممتنة». بعد برهة صمت قال الصهر الثالث إنه رغم ما قلته ذاهب ليوسعه ضربًا. قلت: «لا ضرورة لذلك»، فقال: «بلى». قلت: «آخ». فقال: «لا آخ». قلت: «آخ لا بأس». فقال: «آخ لا بأس ماذا؟». قلت: «آخ لا بأس، إن كان هذا ما تشعر به». فقال: «آخ لا بأس، بالتأكيد هذا ما أشعر به». قلت: «آخ، حسنًا إذن». قال: «آخ». قلت: «آخ». قال: «آخ». قلت: «آخ».

هكذا انتهى الأمر. عدنا إلى تمارين المدّ، وكانت الأخريات قد اندهشن من حوارنا ثم مللنه، فأخرجننا من التمارين. قالت أختي أخيرًا: «أوه، لكنكِ تعيشين حياة مثيرة أيتها الأخت الوسطى»، فلم أعتبرها إهانة بل وجدتُ التعليق مضحكًا، ثم استدرن جميعًا وحشرن أنفسهن في ذلك المنزل الصغير، منزل الأخت الثالثة والصهر الثالث. وما لبث أن جاء عبر النافذة صوت الأكياس وصيحات الإعجاب بالمشتريات، والشراب والكؤوس ومنافض السجائر وإلفس برسلي. في أثناء ذلك استأنفنا أنا والصهر الثالث تمارين المدّ، ثم قال: «بخير؟ هل أنتِ بخير؟»، فقلت: «نعم، هيّا، سنفعلها». وفيما نحن نقفز فوق الوشيعة الخفيضة كي لا نشغل أنفسنا بالبوابة الصغيرة، أخذتُ أعبّ نور المساء فأدركتُ كم كان هذا مريحًا، وهو الذي قد يصفه غيري بأنه مريح قليلًا. فلما صعدنا على الرصيف متجهَين صوب منطقة الحدائق والسدود زفرتُ ذلك النور، ولوهلةٍ، لوهلةٍ لأكثر، كدتُ أن أضحك.

شكر وعرفان

شكرًا لكل من:

كيتي نيكلسن، كلير ديمند، جيمس سمِث، جِرارد مكدونلد، كارلوس بينا مارتن، جولي رغنز، ميا توبلِي رغنز، بِل توبلي رغنز، لِسِت تيزديل، مايك تيزديل، كيتي تيزديل، دان تيزديل، جورج تيزديل، بات ثاتشر، سارا إفانز؛ الصندوق الأدبي الملكيّ، جو بيرنز، كاثِرن بيرتشوُود، ماغي بَت، جين وايلد، جُودي هندلي، جون هِندلي، براين أوتن، سالي أوتن، لِز كي، هيلين كولبك، فيرجينيا كرو، بات فِغنيشفارن، ك. فيغنيشفارن، آن رادلي، نايجل ستيفن، توني دوسن، رسل هاليل، آني دروري، مارك لامبرت، آرتشي، سيلينا مارتن، ميكائيلا هركومب، ديفد كوكس، ماريان مكدونلد، تشارلز والش، آسترِد فرمايستر، فيزنا مين، بيتر مين، جانين غيرهارد، وكيل أعمالي ديفد غروسمن، لويزا جوينر وكل فريق دار النشر فيبر، إيان كرتشلي محرّر الرواية، هيزل أورم، محرّرة رواية إنشاءات صغيرة، مورين روبريشت فيدم، جيمس غاردنر، جوان وِغنل، تيري هاول، كرستين توت وجون شو (اللجنة) في ملجأ «ليوِس دِستركت تشرتشز هوملِنك»، بنك الطعام نيوهيفن، نِكي غري (الذي كان يعمل سابقًا في اتحاد تنمية المجتمع في سَسكس بنيوهيفن)، مؤسسة هامبتن ألوتمنت الزراعية الخيرية، جمعية الكتّاب؛ نظام الاستفادة من الضرائب البلدية والإسكانية، نظام وزارة العمل والضمان الاجتماعي، مجلس دعم الطفل والحماية الاجتماعية في برايتون، متضمنة الدكتور ر.د.س واتسن والقاضي آ.ج. كِلي، وحاجب المحكمة النبيل الطيب الذي لم أعرف

اسمه للأسف، إلِزابث فِن غرانتس.

وُهبت على مرّ السنوات هدايا ومساعدات كثيرة تنبئ عن لطف غامر ومراعاة جزيلة، سواء من الأصدقاء أو الغرباء. أرجو أن أقيم حفلًا ضخمًا ذات يوم كي أشكرهم جميعًا، ولكن ليس بعد، فعليهم أن يدفعوا ثمن ذلك.

خاطرة أخيرة:

شكرًا لي.

شكرًا لمؤسسة «ذا وايت إيغل لوج» الروحية التي وضعتني على قائمة الدعاء بالشفاء.

للروح القدس: شكرًا لك.



في مدينة غير مسمّاة تلفت الأخت الوسطى الانتباه جراء سلوكها غير المألوف. فهي تقرأ بينما تمشي، مثلًا. كما التحقت بصفٍ ليلي في وسط البلدة لتتعلّم اللغة الفرنسيّة. حينما يبدأ فرد من الجماعات العسكريّة في ملاحقتها تصبح فجأة «مثيرة للاهتمام» وهو آخر ما ترغب هذه الفتاة أن تكونه. خلال محاولات الأخت الوسطى لتجنّب هذا الرجل -وأثناء محاولاتها لتبقي والدتها بعيدة عن معرفة أمرها مع شبه الحبيب- تنطلق الشائعات حولهما وتتوالى عليها تهديدات العنف.

"مِلْكْمَن" قصة عن الكيفيّة التي تقع بها تداعيات جسيمة على المرء حتى حين لا يفعل شيئًا، في وقتٍ ومكانٍ يجلب فيه العلم المنبوذ والدين الخاطئ، بل وحتى النظر إلى غروب الشمس، دمارًا للفرد. دشّنت "مِلْكْمَن" اسم آنا بيرنز بصفتها واحدة من أهم الأصوات السرديّة في وقتنا.

«عمل أصيل مدهش، لم يقرأ أحد منّا عملًا أدبيًا مشابه له قط، صوت آنا بيرنز المتفرد كليًا يتحدّى الفكر والبناء التقليدي، بنثرٍ خلّاق غزير ومفاجئ. غزلت القصة عن مقاومة انتهاك جنسي وحشي بسخرية لاذعة.... منذ الافتتاحية تجذبنا مفرداتها إلى عنف عالمها اليومي، إذ ثمّة تهديدات بالقتل وأشخاص قتلتهم فرقة اغتيالات الدولة، فيما تتعاطى هي مع مجريات حياتها حينما كانت شابّة.»

- كوامي أنتوني أبيا، رئيس لجنة تحكيم جائزة مان بوكر لعام 2018.

....

وُلدت آنا بيرنز في "بلفاست" بأيرلندا الشمالية عام 1962، ونشأت في حيّ "آرْدوين" الكاثوليكي في الفترة التي عُرفت بسنوات "الاضطرابات". في عام 1987م انتقلت إلى لندن لدراسة اللغة الروسية، لكنها لم تنهِ دراستها. نشرت ثلاث روايات ونوفيلا، وقد فازت روايتها الأولى "لا عظام" بجائزة "وينيفرد هولتبي" عام 2001م.

أما روايتها "مِلْكْمَن" التي كتبتها في 2014 ورفضتها عدة دور نشر قبل أن تُنشر في 2018م، فقد حصدت عدة جوائز أهمها جائزة "المان بوكر" عام 2018م، وجائزة "دبلن الأدبية" عام 2020م، بالإضافة إلى جوائز أخرى. وبذلك تكون آنا بيرنز أول فائز بجائزة المان بوكر من أيرلندا الشمالية.

ISBN 978-603-91686-3-8



تصميم الغلاف : أحمد الصباغ

أثر